صانع الملائكة

شتيفان بريجس

ترجمة: محمد عثمان خليفة

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

صانع الملائكة

صانع الملائكة
شتيفان بريجس
ترجمة: محمد عثمان خليفة

الطبعة الأولى: 2016
رقم الإيداع: 2016/9652
الترقيم الدولي: 9789773192761

الغلاف: خالد شريف
مراجعة لغوية: محمد حامد بكر
تحرير: هدى فضل
© **جميع الحقوق محفوظة للناشر**
60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت: 27921943 – 27954529 **فاكس:** 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

De engelen maker © 2005 by Stefan Brijs
Originally Published by Uitgeverij Atlas Contact, Amersterdam.

Translation of this book is funded by the Flemish Literature Fund (Vlaams Fonds Voor de Letteren – www.flemishliterature.be)

Flemish Literature Fund

شتيفان بريجس

صانع الملائكة

رواية من بلجيكا

ترجمة: محمد عثمان خليفة

العربي للنشر والتوزيع

بطاقة فهرسة

بريجس، شتيفان

صانع الملائكة: رواية من الأدب البلجيكي/ تأليف شتيفان بريجس، ترجمة محمد عثمان خليفة.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع ، 2016

ص؛ سم.

تدمك 9789773192761

1- القصص البلجيكية

أ- عثمان خليفة، محمد (مترجم)

ب- العنوان 839.313

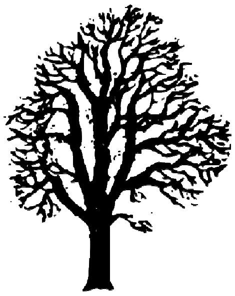

الجزء الأول

1

ما زال بعض أهالي "فولفهايم" يؤكدون حتى يومنا هذا أنهم قد سمعوا بكاء ثلاثة رُضَّع في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة قبل أن يسمعوا محركها وهي تتحرك عبر القرية. وعندما توقفت سيارة الأجرة أمام منزل الطبيب العجوز في البناية رقم 1 بشارع "نابوليون"، توقفت النسوة القرويات فورًا عن كنس مداخل منازلهن، وخرج الرجال من كافيه "تيرمينوس" وهم لا يزالون يحملون كؤوس البيرة، وتوقفت الفتيات عن لعب الحجلة، بينما تعثَّر "لانكي ميكرز" في ساحة البلدة وفقد الكرة لصالح "جونتر فيبر"، الأصم منذ مولده، والذي بادر فسدد كرة قوية لتتجاوز "سيبه"، صبي الخبَّاز، والذي كان شاردًا ينظر في الاتجاه الآخر. كان هذا في الثالث عشر من أكتوبر عام 1984، ظهيرة يوم السبت. دقَّ جرس ساعة البرج ليعلن تمام الساعة الثالثة مساءً.

نزل الراكب من سيارة الأجرة، وأول ما لفت أنظار الجميع هو ذلك اللون الناري الذي يميِّز شعره ولحيته.

سارعت "برناديت ليبكنخت"، الورعة التقية، برسم الصليب على نفسها، بينما وضعت "جولييت بليروت"، التي تسكن على بعد بضعة بنايات في الشارع نفسه، يدها على فمها وهي تردد:

- يا إلهي، إنه صورة طبق الأصل من أبيه.

قبلها بثلاثة أشهر، كان أهالي تلك البلدة البلجيكية – الملاصقة لنقطة التقاء حدود الدول الثلاث، والتي تقع منذ القِدَم بين حدود مدينة "فالز" الهولندية من ناحية، وبلدة "آخن" الألمانية من ناحية أخرى – قد عرفوا بأن عودة "فيكتور هوب" وشيكة. وبادر

الموظف النحيف من مكتب "رينارد العدلي" في "أوبين" فذهب ليرفع لافتة "للإيجار" القديمة المصفرَّة من أمام البوابة الأمامية للمنزل المهجور، وأخبر "إرما نوسبوم"، التي تقطن المنزل المقابل، أن "السيد الطبيب" ينوي العودة إلى "فولفهايم". ولم يعقِّب الموظف بأكثر من ذلك؛ فهو لا يعرف حتى موعد وصوله.

تحيَّرت القرية في سبب قرار "فيكتور هوب" العودة إلى "فولفهايم" بعد غياب دام عشرين عامًا. آخر ما عرفوه عنه هو أنه يمارس الطب في "بون"، ولكنها معلومات قديمة عمرها عدة سنوات، وهكذا خرج أهل القرية بنظريات كثيرة لأسباب عودته. فهناك من قال إنه بلا عمل، وآخر يرى أن السبب هو أنه مثقلٌ بالديون؛ بينما ظنّ "فلورنت كنينج" من شارع ألبرت أنه لا غرض لتلك العودة سوى تجديد المنزل تمهيدًا لبيعه، بينما فسَّرت "إرما نوسبوم" عودة الطبيب بأن لديه عائلة ويريد أن يعيش بعيدًا عن صخب المدينة. وتبيَّن أن تفسير "إرما" كان الأقرب إلى الحقيقة، رغم أنها بادرت فأقرت بأنها قد فوجئت مثلها مثل غيرها حينما عرفت أن "دكتور هوب" قد أضحى الآن أبًا لثلاثة توائم مشوَّهة جاءوا إلى هذه الدنيا منذ بضعة أسابيع فحسب.

كان "لانكي ميكرز" هو من اكتشف هذه الحقيقة المقلقة في تلك الظهيرة. فبينما ترجَّل سائق سيارة الأجرة ليساعد "فيكتور هوب" في فتح البوابة الصدئة، اقترب "ميكرز"، الذي جذبه ذاك الصراخ المتواصل للرُّضَّع ليلقي نظرة من خلال النافذة الجانبية. على أن ما رآه ذلك الصبي الهزيل في المقعد الخلفي للتاكسي أخافه لدرجة أنه فقد الوعي، ليكون بذلك أول مرضى الطبيب العائد. أعاده الطبيب إلى وعيه ببضع صفعات خفيفة خبيرة على خدِّه، ففتح "لانكي ميكرز" عينيه، وتحرك جفناه، وحدَّق وراء الطبيب ناحية السيارة، ونهض متثاقلًا وأسرع نحو أصدقائه من دون أن يلتفت خلفه ولو مرة. وما إن وصل إلى "روبرت شيفالييه"، زميل الفصل ضخم البنية، حتى استند إلى كتفيه حتى لا يفقد اتزانه ثانيةً، ووضع يده الثانية على الكتف اليسرى لصديقه "جوليوس روزنبوم"، الأصغر منه بثلاثة أعوام، والأقصر منه بشبرين.

سأله "سيبه"، صبي الخباز الذي كان يقف قبالة أصدقائه واضعًا الكرة الجلدية تحت ذراعه:

- ما الذي رأيته يا "لانكي"؟

كان ينظر نحو "جونتر فيبر" الأصم حتى يتمكن من متابعة ما يقال من حوله.

صاح " لانكي ميكرز":

- إنهم...

إلا أنه جزع ثانيةً، وسكت.

لكز "روبرت شيفالييه" "ميكرز" بكتفه، وهو يصيح فيه:

- دعك من هذا الجبن! وما قصدك بـ"هُم" هذه؟ هل هناك أكثر من واحدٍ هناك؟

أجابه "لانكي ميكرز" متلعثمًا، وهو يرفع في وجهه نفس عدد الأصابع:

- ثلاثة. هناك ثلاثة.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه "جونتر"، وسأله بلسان ألثغ:

- ثلاث فتيات؟

- لا يمكنني التيقن من هذا. ولكن ما رأيته...

انكمش بجسده نحو الأرض، وهو يتطلع نحو دكتور "هوب" والسائق وهما يفتحان البوَّابة، وأشار إلى أصدقائه الأربعة أن يقتربوا منه. قال لهما ببطء:

- رؤوسهم... رؤوسهم مشقوقة.

أعقب كلماته بأن حرَّك راحة يده اليمنى في وضع السيف على جبهته مُمَرِرًا إيَّاها على أنفه وحتى أسفل ذقنه. وأطلق صوتًا "واك!" أضفى به مؤثرًا صوتيًّا على حركته.

تراجع "جونتر" و"سيبه" خطوة مذهولَيْن، بينما بقي "روبرت" و"جوليوس" محدِّقين في وجه "لانكي ميكرز" ورأسه الضئيل، وكأنما ينتظران أن ينشطر بدوره إلى نصفين.

- أقسم لكم؛ رؤوسهم مشقوقة حتى الحلق. أقسم بالربِّ... يمكنكم رؤية أمخاخهم.

سأله "جونتر" الأصم:

- أمــ... ماذا؟

- أمخاااخهم!

كرَّر "لانكي ميكرز" وهو ينقر بسبَّابته على جبهة الصبي الأصم.

- يَعْ!

بينما سأل "روبرت":

- وكيف تبدو أمخاخهم؟

- مثل حبة عين الجمل... أكبر قليلًا... ولزجة.

ارتعد "جوليوس" وهو يصيح:

- يا للمسيح.

تفاخر "لانكي ميكرز" وهو يقول:

- لولا أن النافذة كانت مغلقة لكنت قد خطفتهم... هكذا.

بأفواه فاغرة، تَتَّبع الصبية حركة يده التي ضمَّها كأنها مخلب. غير أن اليد تحرَّكت للأمام بغتةً، وهي تشير وتوجِّه أعين الصبية تجاه سيارة الأجرة، على بعد حوالي ثلاثين مترًا من مكانهم. فتح "فيكتور هوب" الباب الخلفي، وأدخل جسده إلى داخل السيارة، وبعد ثوانٍ خرج وهو يحمل سرير أطفال لونه أزرق داكن، ومن داخله ارتفع صوت بكاء رهيبٍ. حمل السرير من مقبضيه، وتوجَّه نحو المنزل، ومن خلفه السائق، الذي كان يكابد في حمل حقيبتي سفر كبيرتين. عمَّ الهرج، وساد الفضول ساحة القرية؛ بينما خرج السائق بعد مرور دقيقتين أو ثلاث، وهو يجذب البوابة من خلفه ليغلقها، وأسرع إلى سيارته، وانطلق بها مسرعًا وهو تبدو عليه راحة ظاهرة.

في مقهى "ترمينوس" ذلك المساء، أصغت الآذان جميعها إلى "جاك ميكرز". حكى لهم بكل تفصيل ما رآه ابنه، من دون أن يتورَّع أن يضيف على القصة الكثير من

المبالغات حتى يزيدها تشويقًا. كان عجائز القرية الأكثر إصغاءً، وخاصة أنهم قد أمَّنوا على الكلام بالتأكيد أن "فيكتور هوب" قد ولد بتشوُّهٍ خلقي في الوجه هو الآخر.

بادر "أوتو ليلو":

- شفة مشقوقة.

فتذكَّر "إرنست ليبكنخت":

- مثل والده. إنه صورة طبق الأصل منه.

ضحك "ويلفريد نوسبوم" وهو يقول:

- هو أشبه بصنبور صدئ. ألم تروا شعره؟ وتلك اللحية؟ حمراء مثل...مثل...

باغتهم "جوزيف زيمرمان" الأعور صائحًا:

- مثل شعر الشيطان!

هنا خيَّم الصمت على المقهى. وتسمَّرت الأعين على العجوز السكران، الذي كان يشير بإصبعه إلى وجوههم، وهو يعقِّب:

- وقد جلب معه ملائكة الانتقام! كونوا على حذرٍ، فسوف يضربون ضربتهم ما إن تُتَحْ لهم الفرصة.

وكأنما كانت كلماته هذه إيذانًا بتدفق فيضان من الذكريات، فكل واحدٍ منهم كانت لديه حكايته التي يودُّ أن يحكيها عن هذا الطبيب وغرابة أطواره. كل واحدٍ منهم يعرف قصة عنه أو عن أبويه، وكلما تأخَّر الوقت، كانت خيوط تلك الحكايات المتبادلة فيما بينهم تزداد حبكة. أغلب تلك الحكايات محض خرافة، ولكن لم يبدُ أن أحدًا على استعداد الآن للتشكيك في صحتها.

"لقد تربَّى في ملجأ".

"ورث هذه العاهة عن والدته. ماتت مجنونة".

"عندما كان الأب "كايزغربر" يقوم بتعميده صرخ الطفل قائلًا: "قاتل لعين".

"يقولون إن أباه... تعرفون قصدي... خرج من الشجرة المجاورة لمنزله".

"لم يحضر ابنه جنازته".

"لم يره أحد بعدها أبدًا".

"لم يؤجِّر المنزل إلا مرة واحدة. وسرعان ما غادره المستأجرون بعد ثلاثة أسابيع".

"أرواح شريرة. هكذا قالوا. كان هناك طرق متواصل لا يتوقف".

كان دكتور "هوب" يخرج، على مدار الأسابيع التي أعقبت عودته، في مشاوير بالقرية. وكان يقوم بذلك في أوقات محددة لا يغيرها. بل يمكنك أن تضبط ساعتك على توقيت خروجه. صباح كل اثنين وأربعاء وجمعة، عند الساعة العاشرة والنصف بالثانية، وفي نفس المسار، من البنك بشارع "جالمي"، ثم إلى مكتب البريد في شارع "آخن"، وبعدها إلى بقالة "مارثا بولين" قبالة ساحة القرية. ينتقل من مكان إلى الآخر بسرعة، محني الرأس سريع الخطوات، وكأنما يعلم أنه مراقب، ويتمنى لو انتهى من مشاويره وعاد إلى منزله في لمح البصر. على أن هذه السرعة كانت سببًا في لفت المزيد من الأنظار إليه. فكان أهل القرية يعبرون الشارع ويراقبونه من الرصيف المقابل حتى يغيب عن أنظارهم.

وحكت كل من "مارثا بولين" البقَّالة، و"لويس دينيس" صرَّاف البنك، و"أرثر بولانجر" موظف البريد، أن دكتور "هوب" قليل الكلام. وبدا لهم حييًا ودودًا على طريقته. لا يخاطبهم إلا بثلاث عبارات: "صباح الخير".. "شكرًا جزيلًا".. "إلى اللقاء" – مجاملات ينطقها بلسان ثقيل.

قال لهم "لويس دينيس":

- وكأنه يلتهم نصف الكلمات.

بينما قالت "مارثا":

- هناك خنف في صوته، ولا تتغير نبرة صوته. ولا ينظر إلى وجهي وهو يحدثني.

وعندما يسألونها عمَّا يبتاعه منها، لم تكن إجابتها تتغير:

- أوه، الأشياء العادية. حفَّاضات، حليب، مستحضرات، كورن فليكس، منظفات، معجون أسنان... أشياء من هذا القبيل.

غير أنها كانت تميل بجذعها عبر الكاونتر، وتغطي فمها بظهر كفها، قبل أن تعقب هامسة:

- كما أنه يبتاع علبتين من أفلام كاميرا البولارويد في كل مرة يأتي فيها إلى هنا. ما الداعي إلى أن يقوم أي إنسان بالتقاط هذا الكم من الصور لأطفاله وهم على تلك الحالة المزرية؟

لا يخفي الزبائن دهشتهم، ويشجعون "مارثا" على أن تحكي لهم أكثر. فتنهي كلامها بنبرة توحي بأن جريمة غامضة ما تجري:

- ودائمًا ما يدفع لي بأوراق من فئة الألف مارك!

برر "لويس دينيس" مصدر تلك الأوراق النقدية، وحكى لهم أن الدكتور يأتيه أحيانًا لتغيير ما معه من عملة بلجيكية بماركات ألمانية. وهو لم يفتح حسابًا بعد، وبالتالي فلا بد أنه يحتفظ بهذا المال في مكانٍ ما بمنزله.

ولأن دكتور "هوب" لم يبذل مجهودًا ليجذب المرضى إليه، كما لم يعلِّق لافتة عند البوَّابة تحدِّد ساعات العيادة، فقد حدث بعضهم أنه ينفق من مدخراته لا ريب. ولكن الأمر بدا وكأنه ينوي افتتاح عيادة في القرية على الرغم من كل شيء، فخلال الأسابيع الأولى له في القرية، وفي ثلاث مناسبات على الأقل، كانت تصل شاحنة من ألمانيا لتتوقف عند منزله وتسلِّمه تجهيزات طبية. ومن وراء ستارة مطبخها، تدوِّن "إرما نوسبوم" رقم السيارة وتوقيت التسليم، ونوعية الشحنة.

هناك أشياء تعرَّفت عليها فورًا، مثل سرير الفحص، وميزانين كبيرين، وحوامل المحاليل الطبية المعلَّقة، ولكنها لم تستطع التعرف على ما بداخل الصناديق الخشبية، فلجأت بالطبع إلى خيالها الواسع لترسم صورة لتلك الأغراض - شاشات، مجاهر، مرايا، قوارير، أباريق، وأنابيب اختبار. تدلي بتقرير عن كل طلبية إلى نسوة القرية. إلى

أن حل صباح يوم قارس البرودة من أيام بدايات يناير، شاهدت خلاله جارها وهو يفرِّغ صندوق البريد مرتديًا معطف مختبرات أبيضَ ومن حول عنقه تتدلى سماعة طبية، فسارعت تخبر الكل بأن عيادة الدكتور "هوب" قد افتُتِحَت رسميًّا.

اعترف بعض أهل القرية بشجاعة بأنهم ينوون عرض أنفسهم على الطبيب – حتى ولو من باب الفضول وإلقاء نظرة على أطفاله، وخاصة أن أحدًا لم يرهم طيلة الأسابيع الماضية، حتى أضحى وجودهم لغزًا أكبر من الثالوث المقدس ذاته. ولكن أثناء قداس الأحد التالي الذي يقوم به الأب "كايزرجربر"، الذي ظل قسًا للأبرشية طيلة أربعين عامًا تقريبًا، أقلق حتى أقوى المشككين في الدين.

صاح من منبره، وهو يلوح محذرًا بسبابته:

- احترسوا، أيها المؤمنون. خذوا حذركم، من التنين الكبير، الأفعى القديمة، التي اسمها الشيطان، التي اسمها إبليس، الذي يشتت شمل العالم كله! أقول لكم إنه قد نُفي إلى هنا، إلى الأرض، ومعه ملائكته الذين نُفيوا معه!

سكت قس القرية لبرهة، وترك عينيه تجول عبر قرابة المائتين من أبناء الأبرشية. ثم أشار بإصبعه نحو الصف الأول، حيث يجلس صبية القرية جنبًا إلى جنب مرتدين أبهى ما لديهم من ملابس، مهندمي الشعر، وحذرهم بصوتٍ راعدٍ:

- خذوا حذركم. كونوا متيقظين! فالشيطان، عدوكم اللدود، يجوب كل مكان كأسدٍ يزأر، يسعى لاصطياد فريسته!

لاحظ كل من في الأبرشية أنه كان يتحدَّث بجملته الأخيرة هذه وهو يشير بإصبع مرتجفة مباشرة ناحية "لانكي ميكرز"، والذي شحب وجهه حتى صار أشبه بورقة بيضاء. ولم يجرؤ الصبي على الظهور في ميدان القرية لعدة أيام بعدها.

2

لم تقع الكوارث التي تنبأ بها أهل "فولفهايم". ففي الأشهر التي أعقبت عودة دكتور "هوب" لم يشهد القرويون حالات وفاة أو حوادث أو حتى "خناقات جيران"، ولا وقائع سرقة أو غيرها من القلاقل. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد حلَّ الشتاء معتدلًا للمرة الأولى منذ سنوات، والربيع، بدوره، كان أكثر دفئًا من المعتاد، حتى إنه بحلول الأسبوع الأخير من شهر أبريل كانت الزهور بجانب كنيسة ماريا قد وصلت بالفعل إلى طور الإزهار الكامل؛ وهو ما اعتبره كثير من الأهالي فأل خير.

وبقي دكتور "هوب" مخلصًا لروتينه طوال هذا الوقت، فكان ينجز مشاويره ثلاث مرات في الأسبوع. ولم يره أحد بصحبة أطفاله الصغار. لم يرهم أو يسمعهم أحد، لا عند النافذة، ولا في الحديقة – حتى مع حرص بعضهم على إلقاء نظرة بين الحين والآخر من خلال السور المحيط بالمنزل والذي تنمو عليه شجرة الجهنمية. وهكذا، سرعان ما بدأ البعض يتساءل عما إذا كان "لانكي ميكرز" قد اختلق هذا الأمر كله من الأصل، ومن منزل إلى آخر بدأ يتكون إجماع على أن الدكتور يستحق أن يعطيه الناس فرصة. ولكن لم يجرؤ أحد على أن يتخذ الخطوة الأولى. إلى أن كان يوم أحد من شهر مايو 1985، عقب عودة الدكتور بسبعة أشهر، قصده أحد القرويين طلبًا للمساعدة، وإن كان مجبرًا على طلبها.

فقرب ظهيرة ذاك الأحد، أخرج "جورج باير"، وهو طفل رضيع يعاني من الربو ويقيم في 16 شارع "جلامي"، بلية برتقالية اللون من جيبه، والتي كان قد عثر عليها منذ بضعة أيام في أرض الملعب. أخذ الصغير يلعقها أولًا ، وبينما كان والده جالسًا على الأريكة يقلِّب صفحات جريدة الأحد، وبينما كانت أمه في المطبخ تطهو البطاطس، دسَها في فمه. ترك

"جورج" البلية تدور حول لسانه مثل قطعة حلوى، من اليسار إلى اليمين، ومن الأمام إلى... حتى وجدت البلية طريقها إلى حلقه، وعلقت في قصبته الهوائية، ولم تتحرَّك، مهما سعل "جورج" الصغير بكل قوة حتى تخرج. وحاول والده بدوره أن يخرج البلية – خبط على ظهر الطفل عدة مرات، ثم دسَّ إصبعين في حلقه ليتصيد البلية، بلا جدوى. وخطر له بغتة أن يتصل بالدكتور "هوب"، حتى ولو اضطر إلى بيع روحه للدكتور.

ولم تمضِ دقيقتان حتى كانت سيارة "فيرنر" و"روسيتا باير" تتوقف أمام منزل الدكتور. سحب "فيرنر" ولده بسرعة من حضن أمه وهرع نحو البوابة، وهو يصيح بكل قوة:

- دكتور! الحقني! دكتور! الحقني أرجوك!

بدأت ستائر المنازل المجاورة تتحرك، وهرعت مجموعة من الجيران إلى الخارج. بينما لم يبدُ أن هناك حيًا يسمع تلك الصيحات داخل منزل "دكتور هوب"، ولم يكن أمام "فيرنر" سوى أن يزيد من قوة صراخه، وهو يرفع جسد ابنه المستسلم عاليًا في الهواء، وكأنما يقدمه قربانًا لأهل المنزل. عندئذٍ، ظهر دكتور "هوب" أخيرًا عند عتبات المنزل، وأدرك من فوره أن الأمر خطير، فركض نحو البوابة وسلسلة مفاتيح في يده. بادره "فيرنر" في جزع:

- هناك شيء ما عالق في حلقه. لقد ابتلع شيئًا.

تناول دكتور "هوب" "جورج" الصغير من بين ذراعي والده، يراقبه أربعة أو خمسة من المارة. كانت أعين الجيران الفضوليين معلقة على الرأس حمراء الشعر التي مالت نحو الطفل أكثر من اهتمامها بوجه الطفل المزرق المختنق نفسه. ومن دون أن ينبس ببنت شفة، لف الدكتور ذراعيه بقوة حول جذع الطفل الغائب عن الوعي من الخلف، وعقد يديه ثم، وبضغطة قوية على صدر الطفل النحيف، أخرج ما كان عالقًا في حلق الطفل المسكين. سقطت البلية فوق الرصيف وتدحرجت إلى أن توقفت عند قدمي "لانكي ميكرز"، الذي كان واقفًا بين المتفرجين.

أراح دكتور "هوب" الطفل أرضًا على ظهره، وجثا إلى جواره وضغط بفمه على فم الطفل. ندت صيحة أو صيحتي دهشة من الواقفين. وكانت أم "جورج" تبكي، بينما رسمت "إرما نوسبوم" علامة الصليب وبدأت تتلو صلوات بصوت عالٍ.

هناك من الواقفين من خشي أن ينظر إلى ما يحدث، واكتفى بأن ينصت بأذنيه إلى الدكتور وهو ينفخ الهواء بفمه إلى رئتي الطفل. كانت "إرما" تتوسَّل بصوتها العالي إلى القديسة "ريتا" حينما ارتجف جسد "جورج" بغتة وبدأ يشهق ويلهث طلبًا للهواء.

تنفَّس الكل الصعداء، ومعهم "روسيتا باير" التي هرعت إلى جوار ابنها، ورفعته إلى حضنها. "أوه، ابني، ابني الصغير". مسحت لعاب ابنها عن خدِّه.

نهضت ومعها صغيرها، وأسندت رأسه إلى كتفها، ونظرت بعينين دامعتين إلى دكتور "هوب"، الذي تراجع عدة خطوات إلى الخلف، وكأنما ينوي العودة إلى داخل منزله.

- شكرًا لك يا دكتور، لقد أنقذت حياته.

- تحت أمرك.

كانت كلمتان فحسب، ولكن تأثيرهما وقع على الجمع كطعنة سكين. بقوا مذهولين. لم يدرِ أحد إلى أين ينظر أو كيف يتصرف. وكسر والد "جورج" هذا الصمت المعتذر قائلًا:

- دكتور، بِكَمْ أنا مدين لك...

- لا شيء، سيد...

- "باير"..."فيرنر باير".

مدَّ يده، ثم سحبها، ثم مدَّها ثانيةً، بعدما لكزته زوجته في ظهره خلسةً.

- لا شيء، سيد "باير"، لا شيء.

صافحة الدكتور سريعًا، وهو ينظر إلى الجهة الأخرى في حياءٍ.

- ولكني أودُّ أن أعرب عن شكري لك – بطريقة أو بأخرى- على الأقل دعني أدعوك إلى تناول الشراب في "تيرمينوس".

أومأ "فيرنر" برأسه تجاه المقهى المقابل للكنيسة. إلا أن دكتور "هوب" هزَّ رأسه وداعب شعر لحيته الأحمر الأشعث في عصبية. ولكن "فيرنر" بقي على إصراره:

- أوه، دكتور، فقط شراب بسيط. على حسابي. إنني أدعوكم كلكم!

ارتفعت أصوات الاستحسان، وبادر الباقون بدورهم في إقناع الدكتور. استغل "لانكي ميكرز" فرصة هذا الانشغال البهيج وانحنى ليلتقط البلية، ودسَّها سريعًا في جيب سترته. ثم صاح بدوره:

- أجل، دكتور، لنشرب احتفالاً بهذا! في صحة المعجزة! يعيش دكتور "هوب"!

مضَت لحظات سكت خلالها الجميع في حيرة، ولكن "جورج" الصغير رفع رأسه عن كتف أمه وتلفَّت حوله بعينين دامعتين. فلم تتمالك "إرما نوسبوم" نفسها وصاحت:

- أجل، كم هذا رائع! إنها معجزة! يعيش الدكتور "هوب"!

وكأن صيحتها هذه تعويذة بددت كل ما تبقى من توتر، فتعالت الصيحات والهتافات المبتهجة المماثلة.

إلا أن الدكتور هزَّ رأسه متأسفًا، وقال بصوت واضحٍ وسط هذا الهرج:

- لا أستطيع، آسف. أطفالي، إنهم...

قاطعه "فيرنر":

- لتحضر أطفالك معك! جرعات من الجين تجعلهم أقوى وأكبر! كما أننا سنسعد لرؤيتهم، أخيرًا.

أومأ بعضهم في استحسان للفكرة؛ بينما كتم الباقون أنفاسهم، منتظرين ردَّ الدكتور.

- أنا... امنحني خمس دقائق، سيد "باير". عليَّ أن أعتني ببعض الأمور أولًا. اسبقوني أنتم وسوف ألحق بكم سريعًا.

دار الدكتور على عقبيه سريعًا وتوجَّه إلى بالباب عبر ممر الحديقة. عاد بعضهم إلى منازلهم، ولكن الغالبية ذهبت إلى المقهى، الذي سرعان ما امتلأ عن آخره، وكان على "ماريا"، ابنة "رينيه موريسنيه" صاحب المقهى، أن تحضر لتساعد والدها.

راقب "جوزيف زيمرمان" الواقعة كلها وهو جالس إلى طاولته عند نافذة المقهى، وحينما اقترب منه "فيرنر باير" وأخذ يمتدح الدكتور ويثني عليه هزَّ العجوز رأسه، وجرع كأس الجين مرة واحدة، قبل أن يصيح فيه:

- الرب وحده يصنع المعجزات!

سكت "فيرنر" من فوره، وكان كأس الجين على حسابه كافيًا ليعدل مزاج "زيمرمان"، فتمتم ببعض كلمات أخيرة غير مسموعة ثم سكت. كان روَّاد المقهى يسكتون عن الكلام وينظرون في كل مرة ينفتح فيها الباب. ولكن سرعان ما يجدون أنه قروي آخر سمع بالخبر حالًا.

ويكون على "فيرنر" أن ينادي في كل مرة من موضعه عند البار:

- "رينيه"، صب كأسًا للرجل.

ازداد الترقب دقيقة تلو الأخرى، وحينما دلف "جاكوب فاينشتاين"، راعي الكنيسة بالقرية، إلى المكان وصاح بأنه قد رأى الدكتور يغادر المنزل حاملًا عربة أطفال، انعقدت الرهانات على عجل: رهانات على نوع الأطفال، وألوان الشعر، ولكن الرهانات الأهم كانت على أبعاد الشق في وجه كل طفل منهم.

قال "لانكي ميكرز" لوالده، الذي يدوِّن بقلمه على قاعدة ورقية لكؤوس البيرة:

- اكتب عندك: ثمانية عشرة سنتيمترًا. أنا متأكد، بابا! لو كنت مكانك لراهنت بعشرين فرنكًا على هذا!

- لو خسرت فلسوف أخصم هذا المبلغ من مصروفك.

قالها له أبوه قبل أن يدوِّن الرهان بسرعة ويناول الساقي القاعدة الورقية ومعها قطعة نقود بفئة عشرين فرنكًا.

دخل دكتور "هوب"، الذي استبدل معطفه الطبي بمعطف طويل رمادي اللون، إلى مقهى "ترمينوس" بظهره، فكان أول شيء رآه القرويون منه هو ظهره المحني، ومن بعد ذلك لمحوا عربة الأطفال زرقاء اللون التي كان يحملها بحذر. لم يبادر أحد لمساعدته، رغم أن الكل كان يرى بنفسه ما يواجهه من صعوبة في الدخول بالعربة عبر الباب. وإلى أن نجح في النهاية في الدخول وبدأ ينظر حوله بحثًا عن مكان مناسب لحمله الثقيل، عندئذٍ تقدَّم "فيرنر باير" نحوه، ورفع في سرعة بعض الأكواب عن إحدى الطاولات ثم أشار برحابة صدر إلى سطح الترابيزة الخاوية. أما "فلورينت كيننج"، الذي كان يجلس إلى تلك الترابيزة، فسارع بالانتقال إلى أخرى.

- هنا، ضعها هنا.

- أشكرك.

ومجددًا، أدهش الصوت السامعين. واقترب فم والد "لانكي ميكرز" من أذن "جاكوب فاينشتاين" هامسًا:

- هذا بسبب الشفة المشقوقة. هي ما تجعل قدرًا أكبر من اللازم من الهواء يدخل فمه.

أومأ راعي الكنيسة برأسه، رغم أنه بالكاد فهم من همس الرجل أي شيء. وواصل التحديق في كل حركة للدكتور وهو يريح العربة على الترابيزة ويهم بإزاحة الستار البلاستيكي الواقي من المطر عنها. سأله "فيرنر":

- أي شراب أطلبه لك، سيدي الدكتور؟

- ماء.

- حقًا، ماء؟

أجابه الدكتور برأسه أن نعم.

- "رينيه"... كوب ماء للدكتور. طيب ولأجل، أوه...

كان يشير نحو السلة في شكٍّ وحذرٍ.

- إنهم لا يحتاجون أي شيء.

وكأنما ارتأى أن هناك ضرورة للتعليل، أردف:

- إنني أعتني بهم بنفسي.

أجابه "فيرنر"، رغم أن الكل أدرك ذلك الثقل في كلماته:

- أوه، أنا متيقن من هذا.

الكل، ما عدا الدكتور، الذي لم يبدِ أي رد فعل. انحنى على العربة، مزيحًا الستار، ثم فكَّ الغطاء ونزعه. تراجع الناظرون الأقرب إليه خطوة غريزية إلى الوراء. وحدهم القرويون الواقفون بعيدًا هم الذين وجدوا في أنفسهم الجرأة لكي يحدِّقوا مباشرة في المهد، بل والوقوف على أطراف أصابعهم؛ غير أن أحدًا لم يتمكن من رؤية ما في الداخل.

وقف الدكتور في صمت إلى جوار العربة، وجسده يتمايل قليلًا على قدميه.

خيَّم صمتٌ غريب على المكان، باستثناء صوت مروحة السقف القديمة، وشعر "فيرنر" أن كل الأعين مسلَّطة عليه.

صاح فيه "رينيه موريسنيه":

- ما بك يا "فيرنر"؟ قدِّم للدكتور شرابه.

قدَّم الساقي كوب الماء. وراقب الكل "فيرنر" وهو يناول الدكتور الكوب، قبل أن يقبله الأخير في أدبٍ. تنحَّى قليلًا ليخلي مكانًا جوار العربة:

- شكرًا جزيلًا لك. تعالَ، تفضَّل بالجلوس معي، سيد "باير".

تقدَّم "فيرنر" خطوة مترددة إلى الأمام، وهو يعلِّق:

- إنهم هادئون للغاية. أهم نائمون؟

رمق الدكتور العربة، وأجابه:

- أوه، كلَّا. إنهم مستيقظون.

مال "فيرنر" بجسده للأمام بحذرٍ؛ كان يحاول أن يلقي نظرة على رؤوس الأطفال:

- أوه، بنات؟

- كلَّا، ثلاثة أولاد.

- ثلاثة أولاد.

ردَّد "فيرنر"، وهو يبلع لعابه بصوت مسموع. اقترب أكثر إلى جانب المهد.

- ما أسماؤهم؟

- مايكل ...جابرييل... رفاييل.

سرت همهمات في أرجاء المقهى، وصاح "فريدي ماكون" بنبرة صوت أعلى بكثير مما قصدها:

- ملائكة الانتقام!

كان الحرج واضحًا جدًا على محيًّا دكتور "هوب". وحتى يداري حرجه، أخذ رشفة من كوب الماء.

لم يسمع "جاكوب فاينشتاين" صيحة "ماكون"، ولكنه علَّق بدوره بطريقة أراد منها أن يستعرض معارفه الدينية:

- على أسماء الملائكة الحرَّاس، أليس كذلك يا دكتور؟ رسل الرب.

أومأ الدكتور، ولم يعقِّب.

كان "فيرنر" لا يزال يرتجف بعصبية إلى جوار المهد:

- كم عمرهم الآن، دكتور؟

- قرابة الأشهر التسعة.

حاول "فيرنر" أن يتذكَّر شكل ابنه وهو في مثل ذلك العمر – كم كان حجمه؛ وهل كانت لديه أسنان؟

مال "فيرنر" ببطء، يداه خلف ظهره وعيناه مغمضتان، وقد امتعض وجهه وكأنه يقضم الصبار. راقب "رينيه مورسنيه" من خلف البار و"فيرنر" يفتح عينًا ثم الأخرى. حدَّقت عيناه في داخل العربة مرتين، من كل الجوانب.

ثم هشَّ وجهه، وصاح وكأنه يتنفَّس الصَّعداء:

- رائع! الثلاثة يشبهون بعضهم البعض تمامًا!

تمتم دكتور "هوب":

- تمامًا. ولم يظن أحد أن باستطاعتي فعلها.

ضحك البعض، غير أن وجه الدكتور بقي على جديته، فبدأ البعض يتساءل عمَّا إذا كان يمزح أم أنَّه جادٌّ بالفعل.

لم يلحظ "فيرنر" أيًا من ذلك؛ فقد كان مشغولًا بتشجيع الواقفين على الاقتراب من الترابيزة:

- تعالوا، سيفوتكم مشاهدة هذا!

خرج "رينيه مورسنيه" من وراء البار، وهو يدفع "ويلفرد نوسبوم" أمامه. ولَّما اقترب الاثنان من العربة وأبديا نفس رد الفعل المتحمس شعر بقية القرويين أن الجوَّ أمان. تدافعوا واقتربوا، وارتفعت صيحات الـ "آآآآه" والـ"أوووه"، وتأوهات الإعجاب، بينما كل منهم يحاول أن يلمح شيئًا من الأطفال داخل العربة.

كان أول ما لاحظه الكل هو طريقة وضع الدكتور لأطفاله داخل العربة، لكونها لم تعد تسعهم في الوضع الطبيعي. فقد كان اثنان منهما راقدين ورأساهما عند مقدمة العربة، ملاصقان لجانبيها. أما الثالث فكان راقدًا ورأسه عند مؤخرة العربة، وقدماه بين رأسي أخويه. علَّق "فريدي ماكون":

- كأنَّهم في علبة سردين.

لم تكن هناك بطانية، ولكن والدهم حماهم من البرد بإلباسهم غيارات صوفية خضراء اللون تغطي كلًّا منهم من العنق وحتى أخمص القدمين. الغيارات الثلاثة

متشابهة، ويميزها قارب شراعي على الجيب الأيسر فوق الصدر، غير أن أغلب الحاضرين لم يلحظوا ذلك إلا عندما بدأوا يمعنون النظر في وجوه الصغار، وتيقنوا من أنها لا تحمل أي علامة على وجود ذلك الشق الفظيع الذي وصفه لهم "لانكي ميكرز". كل ما رأوه هو أن الشفة العلوية لكل طفل بها علامات غرز، تركت ندبة مماثلة لتلك التي على وجه الدكتور، والتي تصل حتى أنفه الأفطس. رؤوسهم ضخمة – وصفها "رينيه مورسنيه" لاحقًا بأنه قد اعتقد في أول الأمر انهم يرتدون خوذات – تتناثر فوق كل منها خصلات شعر خفيفة بلون الزنجبيل، ولكنها لم تغطِّ بعد الجمجمة بالكامل. لقد ورثوا كذلك عيني والدهم الرمادية التي تميل للزرقة، ولون بشرته الشاحب. كانت بشرة وجوههم وجباههم مترهلة، تمامًا كبشرة أيديهم.

همست "ماريا مورسنيه"، أم رضيعين توأم أنجبتهما من علاقة غير شرعية:

- بشرتهما جافَّة للغاية. لا بدَّ أن يستعمل صابون "زفيتسال".

على أي حال، اتفق الجميع على أن الأشقاء الثلاثة يبدون متشابهين إلى حدٍّ خارق للطبيعة، وأنهم بعيدون كل البعد عن أن يكونوا تلك الوحوش التي تخيَّلوها. كانوا صبيةً رضَّع لطافًا، وإن كان أحدٌ لن يجادلك لو أردت أن تنعتهم بالقبح. لكنَّ غالبية أهل البلدة، وخاصة الأمهات الشابات، لم يجدوا في مظهرهم ما يدعو إلى الامتعاض، بل الشفقة – على الرغم من أن أحدًا لم يجد في نفسه الشجاعة لكي يلمسهم، أو أن يمسح بيده على الشعر أحمر اللون أو أن ينطق بأسمائهم بصوت عالٍ، وكأن الناس جميعهم يخشون من أن قيامهم بذلك كفيل باستحضار قوة الملائكة التي يحمل الأطفال الثلاثة أسمائهم. تحلَّق القرويون حول المهد، ورؤوسهم تظهر فوق الثلاثة مثل البالونات. والكل ينتظر من الرُضَّع الانتباه والتفاعل معهم، الآن بعد أن وجدوا أنفسهم فجأةً وسط كل هذا الاهتمام بعد أشهر عديدة من الحبس، لكنهم كانوا مخطئين للأسف. فلم يُظهر الأطفال أي رد فعل. وقرر المتفرجون أنهم مستغرقون في كل تلك الأشياء الجديدة التي يشاهدونها من حولهم، لأنهم لم يتجاوبوا حتى مع من يداعبهم برسم ملامح مضحكة على وجهه أو مع من يخطابهم بتلك الكلمات التي يعتقد أن الرُضَّع وحدهم يفهمونها... جاجا... جاجا ...بولي... بولي... بول!

همس "رينيه مورسنيه":

- كأنهم مخدَّرون.

وبعدما نال كل واحد نصيبه مع عربة الأطفال، اقترب "لانكي ميكرز" ووالده ليلقيا نظرة.

لكز الأب ابنه في صدره وهو يقول له هامسًا في سخطٍ:

- ثمانية عشرة سنتيمترًا، أيها المعتوه؟!

دبَّ مرح صاخب في من حولهما، قبل أن يسارع بتغيير الموضوع وهو يلتفت نحو الدكتور:

- أيمكنهم الكلام؟

ردَّت عليه "ماريا مورسنيه" بسخريةٍ من وراء البار:

- في سن التسعة أشهر، بالتأكيد لا!

غير أن دكتور "هوب" أومأ برأسه وهو يقول باقتضاب:

- بل يمكنهم، منذ أن كانوا في سن ستة أشهر.

عندئذٍ نظر "ميكرز" إلى الجميع بانتصارٍ:

- أرأيتم؟ لقد كنت على حق!

سألته "ماريا" متشككة:

- حقًا؟ في تلك السن المبكرة، دكتور؟

- يتحدثون الفرنسية والألمانية.

عندئذٍ ضحكت "ماريا":

- لا بدَّ أنك تمزح.

لكن الدكتور لم يكن يمزح. بل بدا عليه الشعور بالإهانة نوعًا ما، وهو يتجه نحو العربة ليحملها:

- عليَّ أن أرحل الآن.

فاقترح "رينيه مورسنيه":

- ألا ترغب في شراب آخر، دكتور؟

رفض الدكتور عرضه بإيماءة من رأسه، وهو يغطي العربة.

في تلك اللحظة باغته سؤال من بقعة ما عند البار، من شخص بقي ساكتًا طوال الوقت. سأله وهو يتنحنح ليعلو صوته أكثر:

- دكتور؟... دكتور؟ هل تمانع لو ألقيت نظرة على أبنائك؟

بوغت الدكتور. التفت ليرى صاحب الصوت. كان رجلًا مترهل الوجه، يحدِّق بعين واحدة، يجلس على ترابيزة عند النافذة.

- اسمي "جوزيف زيمرمان"، دكتور.

تصاعدت الهمهمات. بينما جابت عين "زيمرمان" السليمة أرجاء المقهى. وقال مخاطبًا الدكتور:

- هلَّا أحضرتهم إلى هنا لحظة؟ فكما ترى أنا غير قادر على المشي بسهولة على قدميَّ.

أشار برأسه نحو عكَّاز معلَّق على كرسيه.

- على الرحب، سيد "زيمرمان".

سكت كل من في المقهى، وحبس الجميع أنفاسه وهم يشاهدون الدكتور يحمل العربة ويتجه بها نحو تلك الترابيزة. اقترب من موضع جلوس "زيمرمان"، ووضع العربة على الأرض جوار الساقين الهزيلتين لذلك العجوز غريب الأطوار.

بادره "زيمرمان" وهو يحدِّق في ظهره المحني أمامه:

- أشكرك.

انتصب جذع الدكتور بعدما وضع العربة. كان العجوز يمعن النظر فيه بعينه الوحيدة، وقد بدا أن سوادها يملأ قرنيتها عن آخرها. بينما كانت عينه الأخرى مجرد شق أفقي تحيط به تجاعيد صفراء.

- كنت أعرف أباك وأمك.

وكأن العبارة لدغت ظهر الدكتور، الذي اختلج، ولكنه حاول أن يكبت تلك اللدغة.

- كان أبوك طبيبًا ماهرًا... لم يعد هناك الكثير من الأطباء المهرة الآن.

كانت لعبارته الأخيرة مغزى خبيث، غير أن دكتور "هوب" لم يعقِّب. بقي يحدق في العربة في صمتٍ. أمَّا "جوزيف زيمرمان" فتنهَّد وهو يميل ببطء نحو العربة.

- جميل... جميل... إنهم يشبهونك تمامًا.

سكت لحظة قبل أن يردف:

- إذا سمحت لي بالسؤال، ولكن أين أمهم؟

تبادل الواقفون خلف العجوز نظرات الدهشة.

هذا لأن الكل كان يطرح السؤال نفسه طيلة أشهر، ولكن أيًا منهم لم يمتلك شجاعة أن يوجِّه نفس السؤال إلى الدكتور.

لم يبدِ لهم أن دكتور "هوب" قد انزعج، كما لو أنه يتوقَّع مثل هذا السؤال. فقد أخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يجيبه:

- ليس لهم أم. ولم يكن لهم أمٍ في يومٍ من الأيام.

ارتسمت على وجه "جوزيف زيمرمان" كل حيرة الدنيا، قبل أن ينفضها عن وجهه وهو يقول:

- أنا آسف، دكتور، ولكنني لم أعرف أن...

في تلك اللحظة قرر الأطفال الإعلان عن وجودهم في هذه الدنيا. فانهمك الثلاثة وفي اللحظة نفسها في بكاءٍ شديدٍ، وبنفس الطبقة ونفس النبرة، حتى بدا وكأن البكاء يخرج من حنجرة واحدة، لا ثلاث حناجر. كانت طبقة بكائهم وصراخهم عالية لدرجة لم تتحملها أبدًا آذان السامعين. حتى إن "فاينشتاين" ثقيل السمع وجد نفسه يغطي أذنيه. تجاوب الدكتور بعصبية مع الصرخات، ولكنه لم يحاول إسكاتها أبدًا. فقط قام بحمل العربة عن الأرض وأعاد الغطاء البلاستيكي إلى مكانه. ثم أخذ طريقه بين الواقفين من حوله وعبر الترابيزات نحو الباب، محاولًا فتحه من دون جدوى. فهرع "فيرنر باير" نحوه وفتح له الباب على مصراعيه، وهو يومئ برأسه بعصبية. وبقي ينظر إلى الدكتور وهو يعبر الشارع، قبل أن يغلق باب المقهى، ويلتفت نحو "جوزيف زيمرمان" بنظرة نارية:

- أكان ينبغي عليك أن تقول له هذا؟ هل كان هذا ضروريًّا؟ لقد أنقذ حياة ابني بحق الإله"!

3

حسم أهالي القرية المترددون في قصد عيادة الدكتور "هوب" أمرهم في الأيام التي أعقبت واقعة "جورج باير"، وخاصة بعدما قصده الأب "كايزرجربر" لعلاج التهاب في المعدة. غير أن الأب قصد العيادة لسبب آخر خلاف مرض معدته المزمن هذا؛ فقد كان يتوق إلى إشباع فضوله. كما كان ضميره دافعًا إضافيًّا. فقد حدثت أمور في الماضي، وأراد أن يتأكد مما إذا كان الدكتور باقيًا على ذكراها أم لا.

- فيك الكثير من والدك.

هكذا أراد الأب للحوار أن يبدأ، بعدما استقبله الدكتور استقبالًا عمليًّا باردًا في غرفة الفحص. كانت الصناديق تشغل جانبًا كبيرًا من مساحتها، وفي المساحة المتبقية يوجد مكتب قديم وكرسيان.

ردَّ "فيكتور هوب" على الملاحظة بإيماءة جافة، ثم طلب منه أن يصف له الأعراض بكل دقة.

جرَّب الأب حظه مجددًا بعد برهة:

- كانت أمك مسيحية طيبة.

ومرة أخرى جاء الرد بإيماءة رأس خفيفة. ولكن الأب لاحظ هذه المرة مسحة تردد. فرأى أن تعليقه قد أحدث أثرًا ولو كان لا يذكر.

طلب الدكتور منه خلع ثوبه الكهنوتي. أطاعه، رغم أنه شعر وكأنه يخلع عنه درعًا تحميه من شرور الدنيا. ولذلك بقي طوال خضوعه للفحص يتلمس الصليب الفضي الصغير المعلَّق في عنقه، وكأنه يلوذ به من أي فكرة شريرة قد تخطر على بال الدكتور.

في تلك اللحظة وجد نفسه يقول للدكتور:

- عيد القديسة "ريتا" الأسبوع المقبل. والقرية كلها تحج إلى "تبة كالفاري" في "لا شابيل"، حيث دير "الأخوات كلير".

جسَّ الدكتور معدته، ضاغطًا ببعض القوة على المناطق التي توجع أكثر. صاح الأب متألمًا، ولكنه نجح في منع نفسه من التفوه بلعنة ساخطة.

علَّق الدكتور "هوب":

- هذه هي تمامًا النقطة التي يتصل عندها المريء بالمعدة.

نجح الطبيب في تجاهل موضوع العيد، ولكن الأب "كايزرجربر" أدرك أن ذكره لهذا الموضوع قد لامس وترًا حساسًا في نفس الدكتور، مثل ذاك الذي لامسه الدكتور في بطنه للتو.

أعطاه الدكتور علاجًا، ولما سأله الأب عن أتعابه، هزَّ "فيكتور هوب" رأسه رافضًا:

- واجبي أن أفعل الطيب. والطيب لا يقدَّر بمال.

دُهش الأب. وخُيِّل له للحظة أن الدكتور يسخر منه. ولكنه ردَّ مجاملًا بأن هذا نبل منه، وخرج من العيادة وهو حيران، مما زاد من آلام حموضة معدته.

في المنزل تناول ملعقة من الدواء، وبقدر أقل مما وصفه له الدكتور، "ماذا إن كان سُمًّا؟" - ولكن سرعان ما أخذت وطأة حموضة المعدة تخف وتخفت... إلى أن تبددت.

ذهبت عنه أوجاعه بالكامل في غضون يومين، وبعد يومين آخرين شعر بتحسن كبير في صحته، وكأنه لم يعانِ يومًا من ألم في معدته. وكم كان لتلك الحال الجديدة أثرها الطيب على نفسه، حتى إِنه انتهز فرصة القداس التالي ليقرأ من الفصل السادس من "إنجيل لوقا"، حتى مع اختلاف النص عن ذاك المدوَّن في التقويم الشعائري:

"ولا تَدينوا فلا تُدانوا. لا تقضوا على أحدٍ فلا يُحكم عليكم. اغفروا يُغفَر لكم. أَعطوا تُعطَوا...".

لاحظ الجمع كيف أن الأب، ولأول مرة منذ أسابيع لا تحصى، لم يعضّ على شفته متألمًا وهو يشرب النبيذ الرخيص المقدس.

هكذا قصد أعيان "فولفنهايم" العيادة. فمنذ تعافي الأب "كايزرجربر" صار يدق جرسها كل من يشكو من ورم، أو سعال جاف، أو من تورم أصابعه، أو من خشونة ركبته، أو حتى من كانت آلامه واهية. غير أن القرويين من ذوي الأمراض العضال – مثل فتق مزمن أو صمم خلقي، مثل حالة "جونتر ويبر" – لم ينقطعوا بدورهم عن عيادة الدكتور "هوب"، على أمل أن تحدث معجزة أخرى. ورغم أن "إرما نوسبوم" قد زعمت خلاف ذلك، فإن الدكتور لم يكن مستعدًا بالفعل لاستقبال كل هذا العدد من المرضى. وكما تبين للأب، فلم يكن الدكتور قد جهَّز غرفة الفحص بالصورة المناسبة، كما أن غرفة الانتظار غير مؤثثة التأثيث الكافي، فكان على المرضى الانتظار بين الحين والآخر في الصالة الضيقة عند المدخل الأمامي المفتوح. كان على الدكتور أن يعتذر دومًا لمرضاه على عدم توفيره سبل الراحة الكافية، وأنه لم يجد الوقت الكافي لتجهيز المكان بكل شيء، وأن يفرغ كل الصناديق والحقائب، حتى إنه كان يضطر إلى ترك غرفة الفحص لإحضار أداة يحتاجها، مثل جهاز قياس ضغط الدم أو نوع من المطهرات.

وجد المرضى الدكتور "هوب" متيقظًا دائمًا، متنبهًا للتفاصيل، ويأنسون إليه. لم يكن يطلب منهم أي أتعاب – الأمر الذي زاد من شعبيته بين القرويين البسطاء، ربما عن غير قصد منه. صاروا يتدفقون إلى عيادته من كل صوب، وفي كل ساعة من ساعات النهار. يبكرون من الساعة السادسة والنصف في الصباح ولا ينقطعون حتى وقت متأخر من المساء. حتى إنهم أضحوا يدقون جرس العيادة في منتصف الليل أحيانًا؛ مثلما فعل "إدوارد مانتيل"، القاطن في 20 شارع "نابليون"، والذي كان يعاني الأرق والسهاد، حتى بعدما جرع كوبين من شاي "ليندن" الممزوج بالخمر، فلم يفكر مرتين وهو يوقظ الطبيب من فراشه في منتصف الليل.

لأجل قرص منوِّم.

4

ذات يوم سبت صحوٍ من أيام شهر يوليو، وعقب مرور أسابيع على واقعة إنقاذ "جورج باير"، وضعت لافتة عند منزل الدكتور تحدد ساعات العيادة. "من 9 إلى 10 صباحًا – من 6:30 إلى 8 مساءً طوال أيام الأسبوع، وعلى من يحتاج إلى الطبيب في غير هذه الأوقات أن يحجز موعدًا عبر التليفون". تسبب هذا الإعلان في قدر كبير من السخط، حيث إن القرويين يعتقدون أن على الطبيب أن يكون دائمًا في خدمة مرضاه، ولكنهم في عمومهم تفهَّموا في النهاية قرار الطبيب، وخصوصًا وهو يقوم بتجهيز وتجديد غرفتي الانتظار والفحص. وقد أوكل الدكتور هذه المهمة إلى "فلوران كوننج"، الذي اعتاد أن يقوم بأعمال إضافية إلى جوار عمله النهاري، وهو بارع في ذلك. فقام "فلوران" بطلاء الجدران بطبقة جديدة من الدهان، وكذلك فعل مع الأبواب والنوافذ، وقام بصنفرة وتلميع أرضية الباركيه. كما كانت بقية المنزل أيضًا في حاجة إلى مختلف أنواع الإصلاحات. فكان من اللازم تزييت مقابض النوافذ والأبواب وضبطها، وكانت هناك بقع رطبة على الجدران والأسقف لا بدَّ من ترميمها، وتسريبات في وصلات السباكة تستلزم لحامها. وهكذا وجد "فلوران" أن أمامه أربعة أسابيع على الأقل قبل الانتهاء من مهمته.

كان خلال الشهر الذي اشتغله في المنزل يرى التوائم بين الحين والآخر. فقد كانت تلك المرة التي اصطحب فيها الدكتور أطفاله لمقهى "تيرمينوس" هي آخر مرة يراهم أحد فيها. ولم يسمع أي شخص بكاءهم، على الرغم من أن من ذهب إلى العيادة من القرويين كان يصغي السمع لهذا البكاء المحتمل.

كانوا يسألون الدكتور في مناسبات عدة: "هل أطفالك هادئون هكذا دومًا؟".

ولم يكن يردُّ سوى بعبارة من قبيل: "إنهم أطفال هادئون للغاية. لا يمثلون لي أي مشكلة على الإطلاق".

وكانوا يوجهون نفس هذه الأسئلة إلى "فلوران" حينما كان يحكي لروَّاد المقهى أنه يرى الصغار.

- هذا صحيح، فهم هادئون للغاية. يقبعون في تلك الكراسي الهزازة يحدِّقون أمامهم، وكأنهم يفكِّرون في لغز معقدٍ محير. إنهم حتى لا ينظرون نحوي حينما أدقُّ مسمارًا في الجدار إلى جوارهم؛ بل أعتقد أنهم لا يلحظون وجودي من الأصل.

فيقول "رينيه مورسنيه":

- هو الفاليوم إذن.

فترد عليه ابنته:

- أوه... هذا غير ممكن. ربما هم فقط غير معتادين على الجو هنا، أو مرهقون أو شيء من هذا القبيل. أنت دوماً سيء الظن هكذا.

وكانت "ماريا" تريد أن تعرف ما إذا كان الأطفال لا يزالون غريبي الأطوار. وهي تقصد بالغرابة هنا قبح المنظر، ولكنها أبدًا لا تصرح برغبتها هذه علنًا.

يقول "فلوران" الصنايعي:

- لقد صار لون شعرهم أكثر قربًا إلى اللون النحاسي مقارنة بتلك المرة الاولى التي رأيناهم فيها. ليس مثل لون شعر الدكتور الأحمر الأشيب - بل هو أقرب إلى لون النحاس الذي يعلوه الصدأ، وكأنهم وضعوا رؤوسهم في إناءٍ مملوء بالرصاص الأحمر.

فيقول "جاك ميكرز" مشيرًا إلى شفته العلوية:

- وماذا عن هذه... إنها أشبه بنتاج عمل مرتبك. وكأن أحدهم حاول أن يسدَّ فجوة في قطعة خشب بمعجون ونشارة خشب. عمل سيء وفاشل في رأيي.

وتتساءل "ماريا":

- وهل يتكلَّمون حقًّا؟

فينفي "فلوران" ذلك وهو يهزُّ كتفيه:

- لم أسمعهم يتكلمون أبدًا.

- هكذا ظننت.

وكثيرًا ما كانوا يستوقفون "فلوران كوننج" في الشارع خلال تلك الأيام. فتسأله بعض السيدات بدافع الفضول عن الكيفية التي يتمكن بها الدكتور من إدارة شؤون حياته وحده.

- هو قادر على ذلك؛ منظم ومرتب للغاية. ودومًا ما يطلب مني ألَّا أسبب الكثير من الغبار.

ولأنها أم لابنين كبيرين، فقد سألته "إرما نيسبوم" ذات مرة:

- هل يعتني بتغيير حفاضات أطفاله على النحو الصحيح؟

ولأنها ربَّت ثلاث بنات، لذا سألته "هيلجا برنارد":

- هل ثيابهم نظيفة؟

"هل يتأكد من أن الحليب ليس ساخنًا جدًّا قبل أن يقوم بإرضاعهم؟".

هكذا سألته "أوديت سورمون"؛ فهي جدة لستة أبناء.

ولا يجد لهنَّ جميعًا سوى ردٍّ واحدٍ:

- هذا ما لا يمكنني أن أخبركن به... تلك شؤونه، أليس كذلك؟

فلا يجدن بدورهن سوى ردٍّ واحدٍ يقلنَّه لبعضهنَّ البعض:

- هل فهمتُنَّ ما نقصده؟ لن يكون الأمر سهلًا عليه من دون وجود امرأة إلى جواره. هذا الدكتور بحاجةٍ ملحَّة إلى من تساعده.

وسرعان ما شرعن في خطوات عملية لتنفيذ هذا الاقتراح. وأخذت سيدة تلو الأخرى في التردد على العيادة بمزاعم مرضية مختلفة، سرعان ما تتحوَّل في داخل العيادة إلى تساؤلات حول ما إذا كان الطبيب بحاجة إلى مدبِّرة منزل أو جليسة لأطفاله؛ وكان يشكر كل واحدة على العرض الكريم، ويؤكد لها أنه قادر على إدارة شؤونه بنفسه. على أنه تقبَّل شاكرًا منهن أي نصيحة تتعلَّق برعاية الأطفال؛ كالتعامل مع مشكلات التسنين مثلًا.

وبينما أخبرته "أوديت سورمون" أن مضغ الطفل لقطعة خبز مجمدة فعال بشدة مع آلام التسنين، فقد أقسمت له "هيلجا برنارد" أن مضغ حلقات البصل هو الأكثر فعالية.

لذلك فزعت "إيرما نيسبوم" و"هيلجا برنارد" و"أوديت سورمون" عندما أخبرهن "فلوران كيننج" بعد ذلك ببضعة أيام أن "شارلوت مينوت" هي التي سوف تتولى رعاية شؤون الطبيب. واجتمعت النسوة الثلاث، اللاتي بقين يراقبن المشهد حتى وقتٍ متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، عند ناصية شارعي "نابليون" و"كيرش"، حيث نصبن كميناً للصنايعي الذي كان قد انتهى لتوِّه من آخر يوم عمل له لدى الطبيب، وكان في طريقه لصرف "البقشيش" السخي الذي منحه الطبيب إياه فوق أجره في مقهى "تيرمينوس". كان وقع الخبر مؤلمًا عليهن لدرجة أنهن كِدْنَ يضربنه بالمكانس، غير أنهن لم يجدن من متنفس وردِّ فعل سوى السباب وصيحات النقمة والسخط. صحيح أن السيدة "مينوت"، بوصفها معلمة سابقة، تمتلك بعض الخبرة في تربية الأطفال – ولقد كانت معلمة الصف الأول الابتدائي على مدار سنوات طويلة في مدرسة "جيميريش" – ولكنها لم تنجب أي أطفال، ناهيك بأنها لم تتزوج من الأصل. فكيف يمكن لها أن تنجح في تربية هؤلاء الأطفال غريبي الأطوار؟

سألت "هيلجا" الصنايعي عما إذا كان متأكدًا تمامًا من هذا الخبر، فحكى للسيدات كيف أنه في ذلك الصباح كان يدهن الأبواب بطبقة طلاء أخيرة عندما اختلس نظرة من خلال الباب الموارب ورأى الدكتور "هوب" وهو يعرِّف السيدة "مينوت" على محتويات المطبخ، بينما كان الأطفال قابعين كالمعتاد مثل ثلاث دُمى من القماش في مساحة اللعب.

سألته "إيرما":

- وهل كانت هي "تشارلوت مينوت" حقًّا؟ التي من شارع "آخينير"؟

فأومأ "فلوران" برأسه بكل ثقة، مؤكدًا أنه قادر على التعرف على "مينوت" من على بعد كيلومتر وأكثر، وهو الأمر الذي لا يمكن لأحدٍ أن يدحضه، فليس هناك من امرأة أخرى في القرية تمتاز بمثل قوام تلك السيدة المتقاعدة التي تبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا، والتي حضرت للعيش في "فولفهايم" قبل ثلاث سنوات. فقد كانت طويلة – كان طولها مترًا وأربعة وثمانين سنتيمترًا – وقد انحنى ظهرها العريض بفعل سنوات طوال أمضتها بين التلاميذ الصغار وهي توجِّه أيديهم عديمة الخبرة خلال تعليمهم فن الكتابة. وكان انحناء ظهرها سببًا في أن قصر رقبتها، وحتى تبدو رقبتها أطول كانت تعقد شعرها الفضي الطويل في كعكة عند مؤخرة رأسها، أو ترفعه لأعلى بدبوس شعر خشبي. وكان صدرها من أبرز تضاريس جسدها، حيث يتقدمها ضخمًا سخيًّا، أو كما يصفه "فلوران"، "كومتي حطب عند باب البيت".

كان فضول "هيلجا" قد بلغ مداه:

- وما الذي قالته؟ وما الذي قاله الطبيب لها؟

أجابها "الصنايعي"، وهو يقلد صوت الدكتور "هوب":

- في البداية قدَّم الطبيب أطفاله لها. هذا "رافاييل". تميِّزه أسورة خضراء. وهذا "جابرييل"، بأسورته الصفراء. أما صاحب الأسورة الزرقاء فهو "مايكل".

ثم عقب "فلوران" بصوته الطبيعي:

- لكل منهم أسورة بلاستيكية تطوق معصمه. مثل تلك التي يضعونها للوليد في المستشفى، تعرفنها؟ ثم التفت الدكتور إلى أولاده وأخبرهم أن سيدة "مينوت" هي التي ستعتني بهم.

هزَّت السيدات الثلاث رؤوسهن في عدم اقتناع، بينما أفصحت "إيرما نيسبوم" عما كان يدور في تلك الرؤوس:

- ولماذا هي بالذات بحق الرب؟ إنها حتى ليست من جيرانه.

فقال "الصنايعي":

- على راحتكنَّ... فما إن انتهى الدكتور من تعريف الأولاد بالسيدة حتى رفع الثلاثة رؤوسهم نحوها في ذات اللحظة و... غمزوا لها.

حدَّقت السيدات في وجهه بكل ذهول الدنيا، فأردف قائلًا، وكأنه يحاول التخفيف من وقع ما ذكره في الحال:

- هذا ما بدا لي على كل حال.

سألته "أوديت":

- ثم؟ ما الذي فعلته السيدة "مينوت"؟

- لا شيء. سألت الدكتور عن الموعد اليومي المناسب لحضورها فأخبرها أن تأتي في الساعة الثامنة والنصف. وبعدها غادرت المنزل. عليَّ أن أذهب الآن، سيداتي. أريد أن أمتع نفسي بـ"البقشيش" الذي منحني الدكتور إيَّاه!

انسحب من وسط حلقة السيدات، وابتعد بخطوات واسعة، قبل أن يلتفت نحوهنَّ ويلقي إليهن برأيه الأخير:

- الدكتور كريم. وأعتقد أن السيدة "مينوت" لن تندم على قرارها.

قالها واستدار على عقبيه متجهًا صوب مقهى "تيرمينوس". ومن خلفه ساد الصمت لفترة وجيزة، قبل أن تتعالى الثرثرة من جديد.

شهد شارع "نابوليون" في الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي "تشارلوت مينوت" وهي تمشي بخطى واثقة كلها اعتداد بالنفس. وعندما مرَّت على ساحة الكنيسة ألقت تحية برأسها إلى "جاكوب فاينشتاين"، الذي كان ينظف الممرات؛ فهز بدوره رأسه محييًّا. وعبر الشارع، كانت "إيرما نوسبوم" واقفة خلف ستارة المطبخ منذ نصف الساعة في انتظار مرورها. كانت المعلمة المخضرمة السابقة تلف شالًا أبيضَ حول كتفيها العريضتين، وبين آن وآخر تنعكس أشعة الشمس المشرقة على عدستي نظارتها ذات الإطار الكلاسيكي السميك. كانت قد ضفَّرت شعرها على شكل كعكة محكمة،

وخمَّنت "إيرما" أن تلك القماشة الحمراء التي تبرز من تلك السلة التي تحملها في ذراعها اليسرى ليست سوى مريلة مطبخ. وعندما قرعت السيدة "مينوت" جرس بوابة منزل الدكتور، ألقت بنظرة من فوق كتفها، فظهر التباين واضحًا بين وجهها المستدير وبقية جسدها القوي المستطيل. وعكس التماع عينيها تعبير وجهها الودود، والذي كان دومًا ما يبعث الراحة في نفوس الأطفال الجدد الصغار عندما كانت تستقبلهم في أول يوم لهم في المدرسة.

سمعت صوت فتح الباب الأمامي لمنزل الدكتور، فاستدارت تنظر أمامها. شاهدت "إيرما" الدكتور "هوب" عند المدخل، وهو يرفع يده بالتحية بطريقة غريبة. كان يرتدي معطفه الأبيض، ولكنه كان مفكوك الأزرار. ومشى بخطوات واسعة نحو البوابة قبل أن يفتحها ويدعو السيدة "مينوت" للدخول، ثم ترك البوابة مفتوحة لأجل من سيأتي من المرضى خلال الساعتين المقبلتين.

تبعت الدكتور إلى الداخل وهي تتذكَّر الحوار الذي دار بينهما بالأمس...

كانت قد حضرت إلى الدكتور تشتكي من ارتفاع في ضغط الدم، فقام الدكتور "هوب" بعمل فحص شامل لها وطرح عليها مختلف أنواع الأسئلة لأجل ملفها الطبي الذي يفتحه لكل مريض يأتيه. سألها عما إذا كانت قد اشتكت في السابق من أي مرض، وعما إذا كانت قد أجرت جراحة أو إن كان هناك تاريخ مرضي معين لعائلتها. كما كان يريد أن يعرف بعض التفاصيل عن طريقة حياتها، وعاداتها الغذائية وعما إذا كانت تدخن، أو تشرب الخمر. جاءت إجاباتها على نحو استحسنه الدكتور، ولكنها لم تخبره عن أنها تحب تناول الحلوى. ثم سألها عما إذا كانت متزوجة أو لديها أطفال – لما سأل الدكتور نفس هذه الأسئلة "لأوديت سورمون" خرجت لتخبر صديقاتها أن "الدكتور يبحث عن زوجة جديدة" – أخبرته وهي تبتسم أنها منذ أربعين عامًا كانت معلمة في مدرسة داخلية، مما يعني ضرورة أن تكون عزباء وأن تقيم بالمدرسة، وأنها الآن أكبر عمرًا وأكثر حكمة من أن تقرر الزواج. لم يفهم الدكتور الدعابة. ولكنه أدرك على الأقل أنها لن تقبل منه أي عرض زواج، كما كانت تظن أنه غرضه وقتذاك. لم تكن تجد فيه أي وسامة؛ بل كانت على النقيض من ذلك؛ تستوحش منظره. لم تكن قد التقته من قبل،

ولكنها ما أن رأته حتى أدركت أن "مارثا بولين" لم تبالغ حينما وصفته وهي تقول إن الرب وضعه في آخر مرتبة بين البشر من حيث الوسامة والجمال. كان لون شعره؛ فوق رأسه، وعلى ذراعيه، وعلى ظهر يديه، بلون الجزر. أما لحيته فكانت أغمق درجة، وهي تنسدل من خديه وذقنه مثل كتلة عشوائية من الأسلاك الشائكة، وخصلات قليلة من الشعر تنمو على وجنتيه والمنطقة أسفل فمه. ولأن الشعر لم ينمُ على الندبة التي بقت بعد عملية شفته المشقوقة، فقد بدا لها أن أحدًا قد عبث في شاربه بشفرة حلاقة فشوَّهه. وهذا الصوت الأخنف العجيب؛ فالأحرف الساكنة التي ننطقها في العادة بملامسة اللسان لسقف الفم، مثل "ت" و" ل"، تكاد تختفي في فجوة فمه فلا تبين ولا تتضح، ولا تكاد تكون مسموعة. لم تجد فيه شيئًا واحدًا من دون عيوب، حتى ملابسه؛ سرواله القطيفة البني، وقميصه البيج الرائع.

وبينما كان الطبيب يفحص "تشارلوت" حرص على أن يخبرها بكل خطوة يوشك على القيام بها، وعلى أن يطرح عليها أسئلة مباشرة. واتضح أنه كان مهتمًّا أكثر بالتأكد من أنها تجيد التحدث بالفرنسية والألمانية والهولندية.

في البداية يلفت نظرها إلى أن الكلام سيكون بالهولندية، ومن ثم يسألها إن كانت تعرف أغنية بتلك اللغة اسمها "ذبلت الزهور الصغيرة، وراحت عنها الرائحة الجميلة". نطق باسم الأغنية بلكنة قوية، ولكنها كانت تعرف الأغنية.

- اسمها "رجل الرمال".

- ماذا؟

- رجل الرمال... Das Sandmannchen

قالت لنفسها إنه لا بأس في أسئلته، طالما لم يطلب منها الغناء، وهو بالفعل لم يطلب. سألها بعضًا آخر من الأسئلة، ومنها ما تعلَّق بعملها السابق. ومجددًا، أبدى اهتمامًا كبيرًا لما حكت له عن أنها أمضت حياتها المهنية كلها في تعليم أطفال السنوات الابتدائية الأولى في "جيمينيش"، وأنها بدأت عملها من مرحلة رياض الأطفال. هي لم تدرك مقصده في البداية، ولذلك لمَّا سألها بغتةً عما إذا كانت تقبل أن تعمل جليسةً

لأطفاله الصغار خلال أوقات العيادة اندهشت ولم تعرف بماذا ترد على ذلك الطلب. أما هو فلم ينتظر إجابتها وقام ليعرفها على أطفاله. اصطحبها الدكتور إلى المطبخ؛ حيث كان أطفاله جالسين على كراسي هزازة.

ولقد فوجئت... على الرغم مما سمعته من قصص كثيرة متداولة عن هؤلاء الأطفال. فقد وجدت هيئتهم وكأن من رسمها هكذا طفل: فلم تكن رؤوسهم متناسقة مع أجسادهم أبدًا. كانت كبيرة جدًّا بالنسبة لأجسادهم، كما كانت عيونهم واسعة جدًّا مقارنة بحجم رؤوسهم. وتلك هي الملاحظة الأولى.

ثم عرَّفها الدكتور بأسماء أولاده، ولفت انتباهها إلى الشريط البلاستيكي الملون الذي يميز بين طفل وآخر. والحقيقة أنه كان من المستحيل تمامًا عليها تمييز أحدهم عن الباقين بمجرد النظر. وأدركت في الوقت نفسه أنهم يشبهون والدهم إلى حدٍّ بعيد: الشعر، البشرة، العينين و – للأسف – ذلك الحنك المشقوق، على نفس الجانب أيضًا... الجانب الأيمن.

وكذلك لاحظت خلال الوقت القصير الذي بقيت خلاله معهم شيئًا آخرَ: أنهم لا ينظرون إليها. وهم في هذا أيضًا يشبهون والدهم. فقد تذكرت أنه لم يحاول طوال الفحص أن ينظر إلى عينيها. كان ينظر دائمًا إلى الأرض، بينما ترى أبناءه الثلاثة مستغرقين في النظر إلى أيديهم، والتي كانت في حركة دائمة، كما لو كانت تتحسس أجسامًا لا تراها هي.

وكم كانت دهشتها وهي تسمعه يخاطبهم كأنهم كبار يفهمون:

- السيدة "مينوت" ستعتني بكم بدءًا من الغد.

أرادت أن تعترض إلا أنها ذهلت وهي ترى الأطفال الثلاثة يرفعون رؤوسهم نحوها وينظرون إليها للحظة بتلك العيون الجاحظة. عندئذٍ حسمت قرارها:

- في أي وقت تريد مني الحضور في الغد؟

- الثامنة والنصف.

بعدها غادرت، ولما كانت قد ابتعدت عن المنزل أدركت أنها نسيت أن تودِّع الأطفال.

***

- جاهزة؟

سألها الدكتور وهو يفتح الباب المفضي إلى المطبخ.

كانت مترددة، فهي لا تعرف ما الذي يريد الدكتور منها أن تفعل. لم يتحدثا في هذا بعد. بل لم يتحدثا عن الأطفال من الأصل، ولا حتى عن الراتب. وكانت عادة السيدة "مينوت" ألا تتحدث في تلك الأمور.

- أعتقد هذا .

أدهشه ردها.

كان الأولاد الصغار في كراسيهم الهزازة، تمامًا كما كانوا بالأمس. وعيونهم لا تفارق أيديهم، التي لا تتوقف عن الحركة. بل كان لحركاتها إيقاع منتظم، جعلها تعتقد أن هؤلاء الأطفال أقرب إلى الروبوت منهم إلى البشر.

أرجعت السيدة "مينوت" ما تراه إلى كون الأطفال يشعرون بالملل، لأنها لاحظت عدم وجود لعب أو دمى حولهم.

- مرحبًا يا أولاد.

لكن لم يكن هناك أي رد فعل.

- هم خجولون بعض الشيء.

هكذا جاوبها الدكتور.

اقتربت منهم وأمعنت النظر إليهم. وجدت أنهم شديدو النحافة، وأضفى عليهم لون بشرتهم شبه الشفاف مسحة من الهشاشة – وكأنهم خلقوا من زجاج.

- يمكنكِ حمل أي واحد منهم، إن رغبتِ في ذلك.

أومأت برأسها وهي تقترب منهم بخطوات حذرة. لم تعرف أيهم تختار. ولم يكن أي منهم متلهفًا لأن تحمله: فلم يرفع أيهم يديه نحوها. مالت أمام الكرسي الأوسط، وفكت إبزيم الحزام. وللحظة حبست أنفاسها، فقد كان عليها أن تتغلب على خوفها. نفس الخوف الذي اعتراها في أحد الفصول منذ عشر سنوات، خلال المرة الأولى التي أمسكت فيها بيد "جولي كاربنتير"، التي كانت تعاني من حروق شديدة، لتعلمها كيف تحركها على الصفحة. وتمامًا كما فعلت وقتذاك، أخذت تعد حتى ثلاثة بصوت غير مسموع، ثم رفعت الولد من كرسيه. كان خفيفًا جدًّا، وبالكاد أظهر رد فعل لما وجد نفسه بين ذراعيها.

قال لها الدكتور وهو يشير إلى السوار الأزرق:

- هذا "رافاييل".

- "رافاييل".

وجدته اسمًا جميلًا، ولكن عندما أضافته إلى الاسمين الآخرين ظهرت غرابته، فقد رأت أن اختيار هذه الأسماء الثلاثة معًا أمر غريب إلى حدٍّ ما؛ أن يسمي الأطفال الثلاثة على اسم رؤساء الملائكة، وتساءلت السيدة "مينوت" في بالها عمن يكون قد اختار الأسماء؛ الأب أم الأم؟ أم هو شخص آخر؟

- إنهم في غاية الهدوء... لطاف.

ما إن علقت بذلك حتى خطر لها خاطر... ماذا لو أن هناك شيئًا ما "غلط" في هؤلاء الأطفال؟ ماذا لو كانوا متخلفين عقليًّا أو ما شابه ذلك؟

- سيعتادون عليكِ مع الوقت. إنهم لا يتكيفون مع الأوضاع الجديدة إلا بصعوبة.

لم يسهم تعليقه في تخفيف حدة مخاوفها. وبدا لها أن الدكتور قد قرأ أفكارها وهو يعقِّب:

- ولكن بوسعهم الكلام. أحيانًا ما ينطقون بكلمات سمعوها. سواءً مني أو من الراديو. وقد ينطقونها بالفرنسية أو الألمانية. إنهم في غاية الذكاء.

- واضح... واضح جدًّا.

أتصدقه أم تصدق نفسها؟ كم من مرة صادفت فيها أولياء أمور يعتقدون أن أطفالهم من ذوي القدرات الخاصة، بينما تدرك هي أن العكس هو الصحيح.. "القرد في عين أمه غزال"... هكذا قالوا... وهكذا علمتها الأيام.

- كم أتمنى لو عززت من مهاراتهم اللغوية. لقد كنت أتعمد أن أتحدث معهم بالألمانية والفرنسية معًا، ولكن لو أنكِ حدثتهم بالفرنسية من الآن فصاعدًا فعندئذٍ سأحدثهم أنا بالألمانية وحدها، وهو ما سوف يساعدهم على التمييز بين اللغتين بصورة أسرع، أليس كذلك؟

وافقته الرأي، ولم تجد طلبه هذا غير عادي. ففي هذه المنطقة، حيث مفترق ثلاث ثقافات وثلاث لغات، يتحدث معظم الأطفال بأكثر من لغة. فالكل تقريبًا يتحدث الألمانية، وعادة ما يعرفون أيضًا بعض الفرنسية أو الهولندية. وبعض الأطفال يتعلم اللغات الثلاث في الوقت ذاته، وهو أمر يتحدد حسب المدرسة ومناهجها أو كذلك من خلال طبيعة الأصدقاء.

لقد تربت هي ذاتها على النحو نفسه. فقد وُلدت في "جيمينيش" ورباها والداها على الكلام بالألمانية. وتعلمت الفرنسية من الشارع، ثم في المدرسة الثانوية، حيث تعلمت الهولندية أيضًا. عندئذٍ أدركت سبب اهتمام الطبيب بقدراتها اللغوية في اليوم السابق، وخصوصًا عندما أشار إلى أغنية الأطفال الهولندية.

- تلك الأغنية عن الأزهار، أيمكنكِ أن تغنيها لهم بين الحين والآخر؟

- كما ترغب.

رغم أنها تجد غرابة في هذا الطلب.

نظر الدكتور إلى ساعته:

- تعالي. سوف أعرفك سريعًا بأرجاء المنزل. سرعان ما سيتوافد المرضى على العيادة.

استدار على عقبيه ومضى عبر الباب المفضي إلى الممر، تاركًا إياها واقفة في شيء من الحيرة.

هزَّت رأسها في عدم تصديق، وهي تعيد "رافاييل" بعناية إلى كرسيه الصغير.

- سأعود.

قالتها للأطفال بالفرنسية، وهي تتعجب من هذه المهمة التي تورطت فيها.

كان الطبيب في الصالة ينتظر عند باب مقابل لغرفة الفحص. وقال لها وهو يدخل إلى الغرفة:

- كنت أنا والأطفال ننام في الطابق السفلي.

ترددت وهي عند مدخل الغرفة. كانت الغرفة أنيقة. وفي الطرف الآخر منها، عند الحائط، سرير واحد، وفوقه غطاء مفروش بكل عناية. لم تكن هناك أي كتب أو ملابس على المقعدين القابعين على جانبي السرير، وكذلك لم تكن هناك أي لعب أطفال أو متعلقات على الأرض. هناك ثلاثة أسرَّة معدنية ذات عجلات مصطفة جنبًا إلى جنب عند الجدار الآخر. وهي أيضًا مفروشة بعناية؛ فلم يكن هناك أي تجعيدة في المفارش أو الوسائد ناصعة البياض. وعند حافة كل سرير توجد لوحة معدنية صغيرة معلَّقة، على كل منها اسم الطفل صاحب السرير. ينام "مايكل" في السرير الذي على اليمين، وإلى يساره "رافاييل"، ثم "جابرييل". بدت الجدران مغطاة بورق حائط جديد، ولكن لا شيء معلقًا على الجدران. لم تجد أيًّا من اللوحات أو الصور المألوف وضعها في غرف النوم؛ مثل صورة زوجة الطبيب، أو ربما صورة الزفاف، أو على الأقل صور الأطفال. ليس هناك في الغرفة أي شيء يدل على أصحابها. وكأنها مساحة عامة؛ وأضفى البياض الناصع الذي يميز المفارش والوسائد انطباعًا أن الغرفة واحدة ضمن غرف مستشفى.

- الحمام في الدور العلوي، ولأن من الصعب حمل الأطفال إلى الأعلى في كل مرة، فإنهم يستحمون في حوض استحمام خاص في المطبخ.

ابتسمت السيدة "مينوت" وهي تعلِّق:

- تمامًا كما كان في أيامنا.

لم تتغير ملامح الدكتور، فقالت لنفسها إنه يفتقر تمامًا إلى حس الدعابة.

- سيدة "مينوت"...

سكت، فتطلعت إليه في اهتمام. أردف بنبرة محايدة:

- هناك شيء آخر أريد أن أخبرك به. إن صحتهم معتلة.

رغم أنها كانت تشك في سلامة صحة الأطفال، إلا أنها انزعجت من هذه المعلومة. وتساءلت عن السبب الذي دفع الدكتور إلى الانتظار حتى النهاية قبل أن يخبرها بذلك.

- ليست بالحالة الخطيرة. وأنا أجيد التعامل معها، ولكن كان من اللازم عليَّ أن أخبرك. عليكِ أن تبقيهم داخل المنزل في الوقت الراهن.

- كان عليك أن تخبرني منذ البـ...

قاطعها صوت جرس الباب.

وانتهز الدكتور هذه الفرصة:

- آه... هذا هو المريض الأول. عليَّ أن أذهب. وكذلك أنتِ أيضًا عليكِ بدء عملك.

انسحب من جانبها، ومشى بخطوات مسرعة إلى خارج الغرفة. وكأنه يهرب. وبقيت هي محتارة، إلى أن سمعته يناديها:

- هل أنتِ آتية، سيدة "مينوت"؟

فكرت أن عليها ألا تتورط في هذه المهمة، وأن عليها أن تعتذر وتمضي. خرجت من الغرفة وهي تنادي على الدكتور:

- دكتور... أنا...

- أهلا سيدة "مينوت".

كانت "إيرما نيسبوم" تومئ برأسها محيية وهي واقفة عند نهاية الصالة. لقد لمحتها "تشارلوت مينوت" وهي تنظر إليها من منزلها عبر الشارع.

- أنتِ من سوف تتولى رعاية أطفال الدكتور، سيدة "مينوت"؟

نطقت اسمها بنبرة لا تخلو من الحقد. توقف الدكتور بين السيدتين، وكأنه حكم في سباق.

أجابتها "تشارلوت مينوت" بكل هدوء:

- بلى، سيدة "نيسبوم". لقد طلب مني ذلك وقد وافقت.

استدارت على عقبيها واتجهت صوب المطبخ.

لم تجد "تشارلوت مينوت" في تلك الأسابيع القليلة الأولى في الأطفال أي ذكاء غير عادي؛ بل على العكس من ذلك، فهم ما زالوا لا يتجاوبون معها ولم يتحدثوا إليها ولو بكلمة واحدة. وبدأت تقتنع بأن ثلاثتهم معاقون عقليًّا، وظنت أن هذا هو ما قصده الدكتور عندما أخبرها أنهم يعانون صحيًّا.

على أن الثلاثة - "مايكل"، "جابرييل"، "رافاييل" - بدأوا شيئًا فشيئًا في التجاوب معها. وكأنها بدأت تكتسب ثقتهم. وهي لم تفعل أي شيء مختلف لكسب تلك الثقة، سوى أنها تحلت باللطف والصبر، وكان هذا الصبر الجزء الأصعب في مهمتها. فقد مرت عليها أوقات كانت ترغب فيها أن تهز أجسادهم واحدًا تلو الآخر، فلربما عبَّروا عن أي رد فعل أو أي مشاعر مهما كانت. ومن حسن حظها أنها كانت قادرة على التحكم في أعصابها ذات يوم صحو كان فيه شارع "نابليون" يزدحم بالسيارات والعربات التي تجرها الجياد، والتي كانت جميعها متجهة صوب الحدود الثلاثية، عندما حدث شيء مختلف. كانت قد حملت "مايكل" على ذراعها حتى ينظر من النافذة، عندما صاح الولد فجأة "آاو!"، وما هي إلا ثانية حتى كان الطفلان الآخران يصيحان بدورهما "آاي!". لما حكت للدكتور أخبرها أن ابنه كان يقصد في الغالب كلمة "تاكسي"، لأنهم انتقلوا من "بون" إلى "فولفهايم" في تاكسي منذ أشهر بعيدة. وترك "تشارلوت مينوت" لدهشتها.

عقب ذلك، تطورت الأمور بسرعة. فإما أن مفرداتهم كانت بالفعل كثيرة منذ البداية، أو أن تحصيلهم صار يتزايد بإيقاع متسارع، ففي خلال الأيام القليلة التالية وجدت الأولاد ينطقون كلمات جديدة، ويكررون كلمات بعضهم البعض أو يضيفون إليها. وأحيانًا ما كانت تشعر أن الأولاد يعتبرونها لعبة. فكانت تجهز لهم بعض الفاكهة فتجدهم ينطقون بأسمائها الواحدة تلو الأخرى، باللغة الفرنسية، لأنهم يدركون أن هذه هي اللغة التي تحدثهم بها. وبالطبع كان من الصعب عليها تبين ما يقوله الثلاثة، لأنهم

كانوا قد ورثوا عن والدهم بعض المشاكل في نطق بعض الأحرف بسبب ذلك الحنك المشقوق. ولكنها فهمت ما يقصدونه، وهذا هو المهم على أي حال.

بعد ذلك بوقت قصير قدَّم لها الأطفال استعراضًا آخر لمواهبهم. فهي كانت – كما طلب منها الدكتور – تغني لهم تلك الأغنية الهولندية، والتي تتحدث عن رجل الرمال القصير، في كل ليلة قبيل نومهم، وذات مساء، قبل موعد نومهم المعتاد بربع الساعة، وجدت "جابرييل" يقول لها فجأة وبالهولندية، "متعب". في البداية لم تفهم ما يقصده. ولكن "رافاييل" أعقب قائلًا "أنام" بالهولندية أيضًا، ثم "مايكل" بالهولندية أيضًا "ليل... ليل"، عندئذٍ أدركت أن الثلاثي يردد بصورة عفوية الكلمات الهولندية التي تعلموها من الأغنية التي تغنيها لهم قبيل النوم.

وعندما حكت بعد بضعة أيام لصديقتها وزميلتها السابقة "هانا كويك"، قالت لها:

– هذا لأنه ليس لديهم أمٌّ. وهو ما يعني أنهم غير مرتبطين بلغةٍ أمّ بعينها.

رأت "تشارلون مينوت" أن هذا تفسير غير مقنع. ولكن صديقتها اقترحت أيضًا أن تكون هناك شبكة عصبية غير مرئية هي التي تربط بين أمخاخ الأطفال الثلاثة لتكون جميعها مخًا فائقًا. وكانت السيدة "مينوت" قد سمعت عن فكرة مماثلة لتلك الفكرة، وتعرف أيضًا أن التوائم أحيانًا ما يكونون قادرين على قراءة أفكار بعضهم البعض أو تنتابهم نفس المشاعر في اللحظة نفسها، حتى ولو كان كل منهم على مسافة بعيدة عن الآخر. ولكنها فضَّلت التفسير الأبسط وهو أنهم ورثوا ذكاء والدهم، وكذلك حيادية مشاعره – فهي تأسف أحيانًا وتشعر بالحنق أحيانًا أخرى من عدم مقدرة هؤلاء الأطفال عن التعبير عن مشاعرهم أو حتى إظهارها.

كانت تعمل طوال الساعات الأربع التي ترعى خلالها الأطفال – من الثامنة والنصف صباحًا وحتى العاشرة والنصف، ثم من السادسة مساءً وحتى الثامنة – بكل جهد وحماس لم تعتقد أبدًا أنها لا تزال تتحلى بهما. كانت تصنع بوجهها وعينيها تعابير مضحكة، وتصنع لهم بيوتًا وأبراجًا بقطع "الميكانو" وأوراق اللعب، وتضع الأطفال على حجرها واحدًا تلو الآخر وتلاعبهم، وتقود السيارات اللعبة عبر شوارع خيالية والقطارات الخشبية عبر أنفاق مظلمة، وتحكي لهم حكايات وحواديت خيالية، تتقمص

فيها دور الساحرة الشريرة، والجنية السحرية، والملكة. ورغم كل هذا، لم يتجاوب معها أي طفل ولو بضحكة، إلا في مرة واحدة؛ ولكنهم حتى في تلك المرة لم تسمع لهم صوتًا.

نصحتها "هانا كويك" قائلة:

- الأمر يتطلب بعض الصبر، "تشارلوت". ربما يعاني هؤلاء الأطفال من صدمة. فهم لم يتمتعوا بأي قدر من الحب والحنان خلال أشهرهم الأولى. ولم تكن هناك أم حولهم تمدهم بذلك، فقد توفيت، كما أن أباهم بارد المشاعر. وكونه يريد منهم أن ينادوه "والدي" وليس "بابا" يثبت أنه يريد أن يحافظ على مسافة معينة بينه وبينهم. بل لا أبالغ عندما أقول إنه سيجبرهم في وقت ما على أن ينادوه "سيدي".

ولكن السيدة "مينوت" اعترضت على رأيها:

- ولكنه يلتقط لهم الصور باستمرار. ألا يعني هذا شغفه بهم؟

- أنا لا أقول إنه لا يحبهم. ولكن هذه هي طريقته في التغطية على عجزه عن التعبير عن الحب. فهو يعتقد أن التقاط الصور طريقة يمكنه من خلالها تقوية ارتباطه بهم. عليكِ يا "تشارلوت" الاستمرار فيما تقومين به؛ فوجودك حول هؤلاء الأطفال ضروري. على الأقل سيكون هناك من يرعاهم ويعلمهم التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم.

- معكِ حق، "هانا". سأعمل على تحقيق ذلك.

5

- أريد رطلًا من بسكويت الزنجبيل اللذيذ هذا، من فضلك.

- هل هي لأولاد الدكتور؟

هزَّت السيدة "مينوت" رأسها وهي تبتسم قائلة:

- كلَّا، فهي لي أنا.

بدأت "مارثا بولين" تخرج قطع بسكويت الزنجبيل من برطمان كبير فوق الكاونتر. ومنه كانت تضع البسكويت في كيس ورقي قبل أن تضعه فوق كفة الميزان النحاسية، ثم تضع وزنًا في الكفة الأخرى.

قالت البائعة وهي تعاير الوزن:

- لقد وضعت لك ثلاث قطع إضافية. للأولاد. أنقلي لهم تحياتي وحبي... قولي لهم "مارثا" من محل البقالة تحييكم.

ودَّت السيدة "مينوت" في الاعتذار عن هذا العرض - ممنوع على أطفال الدكتور تناول أي حلويات - لولا أنها خشيت من أن يكون هذا دافعًا لـ"مارثا" كي تمطرها بمزيد من الأسئلة، لذلك اكتفت بإيماءة قبول من رأسها، وهي تقول:

- هذا لطف منك. أشكرك.

تناولت الكيس ووضعته في عربة التسوق التي تحمل سلعًا طازجة جاءت إلى هنا لتبتاعها لأجل منزل الدكتور "هوب"، كعادتها في كل يوم تقريبًا. كما كانت السلة في ذراعها ممتلئة أيضًا، بأشياء من قبيل المناديل وبودرة التلك وعبوة حفاضات.

كانت السيدة "مينوت" قد بدأت تستغرق شيئًا فشيئًا في تدبير أمور منزل الدكتور. فإلى جوار رعايتها بالأطفال، كانت تقوم بالتنظيف والتلميع، والطهي والغسل. واعتادت أن تأخذ الملابس معها إلى منزلها لكي تكويها. وطبعًا لم يكن الدكتور قد طلب منها القيام بأي شيء من هذا، ولكنها هي من تطوعت، ربما لأجل الأطفال الصغار الذين كانوا يرتدون الملابس من دون كي، وهو ما كان يحزنها. وكانت تجد أنهم لا يتناولون غذاءً صحيًّا متكاملًا. فقد اعتاد الدكتور إحضار المعلبات والمأكولات الجاهزة.

سألتها "مارثا" وأصابعها تتقافز فوق لوحة المفاتيح تحسب حساب الطلبات:

- ألن تقومي بإحضار الأولاد معكِ إلى هنا ولو مرة؟ نحن لم نرهم أبدًا خارج البيت.

- ما زالوا صغارًا، "مارثا".

- صغارًا؟ لا بدَّ أنهم قد أتمُّوا العام الأول الآن – صح؟

- بالفعل، السبت الماضي.

- السبت الماضي؟ تسعة وعشرون سبتمبر؟

- بالضبط.

- ولكن هذا يعني أن عيد ميلادهم يوافق يوم عيد القديسين.

حدَّقت السيدة "مينوت" في البائعة مندهشةً. أردفت "مارثا":

- تسعة وعشرون سبتمبر؟ إنه عيد القديس مايكل والقديس جابرييل والقديس رافاييل.

- حقًّا؟ لم أنتبه لذلك أبدًا.

- زوجي كان اسمه "مايكل". لذلك أعرف هذه المعلومة. وربما قام الدكتور بتسمية أطفاله بهذه الطريقة لكونهم ولدوا في ذلك اليوم.

- وإلا لكانت مصادفة عجيبة.

- لا مصادفة هنا. قولي لي... هل أقمتم حفل عيد ميلاد لطيفًا للأطفال؟

أومأت السيدة "مينوت" وهي تشيح بوجهها، لأنها شعرت بأن وجهها يحمرُّ. لقد كان عليها ألا تكذب، ولكنها لا تزال تشعر بالسخط كلما فكرت في الأمر – فقد طلب منها الدكتور أن تعود إلى منزلها صباح ذلك السبت رغم أنها كانت قد وصلت للتو ومعها حقيبة مليئة بالهدايا ومن بينها بعض الكتب المصورة. أخبرها أن أولادها مرضى، وأنه قرر أن يبقيهم لبقية الأسبوع بعيدًا عن الناس. في غرفة معقمة – كان يسميها "غرفة العزل"، وهو اسم وقعه غير مريح على أذنيها. وعندما سألت الدكتور عن سبب مرضهم – وخاصة أنهم كانوا بصحة جيدة في الليلة السابقة – أجابها بأنهم مرضوا في أثناء منتصف الليل وأنه لا يزال يفحصهم ليعرف سبب المرض.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يمرض فيها الثلاثة في الوقت نفسه. حدث مرة أو مرتين أن قام الدكتور بعزل واحد منهم في الغرفة المنفصلة جوار مكتبه لبضعة أيام كإجراء وقائي، بعد أن لاحظ أعراضًا قد تشير إلى وجود مرض في بداياته: التهاب في الحلق، سعال خفيف، فقدان الوزن، أو طفح جلدي.

وجدت السيدة "مينوت" غرابة في ما يقوم به الدكتور، ولكنها لا تجرؤ على إبداء الرأي في تصرفاته. كما أن الثلاثة، "مايكل" و"رافاييل" و"جابرييل"، كانوا يعودون من العزل في أحسن صحة وأفضل حالٍ.

الحقيقة أن تعبير "أحسن صحة وأفضل حالٍ" هذا فيه الكثير من المبالغة، وهذا لأن هناك شيئًا ما "غلط" فيهم على الدوام. ولكن السيدة "مينوت" عجزت عن تحديد هذا الشيء. كما أن الدكتور لا يتحدث في ذلك، كما لو أنه يخشى أن يقر أمامها بأنه يجهله بدوره. وكان يتحدث عن مرضهم بمصطلحات لا تفهمها، ويؤكد لها أنه قائم على فحوصات في هذا الصدد. وذات مرة اقترحت عليه أن يستدعي أخصائيًّا ليفحصهم، ولكنه غضب من هذا الاقتراح لدرجة أنها لم تعد إلى هذا الاقتراح ثانيةً أبدًا.

- سيعجز أي طبيب غيري عن معرفة أي شيءٍ عن حالتهم.

وكان أسوأ شيء تواجهه "تشارلوت" هو أنها لا تعرف أي شيء عن مرض الأطفال، ولا عن الكيفية التي يمكن أن يظهر بها. فهي لا تعرف سوى أن الأطفال يشعرون بالتعب بسرعة، وأنهم لا يحبون أن يلمسهم أحد، وهي لم تلاحظ أي شيء يمكن أن يشير إلى خطورة حالتهم.

ذات مرة سألت الدكتور "هوب":

- ما الذي ينبغي عليَّ أن أنتبه له؟

- سيكون واضحًا بما فيه الكفاية.

أخرجت "مارثا بولين" السيدة "مينوت" من الاستغراق في أفكارها، وهي تسألها:

- هل صاروا يتكلمون بصورة جيدة الآن؟ قالت لي "روزيت باير" إنهم يتكلمون بالهولندية أيضًا. فقد سمعتهم يغنون أغنية هولندية.

- هناك فرق بين الغناء والكلام، "مارثا". لا بدَّ ألا تصدقي كل شيء تسمعينه. الأطفال تقلد وتردد ما أقوله فحسب.

هكذا عمدت إلى ليّ الحقيقة بعض الشيء، لأنها لاحظت في مناسبات عديدة أنها لا تقابل سوى بالحسد أو عدم التصديق كلما أتت على ذكر قدرات الأطفال الثلاثة اللغوية غير العادية. بل ويميل البعض إلى الاعتقاد أن "تشارلوت" تتفوه بمزاعم لا هدف منها سوى تبيان كم هي معلمة قديرة.

- ولكنهم صغار أذكياء، أليس كذلك؟

- ورثوا هذا عن أبيهم.

وقالت "مارثا":

- هذا لمصلحتهم بالفعل. تخيلوا لو أنهم لم يرثوا عن أبيهم سوى ملامحه. وكيف حال الدكتور؟

- مشغول... مشغول جدًّا. يعتقد الناس أنه قادر على المعجزات.

- هو بالفعل! لقد عالج في الأسبوع الماضي "فريدي ماكون" من التهاب المفاصل المزمن. حقنه بخمس حقن فتحسنت حالته تمامًا. أخبره الدكتور أنهم يستخدمون علاجه هذا في ألمانيا منذ سنوات. أتعلمين المصيبة، سيدة "مينوت"؟ المصيبة هي أننا متخلفون طبيًّا جدًّا هنا في بلجيكا. ومن الأسف أن الدكتور لم يعد إلى هنا في وقت أبكر من هذا. ربما أمكنه علاج "ميشيل" حينذاك.

- لا تفكري بهذه الطريقة، "مارثا". المكتوب مكتوب. كم ثمن هذه؟

ألقت "مارثا" نظرة على إيصال الطلبات لتتحقق من أنها لم تنسَ شيئًا:

- تسعمائة وعشرون فرنكًا، رجاءً.

أخرجت السيدة "مينوت" محفظة النقود، ومنها أخرجت ورقة بألف فرنك ووضعتها في اليد البضَّة الممدودة أمامها. غادرت بعد أن وضعت الباقي في محفظتها، وهي تجرُّ "ترولي" الطلبات وراءها.

ودعتها "مارثا" لما وصلت عند الباب:

- بلِّغي الدكتور تحياتي.

عبرت "تشارلوت" الشارع، والصوت المميز لاحتكاك عجلات "الترولي" البلاستيكية ببلاط الشارع يتبعها، ليلفت انتباه ثلاثة فتيان في الميدان، فلوَّحوا لها محيِّين. تعرفتهم هي؛ "فريتز " النحيف و"روبرت شيفالييه" و"جونثر ويبر" الأصم، والذي كان يأتيها لدروس التخاطب الأسبوعية لأن والديه لا يستطيعان تحمُّل تكاليف خبير تخاطب متمرس. لم تكن سعيدة بالنتائج التي حققتها معه، ولكنه صار الآن على الأقل قادرًا على التعبير عما يريد أن يقوله، بل وتغيرت حياته كثيرًا للأفضل منذ أن التحق بمدرسة الصم في "لييج" العام الماضي.

بادلتهم التحية، وأسرعت الخطى، ربما بدافع من سماع أجراس الكنيسة، التي دقت معلنة تمام السادسة. لم ترَ الأطفال منذ يومين. كانت قريبة من التليفون طيلة يومي العطلة، كما اعتادت، فلربما اتصل بها الدكتور ليطلب منها أن تأتي لتعتني بالأطفال

خلال خروجه لطارئ ما. ولكن القرية لم تشهد طارئًا – حتى إنها شعرت بالخجل من نفسها لما أدركت أنها تتمنى أن يقع لقروي خطب ما – وهكذا راح انتظارها سُدى.

لم يسمح لها برؤية الأطفال هذا الصباح أيضًا. أخبرها الدكتور أن صحتهم تحسنت كثيرًا، ولكنهم نائمون. كان يرغب في تركهم نائمين، وهكذا انشغلت في ترتيب المكان وتنظيف بعض أركانه، وهي ترهف السمع لعلها تسمع لهم صوتًا. وحتى لما حان موعد عودتها، كان كل من "مايكل" و"جابرييل" و"رافاييل" نائمين. وعندما اتصلت بالدكتور قرب الساعة الثالثة من بعد الظهر أخبرها أنهم قد استيقظوا في الواحدة والنصف، فتنفست الصعداء.

قرعت جرس البوابة. كانت أجراس الكنيسة قد انتهت من دقاتها الست التي خيمت على أسطح منازل "فولفهايم". كانت تتحرق شوقًا إلى الدخول وتختلس النظر عبر السور، آملة أن تشاهد الدكتور "هوب" وبين ذراعيه أحد الأطفال واقفًا عند النافذة في انتظار وصولها. ولكنه ليس هناك.

لقد تعلَّق قلبها بالأطفال، وهم تعلَّقوا بها. فرغم أن الظاهر هو أنهم لم يتخلوا أبدًا عن ذلك الحاجز الذي يضعونه بينهم وبينها، فإنها تشعر أن هذا الحاجز يتلاشى بالتدريج شيئًا فشيئًا. فمن المؤكد أن تعبيرات وجوههم أضحت تتغير عندما يرونها أتت، وكذلك حين يحين وقت رحيلها عنهم. ولو أنك لم ترهم من قبل فلن تلاحظَ ذلك الفارق، ولكنها تعودت أن تكون لماحة لأصغر التفاصيل: حتى ولو كانت مجرد اختلاجة لا تكاد تبين في ركن فم أحدهم، أو في أصابع آخر.

في آخر مرة كانت معهم فيها، قال لها "مايكل" وهي تهم بالانصراف وبحروف كلها لثغات:

– ابقِ، سيدة "مينوت"

وكأن قلبه كان يشعر بأن ابتعادها عنهم سيطول هذه المرة.

يتعلم الأطفال بسرعة. وقدرت السيدة "مينوت" أنهم يسبقون أقرانهم ممن في مثل عمرهم عقليًّا بستة أشهر على الأقل. كانوا يفهمون كل ما تقوله لهم تقريبًا، وتمكنوا من

النطق بجمل ألمانية وفرنسية بسيطة. وبوسعهم تجميع قطع البازل الخشبية والتي صممت لمن هم في عمر السنة والنصف، وتمييز الأشياء في كتب الصور أو في مجلات الكومكس.

ولكن نموهم البدني بقي بطيئًا. فلم يتمكنوا من المشي بعد، ويعانون من مشكلات في المهارات الحركية. واتضح لها هذا في مناسبات عديدة، منها عندما حاولوا إطعام أنفسهم أو التقاط شيء ما. ولكن السيدة "مينوت" أرجعت هذا لمحدودية الوقت المتاح أمامها لتخصصه لكل طفل من الثلاثة. فليس هناك من فرصة كافية لتمرن كل واحد منهم على حدة. كانت تقول لنفسها... "ليس لي سوى يدين!".

كما أنها تشك في أن الدكتور لا يمضي الوقت الكافي معهم بعد رحيلها عنهم. وأنه لا يقوم سوى بوضعهم في مقاعدهم الصغيرة أو في أماكن لعبهم، ومن ثم لا يوليهم سوى قليل من الانتباه، إلا في حال أراد أن يخضعهم لمزيد من فحوصاته الطبية.

انتبهت إلى صوت صبي يسألها:

- أهذا هو منزل الدكتور؟

شردت السيدة "مينوت". فالدكتور لم يظهر بعد، والصبية الذين كانوا يتسكعون عند الميدان قد تبعوها إلى هنا.

- أوه... هو المنزل. سيخرج الآن.

سألها النحيف:

- وكيف هم الآن، الإخوة "هوب"؟

- بخير. كيف حالك أنت؟ أرى أنك تكبر. سرعان ما ستكون أطول مني.

أجابها الصبي بفخر:

- يقول الدكتور إن طولي سيتجاوز المترين. لقد فحصني أول أمس.

انتهزها "جونتر ويبر" فرصة كي يعلق ساخرًا:

- يشبعه أبواه بالشلاليت طول النهار. لهذا يزيد طوله!

- ألا يركلك أبواك بما فيه الكفاية!

- عيب يا أولاد. توقفوا!

رمقت السيدة "مينوت" الباب الأمامي، ولكن لا مجيب.

قال "روبرت شيفالييه":

- يقول بابا إن أولاد الدكتور عباقرة.

صاح "جونتر" وهو يشير إلى أذنيه:

- عبـ... إيه؟

فكرر "روبرت" ببطء هذه المرة:

- عباقرة... مميزون.

غمزت لهم السيدة "مينوت" بعينها:

- ألستم أنتم أيضًا مميزين؟

وجدت الصبية وقد سعدوا متفاخرين:

- خذوا هذه، حاجة حلوة مني.

وضعت سلَّتها أرضًا، وفتشت في "ترولي" الطلبات ثم أخرجت كيسًا من بسكويت الزنجبيل.

قالت لهم وهي سعيدة لأنها تمكنت أن تسعد أي إنسان بقطع البسكويت هذه على الأقل:

- هذه من "مارثا" البقالة.

- مممممممم!

هكذا أبدى "جونتر" إعجابه بطعمها.

وتناول "ميكرز" و"روبرت" البسكويت منها وهما يشكرانها في صوت واحدٍ.

صاح "جونتر" بلثغته المميزة وهو يشير نحو المنزل:

- ها هو الدكتور.

كان الدكتور "هوب" قد فتح الباب واتجه نحو البوابة الأمامية.

سأل "ميكرز" بسرعة:

- متى يمكننا أن نأتي لنلعب مع أولاد الدكتور؟

- فيما بعد. لمَّا يكبروا.

وقال "جونتر" بفم ممتلئ بالبسكويت:

- هاي... إزَّيك يا دكتور؟

أومأ الدكتور برأسه وهو يفتح البوابة:

- أرجوكي أن تدخلي، سيدة "مينوت".

سأله "لانكي ميكرز":

- أي مساعدة؟

بدا أن الدكتور لم يسمعه. فقد انحنى ليحمل السلَّة، وهو يطلب منها سرعة الدخول:

- لا نريد أن نترك الأطفال وحدهم أكثر من هذا.

التفت "ميكرز" إلى صاحبيه وهو عابس الوجه. أما السيدة "مينوت"، فجرَّت "الترولي" وهي تودِّع الصبية. نظروا إليها وهي تبتعد في الممر. وعند الباب تناول الدكتور "الترولي" منها.

سألته السيدة "مينوت" قبل أن يدخلا:

- كيف حال الأطفال، دكتور؟ هل تحسنت حالتهم؟

لم يرد عليها. وتوقَّف ليدعها تمر وهو يقول:

- سأذهب بهذه إلى المطبخ، وأنتِ اذهبي إليهم.

لم تنتظر حتى يأمرها، فقد كانت خطواتها تسبقها.

ومن خلفها سمعته يناديها بنبرة متعجلة:

- سيدة "مينوت"؟

التفتت إليه في تساؤل، وخيل إليها أن عينه اليسرى ترتجف. هذه حركة تحدث لأطفاله في بعض الأحيان، عندما يكونون متوترين.

- لقد حدث أمرٌ ما، سيدة "مينوت".

وارتجفت عينه مرة أخرى.

6

مضى عام على عودة الدكتور "هوب" إلى القرية، وعادت "فولفهايم" إلى هدوئها مجددًا؛ وهكذا عادت مكانس القرية إلى استعمالها المعتاد بعدما توقفت صاحباتها عن التظاهر بالكنس، بينما هن يبحثن عن سبب لنميمة أو نشر شائعة عنه. ففي الشتاء كنست المقشات الثلج عن مداخل المنازل؛ وفي الصيف الذي أعقبه – وكان جافًا – كنست التراب الذي يهبط على الوادي من جبل "فالسبيرج"، ولما أتى الخريف صارت تكنس أوراق شجر "الزيزفون" الجافة التي نفضتها الأغصان إلى أرض ساحة البلدة. واستمر الدكتور "هوب" مستغرقًا في عمله على نحو صار يحتذى به، فيخفف عن القرويين وطأة السعال، وحروق الشمس، والإنفلونزا، وحصى الكلى، وغيرها من الأوجاع بوصفاته التي يحضرها في منزله يشربونها أو يتناولونها أقراصًا. صحيح أنه لم يقم بمزيد من المعجزات؛ ولكنها أمور تتطلب وقتًا، كما قال الأب "كايزرجربر" في واحدة من عظات يوم الأحد. وعلى كل حال، كان الجميع يتناول سيرة الدكتور بكل الاحترام، ونادرًا ما كانوا يتحدثون عن أطفاله، حتى ولو كان كثير من الناس يتساءل بعجب عن سبب أن أحدًا لم يرَ بأم عينه هؤلاء الأطفال الثلاثة، سواءً داخل منزلهم أو خارجه. ولم يكن غيابهم هذا ليثير أي دهشة خلال الشتاء – خاصة وقد جاء هذا الشتاء قارس البرودة، وبلغ ذروته بموجة استمرت عدة أسابيع – ولكن لما مرَّ الربيع الطلق والصيف الحار من دون أن يراهم أحد؛ عندئذٍ عادت الدهشة والتساؤلات لتخيم على أجواء نقاشاتهم. ولكن هذا الاهتمام لم يصل إلى حد المبالغة، وهذا لأن المرضى كانوا وهم في غرفة الانتظار يسمعون أحيانًا أصواتهم الصغيرة فيدركون أنهم بحالة جيدة. وقد أكد الدكتور نفسه هذه الحقيقة أكثر من مرة، وكذلك أكدت السيدة "مينوت"، والتي لا تزال تمضي بصحبتهم عدة ساعات يوميًّا.

رغم هذا، جاء وقت ظهرت فيه شائعتان تطوعتا بتقديم تفسيرين منطقيين لإخفاء الصغار الثلاثة. فقد زعم "ليون هيسمانس"، الذي سبق له منذ زمن أن درس الطب في جامعة لييج لعام واحد قبل أن ينقطع عن الدراسة، أنهم مصابون بداء الفيل – وقال إنه مرض يجعل رأس المصاب به ضخمًا مثل رأس الفيل. وقد خلص إلى هذا الاستنتاج من حقيقة أن صورة الأطفال الموضوعة فوق مكتب الدكتور لم تتغير منذ شهور – وقد كانت صورة بولارويد للأطفال قبيل عيد ميلادهم الأول. وقد كانت رؤوسهم بالفعل كبيرة جدًّا في تلك المرحلة، وتشكك "ليون" في أن ذلك التحول كان سريعًا حتى إن الدكتور لم يجرؤ على أن يعرض لهم صورة أحدث من تلك الصورة، وهذا على الرغم من أنه، وفقًا لما ذكرته "مارثا بولين"، لا يتوقف عن شراء أفلام للكاميرا البولارويد.

أما "هيلجا برنارد" فكانت تعرف الناس من حولها بمقال نشرته مجلة "ريدرز دايجست" يتحدث عن أن هناك من قد يصابون بحساسية من أشعة الشمس، ويكون عليهم أن يمضوا حياتهم بأكملها في الظلام.

- تحترق بشرتهم على الفور عند التعرض لأشعة الشمس. لا بد أنهم يعانون من شيء من هذا القبيل.

ولم تظهر الحقيقة إلا في سبتمبر 1986 – أو هي جزء من الحقيقة. فذات مساء وخلال آخر زيارة "لإيرما نوسبوم" للدكتور "هوب"، وكانت حجتها هذه المرة قياس ضغط دمها. فقد كانت في الزيارات السابقة تشتكي من آلام في الظهر، أو ألم في الأذن، أو حتى من فقدان الذاكرة؛ وأحيانًا ما كانت تتظاهر بألم في معدتها أو أحشائها، وزوجها وحده كان يعلم أن تلك الآلام محض خيالات.

كان الشاب "جوليوس روسنبوم"، وهو مريض بالسكر يحضر يوميًّا لجرعة الإنسولين، جالسًا في غرفة الانتظار عندما دخلت "إيرما نوسبوم". جلست قبالته حتى يتسنى لها أن ترمق باب غرفة الفحص، واختارت مجلة نسائية من بين رزمة المجلات الموضوعة فوق المنضدة. وسألت الشاب:

- هل بدأ الدكتور في استقبال المرضى؟

هزَّ "جوليوس" كتفيه من دون أن يرفع عينيه عن مجلة الكوميكس التي يطالعها.

- هل سمعت صوتًا لهم؟

- من هم؟

- أولاد الدكتور.

هزَّ "جوليوس" كتفيه مجددًا. عندئذٍ سمعا صوت انغلاق باب داخل المنزل، وطفل يصيح: "لا.. لن أفعلها!".

- لا بد أنه صوت أحدهم.

قالتها "إيرما" بسعادة. أرهفت السمع. بدا أن الصوت يأتي من الطابق العلوي.

- "مايكل"، لا تكن قليل الأدب. تعالَ إلى هنا!

نظرت إلى "جوليوس" الذي كان منشغلًا بالمجلة:

- واضح أن سيدة "مينوت" تجد صعوبة في السيطرة عليهم. هل يحدث هذا كثيرًا؟

أشار "جوليوس" برأسه نحو باب المكتب:

- لا أعرف. أعتقد أن الدكتور قد وصل.. ادخلي أنتِ أولًا، فلم أنتهي بعد من قراءة المجلة.

سعدت "إيرما" بعرض الشاب، ونهضت ما إن فتح الدكتور الباب.

كانت دائمًا تأخذ وقتها قبل الدخول عليه. فقد كانت عيناها تنجذبان دومًا إلى شعره ولحيته، كما كانت تجد نفسها تحدق في ندبته، والتي يحاول إخفاءها بشاربه.

- تفضلي سيدة "نوسبوم".

كان جالسًا إلى مكتبه، يبحث عن ملفها الطبي في أحد أدراجه.

انتهزت "إيرما نوسبوم" الفرصة لتعدل من وضع برواز الصورة التي على المكتب بحيث تراها.

- في كل مرة أتعجب، دكتور، من شدة الشبه.

رمقها الدكتور وأومأ برأسه.

- لا بد أنهم قد تغيروا بعض الشيء منذ أن التقطت لهم تلك الصورة – صح؟

أومأ الدكتور برأسه مجددًا، وهو يضع ملفها على المكتب.

- هل ما زالوا متطابقي الشكل؟

- بالفعل.

- وكيف حالهم، دكتور؟ أظن أنني سمعت صوت أحدهم وهو يصيح منذ قليل.

- سيدة "مينوت" تحاول أن تعطيهم حمامًا. والأطفال بطبعهم لا يحبون الاستحمام. أليس كذلك؟

- طبيعي! انتظر حتى يكبروا أكثر. كم أنا سعيدة لأن ولديَّ قد كبرا وتركا المنزل. كم عمر ولديكِ الآن؟

- قاربا على العامين. ولكن أرجوكِ أخبريني...

قاطعت "إيرما" الدكتور قائلة:

- عليك أن تغمسها في الماء البارد.

- معذرة؟

قالت وهي تشير إلى معطف الدكتور، حيث توجد بقعة بحجم عملة معدنية صغيرة في كمه الأيسر:

- تلك البقعة. أهذا دم؟ يمكنك أن تتخلص من بقعة الدم بوضع المعطف في الماء البارد لمدة ساعة، ثم اغسله على درجة ستين. ألا تعرف سيدة "مينوت" هذا؟

بدا محتارًا للحظات، قبل أن يفرك البقعة الجافة.

- أم هو حبر؟

كانت تشير إلى قلم حبر موضوع على المكتب.

- إذا كان حبرًا، فعليك أن تستخدم الخل، أو عصير الليمون.

قال لها الدكتور، وهو يخدش البقعة بظفره:

- سأخبر سيدة "مينوت".

- لا تفركها، فستزيدها سوءًا.

سحب الدكتور يده لا إراديًّا. واعتدل وبدأ يطالع ملفها.

- ما سبب حضورك إلى هنا مجددًا؟

قبل أن تجيبه "إيرما نوسبوم"، أو حتى أن تتذكر سبب حضورها، كان هناك صوت آخر آتٍ من أعلى، وكان هذا المرة عاليًا، وكأن أحدهم يهبط الدرج سريعًا، والتفت الدكتور و"إيرما" في اللحظة ذاتها نحو الباب المفضي إلى الممر، والذي انفتح على مصراعيه بكل قوة. كانت سيدة "مينوت". كان وجهها محمرًا وهي تلهث بقوة، ويدها تقبض على مقبض الباب. كان وجهها متجهمًا وعيناها تبرقان غضبًا من خلف النظارة.

انكمشت "إيرما" في مقعدها من مرأى هذا الكيان المهيب الطويل وهو يقترب نحوها. حتى إنها رفعت ذراعيها وكأنها تدافع عن نفسها، ولكن سيدة "مينوت" لم تكن منتبهة من الأصل لها. فقد اتجهت صوب الدكتور، الذي كان يقبض على ذراعي مقعده بقوة، ورفعت يدها نحوه لتلوح في وجهه بسبابتها متوعدة.

- لو أنك قمت ثانيةً بمد يدك على أطفالك فسوف أبلغ عنك السلطات! تذكر هذا، دكتور!

ثم استدارت على عقبيها، وانصرفت.

مذعورةً، وضعت "إيرما نوسبوم" يدها على فمها. ولكن الدكتور "هوب" لم يبدِ أي جزع، فقد نهض قبل أن تبتعد "تشارلوت مينوت".

- ما الذي تقصدينه سيدة "مينوت"؟ إنني لا أفهم...

توقفت والتفتت إليه:

- كيف تجرؤ على أن تتظاهر بأن شيئًا لم يقع؟

- صدقيني سيدة "مينوت"، أنا...

كانت عينا "إيرما نوسبوم" تتنقلان ما بين السيدة "مينوت" والدكتور. مترددة ما بين أن تتدخل أو أن تنأى بنفسها عن ذلك، وذلك عندما ظهر صغار الدكتور الثلاثة عند الباب بغتةً، وكل منهم ملفوف في فوطة استحمام.

إنهم صُلع. كان هذا هو أول ما لفت انتباهها. رؤوس الأولاد صلعاء تمامًا. ليس فيها ولو شعرة حمراء واحدة، وهو ما جعل رؤوسهم تبدو أكبر من حجمها الكبير أصلًا. وتحت بشرتهم شبكات متداخلة من العروق الزرقاء.

- وكأنني أنظر إلى ثلاثة مصابيح ضخمة.

هكذا وصفت فيما بعد لزوجها الذي كان يتحرق فضولًا ليعرف التفاصيل. ولكن "تشارلوت مينوت" بادرت سريعًا باقتياد الأطفال إلى الخارج نحو الممر، قبل أن تتمكن هي من إلقاء نظرات فاحصة عليهم.

- هيا بنا، لا بد أن تأخذوا الحمام.

هكذا ابتعدت من دون أن تلقي بنظرة أخرى نحو الدكتور. سمعتها "إيرما" وهي تهدئ من روع الأطفال، قبل أن يهدأ كل شيء.

وأمامها، كان الدكتور جالسًا يميل للأمام، وهو يفرك كفيه وكأن شيئًا لم يحدث.

- والآن، كيف لي أن أساعدك سيدة "نوسبوم"؟

- أنا لن أقوم بذلك!

أغلق "مايكل" الباب بقوة، ووقف في الصالة عاقدًا ذراعيه في عنادٍ.

نادته السيدة "مينوت" من وراء الباب:

- "مايكل". لا تكن أحمقَ. عد إلى هنا!

فتحت الباب ووقفت في الممر. كان "مايكل" واقفًا عند السلم، جاهزًا لينطلق لأسفل لو أنها اقتربت منه. لم تكن أول مرة تندلع فيها هذه الحرب بسبب الاستحمام، ولكنها أول مرة يظهرون فيها كل هذه المقاومة.

- يمكننا أن نستحم بأنفسنا.

هكذا قال "رافاييل"، الذي كان واقفًا عند باب الحمام مع "جابرييل"، وقد دسَّ يده أسفل إبطيه وكأنه يعبر بذلك عن عدم استعداده للتعاون معها.

بينما أكد "جابرييل" على كلامه قائلًا:

- يمكننا أن نخلع ملابسنا، ونستحم، ونجفف أنفسنا. كل هذا وحدنا.

وأومأ "مايكل" موافقًا:

- بأنفسنا.

- حسنًا. براحتكم. ولكن هذه المرة فقط. تعالوا، "مايكل"، ادخل.

تبع "مايكل" أخويه إلى الحمام. وهزت السيدة "مينوت" رأسها. إن الأولاد يمرون بمرحلة صاروا يرغبون فيها في معرفة كل شيء مما يجري حولهم. لماذا؟

لماذا هذا؟ وكيف؟ كان كل سؤال يؤدي إلى آخر. إنهم يريدون أن يقوموا بكل شيء بأنفسهم، حتى ولو كانوا غير قادرين على ذلك في هذه السن. هي تعرف أن عليها أن تكون أشد صرامة معهم، ولكنها لا تقدر. إنها تشعر بالشفقة عليهم.

دخلت إلى الحمام، ولكنها لم تجد أن أيًّا من الثلاثة قد بدأ في خلع ملابسه.

- حسنًا، ما الذي تنتظرونه؟

صاح "رافاييل" بغتة:

- أولًا نغسل أسناننا!

أسرع نحو الحوض، وتبعه أخواه. صعدوا فوق كرسي صغير حتى يتمكنوا من الوصول إلى الصنبور. تناول "رافاييل" فرشة الأسنان التي كانت مختلفة الألوان، وكانت بنفس ألوان الأساور التي في أيديهم.

تنظر السيدة "مينوت" إلى رؤوسهم الصلعاء في المرآة. وتتذكر كيف أنها كانت مخطئة في جدالها مع أبيهم حول صلع رؤوسهم بعد يومين من عيد ميلادهم الأول. فقد كانت تظن أن الدكتور هو من حلق رؤوسهم، إما بسبب قيامه بتجربة ما، أو ربما خطر له القيام بذلك. ولكنها عرفت منه أن شعرهم قد سقط من تلقاء نفسه، في ليلة واحدة. وحتى يثبت لها ذلك، عرض عليها الدكتور ثلاثة أكياس بلاستيكية مملوؤة بالشعر، كان قد جمعها من فوق وسائد أطفاله. وقد أكد لها الأطفال ذلك.

- سوف ينمو مجددًا على نحو جيد في النهاية.

هكذا أكد لها الدكتور، موضحًا أن هذا الصلع حالة مؤقتة. ولكن ها هو عام يكاد ينقضي ولم ينمُ ذلك الشعر من جديد. كما أن الدكتور لا يتوقف عن إخضاع أولاده لمختلف أنواع التجارب والفحوصات، والتي كان يتمنى من خلالها أن يتعرف على طبيعة المشكلة. وقد اشتمل هذا على إجراءات روتينية، من قبيل الاستماع إلى قلوبهم ورئاتهم، وقياس ضغط الدم، واختبار ردود أفعالهم العصبية، وكذلك إجراءات من نوع آخر: فيقوم مثلًا بأخذ عينات من البشرة، أو أخذ عينات دم من عروقهم الصغيرة مستخدمًا إبرة كبيرة – وجميعها متاعب مؤلمة يتعرض لها الأطفال ويحكون لها عنها بكل

بساطة، وكأنهم كانوا مجرد شهود على هذه التجارب وليسوا من يخضعون لها. والحقيقة أنها لم تجد سوى تغير طفيف في الأشهر القليلة الماضية. فهم لا يزالوا عاجزين عن التفاعل مع الأشياء، أو ربما هم قادرون على ذلك، ولكنهم يعجزون عن إبداء مشاعرهم – هذا أمر لا تعرف السيدة "مينوت" أسراره. الواضح لها هو أنهم لا يعبرون عن أي ردود أفعال، إلا عندما يرفضون القيام بشيء ما، وهو الأمر الذي صار يحدث بصورة متكررة الآن. فهم عندئذٍ يبدون عنادًا غير عادي، حتى إن السيدة "مينوت" صارت تظن أن هذه هي طريقتهم التي يعبرون بها عن خوفهم.

عادت تنظر إلى الصغار في المرآة من جديد، وتساءلت عما إذا كان بوسعها أن تتبين ما إذا كانت تلك الندبات تكون أوضح في المرآة عما هي عليه في الحقيقة، وبالتالي يكون ذلك التشوه أوضح. ولا بد أنهم قادرون على تمييز هذه الحقيقة بمجرد النظر إلى بعضهم البعض. تلك واحدة من أهم مميزات تطابق التوائم، فكل ما عليهم هو النظر إلى بعضهم البعض حتى يتبين كل منهم حقيقة ملامحه وكيف يراها غيرهم من الناس. ولكنها تدرك أن هذه نعمة ونقمة في آنٍ واحدٍ، فكل واحد منهم سيدرك من مجرد النظر إلى أخيه ما قد ابتلي به من تشوهات. تلك هي الحقيقة المرة. ولكن السيدة "مينوت" غير متأكدة مما إذا كانوا على دراية بتلك الحقيقة، فهم لا يرون غيرهم من الأطفال أو حتى الكبار. كما أنها لم تتحدث معهم حول هذا الأمر، وهو الحال مع والدهم بالتأكيد.

على الرغم من أنهم قدتغيروا قليلًا خلال العام الماضي، فلا يزال تشابه الأشقاء غريبًا. كانوا جميعهم قصارًا نحفاء، في حين لا تزال رؤوسهم كبيرة بشكل غير طبيعي. ولديهم أيضًا نفس عدد الأسنان غير المستوية، والتي تنمو في نمط مماثل داخل أفواههم، وكبرت تلك الندبة أيضًا بشكل مماثل. وسواء نظرت إليهم من قريب أو من بعيد، فإن تلك الأوردة الظاهرة على جماجمهم بقت على تكوينها دون اختلاف؛ كانت تتخذ نفس الشكل المنجلي الذي يبدأ من عند خلف الأذن اليمنى ويمتد عبر مؤخرة الجمجمة.

عندما بدأت السيدة "مينوت" عملها لدى الطبيب، كانت واثقة من أنها مسألة وقت قبل أن يتسنى لها التميز بين ثلاثتهم بمجرد النظر. فقد كانت معتادة التعامل مع كثير من التوائم خلال عملها معلمة. ولكنها اعترفت لنفسها أن الدكتور كان على حق عندما

أخبرها منذ البداية أنها لن تنجح في ذلك أبدًا، فهي وحتى يومها هذا عاجزة عن تمييزهم عن بعض.

- خلصت!

وضع أحد الأطفال فرشاته قبل أن يقفز عن المقعد. والتفت إليها يريها أسنانه رافعًا شفته العليا بأصابعه، خافضًا فكه السفلي. وتلقائيًّا، رمقت السيدة "مينوت" ذلك السوار في رسغ الطفل، حتى تعرف لونه. كانت حريصة على ذلك منذ أن حاول الأطفال تغيير أماكنهم ذلك الصباح. كانوا قد جربوا ذلك من قبل، ولكنها كانت تظل قادرة على التمييز بينهم من خلال لون السوار. ولكنهم هذا الصباح نجحوا في خلع السوار من أيديهم. ووضع "رافاييل" سواره حول معصم "جابرييل"، الذي وضع سواره حول رسغ "مايكل"، وأخذ "رافاييل" بدوره سوار "مايكل". على أن هذه الحيلة لم تنجح لفترة طويلة. لم تلاحظها السيدة "مينوت" بنفسها، ولكن حينما سألت "رافاييل" سؤالًا وهي ترمق رسغه وتخاطبه على اعتبار أنه "مايكل"، بادر "مايكل" الحقيقي صائحًا:

- هو "رافاييل". أنا "مايكل".

أي أطفال في مكانهم كانوا سيصيحون في صلابة وحماس مع ضحكات يظهرون بها أنهم قد "ضحكوا عليها"! ولكن هؤلاء الثلاثة اكتفوا بأن أطرقوا رؤوسهم نحو الأرض وكأنهم يقولون لها "ألم نقل لكِ من قبل؟". عندئذٍ أدركت السيدة "مينوت" أنهم يتمنون لو أنها غلطت في أسمائهم من جديد، وهكذا استمرت في ذلك، عدة مرات، وعن عمد هذه المرة. وفي الساعة العاشرة والنصف، وعندما كانت تتهيأ للرحيل، همس لها الأطفال وهم يضعون أصابعهم على أفواههم يطلبون منها ألا تخبر أباهم عما حدث. عرفت أنهم لم يحاولوا تجربة هذه الحيلة على أبيهم حتى الآن. انتبهت إلى "مايكل" وهو يسألها الآن من دون أن يحرك شفتيه:

- نظيفة؟

دققت النظر في أسنانه:

- برافو، "مايكل". ولكن هناك بقايا معجون في ركن فمك.

وبدورهما، نزل "رافاييل" و"جابرييل"، وبادرا بإظهار أسنانهما. فأومأت السيدة "مينوت" لهما معبرة عن رضاها. فقال لها "جابرييل":

- هاه. نقدر نعملها لوحدنا.

- قريبًا لن تحتاجوا إليَّ من الأصل. أوكيه... والآن اخلعوا ملابسكم. وسوف أجهز الماء في حوض الاستحمام.

استغرقت بعض الوقت في ضبط درجة حرارة الماء، وعندما التفتت إليهم من جديد، وجدت أن "جابرييل" كان الوحيد الذي نجح في أن يخلع ملابسه بالكامل. أمَّا "مايكل" فلم يكن قد خلع سوى أحد كميه، بينما يجاهد "رافاييل" حتى ينزع ملابسه عبر رأسه. في تلك اللحظة لمحت السيدة "مينوت" في المرآة شيئًا لم تكن قد رأته من قبل.

- ما هذا؟

كانت تشير إلى صورة ظهر "رافاييل" العاري على المرآة. فأجابها سريعًا:

- بابا عملها.

اقتربت منه وخلعت ملابسه. كانت هناك ضمادة صغيرة في حجم طابع بريد ملتصقة إلى جلده بشريط لاصق.

أضاف "رافاييل":

- غير مسموح لنا؟

- غير مسموح لكم ماذا؟

تسلل خوف إلى صدرها.

رد عليها بصوته الأخنف:

- أن ننزع تلك الشرائط.

بدأت تنزع الشريط ويدها ترتجف. وبدأ غضب يحل محل الخوف، رغم أنها حتى تلك اللحظة لا تعرف ما تتعامل معه. نزعت الضمادة بحرص. كان الجلد أسفلها أحمر متورم، ولكن تلك النقاط السوداء واضحة لا ريب فيها.

- ما هذا بحق الـ...

خطر لها خاطر فظيع. فركت النقاط بأصابعها، ولكنها لم تُمح، حتى بعد أن بللت طرف إصبعها بلعابها. نظرت إلى "جابرييل" و"مايكل"، الواقفين في سكون. تمنت لو أنها على خطأ، وهي تلتفت إلى "جابرييل" الواقف وظهره إلى الحائط. أدارته من كتفيه. فوجدت في ظهره نفس الشيء. نزعت الضمادة الثانية بحرص وعندئذٍ وجدت أن شكوكها صحيحة: نفس النقاط السوداء على الجلد، ولكنهما هنا نقطتان فقط. وقفت لحظات محتارة. قالت لنفسها إن هذا غير معقول، ولكنها كانت تدرك بعقلها أن الدكتور "هوب" لا يمنعه مانع من فعل شيء كهذا. نظرت إلى "مايكل"، ورغم أنه لم تكن هناك حاجة لفحصه هو الآخر، فإنها فعلتها، وكأنها تريد أن تصب البنزين على نار غضبها. لما نزعت الضمادة وجدتها نقطة واحدة فقط؛ وكأنها قطرة حبر على جلد الطفل.

- ابقوا هنا.

أمرت الأطفال وهي تهرع إلى خارج الحمام.

كان من الطبيعي أن تتناقل "فولفهايم" ما حدث من السيدة "مينوت"، التي كانت في حالة هياج حقيقية، في ذلك اليوم؛ وانتشرت العديد من الشائعات بإيقاع محموم. وكان من الطبيعي أن تكون "إرما نوسبوم" صاحبة اليد العليا في انتشار فيروس النميمة، الذي كان من السهل أن تحتضنه نساء البلدة، ليتنامى وينشط من فم إلى فم. وظلت غرفة الانتظار في عيادة الدكتور "هوب" مزدحمة بصورة فاقت المعتاد ولأسابيع. ورغم تعدد أنواع المزاعم التي تحتجج بها المرضى لدخول العيادة؛ من ألم في الأذن إلى الصداع إلى وخزة في جنب الظهر وحتى الدوار والغثيان، فإنه كان من الواضح للغاية أنهم جميعًا لا يعانون سوى من العرض العنيد نفسه. وكان لدى كل منهم تشخيصه الفريد لغضبة السيدة "تشارلوت مونيت"، ويتمنى كل واحد فيهم أن يقتنص أي كلام تتلفظ به، ليصل إليهم في غرفة الانتظار أو غرفة الفحص أو حتى في المطبخ. ولكن الغريب هو أنهم لم يكونوا يوجهون أي انتقاد أو اتهام للدكتور. بل على العكس؛ فقد كانت "أوديت سورمون" تشك في أن يكون الاكتئاب قد نال من المعلمة السابقة بعد أن صارت تحمل لقب "على المعاش"؛ بينما أصرَّت "كات بلوم"، القادمة من شارع "كيرتش"، على أن "تشارلوت ميونت" هي من تعتدي على الأطفال، وأرجعت "روزيت باير" السبب إلى الغيرة، معقبة أن على الدكتور أن يكون ناصحًا أكثر من هذا، وإلا

هربت تلك السيدة بأطفاله الثلاثة. ولكن القاسم المشترك بين تلك السيدات كان اتفاقهن على وجوب أن يقوم الدكتور "هوب" بطردها من هذا العمل، واليوم قبل الغد.

وفي مقهى "تيرمينوس"، حيث يفك النبيذ كل لسان معقود، تحدث "رينيه مورسنيه" إلى زبائنه وطلب منهم أن يتراهنوا على المدة التي ستبقى فيها "تشارلوت" في عملها هذا. وفي كل ساعة تمر من دون أن تظهر السيدة وهي راحلة كان أحد الزبائن ينهض ليضع المال الذي راهن به أمام صاحب المقهى، إلى أن شاهدوها وهي تغادر منزل الدكتور وتعبر ساحة القرية في طريقها إلى منزلها. وبقي الأب "كايزرجربر" طوال الوقت ساكتًا، وفضل أن يحتفظ برأيه لنفسه، ولكن "ياكوب فاينشتاين" وجد في سكوته هذا في حد ذاته دليلًا على أنه غير مستاء من سلوك أتباع أبرشيته، فمن المؤكد أنه لم ينسَ أن ترياق الدكتور "هوب" السحري هو الذي عالج أوجاع معدته المزمنة.

الحقيقة أن السيدة "مينوت" لم تطرد، وهي الحقيقة التي أدركتها السيدات ممتعضات وهن يسمعن صوتها مجلجلًا في جنبات منزل الدكتور، كله ثقة واعتزاز بالنفس.

وإلى جوار كل هذا اللغط حول "تشارلوت مينوت"، كان هناك قدر لا بأس به من الكلام عن أطفال الدكتور أيضًا. الكل كان يسأل عن ذلك السر المتعلق بهم، والكل كان يصل إلى استنتاجه الخاص. فاستمر "ليون هيسمانز" مصرًّا على أن السبب هو داء الفيل، وهو يدعم تشخيصه بصور من كتب مدرسية لأولئك المرضى المشوهين ذوي الرؤوس الصلعاء. ولكن البعض الآخر صار يميل إلى أن السبب هو ذلك المرض الفظيع الذين لا يجرؤون حتى على التلفظ باسمه.

أمَّا الدكتور "هوب"، فلم يغير قصته، وبقي يخبر كل من يسأله أن ليس هناك شيء، وأنهم على ما يرام؛ بل ويؤكد أنه أيًّا كان ما يعاني منه صغاره فهو غير ذي بال. ضعيف... أضعف حتى من فيروس الإنفلونزا الضعيف الذي يعم المنطقة مع كل فصل شتاء.

7

مرت أربعة أشهر طويلة لم تتبادل فيها السيدة "مينوت" كلمة واحدة مع الدكتور "هوب". وكانت تريد أن تتحدث معه عن وشم الأطفال في عدة مناسبات، ولكن بما أنه لم يعد يتعامل مع أبنائه إلى حد كبير بعد تلك الواقعة، باستثناء بعض الفحوصات العلاجية الروتينية، فقد قررت ألا تفتح هذا الموضوع مرة أخرى. وخاصة أن صحة الأولاد كانت في تحسن، حتى إنها تساءلت عما إذا كان الطبيب قد بدأ يجرب أدوية أو أساليب جديدة. على أن الأطفال لا يزالون منهكين في كثير من الأحيان، ويحتاجون لساعات نوم طويلة مقارنة بالأطفال في سنهم، ولكنهم بمجرد استيقاظهم يكونون أكثر رغبة في التواصل عما كانوا عليه من قبل، كما لو أن أحدهم قد خلصهم من حالة الذهول المتواصلة تلك. ونتيجة لذلك، صاروا فضوليين أكثر وراغبين في التعرف عما يجري خارج نطاق الجدران الأربعة المحبوسين فيها. ولكن "تشارلوت" كانت حريصة دائمًا على أن تقدم لهم إجابات سطحية، لا تثير فضولهم أكثر من اللازم.

- ما الموجود في الخارج؟

هكذا كانوا يسألونها في أكثر من مناسبة، وهم يشيرون نحو المنازل عبر الشارع.

- المزيد من المنازل؟

- إلى أين تذهب كل هذه السيارات؟

يسألونها كلما شاهدوا زحام السيارات في الشارع.

- إلى الجبل.

- أين تقع هولندا؟

- على الجانب الآخر من الجبل.

- متى سنذهب إلى هناك؟

- أوه... يومًا ما.

هكذا بقيت نظرتهم إلى العالم محدودة، بالمعنى الحرفي والمجازي للكلمة، بما يمكنهم مشاهدته عبر النافذة: الكنيسة، الشارع، المنازل، بعض الأشجار، السيارات، والناس. وتمنت السيدة "مينوت" لو أمكنها أن تصطحبهم وتخرج يومًا ما – حتى ولو كان هذا يعني مجرد عبور الشارع أو الوصول إلى ساحة البلدة؛ أي بداية على الأقل. وهكذا انتهزت فرصة حلول الربيع لتقرر أن تطرح الفكرة على الدكتور. لم تظن أنه سيعترض، وخاصة أن حالة الأطفال قد صارت أفضل بكثير.

- أود أن اصطحب "مايكل" و"جابرييل" و"رافاييل" إلى الخارج في هذا الجو الطيب.

- والسبب؟

- إنهم لم يخرجوا من قبل خارج هذا المنزل. وهم سيبلغون عامهم الثالث في غضون أقل من ستة أشهر، ولم يعرفوا أي شيء بعد عن العالم من حولهم.

- ولا أنا... وقت أن كنت في عمرهم.

أدهشتها إجابته. وكأنما يريد أن يجعل أطفاله يمرون بمثل ما مر به وقت أن كان طفلًا. فإذا كان هذا هو السبب الوحيد الذي يمنعه من السماح لأطفاله بالتعرف على العالم في الخارج، فإن عليها أن تحاول جاهدة أن تثنيه عن تلك الأفكار السخيفة. ولكنها تساءلت في قرارة نفسها عن سبب حبس الدكتور وهو صغير في المنزل؟ ولكنها سرعان ما أدركت السبب بمجرد نظرة أخرى – لم تستطع منع نفسها عنها – إلى تلك الندبة في وجهه. ولكنها لم تطرد الفكرة عن عقلها؛ فقد كانت تريد أن تعرف عما إذا كان هذا هو السبب الفعلي.

- أتخشى من أن يراهم الآخرون؟ هل أنت خجلان من أطفالك؟ هل هذا هو السبب؟

بالكاد تبينت ردة فعله – فهي جزء من الثانية تلك التي شرد فيها، وكأنما يكبت بداخله ألمًا خفيًّا – ولكنها كانت كافية لتتيقن من أنها قد لامست وترًا حساسًا.

- هل هذا ما تظنينه؟ هل هذا حقًّا ما تظنينه؟

- لست وحدي الذي يظن ذلك. الكل يظن ذلك.

سكت لحظات يستوعب فيها ردها.

- أنا لست خجلًا منهم. ما الذي دفعك إلى هذا الاعتقاد؟ وما الذي يدعوني إلى ذاك الخجل؟

بسبب منظرهم...

كاد لسانها يفلت بذلك الرد.

- إذن، فلا سبب هناك يدعوك إلى حبسهم، أم أن هناك سببًا؟

- لا أريد أن يحدث لهم مكروه. من الضروري ألا يحدث لهم مكروه.

فرط حماية إذن؟ أهذا هو كل شيء؟ أهذا هو سبب عناده؟ لقد اعتادت التعامل مع مثل هذه النوعية من الآباء: آباء كانوا جيرانًا للمدرسة، ورغم هذا كانوا يصرون على توصيل أولادهم حتى بوابة المدرسة، أو لا يسمحون لأطفالهم بالمشاركة في الرحلات المدرسية، أو يرسلون بورقة فيها قائمة الأنشطة التي لا يرغبون لبناتهم المشاركة فيها خلال الفسحة. ولكنها لم تسمع عن آباء يحبسون أولادهم في المنزل طوال الوقت. ربما يعود خوف الدكتور المبالغ فيه إلى حقيقة أنه قد فقد زوجته.

لم تطرح عليه هذا السؤال. فلم يكن مهمًّا بأي حال في هذه اللحظة.

- اسمحي لي إذن أن أخرج معهم إلى الحديقة. مؤكد أن احتمال تعرضهم لأي شيء في حديقة المنزل ضعيف للغاية. أليس كذلك؟ وسوف أراقبهم في كل ثانية.

سياسة الخطوة خطوة إذن...

- حسنًا، ربما، ولكن في حال كان الطقس جيدًا فقط.

لم يرغب الدكتور في أن يبالغ أكثر من ذلك.

وهكذا حققت "تشارلوت" نصرها الصغير.

وكما تخمد النار عندما تحبس عنها الأكسجين، تبددت إشاعة مرض الأطفال المزمن التي خيمت على القرية لعدة أسابيع شيئًا فشيئًا. كانت هناك عدة أمهات راغبات في الحفاظ على ذلك البصيص الضئيل الباقي من نار الإشاعة، ولكنهن أصبن بالخرس في ذلك اليوم السعيد من أيام ربيع العام 1987، عندما تناقل الأهالي خبر وجود الأطفال في حديقة المنزل. فقد اكتشف "فريدي ماكون" وجودهم هناك حينما كان يتريض مع الكلب عند ساحة القرية وسمع فجأة أصوات الأطفال عند الجانب الآخر من سور الورد البري العالي المحيط بحديقة الدكتور. اقترب ومشي بجوار السور إلى أن عثر على ثغرة يمكنه عبرها أن يشاهد داخل الحديقة. ولكي يثبت لمن يحكي له، كان يظهر لرواد مقهى "تيرمينوس" تلك الخدوش التي صنعتها أشواك الورد في يديه. قال لهم إن الأطفال الثلاثة كانوا جالسين إلى ترابيزة صغيرة في ظل شجرة الجوز العتيقة. وكانت السيدة "مينوت" معهم تقشر البطاطس. كان الإخوة يلعبون الورق. وبعد أن يقوموا برصِّ أوراق اللعب مقلوبة في أعمدة وصفوف، كانوا يتبادلون الأدوار في قلب الورق بحثًا عن أزواج متشابهة.

صاح "رينيه" وكأنه توصَّل إلى حل لغز:

- لعبة الذاكرة! تلك هي لعبة الذاكرة!

بينما سأل "جاك":

- هل هم صُلع؟

هزَّ "فريدي" رأسه قائلًا إن الثلاثة كانوا يرتدون قبعات تغطي رؤوسهم حتى آذانهم، وتخفي ملامح وجوههم.

هرش "جاك" في صلعته وهو يرد:

- طبيعي. وإلا احترقت رؤوسهم العارية من أشعة الشمس. الشمس قوية هذه الأيام. وماذا رأيت أيضًا؟

حكى لهم "فريدي" أن أكثر ما لفت انتباهه هو شحوب بشرتهم. فقد كانت أذرعهم وسيقانهم – فالثلاثة كانوا يرتدون التي شيرت والشورت – بيضاء مثل بودرة التلك. وكأن "سيدة مينوت" قد أغرقتهم في تلك البودرة قبل أن تخرج بهم.

سأله صاحب المقهى:

– هل كانوا يتحركون؟ هل كانوا في كراسي متحركة أو شيء من هذا القبيل؟

– لا أعلم. لم أشاهد أكثر من ذلك، لأن الكلب بدأ ينبح بغتةً.

– وما الذي كنت تتوقعه؟.. فالكلب المسكين لم يصدق عينيه. أنا أعرف ما سأقوم به في الغد. سيكون الجو صحوًا، ومن المحتمل أن يجلسوا في الحديقة مرة أخرى. هيا.. لنشرب في صحة أولاد الدكتور. جولة الطلبات هذه على حسابي.

وهكذا كان الخبر الذي نقله "فريدي" سببًا في أن يعمد كثيرون إلى التسكع على مدار أسبوع أو أسبوعين تاليين حول المنزل رقم 1 في شارع "نابليون"، لمحاولة استراق النظر إلى أي شيء. ولم يخب أمل كثير منهم، فعندما كان الطقس صحوًا كانوا يشاهدون سيدة "مينوت" ومعها الأولاد الثلاثة في الحديقة. وذات مرة شاهدوا الثلاثة يلعبون لعبة الذاكرة بورق الكوتشينة، وفي مرة أخرى كانوا يسمعون صوت سيدة "مينوت" وهي تقرأ من كتاب للأولاد، وفي أيام أخرى شاهدوهم وهم يجمعون قطع البازل؛ والتي كان عددها حسبما حكت "ماريا موريس" أكثر بكثير من ألعاب البازل المناسبة لتلك السن.

وفي داخل المنزل، صارت مشاهدة أبناء الدكتور شبه معتادة. كان العديد من أهل القرية يلمحونهم عند باب أو يسمعونهم يضحكون وهم يركضون بعيدًا في كل محاولة من أحد للاقتراب منهم. وذات مساء، رأتهم "روزيت" ينزلون درج الممر الواحد منهم تلو الآخر، وراء سيدة "مينوت". كانوا يشيحون النظر بعيدًا في خجل وهم يمرون عليها في طريقهم إلى المطبخ، ولكنها تمكنت من رؤية رؤوسهم الصلعاء. كما لاحظت ذلك التورم أسفل عيونهم؛ أنصاف دوائر زرقاء شاحبة. وبعد ذلك بوقت قصير كانت تسأل الدكتور عن حالهم.

– لا ينامون بشكل جيد سيدة "باير". الناموس يزعجهم.

عقبت "روزيت" - بعدما حكت الحكاية "لإيرما نوسبوم" – قائلة:

- لا يريد أن يعترف بالحقيقة. في البداية فقد المسكين زوجته، وبعدها تبين له أن أطفاله يعانون من مرض غريب. تعرفين أن الرجال لا يجيدون التعامل مع الحزن. يتحاشونه فحسب. أسهل عليهم أن يتظاهروا وكأن شيئًا لم يحدث.

وكذلك شاهد "جوليوس روزنبوم" الأطفال في منزل الدكتور؛ بل وتحدث معهم.

خرج ليصيح وسط زملائه في ساحة القرية في الصباح التالي:

- كلَّمتهم!

كانوا ينتظرون الحافلة التي تقلهم إلى المدرسة في "هرجنراث".

سأله "لانكي ميكرز"، وهو يلكز صدر "روبرت شيفاليه"، الذي بدوره كان يبصبص "لجريتا بيك" التي في الصف الخامس:

- من هم؟

- أولاد الدكتور طبعًا!

سأله "سيبه" ابن الخباز الذي وصل للتو:

- ماذا قلت؟

- كلَّمت أولاد الدكتور! ليلة أمس!

- طيب احكِ لنا... احكِ لنا .

هكذا بدأ "جوليوس" يحكي لهم، بعدما ألقى نظرة ناحية منزل الدكتور:

- كنت وحدي في غرفة الانتظار بالعيادة حينما انفتح الباب. قلت لنفسي أكيد هي سيدة "نوسبوم" الحِشَرية، لذلك لم أرفع عينيَّ عن الكتاب. لم أسمع شيئًا في البداية، ولكنني سرعان ما سمعت همسًا. نظرت، فرأيتهم. أمام عينيَّ! ثلاثتهم! أولاد الدكتور. إنهم صُلع، ورؤوسهم كبيرة في حجم كرة القدم، وفي وجه كل منهم ندبة – مثل هذه.

دفع ركن فمه بسبابته لأعلى نحو أنفه.

سأله "ميكر" عن طولهم. فأشار نحو كل من "ميتشيل" و"مارسيل"، الصغيرتين اللتين كانتا في انتظار الحافلة، قائلًا:

- هم أقصر منهما على الأقل.

أضاف وهو يهمس ناظرًا إلى البنتين الممسكتين بيدي أمهما:

- وليسوا بدناء مثل البنتين. الحقيقة هم نحفاء.

بادره ابن الخبَّاز متسائلًا:

- وبعد؟ ماذا حدث؟

- سألني أحدهم عن اسمي؟

- لم تخبرهم، أليس كذلك؟

- بالطبع أخبرتهم. كنت مذهولًا تمامًا.

سأله "روبرت":

- وهل يتحدثون الألمانية؟

- ألمانية فصحى.

- كيف هو صوتهم؟

خمَّن "ميكر":

- أكيد صعب الفهم. وكأنهم يفتحون أفواههم بصعوبة. صعب عليهم بسبب الندبات.

- أقول لكم إن منظرها غريب.

- وبعدين؟

- سألني نفس الطفل عمَّا أقرأ، فقلت له إنني أذاكر. فسألني أين المدرسة. قلت له في "هرجنراث". سألني اين "هرجنراث". أشرت ناحية أي مكان وأنا أقول له هناك. فسألني أخوه عما إذا كانت بعيدة عن هنا. فقلت له إنها على بعد ثلث ساعة بالحافلة. فقال إنها بعيدة بالتأكيد.

علَّق "ميكرز":

- لا أعتقد أنهم على ذلك القدر من الذكاء. أستبعد هذا.

واصل ابن الخباز إلحاحه طالبًا بقية الحكاية.

- لم يحدث شيء آخر. فقد حضرت سيدة "مينوت" ووقفت عند الباب واضعة يدها عند خصرها. أخبرت الأولاد بصرامة أنه ممنوع عليهم الوجود في غرفة الانتظار. فأسرعوا بالخروج، ولكن ليس قبل أن...

سأله "روبرت":

- ليس قبل ماذا؟

- قبل أن يخرجوا، مد أحدهم يده إليَّ ليلمس شفتي العليا. وكأنه يريد أن يتأكد من كونها حقيقية. أنا لا أصدق ما فعله!

فقال "روبرت" بسخط وهو يرمق منزل الدكتور:

- هاه! يا لقوة أعصابه!

بقي ناظرًا إلى المنزل وهو يشير إليه متشبثًا بكم قميص "ميكرز":

- ها هم هناك! عند النافذة في الطابق الأرضي!

التفتوا جميعًا إلى تلك الناحية من المنزل وشاهدوا الأطفال صلع الرؤوس عند النافذة. كان الأطفال يسترقون النظر إليهم بدورهم؛ وسرعان ما اختفوا عن الأنظار عندما لوَّح لهم ابن الخباز بقبضته مغتاظًا. ولكن ما هي إلا ثوانٍ حتى ظهرت الرؤوس الثلاثة معًا في اللحظة ذاتها..

وكأنها ثلاثة رؤوس في جسد واحد.

8

ربما لم يكن ينبغي عليها أن تأخذ تلك الخطوة مرةً واحدة، ولكن السيدة "مينوت" بدأت في الإلحاح على الدكتور "هوب"، محاولة إقناعه بأن يسمح لأولاده بالالتحاق بالمدرسة بعد انتهاء العطلة الصيفية – وخاصة أنهم سيبلغون الثالثة من عمرهم في سبتمبر. وكان يقابلها بالعديد من الحجج أملًا في أن يثنيها عن رأيها، ولكنها كانت تدفع الحجة بالحجة، واحدة تلو الأخرى.

- ما زالوا صغارًا.

- إنهم يُلحقون الطفل في بلجيكا بالمدرسة وهو بعد في سن العامين ونصف العام.

- إنهم ليسوا مستعدين للمدرسة.

- بل هم على أتم استعداد ومنذ فترة. بل إنني لم أتعامل من قبل مع أطفال على مثل هذا القدر من الذكاء. هم يسبقون عمرهم.

- صحتهم. إنهم يتعبون من أقل مجهود.

- إذن، لتكن مدرستهم لنصف يوم في البداية. وهو أمر طبيعي ومقبول.

- من السهل جدًّا أن يصابوا بأي عدوى وهم في المدرسة.

- وهي مخاطرة قائمة حتى وهم في داخل هذا المنزل.

ولكنه لم يوافق بعد.

وعندما عادت لتفتح الموضوع من جديد بعد أيام فتحته من باب أهمية الالتحاق بالمدرسة لنموهم الاجتماعي وتواصلهم مع الأطفال في مثل سنهم.

- تكفي علاقتهم ببعضهم البعض. أنا عندما كنت في عمرهم لم أتعامل مع أي طفل آخر.

ها هو ذا يعود لمقارنة أولاده به. وكأنه يرغب في أن يكبر الأطفال ليكونوا نسخة طبق الأصل منه، لذلك سألته بكل جرأة:

- ما الذي تأمل في أن يكونوا عليه عندما يكبرون؟

ولكنه أجابها بنبرة صدق أدهشتها:

- أن يكملوا العمل الذي بدأته. وأن يرتقوا به إلى مستويات أفضل.

كما يتوقع المرء. فهو لم يأتِ بجديد. فالعديد من الآباء يتوقعون من أولادهم أن يحققوا ما عجزوا هم عن تحقيقه لأنفسهم.

- في تلك الحال عليك أن تسارع بإرسالهم إلى المدرسة.

- حينما يكونوا في عامهم السادس سيدة "مينوت". عندما يكونوا كبارًا كفاية للمدرسة الابتدائية. وليس قبل ذلك ولو بيوم.

مؤكد أنه سيدرك يومًا ما فاته من مزايا إلحاق أولاده بالحضانة. وحتى ذلك الحين، شرعت تدرس للأطفال الثلاثة بعض الأشياء من خلال أسلوب اللعب. وكانوا يحققون تقدمًا يذهلها. وجدت أنهم أذكى كثيرًا مما كانت تظن. فما هي إلا أربعة أسابيع، ورغم أنها لا تقوم بتعليمهم سوى ساعتين يوميًّا بكل تركيز – حيث تقضي بقية الساعات في تدبير شؤون المنزل – حتى كان "مايكل" و"جابرييل" و"رافاييل" قد تعلموا بالفعل قراءة عدد لا بأس به من الكلمات. لم تكن تقصد تعليمهم القراءة، ولكنها ما إن عرفتهم على طريقة ترابط الأحرف مع بعضها لتكون الكلمات، حتى بدأ الأطفال تلقائيًّا في قراءة كل كلمة تصادفهم، وتهجئتها، في الصحف والمجلات والكتب، وفي الملصقات والملفات، وعلى الأكياس الورقية والعلب والكراتين – أي شيء حطت عليه الكلمات. وهو الأمر الذي شجع السيدة "مينوت" على أن تأتي من مدرستها القديمة ببعض الكتب التي كانت

تستخدمها في تعليم القراءة. والتهم الثلاثة تلك الكتب في وقت لا يذكر. كانوا يتلاعبون بالأحرف بنفس الطريقة التي يتلاعب فيها الأطفال بالمكعبات أو السيارات اللعبة.

وهكذا أيضًا كانت طريقتهم في تعلم الحساب. فما إن علمتهم الأعداد من واحد إلى عشرة، حتى بدأ الأولاد في عد كل شيء وأي شيء وبنفس حماسهم تجاه الكلمات الجديدة. كانوا يحصون التفاح في سلة الفواكه، والبيض في الثلاجة، وأزرار قمصانهم، والكتب في المكتبة، وسرعان ما كانوا شغوفين لمعرفة بقية الأعداد، ما بعد العشرة، وبعد بعدها، وبعد بعد بعدها... حتى وصلوا إلى المائة.

لم يكن هناك مفر من أن يلحظ الدكتور "هوب" ما يحرزونه من تقدم، ولكنه صمد لشهرين قبل أن يقرر فتح الموضوع. كانت السيدة "مينوت" تظن أنه غاضب منها، لكونه يعتقد أنها تفعل كل هذا حتى تثبت له حاجة الثلاثة إلى الالتحاق بالمدرسة. وهكذا بوغتت بما قاله لها، حتى اعتقدت في البداية أنه يقصد طريقة تدبيرها لشؤون المنزل.

- لقد قمتِ بعمل يستحق التقدير سيدة "مينوت".

كانت تقف في الصالة، تتأهب لمغادرة المنزل، فلم تجد سوى أن تشكره على ثنائه.

- لقد استطعتِ أن تخرجي من الأطفال ما لم أتوقعه أبدًا. أكثر مما كنت آمل.

- الفضل لهم. إنهم يلهمون بعضهم البعض. الأمر بالنسبة لهم مجرد لعبة.

كانت تود أن تضيف رأيها؛ إنهم يبذلون كل هذا الجهد حتى لا يتذكروا معاناتهم في هذا الوجود البائس.

- بل هذا تواضع منكِ.

- كانوا ليفعلوا هذا مع أي معلمة أخرى. وبنفس السرعة.

- ليس في حضانة المدرسة. إنها مضيعة للوقت.

باغتها كلامه. وتبين لها في تلك اللحظة أنه – وبفضل مجهوداتها – قد وجد سببًا آخر لعدم إرسال الأطفال إلى المدرسة. ولكن ها هو حل محتمل يطرح نفسه.

- بوسعي أن أسأل في المدرسة إن كان من الممكن إلحاقهم بفصل أعلى. كان لدينا ذات مرة طفلة موهوبة مثلهم.

تذكرت "فاليري ثيفينيه"، من "لا تشابل". فقد أمضت البنت الصغيرة فصلًا دراسيًّا واحدًا في السنة الأولى، وفي نهايته كان مستواها أعلى بكثير من أقرانها، حتى إنهم نقلوها في الفصل التالي إلى السنوات الأعلى. ثم استحقت أن تتخطى سنة ثالثة. ووقت أن صارت في العاشرة، أرسلها أهلها إلى مدرسة داخلية في "لييج"، حيث التحقت بالمرحلة الثانوية. وأطفال الدكتور هؤلاء يمتلكون مستوى أعلى حتى من "فاليري". إنهم في مستوى تلاميذ سنة أولى. والحقيقة أنها لم تكن متيقنة من إمكانية الموافقة على طلب مثل هذا، ولكنها فرصة ولن تفوتها.

- ليكن هذا خيارًا مفتوحًا، لاحقًا.

ثم أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يعقب:

- أنا أودُّ منكِ أن تقومي بتعليمهم.

فوجئت بالطلب، وعجزت عن الرد في البداية. فقد راودها شعور غريب، هو مزيج من مشاعر السعادة بهذا الإطراء ومشاعر الضيق من محاولة الاستغلال هذه.

- وطبيعي أنني سأزيد المرتب في المقابل.

وكأنه يؤكد لنفسه فكرة يودُّ تنفيذها.

- وماذا إن رفضت؟

كانت تتساءل في قرارة نفسها عما إذا كان سيتركها ويبحث عن غيرها.

- لا أعرف. أنا أريد منكِ القيام بذلك.

وهي بدورها لا تعرف، وتخشى أن تتفوه برد غير مناسب.

- أنت فاجأتني، دكتور. أريد مهلة للتفكير في الأمر.

- عرفيني في الغد، أرجوكِ. هذا لمصلحة الأطفال سيدة "مينوت". وفي مصلحة الآخرين أيضًا. مصلحة الكل.

- ما الذي تقصده؟ من هم الآخرون؟

- البشر!

حدقت فيه بشدة، ولكنه – كعادته – كان يصوب أنظاره إلى الأرض. فقالت لنفسها إنه كلام فارغ فحسب. المهم الأطفال. ومصلحتهم. هم وحدهم. وهو في هذا محق.

أخبرته بما أرادت. شروطها حتى توافق على أن تكون معلمةً لأولاده.

أولًا، أن يقوم بتجهيز واحدة من غرف الطابق الأول غير المستغلة ويجعلها مثل فصل في مدرسة، حتى يشعر الأطفال أنهم في مدرسة بالفعل، ومن ثم يعودون إلى "منزلهم" في الطابق العلوي بعد انتهاء وقت المدرسة. كما أن هذا من شأنه أن يمنحها حرية أكبر، وخصوصية أكثر، مقارنة بوجودها في المطبخ. وطبعًا لم تتفوه بتلك الأفكار. ثانيًا، أن يتم تمديد عدد ساعات عملها، فهي لن تتمكن أبدًا من النهوض بمهام المنزل وتعليم الأطفال خلال أربع ساعات فقط. وعقبت قائلة إنه إذا وافق على هذا الشرط فإنها لن تطالب بزيادة مرتبها كما اقترح هو من قبل – فقد كانت تخشى من ألا يوافق على شروطها لو أنها طلبت زيادة. وسرعان ما ندمت على هذا العرض لما وجدته يبادر بالموافقة على الفور، من دون حتى أن يسأل عن عدد الساعات الإضافية التي تريدها.

اتفقا على أن تحضر طوال أيام الأسبوع من الساعة 8 ونصف، وحتى الساعة 11 ونصف، ومن الساعة 5 حتى الساعة 8 مساءً، وهو ما يعني زيادة قدرها ساعتين. وهي حرة في طريقة استغلالها لتلك الساعات. كما اتفقا على أن تقوم بتدريس الفرنسية للأطفال طوال أسبوع، ثم الألمانية في الأسبوع التالي.

- هكذا وفي حال تعلموا الإنجليزية بعد أن يكبروا قليلًا فعندئذٍ يكونون قادرين على التفاهم مع نصف العالم.

ولكن السيدة "مينوت" قالت لنفسها إن التواصل مهارة تستلزم اكتساب ما هو أكثر من مهارات اللغة.

وفي تلك اللحظة قدم لها مقترحًا أدهشها تمامًا:

- هلَّا علمتيهم أشياءً عن المسيح؟

- معذرة؟

- عن المسيح. من العهد الجديد.

- أعلمهم عن المسيح.

كررت في تذمر.

- عن المسيح. ليس عن الرب. المسيح فقط.

- المسيح فقط؟

- ومن العهد الجديد وليس القديم.

لم تصدق أذنيها. فهي لم تجد الدكتور أبدًا من النوع المتدين. كما أنها تعجز عن تصور طريقة تعلم بها الأطفال عن المسيح من دون أن تأتي على ذكر الرب. لذلك سألت الدكتور مجددًا، على أمل أن يجيبها إجابة شافية:

- إذن تريد مني أن أعلمهم عن المسيح، ولكن ليس عن الرب؟

- بالضبط.

- ولكن هذا غير ممكن. مستحيل.

- لا شيء مستحيلًا سيدة "مينوت". ربما صعب، ولكنه أبدًا ليس بمستحيل.

رأت ألا تلح أكثر من ذلك. هي راضية بهذه الموافقة على منح الثلاثة تلك الجرعة الدينية المحدودة، حتى ولو كانت تحت ذلك القيد.

ولكنها عقبت قائلة:

- لم أكن أعلم أنك معني بالدين، دكتور. أنت لا تذهب إلى الكنيسة.

- الكنيسة بيت الرب. وليس هناك ما يهمني لأذهب.

- إذن، ليس هنا ما يهم الرب أيضًا.

كانت تمزح، ولكن الدكتور رد باقتضاب حزين:

- الرب في كل مكان. في السماء. في الأرض. في كل شيء.

تلك عبارة من ضمن العبارات التي حفظتها في الصغر لإجابة بعض الأسئلة الدينية؛ من قبيل "أين الرب؟". ولم تنسها أبدًا.

- أين كانت مدرستك؟

كان سؤالًا فضوليًا منها، وفي الوقت نفسه كانت تريد تغيير الموضوع. لم تكن تود أن تدخل معه في مناقشة دينية. فمثل تلك المناقشات مقيد بمسارات بعينها لا تتغير.

سكت لحظات قبل أن يجيبها:

- في "أوبن".

- مدرسة الإخوان المسيحيين؟

أومأ برأسه موافقًا.

- مدرسة داخلية؟

أومأ مجددًا.

كانت تعرف المدرسة، أو بمعنى أصح وصلتها سمعتها، حيث يخضع التلاميذ لتنشئة كاثوليكية صارمة، ويبدو أنها قد تركت أثرها القوي على الدكتور. كانت تتوق لمعرفة رأيه في تجربته بتلك المدرسة.

- ما رأيك في...

ولكنه قاطعها:

- لديَّ عمل كثير سيدة "مينوت". في وقت آخر.

يا لطموحها... ظنت للحظات أنها قد نجحت في إحداث شرخ في ذلك الجدار الذي يتحصن بداخله، ولكنها كانت مخطئة.

- في وقت آخر إذن.

***

لم يكن "فلورنت الصنايعي" بحاجة إلى أكثر من ثلاثة أيام حتى يحوِّل غرف الطابق الأول بمنزل الدكتور إلى فصل دراسي أشبه بفصول المدرسة. قام بطلاء السقف والجدران، وصقل ألواح الأرضية القديمة، ونظف قضبان النوافذ الصدئة، وعلق السبورة التي كان الدكتور "هوب" قد أرسل في طلبها مع ثلاثة "تُخت" خشبية ومكتب للمعلمة. واستغرب أنه خلال كل هذا الوقت لم يرَ الأطفال، وكاد ييأس من رؤيتهم في اليوم الأخير لعمله، حينما ظهروا فجأة في الفصل، ولا شك في أن الذي جذبهم إلى هناك هو صوته العالي حينما صاح متعمدًا:

- ها أنا ذا قد انتهيت! سوف يكون أولاد الدكتور في غاية السعادة!

اتجه الأولاد إلى التُّخت مباشرة، من دون حتى أن ينظروا إليه. وجلس كل منهم إلى تختة، وظهر أنها تناسبهم تمامًا، رغم ضآلة أجسادهم ونحافتها. لم تكن أقدامهم تصل إلى الأرض، وهكذا كانت سيقانهم الصغيرة تتدلى متأرجحة تحت سطح التختة. كانوا يداعبون خشب التختة بأصابعهم، بينما بقي الصنايعي محدقًا في دهشة في تلك الرؤوس الثلاثة الصلعاء. وحينما رأى تلك العروق الزرقاء الظاهرة أسفل بشرتهم الضعيفة تذكر تلك العروق النحيفة التي تميز أسطح قطع الرخام.

تحول انتباه الأولاد عن أسطح التُّخت إلى تلك الشمَّاعات المخصصة لتعليق حقائبهم المدرسية، ثم إلى الأرفف أسفلها، حيث سيحتفظون بكتبهم ودفاترهم، ثم إلى التجاويف الممتدة في ظهر أسطح التُّخت.

- تلك الأقلام الرصاص وأقلام الحبر.

اتجهت أنظار الأطفال إليه للحظات حينما وجه حديثه إليهم. وذهل الصنايعي مما رآه. فوحدها تلك الندبات عل شفاههم العليا وتلك الأنوف المسطحة هي التي بقيت من

دون تغيير في الصورة التي احتفظ بها عنهم في مخيلته منذ آخر مرة قام فيها بأعمال للدكتور. ورغم أن الأطفال في عامهم الثاني الآن، فإنها فترة زمنية لا تسمح بكل هذا القدر من التغيير الجسدي. فهم يبدون أكبر كثيرًا من عمرهم الحقيقي، ولا يرجع هذا الانطباع إلى تلك الرؤوس الصلعاء وحدها، ولكن كذلك إلى تلك التورمات السوداء الكبيرة أسفل أعينهم، والتي أضفت مسحة من الكبر على وجوههم، ناهيك عن كون وجوههم تخلو من الحواجب. وكأن الثلاثة يرتدون أقنعة، ليس بها سوى تجويفين تظهر العينان منهما. كما أنه يشعر وكأن تلك الرؤوس ليست لتلك الأجساد. وبعيدًا عن هذه التغيرات، فإن الثلاثة متطابقو الشبه مثل حبة فول قسمت إلى نصفين، حتى إن الصنايعي – بعينه الخبيرة التي اعتادت تبين أتفه الأخطاء في عمله – عاجز عن تمييز أحد منهم عن الآخر. ولما كان الثلاثة يحدقون فيه وكأنهم لم يفهموا ما قاله، فقد مشي خطوات للأمام، وسحب القلم الرصاص الذي كان يضعه على أذنه اليمنى، ووضعه في التجويف المخصص له في التختة الوسطى.

- عرفتم قصدي؟

ولكن الولد الجالس إلى تلك التختة قال له بصبر فارغ:

- نعرف هذا طبعًا.. تظن أننا أغبياء؟

اندهش الصنايعي مجددًا، وهذه المرة بسبب صوت الولد، والذي كان شديد الشبه بصوت الدكتور، عدا أنه أعلى منه بكثير، وفيه بحة مزعجة، وكأنها صوت أظافر تخدش سطح تلك السبورة السوداء.

- هناك طباشير أيضًا.

التقط الولد قطعة طباشير زرقاء، ثم وقف على أطراف أصابعه، وبدأ يكتب. هناك وريد متضخم يمتد عبر مؤخرة رأسه من أذن إلى أخرى، وكأنها خيط دوبارة يربط ذراعي نظارة. لديهم كلهم نفس هذا الوريد في مؤخرة رؤوسهم. ولاحظ "فلورنت" أن الثلاثة عُسر، وأنهم لا يزالون يرتدون تلك الأساور الملونة.

وبغتة، تردد صوت "تشارلوت مينوت" قادمًا من أسفل:

- هل ثلاثتكم فوق؟

لم يجبها أي من الثلاثة. فكان على "فلورنت" أن يجيبها:

- أجل، إنهم هنا.

- كنت أعرف هذا.

سمع وقع خطواتها فوق الدرج. وسرعان ما ظهرت بجسدها الكبير عند الباب. كانت تحمل صندوقًا كرتونيًّا تحت ذراعها، وتحت الذراع الأخرى لفة ورق.

قالت له وهي تشير برأسها إلى اللفة تحت ذراعها اليمنى:

- مرحبًا "فلورنت". سعيدة أنك لا تزال هنا. هلا ساعدتني في تعليق هذه الصورة؟

أومأ الصنايعي برأسه وهو يسرع نحو الباب. تناول اللفة منها، واشار بإبهامه إلى الثلاثة الواقفين عند السبورة، وهو يهمس لها:

- إنهم يعرفون القراءة والكتابة بالفعل.

- وكذلك الحساب. خذ حذرك إذن وأنت تجهز فاتورتك.

نظر إليها مشدوهًا. فبادرته وهي تربت على كتفه في صرامة:

- إنها دعابة.

- ما هذه؟

صاح أحد الأولاد. كان قد التفت وهو يشير بقطعة الطباشير نحو اللفة. كانت عيناه جاحظتين بشكل مبالغ فيه، وكأنها لحظات قبل أن تقفزا من محجريهما. أشاح الصنايعي بوجهه بعيدًا حتى لا تظن السيدة أنه يحدق فيه. بينما قالت السيدة "مينوت":

- خريطة أوروبا.

كان الصنايعي هو من سألها متعجبًا:

- خريطة أوروبا؟

أجابته وكأنها تخبره بسرٍّ خطير:

- لقد كانت اللوحة الوحيدة التي وافقت المدرسة على التخلي عنها لي. كما أنها مفيدة أيضًا، وهذا لأن الأولاد يحلمون بأن يكونوا رحَّالة حول العالم – أليس كذلك؟

أجابها "جابرييل":

- طبعًا، سنسافر بعيدًا.

فقال الصنايعي:

- حسنًا، من الأفضل لي أن أسارع بتعليق هذه الخريطة، حتى لا تضيعوا أي وقت. أين تريدين تعليقها سيدة "مينوت"؟ عند النافذة؟

- أجل، لا بأس.

- هل ستقومين بالتدريس لهم؟

- تلك رغبة الدكتور. ستكون الحضانة مضيعة وقت بالنسبة لهم.

- هو صح. فهي بلا فائدة لهم، طالما أنهم على هذا القدر من الذكاء. هنا؟

كان يشير بالشنيور إلى بقعة محددة في الحائط، فأومأت السيدة "مينوت" برأسها موافقة.

ألقى نظرة على أولاد الدكتور. أدرك أنهم لم يهتموا لصوت الشنيور المزعج. شعر بداخله بإحساسين متضاربين. فهو من ناحية غير مرتاح إلى المظهر الجسدي لهؤلاء الأطفال، ومن ناحية أخرى كان سعيدًا أنه رآهم. أخذ يتخيل جلسته في مقهى "تيرمينوس" وهو يحكي للزبائن وكلهم آذان صاغية. ولكنه كان يتمنى أن يشهد شيئًا يضفي الكثير من البهارات على الحكاية التي سيجهزها.

قال للسيدة بصوت هامس ناعم:

- سيدة "مينوت"... هل هم يعانون من شيء ما؟ أقصد أنهم... أوه... مختلفون.

أومأت السيدة "مينوت" وهي تتنهد بعمق، وقالت له في برود:

- الدكتور يقول أن للأمر علاقة بالكروموسومات؟

- كروموزومات؟

- وأنا كذلك لا أفهم، ولكن أعتقد أن للموضوع علاقة بالجينات. ففي كل خلية بشرية عدد من الكروموسومات – ثلاثة وعشرون بالتحديد – وفي كل مرة تنقسم فيها الخلية يحدث انقسام في الكروموسومات – وهي الوسيلة التي تنتقل بها صفات كل خلية إلى الخلية التي تليها.

- أنا تهت منكِ سيدة "مينوت". أليس في يد الدكتور القيام بأي شيء لأجلهم؟

- هو عاكف على ذلك، كما يقول. وسوف تكون حالتهم طيبة في نهاية المطاف.

- طيب.. جميل.

كان الارتياح الصادق باديًا في نبرة صوته.

علق الخريطة على المشبك، وهمَّ بأن يسألها سؤالًا جديدًا، ولكن السيدة "مينوت" نادت على الصغار:

- انظروا.. خريطة أوروبا!

التفت الثلاثة وبدأوا يتأملون الخريطة، التي تظهر على سطحها البلدان الأوروبية وقد تميز كل منها بلون مختلف، وكانت المدن الكبرى مميزة بنقاط حمراء ظاهرة.

- نحن هنا.

كانت تضع إصبعها فوق بقعة تتلاقى عندها حدود ألمانيا وبلجيكا وهولندا، وهي تصيح في صرامة:

- الحدود الثلاثة!

وكأنها أجابت عن سؤال صعب في مسابقة.

ألقى نظرة على ساعته. يوشك مقهى "تيرمينوس" على أن يفتح أبوابه:

- عليَّ أن أذهب سيدة "مينوت". سأمرُّ على محل "مارثا" قبل أن يغلق. تريدني أن أنجز لها عملًا.

- أوه... ألا يمكنك أن تنتظر دقيقة؟ معي شيء آخر أريدك أن تعلقه.

مشيت نحو مكتب المعلمة، حيث كانت قد وضعت الكرتونة. فتحتها وأخذت تبحث فيها قبل أن تخرج منها صليبًا.

سألها أحد الأولاد:

- ما هذا؟

- هذا يسوع؟

وعقب الصنايعي على كلامها مع غمزة عين وهو يلوح بمطرقته:

- ابن النجار؟

فتساءل ولد منهم:

- ولماذا هو معلق على صليب؟

- سأحكي لكم حكايته في وقت آخر. سيد "فلورنت" مستعجل.

استدارت ثم أشارت إلى بقعة فوق الباب:

- هذا المكان مناسب.

وافقها "فلورنت" وهو يسحب السلم الصغير نحو الباب، ثم بدأ يدق مسمارًا في الحائط، وهو يسألها:

- هل ستدرسين لهم الدين أيضًا؟

- الدكتور طلب مني ذلك.

- بجد؟ لم أكن أعلم أن الدكتور متدين.

كان سعيدًا بهذا الخبر الجديد الذي سيدهش به جميع زبائن "تيرمينوس".

- هو كذلك بالفعل "فلورنت". فليس معنى أنه لا يذهب إلى الكنيسة أنه غير متدين.

- ليس لديه وقت للكنيسة بالطبع.

- بالطبع "فلورنت".

ناولته الصليب، فعلَّقه على المسمار.

قال لها مبتسمًا وهو يهبط السلم:

- هكذا سيبقى لألف عام قادم.

التقط شنطة العدة، ومدَّ ذراعه الأخرى في السلم يرفعه.

- أرجو أن تبلغيني "سيدة مينوت"، في أي وقت يكون هناك عمل تودين مني القيام به.

استأذن منها وانصرف، وهو يلقي نظرة خاطفة أخيرة على الأولاد. منبوذون. كانت تلك هي الكلمة التي خطرت له في تلك اللحظة. إنهم مثل المنبوذين. مثل منزل مهجور أضحى أطلالًا.

بعد أن انهار تحت وطأة سنوات طوال.. احتمل فيها أشد الأمطار وأعتى الرياح.

***

في اليوم التالي وجدت السيدة "مينوت" الصليب مستقرًا داخل الدرج العلوي لمكتبها. فنظرت بتلقائية تجاه تلك البقعة أعلى الباب، فاكتشفت أن حتى المسمار اختفى. حدست، وصدق حدسها في نهاية النهار لما حكت الأمر للدكتور "هوب".

- أجل، أنا الذي فعلت ذلك.

شعرت على الفور بالأسف لأنها كانت على راحتها في كلامها مع "فلوران" في اليوم السابق. فهي من تطوعت بإخباره بكثير من الأمور عن الدكتور عندما بدأ يطرح تلك

الأسئلة الفضولية. ولكنها عرفت أن الحقيقة كما رأتها قد تفسر وببساطة على أنها محض افتراء، وأن أي كلام تتفوه به سوف يصل في نهاية المطاف إلى الدكتور.

- ولماذا أزلت الصليب؟ ظننت أنك ترغب في أن أعلم الأطفال عن المسيح.

- أن تعلميهم ما قام به. أفعاله. كل ما فعله من خير. وليس عن موته.

- الموت جزء من الحياة. أكيد تعرف هذا؟

- هذا صحيح. ولكن حتى لو كان كذلك فليس علينا أن نبقى أسرى خياله كل الوقت.

ارتفع صوتها قليلًا وهي ترد:

- إنه مجرد رمز.

فقال الدكتور وكأنه لم يسمعها، ومن دون حتى أن ينظر إليها:

- لقد خانه الرب.

- ماذا قلت؟

- لم يفعل الرب شيئًا لإنقاذه حينما صُلب. مع أنه ابنه. هل هذه هي الصورة التي نرغب في ترسيخها؟ أعلينا أن نتذكر ذلك؟

تذكرت النقاش الذي دار بينهما منذ بضعة أيام، عندما طلب منها أن تعرف أولاده بيسوع وليس عن الرب. أيكون هذا هو السبب؟ لأن الرب لم يفعل شيئاً لإنقاذ المسيح من الصلب؟

- أنت مخطئ

قالتها بعناد فاجأها. فهذه هي المرة الأولى التي تتجرأ فيها وتعترض على كلام الدكتور. وهي تعلم سبب تلك الجرأة: هذا لأنها شعرت كما لو أنها تتعامل مع واحد من تلاميذها؛ مجرد صبي صغير، عليها أن تعلمه أشياء بعينها.

- أنت مخطئ. الصليب رمز لمعاناة المسيح.

- أرأيتِ؟ هذا هو قصدي. ليس علينا أن نجد أمامنا ما يذكرنا بمعاناته طوال الوقت.

- بل علينا ذلك. حتى لا ننسى أبدًا أنه قد ضحى بحياته لأجلنا.

وكأن أحدهم قد جذب الدكتور من شعره ليرفع رأسه قسرًا. لا بد أن كلماتها قد لامست وترًا حساسًا فيه. واصلت كلامها:

- فهو بتضحيته بحياته أنقذ الإنسان من آثامه. وصعوده إلى السماء يمثل دلالة على كونه قد تجاوز الحياة والموت على حد سواء. وأنه سيبقى هناك للأبد، ولكل البشر. لذلك نحتفي بوفاته. ولذلك يكون علينا احترام الصليب.. كلنا.. الجميع.. كل البشر.

قالت الكلمات الأخيرة بنبرة كلها تأكيد.

كان شرحها مبسطًا بعض الشيء، وكأنها تخاطب صبيًّا صغيرًا، ولكن رد فعل الدكتور كان طفوليًّا بدوره. فقد هزَّ رأسه قبل أن يتركها ويذهب، وبقت هي واقفة لا تجد ما تقوله.

لم تقم "تشارلوت مينوت" بتعليق الصليب مجددًا. فهي لا تريد استفزاز الدكتور، وفضلت أن تركز على الدروس أفضل. والحقيقة أنها ستكون أسعد كثيرًا عندما تجد الأولاد يلعبون أو يتسلون بالمكعبات طوال النهار، كما هو مفترض لأطفال في مثل عمرهم، ولكن طالما أنهم متلهفون على التعليم، بل يتوسلون إليها كي تعلمهم أكثر، فما كان عليها إلا أن تقوم بذلك، وبكل إخلاص، حتى وهي تدرك أنها بذلك تغذي طموح والدهم في أن يحولهم إلى أعاجيب.

كان أغلب وقت الفصل مخصصًا للقراءة والحساب، في دروس شفوية وتحريرية، على الرغم من أن تلك الدروس التحريرية سابقة لأوانها – فالثلاثة لا يزالون صغارًا جدًّا من الناحية الجسدية، ومهاراتهم الحركية لم تكتمل على النحو الكافي. وهي لم تكن قد أضافت بعد دروس الدين إلى المنهج. فقد دفعتها كلمات الدكتور منذ أيام إلى التردد. رأت أن الأطفال يكفيهم بالفعل ما يتعلمونه من دروس القراءة والحساب والتدريبات الشفهية – فهم شغوفون بالفعل. ولكن هناك موضوع بعينه هو الذي يستحوذ على اهتمامهم أكثر من غيره. حتى إن اسم الموضوع وحده كان كفيلًا بإشعال فضولهم:

جغرافية العالم. تطلب في بداية الأسبوع من أحدهم أن يشير إلى دولة في الخريطة، ومن ثم تخبرهم بمعلومات عنها، مثل أسماء أهم مدنها وأنهارها. كانوا يرددون تلك المسميات بأفواههم وكأنهم يستمتعون بقطع حلوى، وسرعان ما يحفظونها. وتخصص في بقية الأسبوع ساعة يوميًّا لتقدم لهم مزيدًا من المعلومات عن تلك الدولة، وصورًا أو رسومات لمعالمها، مثل الدوم في مدينة "كولون" أو كاتدرائية نوتردام في باريس، فينظر الأولاد إلى الصور لفترة طويلة في انبهار.

كانت بالطبع توقد جذوة ذلك التوق الكامن فيهم إلى التعرف على العالم كله؛ ولكنها عازمة كذلك على أن تصحبهم إلى الخارج؛ إلى خارج تلك البوابة، وإلى خارج هذه القرية. عندها أمل، حتى إن كان أبوهم لم يعطِ موافقته حتى الآن على القيام بتلك المغامرة. وكان الدكتور يسأل باستمرار عن مدى التقدم الذي يحرزونه. وكانت تخبره بكل فخر، له ما يبرره، عن الكلمات الجديدة التي تعلمها الأولاد، ومن ثم تطلب منهم أن يقرأوا من أحد الكتب التي واظبت في كل يوم سبت على استعارتها من مكتبة "هرجنراث". وأعرب الدكتور عن رضاه بطريقته المعتادة – أي من دون حماس ظاهر؛ غير أن قيامه – بعد إلحاح منها – بتخصيص نصف ساعة يوميًّا في مساعدة الأطفال في القراءة تعتبر علامة في حد ذاتها على أنه يقدم لها كامل دعمه.

ولكنها لم تتوقع رد فعله حينما أخبرته بأن أطفاله قد بدأوا يتدربون على إجراء العمليات الحسابية.

- أريد أن أرى ذلك.

كان الأولاد قد توجهوا إلى الفصل لإحضار القطع الخشبية التي استخدموها في الحساب، ولما عادوا أعطاهم عدة مسائل جمع ليقوموا بحلها. وهكذا، وكأنهم يقومون ببعض الحيل السحرية، أخذ "مايكل" و"جابرييل" و"رافاييل" يحركون القطع ويرتبونها في ترتيبات مختلفة، ليصلوا في وقت لا يذكر إلى الحل الصحيح في كل مرة. ورأى الدكتور أن تتكرر هذه الجلسة يوميًّا بعد أن تكون السيدة قد غادرت المنزل، وهو أمر أسعد "تشارلوت". فقد شعرت أنه بدأ يحاول التقرب من أطفاله، وكأنه اعترف بهم أخيرًا.

علقت "هانا كويجك" على ما حكته لها "مينوت" قائلة:

- بعض الرجال لا يحسنون التعامل مع صغارهم. ليس لديهم الصبر اللازم. فينظرون إلى الصغار على أنهم مجرد روبوتات لا يصدر عنها سوى الدوشة والفضلات. وهم لا يبدأون في الاعتراف بوجود أولادهم إلا حينما يكبرون ويصيرون أعقل، وعندئذ يتعلمون كيفية التواصل معهم.

ولكن رأي "هانا" لم يتجاوز في الواقع كونه رأيًا، فلم يدم اهتمام الدكتور بأطفاله طويلًا. كان قد داوم على مدار شهرين أو ثلاثة أشهر على الجلوس مع أطفاله ساعة يوميًّا؛ ولكنه بعد ذلك صار أقل التزامًا. وكان عذره المتكرر هو الانشغال. أما الأولاد فيعرفون أن أباهم قد سئم التعامل مع الكتب ذات الكلمات الصعبة أو التي تحتوي على أعمدة مطولة من الأرقام، أو أنه فضل أن يقضي ساعات طويلة في المختبر ويتركهم للقيام بالواجب جلوسًا إلى المكتب في غرفته.

وبعد أسابيع أخرى، توقف حتى عن الاعتذار عن إهماله، وتوجب على السيدة "مينوت" أن تعرف من الأطفال يومًا بعد يوم ما إذا كان قد جلس معهم ليقرأ لهم أو ليعمل معهم على مسائل حسابية.

شعرت بالأسف لتضاؤل اهتمام الدكتور بأولاده وتقدمهم الدراسي؛ ولكنها وجدتها فرصة لتقوم بما تود القيام به في الفصل. وهكذا وذات صباح صحو، أحضرت الإنجيل المبسط للأطفال وبدأت تحكي لثلاثتهم قصة الخلق، تمامًا كما اعتادت أن تفعل مع تلاميذها في بداية العام الدراسي. هي لم تحكِ لهم عن المسيح بعد – لا لشيء سوى أنها تتبع نفس ترتيب القصص الواردة في الإنجيل. وفي اليوم التالي حكت لهم قصة "آدم وحواء"، وفي اليوم الثالث حكت لهم قصة الهبوط من الجنة. وبعدها حكاية "قابيل وهابيل"، ثم الطوفان، ثم برج "بابل". كانت تقرأ للأطفال من الكتاب المقدس لمدة ربع ساعة يوميًّا، وأحيانًا تقل المدة عن ذلك، حينما تسمع وقع خطوات الدكتور على الدرج، فعندئذٍ تغلق الكتاب وتخفيه، حتى ولو كانت في خضم حكاية شيقة يكون فيها "موسى" قد وصل إلى البحر الأحمر ويهم بشقه إلى نصفين، أو في حكاية "إبراهيم" وهو يوشك أن ينفذ أمر الرب ويذبح ابنه "إسماعيل".

أما الأطفال فكانوا يسمعون الحكايات وهم يحبسون أنفاسهم من فرط الاستمتاع بها، وكأنهم يستمعون إلى تلك الحكايات الخيالية التي اعتادت أن تحكيها لهم وقت أن كانوا أصغر، وما إن تنتهي الحكاية حتى يبدأوا في مناقشتها بشغف لا يتوقف. ولكن "تشارلوت" حذرتهم بصراحة من التحدث عن تلك الحكايات أمام والدهم.

- هذا سر. سر بيننا.

وأدركت السيدة "مينوت" أنها مسألة وقت قبل أن يبوح أحدهم بذلك السر. لذلك عليها أن تحضر من الآن مخرجًا لها من مثل ذلك الموقف.

على أن اهتمام الدكتور تلاشى، ولم يعد يهتم حتى بالسؤال عن دراستهم، فلم يعد يسأل الأطفال ولا يسألها عما يجري في الفصل. وحينما يتحدث عن الموضوع معها فإن ذلك يكون من باب سد الخانة أكثر من كونه اهتمامًا حقيقيًّا.

تملكها شعور متزايد بأنه أوكل إليها تلك المسؤولية كاملة، ليس لأنه يرى فيها كل هذا القدر من الكفاءة، ولكن أملًا في أن يشغلها فلا تدرك ما يعتزم القيام به. وهذا لأنه قد عاد، بعد انقطاع، إلى هواية إخضاع أولاده لتجارب طبية. كان قد أحضر أجهزة جديدة، ومنها جهاز أشعة إكس وجهاز الموجات فوق الصوتية، وشرع يتعامل مع أطفاله وكأنهم فئران تجارب. وهو الأمر الذي كان بمثابة جدار فاصل انقطعت به أواصر علاقته مع أولاده.

وبطبيعة الحال، أدلت "هانا" بدلوها لصديقتها. وهذه المرة كانت متيقنة من أن الدكتور مصاب بالخوف من الالتزام:

- تنامى خوفه، منذ أن رحلت زوجته، من أن يتعرض لنفس الموقف مجددًا. هو لا يريد أن يمر بتلك المأساة، في حال تعرض أحد أولاده لمكروه.

وانشغل بال السيدة "مينوت" بهذا الرأي انشغالًا كبيرًا.

وأصيبت بالقلق عندما فقد "رافاييل" أحد أسنانه. لم يكن في هذا أي غرابة، إلا أن الطفل في عمر صغيرة وليس في مرحلة تغيير الأسنان المعروفة. كان يتناول "ساندويتش" حينما عضَّ شيئًا صلبًا. كانت السن المخلوعة من الأسنان اللبنية. وأعطته

"تشارلوت" برطمانًا زجاجيًّا ليضع فيه السن، وفي وقت لاحق من اليوم عرض تذكاره الخاص بفخر على والده.

غير أن الدكتور ما إن شاهد السن المخلوعة حتى انهار على مقعده، وبقي محدقًا في الفراغ أمامه لدقائق.

وكأنها كانت نقطة تحول. فحتى ذلك الحين كانت حالة التوأم مستقرة إلى حدٍّ كبير، وبدا كل شيء وكأنه تحت السيطرة التامة. غير أن صحة الثلاثة بدأت في التدهور منذ ذلك اليوم. وبدأت آلام المفاصل. وأخذت البشرة تتقشر، وتظهر بقع بنية داكنة على ظهر أيديهم. ثم بدأوا في السعال بصفة شبه مستمرة، مع نوبات إسهال. وصاروا يصابون بالإنهاك بمعدلات أسرع من ذي قبل. ووحدها عقولهم هي التي بقيت على حالتها المتيقظة النشطة. ولكن كم من الوقت سيستمر هذا النشاط العقلي؟

هو لا يريد أن يمر بتلك المأساة، في حال تعرض أحد أولاده لمكروه.

بقيت عبارة "هانا" تتردد بإلحاح في عقلها. ألهذا السبب لم يكن الدكتور يبدي أي اهتمام بتقدم أطفاله في الدراسة؟ - لأنه يعرف ألا جدوى من وراء ذلك؟

ظلت أسيرة الحيرة والأسى طيلة أسابيع. إلى أن كانت لحظة عجزت فيها عن الاحتمال أكثر من ذلك، وقررت أن تواجهه.

قررت أن الصراحة أقصر طريق:

- كم سيكون عمرهم، دكتور؟

كانت قد شغلت الثلاثة بمشروع في الفصل تعرف أنه سيشغلهم لبضع دقائق. وكانت العيادة مغلقة، وباب المكتب مواربًا. وجدت الدكتور منكبًا على أوراق في مكتبه. دعاها لأن تجلس قبالته، ولكنها فضلت أن تبقى واقفة.

- من تقصدين، الأولاد؟

أومأت أن نعم.

- سيبلغون عامهم الرابع في غضون أسابيع. ولكنكِ تعرفين هذا بالتأكيد؟

- لم أكن هذا ما قصدته.

- ما قصدك إذن؟

كانت نبرة صوته لا تشي بأي ارتياب، مما أصابها بالشك لجزء من الثانية.

- كم تبقى لهم من عمر؟

وجدت في رد فعله، وطريقة اعتداله في مقعده، ما أنبأها بصدق حدسها؛ ولذلك قررت أن تضرب الحديد وهو ساخن:

- كم أمامهم من الوقت؟

كان عليها أن تبدي الكثير من رباطة الجأش وإلا أمكنه أن يغلبها بتعليق لاذع كما اعتاد. لم يكن لديها أي إثبات على كلامها، هو الحدس وحده، ولكن هذا لن يثنيها عما اعتزمت أن تصل إليه:

- إنهم يكبرون في العمر بسرعة كبيرة.

سكت ولم يرد.

- بسرعة كبيرة. هذا غير طبيعي بالمرة. كما لو أن... كما لو أن كل شهر هو بمثابة عام.

- ولكني أعتقد أني سبق وأن شرحت لكِ...

قاطعته بصوت ارتفع:

- أنا لا أريد شرحًا! هذا لا يساعدني على الإطلاق! ولا أريد منك أن تقول لي إن كل شيء سيكون على ما يرام. لأنه لا شيء على ما يرام! على العكس، يزداد سوءًا. هذا أمر تراه بنفسك واضحًا!

هي نفسها كانت مندهشة من فرط عصبيتها، ولكن تلك العصبية أحدثت أثرها. فقد عاد الدكتور بظهره إلى الوراء في المقعد، وأخذ يداعب لحيته بيده، وأخذ أنفاسًا عميقة لعدة مرات قبل أن يحرر تلك الأنفاس بقوة. انسحبت يده من عند لحيته إلى عنقه ثم إلى صدره.

- كم تبقى لهم من عمر؟

خفضت صوتها خشية أن يسمعها الأطفال.

مال الدكتور إلى الأمام، ووضع يدًا فوق الأخرى على سطح المكتب. لا بد أنه قد اعتاد القيام بهذه الحركة قبل أن يخبر مريضًا يعالجه بأن مرضه لا شفاء منه.

- بالنظر إلى حالتهم الآن، ورغم أن الأعراض لا تنبئ بالكثير، وهذا لأنها قد...

- كم تبقى؟

- عام... أو ربما عامان.

- عام... عامان؟

أومأ برأسه من دون كلام.

- سيكونون محظوظين إن بلغوا عامهم السادس إذن.

قالتها وكأنها تحدِّث نفسها، ولم يعد جسدها يحتمل، فهوت جالسة على المقعد. مشاعر متضاربة تعتصرها، فهي قد ارتاحت أخيرًا لتوصلها إلى الحقيقة؛ ولكنها انهارت لحظة أن عرفت تلك الحقيقة. وطالما أنه تكلم، فإنها لن تجعله يسكت بعد الآن.

- منذ متى وأنت تعرف هذا؟

- عقب ولادتهم بأيام.

- ولماذا لم تخبرني؟

- لأن كل شيء سيكون على ما يرام. فآخر فحوصات أظـ...

- كل فحوصاتك بلا جدوى! كل ما اكتسبته من وراء تلك الفحوصات هو خوف أولادك منك!

عجزت عن أن تكبح جماح نفسها، ولكنها أدركت أنه لا فائدة من ذلك الآن. فهي وجدت في كل هذا الحنق والغضب ملاذًا من مشاعر الأسى التي لا تود أن تظهرها أمامه.

قال لها بهدوء:

- أحاول أن أنقذهم. هذا هو مسعاي. أن أعالجهم. من المؤكد أني أريد الخير لهم.

كانت تتنفس بوتيرة ثابتة حتى تهدئ من روعها، قبل أن تقول له:

- لا بد أن تذهب بهم إلى مستشفى.

قال لها في ثبات:

- أنا أعرف ما ينبغي عليَّ القيام به. وهم لن يذهبون إلى أي مستشفى.

- لا بد أن تحصل على رأي طبيب آخر.

تكاد الآن تتوسل إليه.

- جميعهم حمقى!

باغتها بنبرة صوته. كانت أول مرة تسمع صوته عاليًا. ومع صيحته ارتعشت ذراعاه ويداه، وكأنه أصيب بصدمة كهربائية. خافت منه. شيء جديد مخيف تعرفه عنه. لم يسبق لها أن شعرت بارتياح في وجوده، ولكنها أبدًا لم تخف منه من قبل. نهضت عن مقعدها شيئًا فشيئًا.

سمع صوت المقعد وهو يتحرك بينما تنهض هي عنه، فقال لها من دون أن ينظر إليها، وكأنما يحدث نفسه:

- الوقت. أحتاج إلى وقت. هذا كل شيء.

كانت تود أن تترك الغرفة من دون كلام، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تطرح آخر سؤال، حتى ولو بدا سؤالًا ساذجًا:

- ما فرصة شفائهم؟ كم هي نسبتها؟

- أنا لا أتعامل مع الاحتمالات. أعمل من منطلق أنهم سيكونون بخير. تمامًا كما كان كل شيء يومًا ما.

عادت إلى الفصل غائبة العقل. وبالكاد ظهرت ثابتة الأعصاب أمامهم، رغم أنها صارت تشعر أنها تحدق في الموت كلما نظرت إلى أحد منهم.

ما إن عادت إلى منزلها، حتى أطلقت لمشاعرها العنان. وكم رغبت في أن تتصل بـ"هانا" لتطلب منها المساندة والنصح، ولكنها فضلت ألا تفعل. تريد أن تبقي ما عرفت لنفسها الآن. وهي تعلم أنها ما إن تخبر أي أحد آخر بذلك السر فإن فرص شفاء هؤلاء الأطفال تنعدم تمامًا. وأقسمت لنفسها ألا تخبر أي مخلوق بما عرفته، حتى تأتي لحظة تنوء فيها أعصابها عن تحمل كل هذا. وكذلك أقسمت أنها ومن الآن فصاعدًا ستبذل كل ما في وسعها حتى تضفي كل السعادة على حياة هؤلاء الصغار. وأمامها فرصة في عيد ميلادهم الرابع بعد أسابيع.

أما بعد ذلك..

هي لم تعد تدري ما سوف يحدث بعد ذلك.

9

كان غالبية القرويين الذين لديهم أطفال صغار يتفهمون تلك الإجراءات الحذرة للغاية التي قام بها الدكتور عقب حفل عيد الميلاد. وتحدث كبار السن منهم عن وفاة والد الدكتور "هوب"، وإن كان حديثهم قاصرًا على التلميح، ولَمَّحوا إلى أن سوء حظ أولاد الدكتور مبرر كافٍ له حتى يقوم بما يقوم به. وكان هناك من يتشكك في ذلك الرأي، على أن الكل أجمع على أن قرار الدكتور سيكون نقمة على القرية. ولو كنت تسأل عن الأحداث التي أدت في النهاية إلى هذا القرار، فإني أقول لك إن كل شاهد عليها يأتيك برواية مختلفة، وإن شهاداتهم معًا هي التي يمكن أن تصنع الصورة الكاملة.

كان "بوريس كرويست"، الذي حضر بالسيارة بسبب آلام كاحله، أول من وصل إلى حفل عيد الميلاد يوم 29 سبتمبر 1988. وقد كان واحدًا من خمسة أطفال محظوظين عثروا على دعوة وضعها الأخوة "هوب" في صناديق البريد الخاصة بمنازلهم قبل ذلك التاريخ ببضعة أيام. و"أولاف زفايسته"، الصبي ذو الأعوام الستة، من شارع كيرش، وجاره "رينهارت شونبرودت"، وهو في العمر نفسه، كانا من المدعوين كذلك، وكذلك الأخوان التوأم – خمس سنوات – "ميشيل" و"مارسيل مورسنيه"، اللذان أظهرا بطاقة الدعوة بكل فخر لرواد مقهى "تيرمينوس". ومن واقع رداءة خط اليد، والأحرف الكبيرة، كان الكل يعرف أن أحد الأولاد أصحاب عيد الميلاد هو من كتبها بنفسه.

في ذلك اليوم، قادت السيدة "مينوت" الطفل "بوريس" إلى المطبخ، حيث كان الأبناء الثلاثة، مرتدين تيجانًا ورقية ذهبية اللون، جالسين يقرؤون. وطلبت من الأولاد أن يغلقوا كتبهم وينحونها جانبًا، وقد فعلوا ذلك بعدم رضا واضح.

- إنها كتب كبيرة فعلًا.

كان هذا تعليق "بوريس" فيما بعد على مرآه، وهو يؤكد حجمها بحركة من إبهامه وسبابته مباعدًا بينهما حوالي خمسة سنتيمترات. ولأنه قد بدأ للتو في تعلم القراءة، فلم يكن قد تعرف على عناوين الكتب، ولكنه ميز صورة بالونة على واحدة من أغلفتها.

وصل "رينهارت" و"أولاف" معًا، وصافحا الأولاد المحتفلين بعيد ميلادهم. ولاحظ "رينهارت" أن لدى ثلاثتهم بقعًا بنية على ظهر أيديهم.

ولما حكى لأمه قالت له:

- نمش... مثل الذي لدى الدكتور.

كما كانت مصافحتهم ضعيفة أيضًا.

ولم يسمع من سأل عن شكل الأولاد الثلاثة إلا كلامًا سمعه من قبل.

- هم قصار ونحفاء. مجرد "نفخة" يمكن أن تسقطهم أرضًا.

- وجوههم شاحبة جدًّا، وكأنها وجوه بهلوانات.

- أعينهم مثل أعين الضفادع .

- أفواههم مشوَّهة.

ومع وصول "ميشيل" و"مارسيل"، كان الدكتور "هوب" قد التحق بهم أيضًا. وكانت هذه هي أول مرة يراه الأطفال فيها من دون معطف الطبيب الأبيض؛ ولم يعد يعلق السماعة الطبية حول عنقه، بل كاميرا من طراز "بولارويد"، كانت السيدة "مينوت" قد اشترت لها عدة علب أفلام بالأمس.

بعد ذلك قام الأولاد بفتح الهدايا، بينما كان الأب يلتقط الصور. أهداهم "بوريس" لعبة السلم والثعبان، بينما أحضر "أولاف" لعبة الدومينو، وجلب "ميشيل" و"مارسيل" لهم كراسات تلوين؛ وهذه الأخيرة نحَّاها الأطفال جانبًا من دون اهتمام. ولأن والد "رينهارت" سائق شاحنة، فقد أحضر معه لكل طفل من الثلاثة "ماتروشكا"،

وهي تلك الدُّمى الخشبية التي تحتوي بداخلها على دمية أخرى أصغر حجمًا، وتلك بدورها تحتوي على أخرى أصغر منها، وهكذا.

- بابا جاء بها من روسيا.

علَّق الصبي وهو يراهم يفتحون الهدايا. فبادره الثلاثة متسائلين:

- من "موسكو"؟ أم من "لينينجراد"؟

- لا. من روسيا.

بعد الهدايا، جاءت لحظة تقديم التورتة، التي صنعتها السيدة "مينوت" بنفسها. أحضرتها وهي تغني "سنة حلوة يا جميل"، ومعها غنى كل الأطفال. كانت قد وضعت في التورتة اثنتي عشرة شمعة.

- أربع شمعات لكل ولد. وعليكم أن تطفئوا الشمعات كلها مرة واحدة يا أولاد.

وقف الثلاثة وتشابكت أيديهم في دائرة حولها. بينما بدأ بقية الأطفال في عد تنازلي من ثلاثة، ثم حاول الثلاثة إطفاء الشمع مرة واحدة. ولكن أكثر من نصف عدد الشمعات لم ينطفئ.

وصاح "ميشيل مورسنيه":

- لم تقدروا على إطفائها كلها؟

ثم تطوع هو بإطفاء بقية الشمع.

- كان يريد أن يساعد ليس أكثر.

هكذا دافعت "ماريا" لاحقًا عن ابنها، الذي تسبب بفعلته هذه في أن يبكي الثلاثة.

بعد ذلك تعرف الضيوف على غرفة فصل الدراسة في الطابق الأول. وحملت السيدة "مينوت" الطفل "بوريس" لأنه لا يقدر على صعود الدرج. وبعد أن تركوا الأولاد يجربون التُخت، انقسم الأولاد إلى مجموعات صغيرة. واصطحب "جابرييل"

و"رافاييل" "رينهارت" إلى حيث خريطة أوروبا ليعرفونه على مكان روسيا فوقها. ثم سألاه عن بقية البلدان التي زارها والده، وأخبراه أنهم أصلًا من ألمانيا.

بينما عرض "مايكل" دفاتر الواجبات على "أولاف" و"بوريس"، والتي كانت مليئة بحلول المسائل الحسابية، وظهرت الدهشة على وجهه حينما أخبره "بوريس" أنه لا يعرف أكثر من أن يعد إلى العشرة. ومن بعدها انسحب "بوريس" ليلتحق بكل من "ميشيل" و"مارسيل"؛ ومنحتهم السيدة "مينوت" بعض الطباشير ليرسموا على السبورة.

تركتهم السيدة "مينوت" لترد على التليفون. كانت قد ترددت في تركهم في البداية، وأصغت لتعرف ما إذا كان الدكتور قد توجه للرد على التليفون بنفسه أم لا؛ ثم ذهبت نحو الدرج وصاحت نحو الأسفل تنادي الدكتور، ولكن الواضح أنه لم يسمعها أو يسمع التليفون. وهكذا أسرعت الخطى تهبط الدرج لترد على التليفون في غرفة المعيشة.

لم يجرؤ أحد على التصريح بأنه هو صاحب الاتصال بمنزل الدكتور، وأنه هو من تحدث مع "تشارلوت مينوت" في تلك الليلة. وظهر اسم "إيرما نوسبوم"، لأنها كثيرًا ما تتصل تليفونيًّا لتستشير الدكتور "هوب"، ولكنها أنكرت تمامًا أن تكون هي. وذكر "فريدي ماكون" أنه قد شاهد "ماريا مورسنيه" وهي تجري اتصالًا من مقهى "تيرمينوس"، ولكن والدة "ميشيل" و"مارسيل" أقسمت بأغلظ الأيمان أنها كانت تتحدث إلى معمل البيرة، وأثبتت كلامها لاحقًا بإيصال تسلم بضاعة من المعمل بالتاريخ والتوقيت.

كان من الطبيعي ألا يعترف أحد بأنه صاحب المكالمة، خاصة بعد الدراما التي جرت خلال هبوط السيدة "مينوت" للرد على الهاتف – وهي الدراما التي زعم الأخوان "ميشيل" و"مارسيل" أن أولاد الدكتور هم أبطالها.

قال "ميشيل" لأمه فيما بعد:

– شاهد "مارسيل" حبات الجوز في الشجرة خارج النافذة. كانت الشجرة مليئة بالجوز. ملايين منها!

فقد كانت شجرة الجوز العتيقة المجاورة للمنزل تحمل قدرًا غير عادي من الثمار في ذلك العام. وكانت الأغصان تنوء بحملها من خباء الجوز، وبعضها وصل حجمه إلى حجم تفاحة. لم تكن الشجرة قد شذبت منذ سنوات، حتى إن الأغصان امتدت إلى ما هو أعلى من سطح المنزل. وفي الأيام السابقة على حفل عيد الميلاد، بدأت حبات الجوز تتساقط على السطح وجانبي المنزل بصوت أقرب إلى صوت الأعيرة النارية، على حد وصف بعض المرضى.

- اقترب منا الأولاد الثلاثة ووقفوا إلى جوارنا، وقال لي أحدهم..

صاح "مارسيل":

- كان "جابرييل"... إنه "جابرييل"!

- قال "جابرييل" إنه سيلتقط حبة جوز.

- طلبنا منه ألا يفعل.

- ولكنه سحب كرسيًّا ووضعه أسفل النافذة.

- صعد "جابرييل" إلى فوق الكرسي وفتح النافذة.

- مد يده للخارج و...

- ثم انزلق الكرسي من تحته و...

كان الدكتور في المختبر، قبل أن يسمع صوت الارتطام شاهد أمامه تاجًا ورقيًّا ذهبيًّا يهبط متمايلًا أمام النافذة. بعدها سمع صوت انكسار غصن، وفي غمضة عين شاهد جسد الولد وهو يهوي إلى الأرض، ثم صوت ارتطام مكتوم. هرع الدكتور إلى الخارج، ولا بد أن السيدة "مينوت" كانت قد سمعت كل هذا، فقد هرعت مفزوعة بدورها إلى الحديقة.

خرجت "إيرما نوسبوم" من منزلها في ذات اللحظة – وهو الأمر الذي زاد من الشكوك في أن تكون هي صاحبة الاتصال – وفهمت من رد فعل السيدة "مينوت" أن خطبًا ما قد جرى.

- كان صوت انكسار الأغصان مسموعًا حتى من داخل المنزل.

هكذا أكدت "إيرما" وهي تدافع عن نفسها، ولكن أحدًا لم يصدق إمكانية أن يكون الصوت مسموعًا من هذه المسافة.

وعلى كلٍ، فقد أمكنها أن تشهد وبصدق أنها قد رأت ولدي الدكتور الآخرين وهما ينظران بقلقٍ من نافذة الطابق الأول.

- صاح فيهما والدهما أن يدخلا إلى الداخل!

كما سمعت "إيرما" صوت السيدة "مينوت".

- صرخت في الأول، ثم قالت إنها ستتصل بالإسعاف.

ذكرت أن الدكتور منعها بكل صرامة من طلب الإسعاف، وأنه ردد هذا الأمر مرتين بسبب إصرار "تشارلوت". وعلقت "إيرما" أن من العيب ألا تثق "تشارلوت" في قدرات الدكتور. ثم التقط الدكتور ابنه وحمله بين ذراعيه، وسمعته يطلب من السيدة "مينوت" أن تبقي الباب مفتوحًا أمامه.

في تلك اللحظات كان "ميشيل" و"مارسيل" واقفين عند النافذة بالأعلى. وصاح أحدهما:

- كان يحاول التقاط حبة جوز، سيدي الدكتور! يريد فقط حبة جوز!

تجاهلهما الدكتور، وانغلق الباب من خلفه بصوت عالٍ. بعد لحظة، قامت السيدة "مينوت" بالاتصال بجميع الأمهات لتطلب منهن الحضور لأخذ أولادهن.

وعلى مدار اليوم، كان القرويون المارون بالمنزل رقم 1 في شارع نابليون ينظرون إلى الغصن المكسور في شجرة الجوز والمتدلي إلى جوار جذعها مثل ذراع مشلولة.

وكانت "إيرما" تكرر لهم باستمرار:

- كنت أنبهكم دائمًا إلى خطورة هذه الشجرة.

وفي صباح اليوم التالي، سمعوا صوت منشار كهربائي في حديقة الدكتور، بعد خمس عشرة دقيقة من وصول "فلورنت" إلى المنزل.

قال للناس فيما بعد:

- طلب مني ذلك. وهل كان من الممكن أن أرفض؟

كان منظر ارتجاف شجرة الجوز ظاهرًا حتى لمن كان بعيدًا عن الشارع، وحبات الجوز تتساقط على سطح منزل الدكتور طوال فترة اشتغال المنشار.

- فأل شؤم أن تقطع شجرة جوز! فأل شؤم!

هكذا صاح "جوزيف زيمرمان" وهو ينظر عبر نافذة "تيرمينوس" ليتبين له أن الشجرة التي كانت تتوج الأفق فوق منزل الدكتور قد اختفت.

كان صوت الارتطام المكتوم وقت سقوط الشجرة مسموعًا حتى داخل المقهى.

كان حفل عيد الميلاد فكرتها بالطبع. وشعرت بالرضا عن نفسها وهي ترتب له. وتطلب الأمر منها الكثير لتقنع الدكتور قبل أن يوافق على إقامته. وكان من بين الحجج التي تحججت بها أن مثل هذا الحفل سيؤثر إيجابًا على صحة الأولاد. لذلك هزها ذلك الحادث بشدة. ولكن تأثيره لم ينتهِ عند هذا الحد. فقد ظهرت لها عدة أمور أثرت فيها أيما تأثير. ومن ذلك مثلًا أنها اكتشفت فيما بعد كذب رواية "ميشيل" و"مارسيل" عما جرى. فما أن رحل بقية الأطفال حتى بادر "رافاييل" و"مايكل" بحكي ما جرى لها. وتبين لها أن "مارسيل" ضايق "جابرييل" وأخذ التاج من فوق رأسه. في تلك اللحظة صاح "بوريس":

- انظروا، لا شعر في رأسه!

وحاول "مايكل" و"جابرييل" و"رافاييل" استعادة التاج، ولكن بقية الأطفال وقفوا ضدهم، وأخذوا يناولون التاج لبعضهم البعض بعيدًا عن متناول الثلاثة.

وكان هذا صحيحًا، فهي قد سمعت تصايح الأطفال وهي بالأسفل، ولكنها لم تستطع أن تغلق الخط في وجه "إيرما نوسبوم".

ولما وصل التاج إلى يد "مارسيل"، سارع برميه من النافذة. استقر التاج فوق غصن شجرة الجوز، وحاول "جابرييل" أن يستعيده بعد أن وقف على الكرسي. ولكن التاج

انزلق من فوق أوراق الشجرة وتهاوى نحو أرض الحديقة. وفي اللحظة التالية قام طفل بدفع الكرسي من أسفل "جابرييل"، الذي اختل توازنه وسقط.

رغبت السيدة "مينوت" في أن تخبر الدكتور الحقيقة، ولكنها تراجعت عن ذلك لأنها وجدت أنه لا فائدة من ذلك. فما حصل قد حصل. ولكنها لو كانت أخبرت الدكتور بحقيقة ما جرى لكان من الممكن أن تنقذ شجرة الجوز. وتلك هي الصدمة الثانية. فعندما وصلت إلى المنزل في صبيحة اليوم التالي وجدت الشجرة مستقرة على الأرض جثة هامدة، بينما انشغل "فلورنت" في تقطيع جذعها.

لذلك قررت أن تخبر الدكتور الحقيقة، لأن "جابرييل" لم يكن يحاول التقاط ثمار الجوز، والشجرة بريئة من ذلك الحادث. كانت تريد للدكتور أن يشعر بالذنب، وألا تتحمل هي وحدها كل مشاعر الذنب.

ولكنه رد عليه وهو يهز كتفيه:

- أوه... كان من الضروري قطع هذه الشجرة منذ سنوات مضت.

ظننت في البداية أنه سيكتفي بهذا الرد، ولكنه سرعان ما بدأ يصب وابلًا من الاتهامات زادت من شعورها بالذنب. كيف فكرت مجرد تفكير في أن تترك الأولاد وحدهم؟ ألم تدرك أن ما حدث كان يمكن أن يكون سببًا في مقتل "جابرييل"؟

أتعرف أن الحادث قد خلف أثرًا في وجهه، مما يعني أنه سيكون من الآن فصاعدًا مميزًا عن أخويه؟

كان الدكتور "هوب" يوجه كلامه إليها بنبرة محايدة، وكأنه يقرأ تقريرًا بالحقائق، ولكن كلامه كان مثل الرصاص المنهمر على جسدها. لم تجد ما تدافع به عن نفسها، فابتعدت عنه وهي تبكي. ولم يواتها ذلك الرد إلا لاحقًا: أن الذنب ذنبه أيضًا؛ وأن من المفترض أن يقوم هو بالرد على التليفون؛ بل إنها تعتقد أنه قد ترك التليفون يرن من دون رد عن عمد، حتى يدفعها إلى ترك الفصل، متمنيًا أن يحدث شيء - حتى يجد ما يلومها عليه فيما بعد.

وكانت الصدمة الثالثة حينما شاهدت "جابرييل" بعد الحادث بأسبوع. كان كل ما تعرفه هو أنه أصيب بخدوش وسحجات، وارتجاج بسيط وجرح في الرأس مغطى الآن بضمادات. استلزم الجرح سبع غرز، وبالتالي ستبقى الندبة ظاهرة جدًا طالما بقي هو أصلعَ. ولكنها وجدت أن هناك ندبة أخرى بحجم بطاقة بريدية على ظهره. لم يحدثها الدكتور عنها. الحقيقة أنه لم يتحدث معها منذ آخر مرة احتد عليها فيها، ولذلك خشيت من أن تسأله عنها. و"جابرييل" نفسه لا يتذكر أي شيء عمَّا جرى، منذ لحظة سقوطه من النافذة وحتى استيقظ في المختبر المعتم المجاور لمكتب الدكتور.

في النهاية نزعت بحرص البلاستر عن ظهر "جابرييل". ووجدت أسفله غرزًا بطول عشرة سنتيمترات على الأقل. بحثت عن الرداء الذي كان "جابرييل" يرتديه ليلة الحادث، حتى تتبين ما إذا كانت هناك آثار دماء في الظهر، ولكنها لم تجد آثارًا في الظهر. هناك بقع عند الكتفين وفي الأمام، وهي بقع لم تختفِ تمامًا بعد الغسيل. بقت تفكر في هذا الأمر، ولكنها لم ترغب في القفز إلى استنتاجات، وفضلت أن تذكره يوم أن فك "جابرييل" الغرز.

- لم أكن أعرف أنه قد أصيب في ظهره أيضًا.

- أوه... لقد استأصلت جزءًا من إحدى كليتيه.

- لماذا... هل تضررت من تلك السقطة؟

- كلا. وما الذي يجعلك تظنين هذا.

أربكتها إجابته. إنه حتى لم يحاول أن يتظاهر بالعكس – بل هو مصرٌّ على أن يبين لها أنه لا غضاضة في أي شيء يفعلها بهم.

- ما الذي يجعلني أظن هذا؟ لقد استأصلت جزءًا من كليته. أكيد أن هناك سببًا دفعك إلى القيام بذلك.

- لأ. عندي أسبابي.

- عندك أسبابك؟ ببساطة هكذا؟ عندك أسبابك؟ أنا لا أصدقك. بل لا يوجد سبب. لم أعد أصدقك.

لم يصدر عنه رد الفعل الذي توقعته. توقعت أن يطردها في ذات اللحظة، أو على الأقل أن يحاول إقناعها بأنه على صواب. ولكنه بدا لها حزينًا.

- لا تصدقيني سيدة "مينوت"؟ أنتِ أيضًا فقدتِ ثقتك فيَّ؟ أنا الذي وثقت فيكِ دومًا؟ والآن تقولي لي هذا؟ لماذا؟ أكيد أنا...

لم يكمل كلامه، وسكت. قالت لنفسها إنه يتظاهر بذلك حتى يجعلها تشفق عليه. ونبهت نفسها ألا تنخدع بتمثيله.

قالت له في ثبات، رغم تلك الارتجافة في ساقيها:

- أرفض أن أسمع حكاياتك المختلقة بعد الآن! فكل ما قمت بتجريبه فشل فشلًا ذريعًا. لا شيء تحقق! وحان وقت مواجهة الحقيقة. أنت تريد أن تنقذ حياتهم، ولكنك تقربهم أكثر من الموت. هذا هو الشيء الوحيد الذي نجحت فيه!

لم ترغب في أن ترى أو حتى تسمع رد فعله. بل اندفعت إلى خارج الغرفة، وهي تخشى من أن تنهار باكية، فيتبين له كم هي ضعيفة من داخلها.

ولكنها بكت فعلًا، بعد لحظة... في الحمام، وهي تحدق في انعكاس صورتها على المرآة...

وهي تسأل نفسها عن السبب الذي دفعها إلى السكوت عما يقوم به منذ زمن.

10

سبعة أيام...

من الإثنين وحتى السبت...

تلك هي المهلة التي أمهلتها السيدة "مينوت" لنفسها حتى تعلم الأطفال بعض الأشياء الإضافية، وحتى تستمتع بالجلوس معهم لفترة أطول قليلًا، وحتى تودعهم. سبعة أيام، وبعد ذلك، ستطلب المساعدة من طبيب آخر متخصص، وربما لجأت إلى الشرطة. لم تكن متيقنة تمامًا من تلك الخطوة، ولكنها متيقنة من أنها ما إن تقدم عليها حتى تحرم من رؤية هؤلاء الأطفال.

سوف ترضى بالتخلي عنهم مقابل أن يصيروا في أيدٍ أمينة. هكذا أقنعت نفسها، وهكذا يكون من السهل عليها وداعهم.

سيكون عليها خلال تلك الأيام السبعة أن تحاول جمع بعض الأدلة القوية، وما يثبت أن الدكتور يعتدي على أولاده. فلا تتوقف المسألة على سمعته الحسنة (والتي سيشهد بها العديد من أهل البلدة)، ولكنها ستواجه كذلك ما سيقوله الدكتور، وأنه مقتنع فعلًا بضرورة كل إجراء وفحص يقوم به. سيقول إنه يفعل ذلك لأجل صحتهم، وحتى ينقذ حياتهم.

هي لم تخبر الأولاد. كل ما قالته لهم هو أنه مع نهاية الأسبوع سيكون عامهم الدراسي الأول قد انقضى، وأن عليها أن تعلمهم بعض الأشياء قبل نهايته.

سألها "مايكل":

- وما الذي يحدث عندما ينتهي هذا العام الدراسي إذن؟

لم تكن تريد أن تكذب عليهم، لذلك اختارت كلماتها:

- سيبدأ العام الدراسي التالي. وأنا متأكدة من أنه سيكون ممتعًا أكثر من هذا العام. به الكثير من المرح.

من بين الأشياء التي كانت ترغب في تعليمهم إياها الصلاة. وهي لم تحكِ لهم عن المسيح بعد. لم تجد فرصة لذلك.

لم يجد الأطفال صعوبة في حفظ الصلوات عن ظهر قلب بالفرنسية والألمانية. ولكنهم وجدوا صعوبة في إتقان رسم علامة الصليب على أجسادهم. لم يمكنهم تذكر تسلسل الحركات، أو ما إذا كانت بداية الحركة من اليسار أم اليمين.

طلبت منهم أن يرسموا علامة الصليب كل ليلة قبل النوم، وأن يتلوا صلاتهم. وكانوا مستمتعين بتلك التجربة الجديدة.

- يجب ألا يعرف بابا بذلك، صح؟

وافقتهم الرأي، ولكنها تعلم أن كل هذا لم يعد مهمًّا الآن. لم تشأ أن تربك الأولاد، ولم تحب أن تورطهم في شجارها مع الدكتور.

ولما لم تجد مهربًا من مناقشة الموضوع، حكت للأطفال عن الموت، على الرغم مما شعرت به من أسى وهي تفعل ذلك.

- الأطفال عندما يموتون يتحولون إلى ملائكة، تطير مباشرة إلى الجنة.

شعرت بثقل الرصاص في ذراعها وهي ترسم ملاكًا على السبورة.

سألها "مايكل":

- وأين هي الجنة؟ وما هو الطريق الذي يأخذنا إليها؟

خطر لها أن من سخرية القدر أن يحمل الأطفال أسماء ملائكة – كما لو أن الدكتور يعرف واختار الأسماء متعمدًا.

- الجنة فوق. هناك. تطيرون إليها مباشرة، وسوف تجدون أنفسكم فيها تلقائيًّا.

حكت لهم أن الجنة أشبه بدولة لا حدود لها، وأن بها نهرًا يجري عبرها. وبها سفينة هائلة، يتوجها الرب، وتجري عبر النهر؛ وأن بها مقعدًا محجوزًا لكل من يذهب إلى الجنة.

سألها "جابرييل":

- هل يسمحون لنا بأن نقود السفينة لبعض الوقت أيضًا؟

- أعتقد هذا.

تنهد قائلًا:

- كم أتمنى لو متنا فعلًا.

للأسف أنها لم تجد فرصة للرد عليه، وهذا لأن "رافاييل" بادرها بسؤال آخر:

- طيب والكبار؟ في الجنة أيضًا؟

- فقط من كانوا يفعلون الخير طوال حياتهم.

- إذن أنتِ ستذهبين إلى الجنة.

وقال "جابرييل":

- وبابا لن يذهب.

هكذا أجبروها على الابتسام في نهاية المطاف.

للحظة حسدت الصغار على أنهم لا يرون سوى الخير والشر، وتمنت لو أنها بقيت صغيرة. عندئذٍ كانت ستضع الدكتور في سلة الأشرار منذ زمن. فلقد كانت كثيرًا ما تراعي مشاعره، الأسى أو اليأس أو عدم الحيلة، حتى ولو لم يكن يظهر لها تلك المشاعر أبدًا.

ومع اقتراب نهاية الأسبوع، وجدت صعوبة متزايدة في كبح جماح مشاعرها وهي مع الأطفال. ولكنها اتخذت قرارًا؛ سوف تلجأ إلى الشرطة. فالدكتور سيطرد أي دكتور أو ممرضين آخرين، ولن يسمح لهم بفحص الأطفال، وهي عازمة على إخضاعهم لفحص طبيب آخر. إن أي إنسان يراهم يدرك على الفور أنهم بحاجة إلى تدخل أخصائي.

غير أن شيئًا ما ظهر، لم تكن قد حسبت له حسابًا. لم تكن قد رأت الدكتور كثيرًا طوال الأسبوع. كأنه يتحاشاها منذ آخر مواجهة بينهما. فعندما كانت تصل في الصباح يكون هو قد دخل مكتبه أو يكون في المختبر، ويبقى حيثما يكون إلى أن ترحل هي. ولكنها وجدته أمامها فجأة صباح الجمعة.

- علي أن أذهب. إلى مؤتمر في فرانكفورت. سأغادر صباح الغد. سيأتي تاكسي ليقلني في الساعة الخامسة والنصف صباحًا.

كان هذا هو كل ما قاله لها. إنه حتى لم يسألها عمَّا إذا كانت ستحضر لتجلس مع الأولاد، ولكنها ترى أنه كان يقصد ذلك عندما أخبرها برحلته.

سيكون هذا في مصلحة الأولاد - هكذا قالت لنفسها. فلطالما حلم الأولاد برؤية ولو لمحة سريعة من العالم، وها قد واتتها الفرصة، فلن يكون الدكتور موجودًا لأيام، وستعمل هي على أن تحول حلم الأولاد إلى حقيقة: ستخرج بهم في نزهة قصيرة، حتى نقطة التقاء الحدود الثلاثة. سيكون هذا هو آخر شيء تفعله لأجلهم. ولو مر الأمر كما تشتهي هي، فلن يعرف أحد بالأمر. على الأقل ستترك ذكرى لهؤلاء الصغار الثلاثة تبقى معهم فيما تبقى لهم من أيام في هذه الدنيا. وعلى كلٍ، لو كان حفل عيد الميلاد قد مر على خير لكانت قد سعت إلى نيل موافقة الدكتور على القيام بهذه الرحلة.

هي لم تذهب إلى هناك منذ أن تقاعدت. وقبل ذلك الحين، كانت قد اعتادت أن تصطحب تلاميذ فصلها إلى أعالي "فالسربرج" في كل عام، وذلك لأنها كانت قد زارت تلك البقعة كثيرًا وهي بعد طفلة. زمان لم يكن هذا المكان مزدحمًا - ولم يكن هناك برج مراقبة - ولكن البقعة الحدودية تحولت مع مرور السنين إلى مزار سياحي يطرقه العديد من السياح، وهو الأمر الواضح من الزحام المروري الذي تعاني منه شوارع "فولفهايم". سيارات وحافلات تمرق عبر القرية من الصباح وحتى الليل، وتعلق كثيرًا عند مدخل الجسر في نهاية شارع "نابليون"، وأحيانًا ما يمتد هذا الزحام حتى يصل إلى قبالة منزل الدكتور. ومن بعد الجسر هناك طريق "توريس بورنيه"، والذي يقود السيارات عبر درب وعر إلى أعلى "فالسربرج"، وهي أعلى نقطة في هولندا. وهناك تجد شاهدًا حجريًّا منقوشًا عليه (322.5 متر فوق مستوى سطح البحر)، وهو مغروس في منتصف مساحة من

الحصى. ومن خلف تلك المساحة، يوجد صف من العلامات الحدودية القديمة التي تعطي السياح في بعض الأحيان انطباعًا خاطئًا بأن هذا هو موقع تقاطع الحدود الثلاثة. أما نقطة التقاطع الفعلية للحدود البلجيكية والهولندية والألمانية فهي أبعد إلى الجنوب لمسافة اثني عشر مترًا بالتقريب، ويميزها عمود إسمنتي صغير على شكل مسلة. وقد نحتت على جوانبه الأحرف التي تختصر أسماء البلدان الثلاثة: "B، D" و "NL". فيعرف السائح الواقف أمام العمود في أي دولة يكون في اللحظة نفسها.

وكان "بوديفيننتورن" نقطة جذب كبيرة أخرى. فهذا البرج، الذي يقع على الأراضي البلجيكية، ولكنه قريب جدًّا من الحدود الثلاثية، يمتد في السماء بطول أربعة وثلاثين مترًا. بداخله درَج معدني يصل إلى مقصورة في الأعلى، حيث إطلالة عظيمة على المنطقة بأكملها. وكان صعود ذلك الدرج دومًا هو أحلى لحظات تلك الجولة بالنسبة للتلاميذ. ومن أسفٍ أن البرج سيكون مغلقًا في ذلك الوقت المبكر من الصباح، ولن تتمكن السيدة "مينوت" من صعوده مع التوائم الثلاثة. وشعرت بالأسى لذلك، لأن المنظر من الأعلى كفيل بأن يمنحهم تصور ثلاثي الأبعاد للخريطة التي رسموها في أذهانهم لأوروبا.

سهرت تعمل حتى الليل عشية سفر الدكتور، تبتكر تنكرًا للأطفال؛ فهي لا تريد لأحد أن يتعرف عليهم إذا ما حدث والتقوا بأي شخص. وكان الهدف من هذا التنكر أيضًا ألا يكونوا متوترين ولتعزيز ثقتهم بأنفسهم. فهي لاحظت أن الثلاثة يكونون أكثر جرأة بكثير عندما يلعبون لعبة الملابس التنكرية؛ حيث يحولون أنفسهم فعلًا إلى الشخصيات التي يتظاهرون بتقمصها. وكانت تتفهم هذا، فتلك هي الطريقة الوحيدة للهروب من سيطرة والدهم الحديدية عليهم.

لم يواتها النوم عندما رقدت في الفراش. ظلت تسترجع الماضي: بقيت مع الأولاد في كل يوم من أيام السنوات الثلاث الماضية؛ ولكنها تشعر الآن أن تلك السنوات ما هي إلا بضعة أيام. وأرجعت ذلك إلى طبيعة الحياة الروتينية. فقد كانت العديد من الأيام متصلة ببعضها البعض فحسب من دون تمييز. وبالمثل تجد سنواتها الخمس والأربعين كمدرسة قد اختصرت في عقلها في بضعة أشهر فقط. ومع ذلك، وكما أنها تفتقد روتين التدريس بعد تقاعدها، فإنها سوف تفتقد هذا الروتين كذلك. وبالطبع ستفتقد الأولاد الثلاثة.

لقد أحبتهم.. هي واثقة من ذلك؛ ومع ذلك فهي لم تعرف أيًّا منهم حق المعرفة. ولا واحد منهم أظهر لها ولو قليلًا من شخصية متميزة طيلة كل هذه السنوات. ولا واحد منهم - لا "مايكل"، ولا "جابرييل"، ولا "رافاييل" – تميز عن بقية إخوته وأظهر شخصية مختلفة، حتى ولو كانت شريرة، أو مبتهجة، أو لا مبالية. ذات مرة خمنت "هانا" أن أدمغتهم ربما كانت مرتبطة مع بعضها البعض بصورة غير مرئية، وعلى ما يبدو أن هذا هو حال شخصياتهم أيضًا. الثلاثة انطوائيون – والمؤكد أنهم فضوليون للغاية تجاه ما يجري من حولهم، ولكنهم وعلى العموم ينطوون على أنفسهم إلى حد كبير. مثل والدهم، هكذا فكرت بأسى – والاختلاف بينهم هو أن والدهم فقد ذلك الفضول، أو ربما لم يكن فضوليًّا من الأساس. ولو أنها كانت أعطت ثلاثتهم المزيد من الوقت لربما تمكنت من إبراز شخصياتهم بصورة أكبر، وإخراج ما هو كامن في دواخلهم، حتى لا يكبروا فيكونوا نسخة من والدهم.

راحت في النوم وتلك الأمنية معلقة في مخيلتها... لو كان لديها المزيد من الوقت.

عندما وصلت إلى المنزل في صباح اليوم التالي، قبل الخامسة والنصف بدقائق، كان الدكتور "هوب" يهم بالخروج. لم تكن سيارة الأجرة قد وصلت بعد. فشعرت بالتوتر. إلا أن الطبيب لم يلقِ عليها التحية، ولكنها قررت أن تتصرف وكأن شيئًا لم يحدث بينهما، وسألته:

- هل استيقظ الأولاد؟

أجابها وهو يفتح البوابة:

- لا أعرف.

- هل أدخل إليهم؟

- براحتك. معكِ المفتاح.

وقف ينظر عبر الشارع.

- متى ستعود؟ حتى أعرف موعد تحضير العشاء.

كانت ذريعة ذكية منها، ولكن رده خيَّب أملها.

- لا تشغلي بالك بعشائي.

- حسنًا، كما تريد.

تمتمت ثم مضت من دون أن تنظر إليه نحو الباب ومن ورائها أتاها صوت سيارة تتوقف.

- "مايكل".. "جابرييل".. "رافاييل".. استيقظوا!

أضاءت الغرفة. ولكنهم لم يبدوا أي رد فعل، سوى بعض الغمغمات.

- استيقظوا... استيقظوا... سنذهب في رحلة.

عندئذٍ، اتسعت أعين الثلاثة معًا، ونهضوا من فراشهم على الفور. تنهدت وهي تحملق في وجوههم واحدًا تلو الآخر.

سألها "مايكل" وهو يفرك عينيه بظهر يديه:

- ماذا قلتِ سيدة "مينوت"؟

- رحلة. وسأعطيكم مهمة تنفذونها.

- مهمة؟

أرتهم الملابس التنكرية. ثلاثة كابات، وثلاث قبعات، وثلاثة أقنعة من الورق المقوى. كانت الكابات والقبعات بثلاثة ألوان مختلفة. أحمر وأخضر وأزرق. بينما لونت الأقنعة بالرمادي الفضي.

- أنتم اليوم الفرسان الثلاثة. فرسان في خدمة الملك.

سألها "رافاييل":

- أي ملك؟

- الملك "بودوين"، ملك بلجيكا. وقد أوكل إلى فرسانه مهمة. سيكون عليكم الاستيلاء على نقطة الحدود الثلاثية.

كان استيعابهم لكلماتها بطيئًا.

- عليكم أن تتجهزوا بسرعة، قبل أن يغير الملك رأيه.

وفي غمضة عين، كان الثلاثة واقفين انتباهًا إلى جوار سرائرهم.

وما إن ارتدوا الملابس حتى أمرتهم بارتداء الأقنعة. كانت قد صنعت فتحات للأعين والأفواه. ثم ارتدوا الكابات والقبعات. كانوا يتلمسون القماش وكأنه من المخمل.

- لا يزال هناك شيء ناقص.

قالتها ثم أخرجت بحركة مسرحية سريعة ثلاثة سيوف خشبية من حقيبتها.

- لابد أولًا من تحويلكم إلى فرسان.

حدقت الأعين الصغيرة عبر الأقنعة في السيوف بكل دهشة.

- اجثوا على ركبكم.

كانت المراسم سريعة، ولكنها رسمية. فركع الأولاد وأحنوا رؤوسهم، ولامست هي رؤوسهم والأكتاف بطرف السيف:

- "رافاييل"، نيابةً عن الملك، أنا هنا أسميك "بورثوس"، أبرع الفرسان. "جابرييل"، نيابةً عن الملك، أنا هنا أسميك "أراميس"، أنبل الفرسان. "مايكل"، نيابةً عن الملك، أنا هنا أسميك "آتوس"، أشجع الفرسان.

قدمت لهم السيوف، وتقمصوا هم على الفور روح الفرسان. فقد اعتدت وقفتهم، وبدت الصرامة واضحة على وجوههم، وهم يرفعون سيوفهم عالية في الهواء، وهم يجربون ترديد الأسماء التي منحتها إياهم للتو. تأملتهم في حذر، وهم ينظرون إلى أنفسهم في مرآة الحمام. بدوا لها، ولو لمرة واحدة، مثل الأطفال العاديين، بعدما اختفى

الصلع والتشوه أسفل ذلك التنكر. كما لو أنها أخفت ذواتهم الحقيقية، فملامحهم تجعلهم يبدون أغرب مما هم عليه الآن في تلك الأزياء الغريبة.

وخلال الإفطار علمت الأولاد أمرين آخرين. طلبت منهم تشكيل دائرة ورفع سيوفهم في الهواء، بحيث تتقاطع فوق رؤوسهم، وقالت:

- "الجميع للواحد، والواحد للجميع!"، هذا هو شعار الفرسان. وهذا يعني أن عليكم أن تكونوا دائمًا في عون بعضكم البعض. مهما حدث.

تصاعدت أصواتهم الحادة في أرجاء المطبخ:

- "الجميع للواحد، والواحد للجميع!"، "الجميع للواحد، والواحد للجميع!".

وفي النهاية نبهتهم:

- تذكروا.. الفرسان لا يستجيبون إلا لأمر الرب أو الملك. فلا تخافوا من أحد.

أخذ الأطفال يرددون:

- الرب أو الملك. فقط الرب أو الملك.

ثم استعدوا للتوجه إلى النقطة الحدودية والاستيلاء عليها. في يوم السبت 20 أكتوبر 1988، في تمام الساعة 5:50 صباحًا.

- سوف نصل إلى هناك حينما يصل العقرب الكبير إلى الرقم 2.

كانت السيدة "مينوت" تشير إلى العقربين الصفر الفلورسنت في ساعة الكنيسة. كانوا قد عبروا شارع "نابليون" ويمشون الآن جوار المنازل ذات الشرفات متجهين إلى شارع "توريس بورنيه". أمامهم عشرون دقيقة ليصلوا إليه، ومن ثم ربع الساعة ليصلوا إلى الحدود، وبعدها ثلث الساعة للعودة. في توقيت شروق الشمس.

كان الأولاد على يمينها. وكان ثلاثتهم بسيوفهم على أهبة الاستعداد ويتلفتون حولهم، وكأنهم يتوقعون كمينًا في أي لحظة. بينما تتهاوى بقايا الشبورة تجاه أرض الرصيف، وتتناثر شاردة عندما يلوح أحد الأولاد بسيفه عبرها.

توقفوا عند الجسر الذي يمثل بداية طريق "توريس بورنيه".

شرحت لهم السيدة "مينوت":

- سوف نعبر هذا الممر، ومن ثم نبدأ في الصعود حتى قمة "فالسيربيرخ". وهي نقطة التقاء الحدود الثلاثة. مستعدون؟

أومأ الأطفال برؤوسهم. وعدَّل "أتوس" من وضع قناعه، بينما قبض "أراميس" على سيفه بحزم أكثر، ولامس "بورثوس" بأصابعه طرف قبعته. فابتسمت السيدة "مينوت"، غير أن انقباضة صدرها التي لازمتها طوال الليل لم تفارقها.

قالت لهم هامسة بنبرة مسرحية وهي تضع إصبعها أمام شفتيها:

- ممتاز.. وتذكروا: "الجميع للواحد، والواحد للجميع!".

كان الصعود أطول وأصعب مما كانت تتذكر. وحرصت على ألا يغيب الأولاد عن عينيها ولو ثانية. كان الصعود في البداية تدريجيًّا، ولكنه صار يزداد وعورة. وهو الأمر الذي انعكس على تقدم الأولاد في طريقهم. فمع اندفاعة أولاد صغار، تمكنوا من قطع المائة متر الأولى في زمن أسرع مما يمكن لسيقانهم الصغيرة أن تتحمله، ومن بعد ذلك بدأت السرعة في التباطؤ. وما هي إلا عشر دقائق أو أقل حتى كانوا بالكاد يتحركون. كانت قد سألت نفسها مسبقًا عن مدى قدرة الأطفال على السير في هذا الطريق، ولكنها كانت تعتزم حملهم لو اقتضى الأمر ذلك. فحينما راودتها فكرة هذه النزهة لأول مرة فكرت في أن تطلب من "هانا" أن توصلهم بالسيارة، ولكنها فضلت أن تقوم بكل شيء بمفردها. هي والأطفال فحسب. لا أحد غيرهم.

بدأت ساعة "فولفهايم" تدق السادسة. صوت الدقات يتصاعد في سلاسة من الوادي حتى "فالسيربيرخ". أحصت السيدة "مينوت" الدقات، وعند الدقة الأخيرة شدت كتفيها وأخذت نفسًا عميقًا، قبل أن تنبههم:

- سوف يستقل الفرسان الجياد لبقية الطريق.

قالتها ثم التقطت الأطفال على ذراعيها؛ "مايكل" و"رافاييل" على ذراع، و"جابرييل" على الأخرى. رسم الأولاد الصرامة على وجوههم وهم يشيرون بسيوفهم إلى الأمام. وهي أيضًا رسمت الاعتداد بذاتها بكل عزيمة، وهي تبدأ المسير.

وكم تعبت. كل طفل بمفرده يكاد لا يزن شيئًا – ثلاثة عشر كيلوجرامًا فقط – ولكنهم معًا يشكلون حملًا ثقيلًا. وسرعان ما تصبب منها العرق، وشعرت بالوهن في ذراعيها. ولكن التوقف فكرة لا يمكن أن تخطر لها ببال. كان عزمها يزداد في كل مرة تنظر فيها إلى طفل وتلمح العينين الزرقاوين عبر القناع. فتمضي قدمًا. تنزل أنفاسهم على وجهها، وتشعر بدفئهم على صدرها، فيزداد إصرارها. فتلك هي آخر مرة ستشعر فيها بتلك المشاعر.

وأخيرًا.. بدا لهم البرج. ينتصب وكأنه حشرة عملاقة ذات سيقان طويلة نحيفة، ينيرها من أسفل وابل من الأضواء الكاشفة. حدق الفرسان الصغار فيه مشدوهين، بأفواهٍ فاغرة.

قالت لهم السيدة "مينوت" وقد تنفست الصعداء:

- برج "بودوين". يرتفع أربعة وثلاثين مترًا. عندما تصلون إلى أعلاه سيمكنكم رؤية "أخن" و"فالس". بل وربما أمكنكم رؤية "لييج" عندما يكون الطقس صافيًا. من هناك تلامسون السماء.

كان من الأفضل ألا تقول لهم تلك الجملة الأخيرة. فكأنما أغرتهم بكيس ممتلئ بالحلوى قبل أن تخبرهم أنها محرمة عليهم.

سألها "مايكل" وهو يشير بسيفه:

- هل يمكننا الصعود إلى هناك؟ حتى القمة؟

- البرج مغلق.

أنزلت الأطفال بحرص إلى الأرض، ثم مشيت معهم حتى السور المحيط بالبرج. كانت هناك بوابة حديدية مسلسلة تغلق المدخل. تشبث "رافاييل" و"جابرييل"

بالدرابزين وهما يتطلعان لأعلى. وفعل "مايكل" الأمر نفسه، غير أنه كان يحاول أن يقحم جسده عبر الفتحات في السور. صاح فيهم:

- انظروا! يمكنني العبور! يمكنني العبور!

تنبهت السيدة "مينوت" إلى ما يفعله بسرعة، فجذبت جسده الصغير بعيدًا عن البوابة. كانت متوترة، حتى إنها شعرت بأظافرها تكاد تخترق جلده الصغير.

- آي!

للحظة وجدت في عينيه تلك النظرة التي لم يكونوا ينظرون بها إلا لوالدهم. فأدركت كم كانت قاسية عليه.

- أنا آسفة.. أنا آسفة.

مدت يدها تعدل من وضع قبعته، ولكنه تراجع مبتعدًا عنها. وجدت نفسها تقدم لهم وعدًا كاذبًا، تدرك أنه لن يتحقق:

- في المرة القادمة نصعد.

- بجد؟

- بجد.

أخذت نفسًا عميقًا، وعندئذٍ أدركت كم هي متوترة بالفعل. تجسد أمامها الآن مدى تهور قرارها بالمجيء إلى هنا. وجدتها خطوة مغايرة لطبيعتها. التفتت نحو العمود الإسمنتي الذي يغمره ضوء كاشف أصفر قوي.

قالت لهم في لطف تقصد منه أن تشغلهم عن البرج:

- انظروا.. ها هي الحدود الثلاثة.

وكأن الأطفال نسوا على الفور ما قد حدث للتو. فحدقوا نحو العمود، ثم إلى بعضهم البعض، وبعدها عادوا ينظرون إلى العمود، وركضوا، وعباءاتهم ترفرف خلفهم مثل

ريش طير زاهي الألوان. وصلوا إلى العمود في الوقت نفسه، وأحاطوه بأذرعتهم وكأنما يلقون القبض على لص. وصاحوا بكل حماسة الدنيا:

- قبضنا عليه! قبضنا عليه!

ضحكت السيدة "مينوت"، وقالت لهم وهي تمشي نحوهم:

- سيسعد الملك كثيرًا. والآن وقت صيحة المعركة.

عندئذٍ بادر الفرسان برفع سيوفهم فوق رؤوسهم. كانت الساعة السادسة والربع، عندما ردد المكان الحدودي الثلاثي صياح الصغار الثلاثة:

"الجميع للواحد، والواحد للجميع".

بلغ توتر السيدة "مينوت" مداه. أخذت أنفاسها تتسارع، وهي تقترب منهم خطوات وتشير إلى الأرض:

- كل واحد منكم واقف في دولة مختلفة. خذوا خطوة للخلف.

شاهدوا الأحرف المنقوشة على العمود والمميزة بالأبيض... B... D... NL. أخرجت السيدة "مينوت" قطعة طباشير وانحنت لتصنع خطوطًا على الأرض تميز بها الحدود. وتتبع الأطفال كل خطوة تقوم بها. كانت تقول وهي تدور حول العمود ومعها الثلاثي:

- هذه بلجيكا. هذه ألمانيا. وهذه هولندا. بلجيكا. ألمانيا. هولندا. بلجيكا. ألمانيا. هولندا. أرأيتم؟

هزَّ الثلاثة رؤوسهم أن نعم.

- أوكيه. الآن دوركم.

تراجعت، وحبست أنفاسها، وهي تشاهد الأولاد وهم يدورون حول العمود، ببطء في البداية، ثم أسرع وأسرع. كل منهم يصيح باسم البلد التي كان فيها للتو، وعند لحظة معينة التفت الثلاثة نحوها، فرأت عيونهم مشرقة عبر فتحات أقنعتهم الفضية، فشعرت

بطوفان من الدفء يعتريها. وهي تدرك الآن أن هذا هو السبب الذي دفعها إلى فعل ما فعلت. الآن تدرك ذلك.

- هيا، "أراميس"، "أثوس"، و"بورثوس". لقد أنجزتم مهمتكم. والآن علينا أن نسرع الخطى.

فصاح "أثوس" متوسلًا:

- مرة أخيرة سيدة "مينوت".. مرة أخيرة.

- لا بأس. مرة أخيرة.

عادوا يدورون ببطء شديد حول التقاطع الحدودي، وكل منهم يمد ذراعًا أو ساقًا وهو يدور، وبالتالي يصير في بلدين في الآن نفسه. اعتاد تلامذتها القيام بالشيء نفسه، هكذا تذكرت. وها هي تشاهد الآن الحركة نفسها من "جابرييل" و"مايكل" و"رافاييل". لم يكونوا مختلفين عن بقية الأطفال، في هذا الأمر على الأقل. وجدت أن هذا الخاطر قد أعادها إلى توترها الذي تشعر به.

لم يفارقها ذاك الشعور المضطرب خلال هبوطهم من "فالسيربيرخ". سوف تفكر لاحقًا فيما سيكون حالها. وحيدة. ستكون وحيدة. كما كانت منذ يوم تقاعدها وحتى اليوم الذي التقت فيه التوائم الثلاثة. وحيدة: عجزت عن طرد تلك الكلمة من رأسها.

- اقتربوا يا أولاد.. كونوا قريبين مني.

كانوا يمشون منذ خمس دقائق، و"رافاييل" و"جابرييل" متخلفين عنها بالفعل بخطوات. التفتت إليهم، تبحث عن "مايكل"، وسرعان ما شعرت بأن قلبها يكاد يتوقف. فلم يكن الولد في مرمى بصرها.

خرج صوتها مبحوحًا:

- أين "مايكل"؟

أخذ "رافاييل" و"جابرييل" ينظران حولهما. لم يكونا قد لاحظا غياب أخيهما.

بدأت السيدة في الصياح:

- "مايكل"!.. "مايكل"!

لم تجد أي جواب. حملت "جابرييل" و"رافاييل" وبدأت تركض عائدة إلى أعلى التل، إلى الحدود الثلاثة. راودها شعور سئ - شعور له ما يبرره. أن يكون "مايكل" قد قرر أن يصعد البرج. وكان قد وصل بالفعل إلى الدرجة العشرين، وعيناه ثابتتان على القمة. وبدا شعاع الضوء القوي وكأنه يتبعه نحو قمة البرج.

أنزلت "جابرييل" و"رافاييل" وهي تصيح:

- "مايكل"!... انزل من عندك!

نظر "مايكل" إلى أسفل، وحيا أخواه بسيفه:

- سأحتل "آخن" و"فالس"! و"لييج"! ثم سأصعد إلى السماء!

أخذ يطوح سيفه في الهواء، ثم عاد يصعد مجددًا وكأن شيئًا لن يوقفه.

شعرت السيدة "مينوت" وكأن الأرض تتداعى من تحتها.

- "مايكل".. انزل!

- أنا لست "مايكل"! أنا "أثوس"... أشجع الفرسان!

كانت عباءته يتراقص من خلفه.

- عد يا "مايكل"!

- "أثوس"! اسمي "أثوس"!

- "مايكل" توقف عن هذا الآن! هذا ليس وقت لعب!

ولكن الأمر لم يكن لعبة بالنسبة لـ"مايكل". فهو في تلك اللحظة "أثوس" أشجع الفرسان. ولأنه "أثوس" الشجاع فلا بد أن يصعد البرج. هكذا فهمت. صاحت بكل قوة:

- "أثوس"! "أثوس"! توقف! انزل!

بدا شيء من التردد على خطواته، قبل أن يرد عليها:

- الفرسان لا يأمرهم إلا الرب والملك. أنتِ من قال لنا هذا!

ثم، لجزء من الثانية، تطلع إلى أسفل. كان على ارتفاع نحو عشرة أمتار فوق الأرض، وهو ارتفاع لم يسبق أن وصل إليه في أي وقت مضى من حياته. أصابته صدمة، وارتبك فجأة، وتراجع خطوة. إلى الوراء. رأته السيدة "مينوت". ورآه شقيقاه. ثم اختل توازنه. سمع صرخة. ترك سيفه بحركة غريزية. هوى السيف إلى أسفل وارتطم بالإسمنت في قاعدة البرج. وانقسم نصل السيف إلى شطرين بصوت عالٍ.

***

كانت الساعة السابعة إلا الربع عندما قرع "فليكس جلوك" جرس باب "أوتو ريسيجر" في 17 شارع البرت في "فولفهايم".

صاح في الرأس بصلية الاستدارة التي ظهرت له من نافذة علوية:

- سيد "ريسيجر". هناك ولد عالق في أعلى البرج!

- ماذا؟ وكيف هذا؟ انتظر، أنا قادم! دقيقة!

في ذلك الصباح، ذهب "فليكس جلوك"، الميكانيكي القاطن في "آخن"، إلى منطقة الحدود الثلاثة مع شروق الشمس، ولبالغ دهشته وجد أمامه سيدة ومعها طفلان جالسان على دكة خشبية إلى جوار البرج. كان ثلاثتهم خاضعين برؤوسهم إلى أسفل وقد تشابكت أياديهم. وكأنهم يصلون. وجد سيدة في منتصف العمر، وقد عقصت شعرها الأشيب أعلى رأسها، وقد فرحت لرؤيته فرحًا شديدًا وكأنه ملاك حارس هبط لها للتو من السماء. صاحت وهي تنظر إلى السماء:

- أشكرك يا ربي!

كان الولدان الجالسان جوارها يرتديان ملابس تنكرية. وقد أخفيا وجهيهما وراء أقنعة، ويرتديان قبعة و"عباءة". وعلى حجر كل منهما سيف خشبي.

قدمت له السيدة نفسها باسم "تشارلوت مينوت"، وأشارت إلى ولد صغير عالق بلا حراك على ارتفاع حوالي عشرة أمتار في برج "بودوين". توسلت إليه أن يعود إلى "فولفهايم" ويحضر "أوتو ريسيجر"؛ حارس البرج. فهو من معه المفتاح، وهو الذي بوسعه أن يفتح البوابة.

أسرع "فليكس جلوك" من فوره إلى "فولفهايم"، ووصلها في سبع دقائق.. رقم قياسي جديد بالنسبة له.

صاح الحارس مندهشًا عندما أخبره "فليكس" بما حدث:

- سيدة "مينوت"؟

أومأ الميكانيكي برأسه وهو ينظر إلى كرش الحارس:

- وأبناء أختها الثلاثة.

- أبناء أختها؟ آه... لا بد أنك تقصد أولاد الدكتور "هوب".

- أخبرتني أنهم أبناء أختها – أو ربما قالت أحفاد أختها. لم أرَ وجوههم لأنهم كانوا يرتدون أقنعة. صغار جدًا على أي حال. طولهم هكذا.

صنع بيده ارتفاعًا خياليًّا حوالي عشرة سنتيمترات فوق ركبته.

- هم أولاد الدكتور إذن. لا بد أنهم كذلك. وماذا عن الدكتور.. ألم يكن معهم؟

هزَّ الميكانيكي كتفيه المكتنزتين نافيًا وجوده. فتعجب "ريسيجر":

- غريب.. غريب جدًّا.

بعد لحظة، توجه الاثنان صوب المنطقة الحدودية في سيارة الحارس القديمة طراز "سيمكا". وكان صوت السيارة فظيعًا. وعرف الميكانيكي موطن الخلل على الفور:

- هناك ثقب في الشكمان.

رد عليه "ريسيجر" بصوت أراده أعلى من صوت سيارته:

- أعرف هذا. لقد طلبت سيارة جديدة، ولكنها لن تصلني قبل الأسبوع القادم.

قاد السيارة أسفل الجسر وقد ثبت غيار السرعة على الثاني. وبينما دخل في طريق "توريس بورنيه"، سأل الميكانيكي عما كانت "تشارلوت مينوت" تفعله في تلك الساعة المبكرة من الصباح عند الحدود.

- لا أدري. سألتها ولم ترد. كل ما قالته لي هو أن عليها أن تعود إلى القرية في أسرع وقت.

انتقل "ريسيجر" بسرعة السيارة إلى الأول، وهو يقول:

- عليها أن تصبر إذن. هذه "السيمكا" العجوز لن تصل بسهولة إلى أعلى التل.

عندما ظهر البرج أمامهم من بعيد، أشار "جلوك" ناحيته وهو يقول:

- ها هو الولد. هل تراه؟

أومأ الحارس برأسه وهو يقترب بوجهه نحو زجاج السيارة الأمامي، حتى لامس أنفه الزجاج.

كان الولد من بعيد أشبه بكرة ألقيت عليها بعض الملابس. وكانت ذراعاه ملتفتين حول الدرابزين الرأسي للسلم.

كانت السيدة "مينوت" واقفة عند البوابة، وقد شحب وجهها حتى نافس لونه لون الشال الذي تلفه حول كتفيها. تمسك بيد ولد في كل يد. لم يعرف الحارس أن الولدان أصلعان، وذلك لأنهما لا يزالان يرتديان القبعتين، ولكنه لمح تلك الندبة عبر فتحة الفم في القناع لدى كل منهما.

فتح "أوتو ريسيجر" البوابة، بينما كان الميكانيكي يحدق في السيدة التي تقف أمامه مرتجفة.

كانت السيدة "مينوت" تتمتم بكلمات التأسف والتعذر. وتكابد ألا تبكي. ولكنه أدرك أنها وعلى الرغم من مظهرها الضعيف الآن أنها ذات شخصية قوية. حتى إنه قال لنفسه أنه لو رآها ترتدي رداءً أسودَ كاملًا لصدق أنها راهبة.

- انتظروا هنا.

أمرهم "ريسيجر" وهو يسرع الخطى نحو أسفل البرج، ولكن السيدة "مينوت" تبعته على الفور.

- سأتي معك. وإلا سيرفض النزول.

لم يعلق الحارس. وعندما وصل إلى البرج شرع في صعود السلم، ومن خلفه السيدة "مينوت".

قال لها من دون أن ينظر خلفه:

- أمر سئ أن يحدث هذا. إنهم سيهدمون البرج قريبًا. وسيبنون آخر مكانه.

لم يأته رد من السيدة "مينوت". فعقَّب متفاخرًا:

- سيكون ارتفاعه خمسين مترًا. وسيكون به مصعد!

لم يجد لكلماته أثرًا في نفسها. فهي مشغولة البال بالولد؛ وهذا طبيعي. لا بد أنهم أولاد الدكتور – كان متيقنًا من هذا. ألقى نظرة للأسفل من وراء كتفه. كان الولدان يتابعان كل حركة من حركاته وهما يتطلعان إلى الأعلى. كان قد رأى الثلاثة ذات مرة، وقت أن شعر بألم مفاجئ في صدره ولجأ إلى عيادة الدكتور "هوب"، وكان يقرع جرس بابه في تعجل. كان الأولاد جالسين إلى مكتب الدكتور ونظروا إليه في فضول. وبادلهم النظرات. وعقب ذلك دعا الدكتور لزيارة النقطة الحدودية مع الأولاد، ولكن الدكتور لم يقبل العرض، حتى الآن على الأقل.

عندما وصلا إلى أعلى، وجد الحارس أن ذراعي الولد متشبثتان بالدرابزين. مال بجسده ومد يده نحو الذراعين النحيلتين، ولكن الولد بدأ يصيح:

- لا تلمسني!... لا تلمسني!

مزق الصوت الصارخ النحيل السكون مثل سكين، وتراجع "أوتو ريسيجر" خطوة للوراء، ليرتطم بالسيدة "مينوت". وبينما كان يمد يده نحو الدرابزين ليمسك به، اصطدمت يده الأخرى من دون قصد بقبعة الولد، فأزاحتها عن رأسه بعض الشيء. وتبدد كل شك لديه لما رأى: جمجمة كبيرة صلعاء تغطيها شبكة من الأوردة داكنة اللون.

- آها! إنه أحد أولاد الدكتور! كنت أعرف هذا!

أما السيدة "مينوت" فاهتمت بالولد.

- دعني أحاول.

مالت نحوه وبدأت تتحدث إليه بنبرة مطمئنة مهدئة.

سمعها الحارس تردد اسم "مايكل" عدة مرات.

في الأسفل رأى "فليكس" السيدة "مينوت" وهي تلتقط الولد وتحتضنه بين ذراعيها. حاولت أن تعيد القبعة إلى مكانها الصحيح فوق رأسه، ولكن الولد أشاح يدها غاضبًا وهو يصيح:

- لا.. أنا لست فارسًا الآن!

ونزع القناع بيده الأخرى.

وكأنه كان يعطيهما إشارة، فقد قلَّده الولدان الآخران. وبحركات سريعة تخلصا من القبعتين والقناعين.

وجد الميكانيكي نفسه يحدق فيهم فاغر الفم.

- أجسادهم مثل الرضع، ولكن وجوههم وجوه عجائز. إنهم مرضى. جدًّا. كان هذا واضحًا لي مثل الشمس.

هكذا حكى لزبائنه في الجراج لاحقًا.

عندما نزلت السيدة "مينوت"، حاول "جلوك" أن يتحقق من أن الولد الذي بين ذراعيها متطابق الشبه مع الولدين الآخرين، ولكن الولد لم يرفع رأسه من حضن السيدة.

- انظروا ماذا وجدت!

كان واقفًا عند البوابة، محمر الوجه، يلوح بسيف مكسور إلى نصفين. وضع النصفين مع بعضهما وهو يقول مبتسمًا:

- مسماران وبعض الغراء يصلحانه! حتى تلعبوا به من جديد!

ولكن الأولاد تصرفوا وكأنه لم يقل لهم أي شيء.

هزَّ "ريسيجر" رأسه مسلمًا، ووضع السيف المكسور تحت إبطه وهو يغلق البوابة.

- هل أعود بكم إلى منزل الدكتور سيدة "مينوت"؟

كانت تنظر شاردة غير منتبهة، ومرت ثوانٍ قبل أن تنظر نحوه. هزَّت رأسها وهي ترد عليه:

- كلا... كلا... لا داعي لذلك.

- ولكنني مصرٌّ سيدة "مينوت". لن يسامحني الدكتور لو أني تركتكم هنا. كما أن الأفضل للأولاد أن يعودوا بالسيارة وليس مشيًا على الأقدام – أليس كذلك؟

لم تجبه. بقي "فليكس" محدقًا في الأولاد. قال لنفسه إنهم أشبه بكائنات صغيرة من المريخ – هم بالفعل شديدو الشبه بالمريخيين، والفارق الوحيد هو أنهم ليسوا خضر اللون. سمع تنهيدة السيدة بعدما ارتضت بالأمر الواقع ووافقت على عرض الحارس.

- قرار حكيم سيدة "مينوت".

مشي نحو سيارته، وفتح حقيبتها ووضع السيف المكسور.

راح الميكانيكي يفتح باب السيارة الخلفي:

- هلا جلستِ مع الأولاد في المقعد الخلفي، سيدتي؟ سيكون هذا أفضل.

مرت عليه وهي ترمقه للحظة ممتنة:

- أشكرك. أشكرك جزيل الشكر.

كانت عيناها ناعمتين. فظهرت له ألطف مما كانت عليه.

جلست السيدة مع الأولاد في المقعد الخلفي، واستقل الحارس السيارة. مالت السيارة قليلًا إلى جانبه. أخرج رأسه من نافذة السيارة وصاح:

- سيد "جلوك". أشكرك وأراك قريبًا.

- حتى نلتقي!

ضاع صوته وسط ضجيج السيارة الهادر.

ما هي إلا خمس دقائق حتى كانت السيارة تمر على جماعة واقفة أمام مقهى "نيرمينوس" وسط القرية.

صاحت السيدة "ريسيجر" وهي تلوح للسيارة:

- ها هو زوجي.

أخرج زوجها ذراعه من نافذة السيارة وحياها بإشارة من إبهامه. أدركت من إشارته أن كل شيء على ما يرام فارتاحت أعصابها:

- حمدًا للرب. هم بخير.

مرت السيارة ببطء على الواقفين. وأشار "ريسيجر" إليهم بمعنى أنه سيوصلهم إلى منزل الدكتور. ولكن هم الواقفون كلهم كان أن يظفروا بنظرة إلى الجالسين في المقعد الخلفي للسيارة. وصاح أحدهم:

- أترون. لقد قلت لكم هذا.

وكانت هذه العبارة شرارة البداية..

بداية موجة جديدة من النميمة.

11

لقد أفسدت الأمر كله. هكذا أدركت السيدة "مينوت" وهي في سيارة "أوتو ريسيجر". وضعت نفسها في ورطة كبيرة، ليس هذا فحسب، بل وخيبت آمال الأولاد إلى حدٍّ كبير. وهم بقوا ساكتين، ولم ينطقوا بأي كلمة ما إن وصلوا إلى المنزل. كانوا محبطين، وهي تسارع بوضعهم في الفراش. وجلست هي إلى ترابيزة المطبخ، وتركت نفسها لمشاعرها التي كبتتها طول الوقت. ذهنها مشوش. وليس في عقلها سوى سؤال واحد كبير: "كيف وصل بها الغباء إلى تلك الدرجة؟".

مرت ساعة عليها قبل أن تتمكن من تهدئة أعصابها، وكان أول سؤال تسأله لنفسها هو ما عليها أن تقوم به الآن. هي الآن في مأزق حرج. فكيف لها أن تتهم الدكتور "هوب" بالتجاهل أو التعدي، بينما هي من تفتقر إلى الإحساس بالمسؤولية؟ ولسوف ينتهز الدكتور الفرصة ليلقي بكل اللوم عليها. لذلك رأت أن عليها الآن وبأي طريقة أن تجد دليلًا على النية غير المحمودة للدكتور. وعندئذٍ سيتسنى لها أن تخرج نفسها من هذا المأزق.

هكذا بدأت تبحث عن دليل. قد يستغرق منها هذا يومًا بطوله، وقد لا يستغرق. فهي لا تدري أين تبحث أو عما تبحث تحديدًا.

بدأت من المكتب. وتوقعت أن يكون ما تبحث عنه مدسوسًا في درج مغلق غاب مفتاحه، ولكنها كانت مخطئة. فحينما فتحت الأدراج، ظهرت أمامها ملفات المرضى متناسقة مثل أكورديون. لم تبحث إلا في الملفات التي تحمل الحرف H – فهي وعلى أي حال تريد أن

تحصر تورطها في أي شيء يدينها في أضيق الحدود. فلو لم تخرج من بحثها هذا بشيء، فسوف تبحث في بقية الملفات. ولكن ملفات هذا الحرف لم تمنحها أي معلومة.

لم تجد في الأدراج الأخرى سوى أدوات طبية - مقص، إبر، ضمادات، قطن، وقفازات مطاطية. قفازات! خطر لها فجأة أنها قد تركت بصماتها في كل مكان. شعرت أنها أقرب إلى لص منازل. لكنها هنا لأجل غاية! – غاية "ثلاثية"، راقدة نائمة في الطابق العلوي. وهو ما منحها شجاعة مواصلة البحث. وكان ذلك ما قادها إلى اكتشاف شيء في نهاية المطاف.

كانت هناك كومة من ألبومات الصور في واحدة من الخزانات. ربما عثرت على صور من شأنها أن تسلط بعض الضوء على ماضي الدكتور؟ صور للدكتور زمن أن كان طفلًا أو مراهقًا، أو صور والدته، أو والده. ربما وجدت صورة لزوجته، والدة "مايكل"، "جابرييل"، و"رافاييل"! من كانت هي؟ ما هو شكلها؟ لقد فكرت "تشارلوت" فيها كثيرًا، وخاصة أن الأولاد سيبدأون في السؤال عنها في يوم من الأيام. ولكنها لا تعرف سوى القليل جدًّا. طوال كل السنوات التي عملت فيها هنا لم يذكرها الدكتور إلا مرة واحدة. فقد سألت "تشارلوت" الدكتور وأجابها بأنه يعرف القليل جدًّا عن أم الأولاد. كان هذا كل شيء، لكنه أثار فضول السيدة "مينوت" وعجبها، بطبيعة الحال. ربما، فكرت في نفسها، ربما تكون والدة الأطفال الثلاثة على قيد الحياة. ربما لم تكن تربطها علاقة زواج بالدكتور. ربما كان الأولاد نتاج نزوة. في ذلك الحين ناقشت ذلك الاحتمال مع "هانا"، التي تطوعت بأن ذهبت بخيالها إلى أبعد من ذلك:

- أو اغتصاب!

ربما علاقة عابرة بين الدكتور وواحدة من مريضاته.. ربما. ومن شأن ذلك أن يفسر أيضًا، كما قالت "هانا"، سبب أنه ترك مدينة مثل "بون" ليقطن قرية مثل "فولفهايم". فقد اشتكته المرأة. ومرمغت سمعته في الوحل. وربما رفضت الاحتفاظ بالأطفال الرضع، لأنهم كانوا - 'عذرًا لقولي ذلك' – قبيحي المنظر. ولذلك صار الأطفال بالنسبة للدكتور مجرد تذكرة بالعار الذي لحق به، وكان ذلك السبب في أنه عاجز عن أن يقدم لهم الحب، مثله مثل أي أب.

تذكرت السيدة "مينوت" تلك المحادثة وهي تقف عند خزانة غرفة الاستشارة تتصفح ألبومات الصور، غير متوقعة أبداً لما سوف تراه. فقد كانت تتخيل أنها ستجد شيئًا مختلفًا.

استغرق الأمر منها بعض الوقت لتفهم. كانت قد أنزلت الألبوم الأول. كان مميزًا بالحرفين 'Vi' في الزاوية العليا اليمنى منه. لم يكن لديها فكرة عما يمكن أن يعنيه الرمز. هو ألبوم صور بولارويد، ربما التقطها الدكتور بنفسه. وتحت كل صورة، في الهامش البولارويد الأبيض، وجدت الرمز نفسه مدونًا بخط اليد، يليه التاريخ والسنة؛ وهي هنا سنة 1984. الصور نفسها كانت غريبة: مجرد يد، ساق، قدم، أذن، أو سُرة. تصفحت الألبوم عشوائيًّا، فوجدت أن الصور كلها على هذا النحو. فعادت إلى البداية.. الصفحة الأولى.

تعرفت على الرضيع على الفور. كان في الصورة الأولى مستلقيًا على ظهره، عاريًا، على سرير أو أريكة. لم تعرف من هو تحديدًا من بين الثلاثة. لم يكن هناك أي اسم، ولكن كان هناك تاريخ: 1984/9/29. هذا تاريخ ميلاد الأطفال. ما لفت نظرها هو الحنك المشقوق. ليس الندبة، فهي لم تكن قد ظهرت بعد. ولكن هذا الذي تراه شيء آخر. جرح. فجوة.

تأكدت من كونها فجوة من الصفحة التالية. وكاد صوابها يطيش. فقد قام الدكتور بتصوير الحنك المشقوق بنفس الطريقة التي صور بها الأيادي والأقدام وبقية أجزاء الجسم – عن قرب.

شهقت مفزوعة، وسارعت بغلق الألبوم، ولكن الصورة انطبعت في مخيلتها.

تناولت الألبوم التالي. على غلافه الرمز "V2". فتحته عشوائيًّا، وأدركت على الفور أن كل الصور كانت متطابقة مع تلك التي في الألبوم الأول. ولكنها تناولت الثالث من على الرف، ووجدت ما توقعته على الغلاف: "V3". وكان هذا الألبوم أيضًا مثل سابقيه: اليدان والقدمان والساقان. ولكن أيضًا الجذع، والجزء الخلفي من الرأس والكتفان والعينان... كل شيء.

كل شيء...

جلست إلى الكرسي المجاور للمكتب، بعد أن غلبها الدوار.

بعد برهة، شرعت تحصي الألبومات الموجودة من مكانها وهي جالسة. عدت حتى 12. وحسبت حسبة بسيطة. ألبوم لكل عام من أعوام كل طفل.

ليس هذا كافيًا. فما الذي يمكن أن تثبته بها؟ لا شيء. أدركت ذلك في الصباح. فهي كانت قد توقفت عن البحث وتوجهت إلى غرفة نوم الأولاد. كانوا نائمين. ولم تبق هي في الأعلى طويلًا، فلا يمكنها التفكير في وجودهم. ظلت تلك الصور تتوالى في مخيلتها وهي واقفة تتأملهم نائمين.

نزلت وذهبت إلى حيث التليفون لتتصل بـ"هانا". ولكنها ترددت. شعرت أن عليها أن تتوصل أولًا إلى منطق يقتنع به عقلها. ولكنها اتصلت في النهاية.

لم يرد عليها أحد.

صنعت لنفسها طبقًا من الحساء حتى تجبر نفسها على التفكير في شيء آخر. وانشغلت بالغسيل، والكي. تشعر بين الحين والآخر باختناق أنفاسها. ما الذي يمكنها فعله؟ ما الذي ينبغي عليها فعله؟ تملكها الاضطراب.

في النهاية عادت إلى المكتب. لا بد أن هناك المزيد. هذه المرة اهتمت بالباب المؤدي إلى المختبر. هناك كان دائمًا ما يعزل أولاده عندما يمرضون. لم يكن هذا الباب مغلقًا أيضًا، مما أصابها بشيء من خيبة الأمل، لأنه يعني ضآلة فرصة احتفاظه بأي سر هناك.

لم تكن تدخل المختبر كثيرًا. فهو يقوم بتنظيف هذه الغرفة بنفسه، وفي الأوقات القليلة التي دخلته فيها كانت تجد أنه قام بعمل دقيق للغاية. فلا غبار، ولا فوضى.

فوجئت من جديد بمستوى نظافة الغرفة. ومع ذلك فقد كانت مختلفة هذه المرة. فجميع الأدوات والتجهيزات والأوعية والأنابيب والأكواب - وحتى المجاهر والشاشات - بدت لها جديدة وكأنها خرجت للتو من صناديقها، وكما لو أنها لم تستخدم من قبل. ففي كل مرة كانت تدخل فيها إلى هذا المكان كانت تجد دائمًا شيئًا يغلي أو يتبخر؛ وكانت ترى على الطاولات أو في الخزانات جميع أنواع الأطباق وأنابيب الاختبار المليئة بالسوائل. ولكن ليس هذه المرة. كما لو أن الغرفة قد تم تجديدها وتنتظر ساكنًا جديدًا.

كان هذا هو أول انطباع لديها. ولكنها سرعان ما استنتجت أمرًا مختلفًا: إنه يخفي آثاره. فلقد تخلص من كل شيء، ودمر الأدلة.

تأخرت كثيرًا. هذا ما أدركته... بكل أسى.

قررت أن تلقي نظرة أخرى على سجلات المرضى، ولكنها عادت أولًا إلى خزانة ألبومات الصور. تغلبت على اشمئزازها، وهي تتصفح جميع الألبومات الاثني عشر، من الغلاف للغلاف، بطريقة سريعة. وعلى الرغم من أنها تعرف ما ستراه فيها، إلا أنها كانت تفزع مع كل صفحة. كانت تأمل أن تعثر على صورة أو ورقة عالقة بين الصفحات، أي شيء يساعدها، ولكنها لم تعثر عليه. وشعرت وهي تقلب الصفحة الأخيرة أنها تطوي الفصل الأخير من حياة الأولاد.

استسلمت. لم تعد لديها لا القوة ولا الشجاعة لمزيد من البحث. رغبت في أن تقضي ما تبقى لها من وقت مع الأطفال الثلاثة. ولما يرجع الدكتور ستعرف بنفسها ما سوف يحدث. ليس عليها الآن سوى الانتظار.

وبينما كانت تعيد آخر ألبوم إلى مكانه، لمحت كومة من المجلات قابعة على رف آخر. جميعها دوريات إنجليزية لها عناوين من قبيل "الطبيعة"، "الخلية"، "التفاضل". التقطت بعضًا منها، وتصفحتها أملًا في العثور بداخلها على أي ورقة. ولكن هذا المسعى الأخير راح سدىً – كما توقعت. إلى أن بدأت تعيد المجلات إلى مكانها على الرف. لما فعلت تسمرت عيناها على صورة بورتريه لرجل. كانت على غلاف عدد من مجلة "التفاضل". تعرفت عليه على الفور، من الشعر والشارب الأحمر الذي يخفي الندبة أسفله. لم تكن هناك ذقن. أسفل الصورة تعليق، احتوى على كلمة لفتت انتباهها: "تجريبي". ألقت نظرة على المقال. كان مقال له هو. "علم الوراثة التجريبي تطبيقًا على أجنة الثدييات".. بقلم د. "فيكتور هوب".

"الثدييات".

قرأتها بصوت عالٍ؛ وذكرتها الكلمة الإنجليزية بنظيرتها الفرنسية mammalien. ارتعدت لما فهمت العنوان، ولما لمحت التاريخ على الغلاف. مارس 1982.

باستغراب متزايد، بدأت تتصفح المجلات الأخرى. كان في كل منها ذكر للدكتور، وأحيانًا صورته. وكانت دائمًا نفس الصورة: صورة جواز سفر بسيطة. بعض المقالات كتبها الدكتور نفسه، ولكن معظمها، كما اتضح لها فيما بعد، كان عنه. وقد وصفته بكونه "عالم الأجنة الشهير" في جامعة "آخن"، ويبدو أنه قد أجرى بعض التجارب الرائعة في بداية الثمانينيات. وكان كل من كتب عنه يعبر عن تبجيله له؛ وكثير منهم عبر عن توقيره الشديد. ولكن الأعداد الأحدث كانت تحمل لهجة مغايرة، تعبر عنها كلمات من قبيل: تحقيق، تزوير، غش، فوضى. هذه الكلمات صدمتها؛ وخصوصًا آخر كلمتين.

وفي النهاية، وجدت في مجلة في أسفل تلك الكومة – مجلة Nature – خبرًا أخيرًا عنه. كان موجزًا وحمل عنوانًا عبر عن محتواه: (جامعة آخن: استقالة "فيكتور هوب").

شعرت برعدة تتسلل عبر جوانحها، وفزعت عندما ألقت نظرة على تاريخ المجلة: 3 يوليو 1984. قبل وصول الدكتور إلى "فولفهايم" بثلاثة أشهر.

وجدت نفسها ومن دون سبب تنتزع تلك الصفحة التي بها الخبر، لتحتفظ بها.

غش وفوضى. فوضى وغش. كررت الكلمتان لنفسها وكأنها تحاول أن تستوعبها. كلمة 'غش'، على وجه الخصوص، سيطرت على تفكيرها. بل هي في الواقع منحتها بعض الراحة. فهي تعني أن الدكتور قد خدع بالفعل الناس بطريقة ما. لقد أقنعهم بأشياء كانت غير صحيحة. هذه ورقة يمكنها أن تستغلها لصالحها.

فجأة، تذكرت بعض العبارات. كيف كان يعبر عنها؟ وقت أن حدثته عن ذلك الشق في ظهر "جابرييل". كانت قد قالت له: "أنا لا أصدقك"، أو قالت: "لم أعد أصدقك".

هل فقدتِ أنتِ أيضًا إيمانك بي؟

"أنتِ أيضًا"... هي لم تكن الوحيدة إذن.

لديها الآن طرف خيط. وهذا هو المهم. ولكنه كان أكبر مما كانت تتوقع. وبوسعها أن تبحث أكثر. ستطلب من أحدهم ترجمة المقال لها، وسوف تتواصل مع جامعة "آخن". ولكنها لن تتعجل. عليها ألا تقع في أي أخطاء. سوف تبدأ في تلك الليلة، عندما تعود إلى منزلها. سيكون أمامها يوم الأحد بطوله. ولن يكون عليها أن تدافع عن

تصرفاتها حتى صباح يوم الاثنين، حيث خمنت أن أول مرضى الدكتور سيحكي له عن ما حدث عند الحدود. ولكنها تأمل في أن تكون قد أحرزت بعض التقدم حتى ذلك الحين. وحتى لو لم تنجح، فلا يزال هناك متسع من الوقت. هي لم تعد تهتم لمسألة أن يطردها الدكتور.

عاد الدكتور "هوب" إلى المنزل في الساعة الخامسة والنصف من مساء ذلك السبت. كانت السيدة "مينوت" في الفصل مع الثلاثة. فبعد أن استيقظ الأولاد في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، وتناولوا طعامهم، اصطحبتهم إلى الطابق العلوي، ولكنها لم تلق عليهم درسًا. كان الأولاد، وهي أيضًا، عاجزين عن التركيز. ولكنها قرأت عليهم. قصة "داوود" و"جالوت" من القصص الديني للأطفال. وكيف أمكن لراعي غنم بسيط أن يصرع عملاقًا ماردًا.

- طالما أنكم لستم ضخامًا أقوياء، فعليكم أن تتحلوا بالذكاء.

بعد ذلك طلبت منهم أن يرسموا تعبيرًا عن القصة.

سألها "جابرييل":

- كم كان حجم ذلك العملاق بالضبط؟

- طوله ثلاثة أمتار. أطول حتى من هذا الارتفاع.

مدت ذراعها في الفراغ لأعلى، بقدر ما استطاعت.

- ولكن طوله لا يناسب الصفحة التي أرسم فيها.

- لا بد أن ترسم على أساس مقياس رسم. لا بد أن يكون كل شيء أصغر مما هو عليه في الحقيقة.

هذا مفهوم صعب بالنسبة لهم. هم لا يعرفون كيفية تحويل شيء من حجمه الحقيقي في رؤوسهم إلى صورة أصغر وأقل وثنائية الأبعاد. عجزت لسبب ما عن أن تجعلهم يتصورون الطريقة؛ وخاصة أنهم لا يتصورون إلا ما هو حقيقي.

رسمت "داوود" وإلى جواره العملاق؛ يكبره بمقدار أربعة أضعاف.

صاح "جابرييل":

- هذا ليس عملاقًا. هذا صغير جدًّا!

- حسنًا. قوموا فقط بنسخ هذا الرسم في ورقكم.

أدركت أنها تفتقر إلى صبر الأستاذة في تلك الظهيرة. وبالطبع كانت متوترة. ترمق ساعتها بين الحين والآخر. وتقرض أظافرها. فتحت النافذة قليلًا لتنظر من خلال الفرجة، وكانت تحبس أنفاسها كلما مرَّت سيارة.

انهارت أعصابها مع حلول الخامسة. طلبت من الثلاثة أن ينتبهوا لها، وبدأت تطرح عليهم أسئلة. كانت تريد أن تحضرهم. لم تلجأ إلى طريقة "إذا سألكم أحد عن..."، وفضلت طريقة الأسئلة:

- ما رأيكم في والدكم؟

- سيء.

- لماذا؟

- يفعل أفعالًا سيءة.

- وما هي تلك الأفعال؟

- بالإبر. يدخل الإبر فينا. إبر طويلة.

- فقط؟

فكروا في أي شيء آخر، ولكنهم لم يتوصلوا لإضافة. فأدركت أنه لا شيء سوى ذلك هناك. فلو أنها تعتقد أن الدكتور مذنب، فليس هناك سوى القليل الذي يثبت لها ذلك. يبدو أن الأمر سينحصر في نهاية المطاف في كونه كان يتصرف مع أطفاله بعدم مسؤولية. ومن دون إنسانية. ولكنه لم يكن ينهرهم. ولم يكن يضربهم. كل ما فعله هو

إخضاعهم لتجارب طبية، حتى ولو كان مبالغًا فيها. وكان يحبسهم في المنزل. ولكن، هل هذه جريمة؟

تنهدت بعمق وهي تحاول أن تستجمع شتات أفكارها. غش وفوضى. هذا ما يلزمها أن تركز عليه.

اتجهت إلى الشباك عندما توقفت سيارة تاكسي عند المنزل في تمام الخامسة والنصف، وقلبها يكاد يقفز إلى خارج صدرها. ترجل الدكتور من السيارة، فتراجعت خطوة غريزية إلى الوراء حتى لا يراها.

- عاد والدكم. من الأفضل أن تتجهزوا. سيكون هنا خلال لحظات.

ولكنه لم يصعد لأعلى.

انتظرت خمس دقائق. عشر دقائق. سمعته في المكتب. تمنت ألا يكتشف أنها كانت تنقب وراءه. وحاولت أن تطمئن عقلها بأنها قد أعادت كل شيء إلى مكانه بالضبط.

لماذا لم يصعد لأعلى حتى يطمئن أن كل شيء بخير؟

قررت أن تنزل إليه بنفسها، مع الأولاد، ومن ثم تغادر. راحت إلى النافذة لتغلقها، ولكن صوت في الخارج لفت انتباهها. نظرت إلى أعلى. كانت السماء زرقاء جدًّا، فيما عدا بعض السحاب الرقيق، ولكن الصوت أقرب إلى صوت عاصفة رعدية تقترب من على البعد. فتحت النافذة أوسع قليلًا ومالت إلى الأمام تنظر. كان الصوت الهادر يأتي من الطرف الآخر من شارع "نابليون" ويعلو كلما اقترب. سمعت هذا الصوت من قبل، ولكنها في البداية لم تتذكر مصدره. كان صوت يبدو كأنه موكب كبير من السيارات. لكنه لم يكن كذلك.

أدركت بغتة ماهيته، فشحب وجهها. وحينما التفتت إلى الأطفال، لم يتسنَّ لها أن تتأكد من ردود أفعالهم ما إذا كانوا قد ميزوا بدورهم الصوت أم لا.

ولكن "جابرييل" قال:

- السيارة. سيارة السيد.

بالكاد سمعت صوته وسط الهدير بالخارج، والذي أضحى الآن قريبًا جدًّا.

لم تتفوه السيدة "مينوت" بأي شيء، ومكثت تستمع. ألقت نظرة على ساعتها. كانت تشير إلى السادسة إلا الربع تقريبًا. يبدو أن "أوتو ريسيجر" عائد من المنطقة الحدودية، حيث يبقى برج" بودوين" مفتوحًا حتى الخامسة مساءً. هو في طريقه إلى شارع "ألبرت"؛ تمنت ألا يتوقف.

لكنه توقف. استمر الضجيج الذي يصم الآذان الصادر عن العادم لبضع ثوانٍ أخرى، قبل أن يسكت فجأة. ابتلعت السيدة "مينوت" ريقها ونظرت من النافذة. كانَ الحارس قد أوقف سيارته "السيمكا" أمام المنزل. ومال نحو المقعد المجاور لالتقاط شيء ما، ثم خرج وأغلق باب السيارة بقوة. في يده ذلك السيف الخشبي الصغير، والذي يبدو أنه قد أصلحه. وضعت السيدة "مينوت" يدها على فمها في جزع، وهي تراه يدق الجرس. دفع البوابة ففتحها، فهي لم تكن مغلقة، وتوجه عبر الممشى إلى المنزل.

التفتت إلى الأطفال:

- هل تلونا الصلوات اليوم؟

هي لم تفكر في أن تتفوه بهذا السؤال من الأصل. ولا تدري لماذا سألته. والواقع أنها كانت تدري السبب. ولكنها لا تريد أن تعترف بأنها تكاد تموت خوفًا.

مشيت نحو التُّخت الثلاث. كان الأطفال قد شبكوا أياديهم في طاعة. وأتتها الأصوات من أسفل.

بدأت تتلو:

- أبانا...

قاطعها "رافاييل":

- علامة الصليب. علينا أولًا أن نرسم علامة الصليب.

- معك حق.

رفعت يمناها نحو جبهتها وهي ترسم في الهواء:

- باسم الأب...

تلا الأطفال الصلاة بهمس وراءها، وبالطريقة التي تعلموها منها. أغلقت عينيها وهي تستمع إلى شدو الأطفال.

- أبانا الذي في السماء...

لن تنهزم مستسلمة أبدًا. كانت مصممة على ذلك. سوف تدافع بكل شراسة. وستخبره أن الغلطة غلطتها. أليست غلطتها فعلًا؟

- اغفر لنا...

سمعت الدكتور:

- أشكرك، سيد "ريسيجر"! مع السلامة!

واصل الأطفال الصلاة في هدوء.

- اهدنا بعيدًا عن الغواية...

صوت الباب في الأسفل ينغلق بقوة.

- ونجنا من الشرور... آمين.

سمعت وقع أقدام الدكتور وهو يصعد الدرج. فقررت أن تسارع فتلتقيه في منتصف الطريق. لم تكن تريد للأطفال أن يشهدوا الموقف.

- سأعود في لحظات!

اتجهت نحو الباب. كانت العصبية قد هيمنت على حركات يديها التي لا تتوقف. وفي الخارج عاد هدير سيارة "ريسيجر" يصم الآذان. لم يكن الصوت هذه المرة هو صوت جلبة وقرقعة، ولكنه صوت أشبه بصريخ مبحوح، واستمر لبضع ثوانٍ. فتحت الباب وخرجت.

كان الدكتور قد وصل إلى الطابق للتو. في يده السيف الخشبي. نظرت إلى وجهه لتخمن مزاجه، ولكن ملامحه، كالعادة، لم تكن تبوح بأي تعبير.

- سيد "ريسيجر".

عاد صوت هدير السيارة في الخارج فجأة. فسكت الدكتور، قبل أن يعقب:

- أعاد سيد "ريسيجر" السيف. وأخبرني...

ولكنها بادرته.

- إنها غلطتك أنت.

كانت تفرك يديها في عصبية. تريد أن تحافظ على وضعية الهجوم.

- ماذا؟

إنه يتظاهر. يحاول تقمص البراءة.

- غلطتك هي التي أوصلتنا إلى هذا.

أحنى رأسه ساكتًا:

- هذا غير صحيح. إنها ليست غلطتي.

- ماذا تقول؟

كانت مندهشة ومغتاظة في الوقت نفسه.

أخذ يهز رأسه، وعيناه مثبتتان على الأرض.

- لم أفعل إلا الخير. لم أفعل إلا الخير. لم أرغب في أن يحدث كل هذا.

كان يتحدث وكأنه سكران، هكذا قالت لنفسها. بقي يهز رأسه من جانب إلى جانب من دون توقف. واستمر في كلامه وسط الصوت الهادر للسيارة في الخارج.

- رغب في أن يجري الأمر على هذا النحو. هو المسؤول. حاولت أن أوقفه. حاولت. ولكن...

مرر يده على نصل السيف الخشبي، وتقدم خطوة للأمام، ولكنه كان يترنح.

- كنت أريد الخير. دومًا كنت أريد الخير.

فوضى وغش. بزغت الكلمتان في عقلها من جديد، فرددتهما بصوت عالٍ:

- فوضى وغش!

تنحَّت جانبًا لتبتعد عنه:

- فوضى وغش. تلك كانت التهمة التي وجهوها لك. أنت خدعت الكل. من قبل. والآن.

عندئذٍ سمعت صوت ارتطام قوي في الخارج. شردت، ولكن الدكتور بدا وكأنه لم يسمع شيئًا.

- لا ينبغي أن تقولي ذلك!

اقترب أكثر ناحيتها. فتراجعت هي خطوة. أدركت أنها قد لامست الوتر الحساس:

- لا يمكنك أن تمحو الحقيقة. وليس لديك الجرأة على مواجهتها. أنت مغرور تبالغ في تقدير ذاتك.

- لا ينبغي أن تقولي ذلك!

كان يهز رأسه بقوة أشد من ذي قبل، وكأنه طفل ضبطوه يفعل أمرًا ممنوعًا، ويرفض أن يعترف. تقدم الدكتور خطوات فجأة. لم تتوقع السيدة "مينوت" تلك الحركة، فتراجعت بشكل غريزي سريع. وعندئذٍ فقط أدركت أنها كانت تقف عند حافة السلم. ولكن الأوان كان قد فات.

- دكتور؟ سيارتي تعطلت. هلا...

تسمر الحارس، الذي دخل إلى المنزل في تلك اللحظة، في مكانه. وصاح:

- يا ربي!

كان الدكتور "هوب" ينقض على السيدة "مينوت"، والتي كانت تتعثر في عتبة السلم. ضغط بإصبعيه الأوسطين على عنقها بقوة، وانتظر ثواني، قبل أن ينظر لأعلى. وصاح:

- الرب أعطى والرب أخذ.

رسم "أوتو ريسيجر" الصليب على جسده ببطء.

لم يقصد أن يحدث ما حدث. لم يرغب "فيكتور هوب" في أن يحدث هذا. كل ما كان يريده هو أن يعيد إليها السيف. هذا هو كل شيء. ولكنها واجهته بكلام. واتهمته بمزاعم. فتملكته قوة لا قبل له بها تملكته قوى الشر. هو يدرك ذلك. ويدرك أن كل شر مآله الهزيمة.

كل شر مآله الهزيمة.

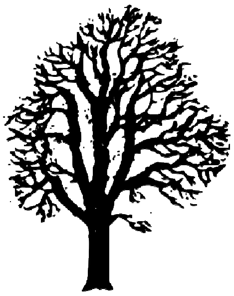

الجزء الثاني

يمكن إيجاز مسيرة "فيكتور هوب" المهنية، في الأدبيات العلمية، على النحو التالي:

نال عالم الأجنة الألماني "فيكتور هوب" درجة الدكتوراة من جامعة "آخن" في الستينيات، بأطروحة ممتازة عن تنظيم دورة الخلية. وأمضى عدة سنوات في "بون" يعمل كأخصائي الخصوبة، وفي عام 1979 أبهر المجتمع العلمي من خلال إنتاج ذرية من الفئران من أب من جنس وحيد. وشغل كرسي أبحاث في جامعة "آخن". وفي ديسمبر عام 1980، أذهل المجتمع العلمي مرة أخرى عن طريق استنساخ الفئران. فقد كان أول عالم يطبق بنجاح تقنية الاستنساخ على الثدييات. وبعد ثلاث سنوات وجَّه إليه زملاؤه اتهامات بالتزوير. فقد تبين أن من غير الممكن تكرار تجاربه باستخدام بياناته، ورفض الدكتور "هوب" تقديم عرض عملي لأساليبه. وفي يونيو من عام 1984، وبعد تحقيق أجرته لجنة مستقلة، أنهى بحثه في الجامعة وانعزل عن الأوساط الأكاديمية. ولاحقًا، أعرب بعض العلماء عن أسفهم تجاه ما جرى، وقالوا إن عزل الدكتور "هوب" أفقدهم موهبة كبيرة، في حين استمر البعض الآخر على رأيه وأن عمله ليس سوى تخبط هاوٍ.

وهكذا يوصف عمله حتى يومنا هذا. وكل ما سبق ذكره هنا صحيح، عدا جنسية الدكتور. ولكنها نصف الحقيقة. ولو وضعتها تحت مجهر التمحيص، فسوف تجد أمامك حكاية أخرى.

ففي لندن، وفي يوم الثلاثاء 16 ديسمبر 1980، في تمام الرابعة والنصف من بعد الظهر، تلقى رئيس تحرير مجلة "Cell" العلمية مكالمة تليفونية من الدكتور "فيكتور هوب". بدا الاسم مألوفًا لرئيس التحرير، ولكنه لم يتمكن من تذكر بقية التفاصيل في تلك اللحظة. كان يتحدث بالإنجليزية بلكنة ألمانية، وسأله عن الموعد النهائي لصدور العدد القادم من المجلة. وأضاف له بحماس أن لديه بعض الأخبار الهامة. بدا صوته مكتومًا، كما لو كان يضع منديلًا على السماعة.

أبلغه رئيس التحرير أن الموعد النهائي لعدد يناير كان قبل أسبوع، وأنه ينتظر وصول البروفة النهائية لمكتبه في أي لحظة الآن. وأن مقالات عدد فبراير لا تزال تحت المراجعة.

لم يكن الدكتور "هوب" يريد الانتظار كل هذا الوقت.

- الأمر مهم جدًّا.

بحذر، سأله المحرر عن فحوى ذلك الأمر. كان هناك بعض التردد على الطرف الآخر من الخط، قبل أن يسمع صوت الدكتور الواثق:

- الاستنساخ. لقد استنسخت بعض الفئران.

نهض رئيس التحرير من مقعده من وقع المفاجأة. فإذا كان هذا صحيحًا، فإنه بالتأكيد أمام سبق مهم. ولكن ما سمعه ساعد أيضًا على تحفيز ذاكرته، وأدرك فجأة من هو "فيكتور هوب": عالم الأحياء الألماني الذي كان قد نشر مقالًا مهمًا في مجلة "Science" العلمية قبل بضع سنوات، عن الهندسة الوراثية لأجنة الفئران.

- أوه! هذا بالتأكيد سبق علمي.

- أريد أن أنشر تقريرًا عن تجاربي في أسرع وقت ممكن، تفهمني.

- أفهمك جدًّا. ربما أمكنني أن أحضر لنشر شيء ما في هذا العدد. هل يمكنك الانتهاء من المقال اليوم؟

- كلا، ليس قبل الغد.

- لن يمنحنا هذا الكثير من الوقت. أريده بحلول الساعة الثانية عشرة كحدٍّ أقصى. ممكن؟

الحقيقة أن الموعد النهائي كان بعد يوم آخر، ولكن رئيس التحرير لم يشأ أن يخبره بذلك. فلو أنه منح الدكتور وقتًا إضافيًا، لزادت فرص أن تعرف بقية المجلات الخبر وتحاول أن تنال منه السبق.

- الثانية عشرة. أعتقد أن بوسعي إنجاز هذا.

- ممتاز. كم فأرًا استنسخته، إذا كان لي أن أسأل؟

- ثلاثة.

- رائع. أنا أتطلع لقراءة مقالك.

- لا ينقصه سوى بعض التفاصيل الصغيرة. أؤكد لك هذا.

عندما وضع "فيكتور هوب"، في "آخن"، السماعة، كان يعرف أنه لم يدوّن الكثير على الورق من محتوى المقال الذي يفترض أن يسلمه في اليوم التالي. الأفكار الرئيسية في رأسه، وسبق له أن كتب سريعًا بيانات كل خطوة من خطوات التجربة. كما أنه التقط بعض الصور، ولكن ذلك كان كل ما لديه الآن. كان يعرف أن أسلوبه، على وجه الخصوص، يميل إلى الإيجاز والتركيز. يستخدم معظم زملائه الفيروسات كناقلات عند تهجين الخلية، وبالتالي يفقدون أهم عملية في الاستنساخ. بينما استخدم هو طريقة طورها في السبعينيات البروفيسور "ديريك برومول" في إنجلترا، وعمد الدكتور "هوب" إلى تنقيحها باستخدام قطارة المجهرية، أو ماصة، يقوم بإدخال نواة خارجية إلى داخل الخلية، ومع الحفاظ على المص الميكروي في مكانه يقوم بمص النواة الأصلية للخلية. وبهذه الطريقة لا بد من اختراق غشاء الخلية مرة واحدة فقط، لتعجيل شفاء الخلية. ويعمل العامل المكتشف حديثًا، خلايا "Cytochalasin B"، الذي يعالج به الخلية، على الحفاظ على ليونة الخلية، وتشجيعها على الالتحام مع النواة الجديدة.

الخطوات بسيطة جدًّا من الناحية النظرية، ولكن هذا الأسلوب يتطلب في التطبيق قدرًا كبيرًا من الخبرة وبراعة تفوق بألف مرة طريقة وضع الخيط في إبرة. فقد فشلت العديد من المحاولات، إما لأن غشاء الخلية كان مصابًا بأضرار بالغة جدًّا، أو بسبب امتصاص قدر كبير من السيتوبلازم مع النواة. كما كان امتزاج النواة والخلية الجديدة نادرًا ما يتم، وكانت فرصة الحصول على خلية أعيدت هندستها لتتطور إلى جنين فعلي مسألة حظ. والبيانات التي سجَّلها الدكتور "هوب" لا تكذب. فمن بين 542 خلية مختارة من الفئران البيضاء، نجا أقل من نصفها من عملية التدخل المجهري التي تستبدل فيها النواة بأخرى أخذت من فئران بنية. ومن المجموعة المتبقية، امتزجت 48 خلية فقط بنجاح مع النواة الجديدة. وخلال فترة الاستنبات التي تدوم لمدة أربعة أيام، اتضح أن 16 خلية فقط التي تحورت إلى أجنة صغيرة، وبالتالي صارت مناسبة للزرع

في رحم بعض الفئران البيضاء. وعلى الرغم من العدد الضئيل – الذي لا يمثل سوى أقل من ثلاثة في المائة من عدد الخلايا التي وصلت الى المرحلة ما قبل الأخيرة – فقد كان هذا إنجازًا كبيرًا لـ"فيكتور هوب"، وهو إنجاز لم يقترب منه زملاؤه أبدًا، لأن جميع محاولاتهم حتى الآن لم تتجاوز مرحلة طبق "بتري".

ثم كان عليه أن ينتظر ثلاثة أسابيع حتى يكتمل نمو الأجنة ويمكن توليدها. واستغل تلك الفترة في بدء سلسلة جديدة من الخلايا. وخاب أمله عندما لم تنجح أي خلية في اجتياز مرحلة الاستنبات، وهو ما يعني أنه مضطر إلى أن يعلق كل آماله على تلك الأجنة. وستولد الفئران بلا شعر؛ وما هي إلا ثلاثة أيام ويعرف الدكتور ما إذا كانت تجربة الاستنساخ ناجحة أم لا، عندما يبدأ الجلد في النمو. سوف تنتج الخلايا المعالجة الست عشرة فئران بنية، بينما تنتج البويضات الخمس عشرة التي تم إخصابها بشكل طبيعي، وزرعها في أرحام مختلفة في نفس الوقت مثل غيرها، فئران تحمل اللون الأبيض لأمهاتها.

ولدت الفئران في 13 ديسمبر 1980، في مختبر جامعة "آخن". وتمت الولادة، كإجراء وقائي، قيصرية. وكانت العملية بسيطة مقارنة بالجراحة المجهرية اللازمة لاستبدال المواد النووية في الخلايا. ومع ذلك، فقد كان عليه أن يركز بكل قوته، لأنه كان متوترًا ويداه ترتجفان.

لم تقدم أولى الأمهات – وكن خمسًا ولكي يميزهن عن بعضهن استخدم علامات بالحبر – النتيجة المرجوة؛ فمن بين الثمانية حديثي الولادة، وكلها ولدت ميتة، كان ثلاثة فقط التي أمكن أن يميز جسديًّا كونها فئران. أما من بين الخمسة المتبقين، فكان هناك اثنان تجعَّد جسديهما مثل حبَّات الزبيب، واثنان آخران كانا أشبه بجنين بشري ذابل عمره ثلاثة أشهر. وكان جلد آخر فأر مشوه أنحف من سمك الورق الكريبي، وشفاف لدرجة أن الأحشاء كانت ظاهره من أسفله. خاب أمل الدكتور "هوب"، ولكنه وضع أول ذرية من الفئران في الفورمالديهايد، ثم راح يجري العملية القيصرية للأم الثانية بأمل جديد. ولدت أربعة فئران من بين الخمسة ميتة؛ بل وكانت الأربعة مثل توائم سيامية ملتصقة. توأم ملتصق من عند العمود الفقري، والآخر من عند المؤخرة. ولكن اهتم كل الاهتمام بالفأر الخامس، والذي كان حجمه ضعف حجم الباقين، وكان حيًّا! ولكن هذا

كان أقصى ما تحصل عليه الدكتور. فقد كان المخلوق الضئيل بالكاد يتحرك – ولا تظهر عليه من علامات الحياة سوى اختلاجات عند طرف القدم – وهكذا سارع الدكتور وأحضر أنبوبًا دقيقًا وأخذ يبث بفمه الهواء في الفم متناهي الصغر.

- تنفس... تنفس!

كان يصيح في لهفة وكأنه يخاطب إنسانًا.

***

"تنفس!.. تنفس!".

رددت أرجاء المنزل الكائن في 1 شارع "نابوليون" في "فولفهايم" صوت الدكتور "هوب" المنهك المبحوح، لحظة أن نجح في توليد زوجته التي أنجبت له ولدًا. نحن في صباح يوم الاثنين، 4 يونيو 1945. وكانت آلام الوضع قد بدأت منذ يومين، ولكن الولادة ذاتها استغرقت تسع ساعات.

إذن فهو ولد. وفي هذه الحالة اسمه سيكون "فيكتور". كان هذا أمرًا حسماه مسبقًا. ومع ذلك، لم يكن جنس المولود هو أول شيء تأكد منه والده. فقد اتجه بصره أول شيء إلى وجه ولده. وأدرك على الفور، من خلال دم وسوائل المشيمة على فم المولود وأنفه وخديه، أن مخاوفه قد تحققت: فقد كان لدى الطفل نفس الشفة الأرنبية؛ ورثها عن والده.

يعتقدون في القرية أنه إذا ولد طفل بتشوه معين، فإن هذا يعني أن أمه قد شاهدت أرنبًا ميتًا وقت أن كانت في الأسابيع العشرة الأولى من حملها. وحتى زوجته، صدقت حكايات الزوجات كبيرات السن، على الرغم من أنه سبق وأخبرها بأن هذا التشوه وراثة في عائلة "هوب"، مثله مثل الشعر الأحمر. وهي تعمدت الابتعاد عن دكّان الجزار طول فترة الحمل، وكلما كانت مجبرة على المشي جوار واجهته وما يعلق إليها من اللحوم، فإنها كانت تحرص كل الحرص على ألا تنظر ناحيتها إلى أن تبتعد.

ولم يكن هناك فائدة من كل هذا الحرص والحذر. الطفل ذو شفة أرنبية. كان هذا أول شيء سألت عنه زوجته. لم تسأله إن كان المولود ولد أو بنت، ولكن إذا كان لديه...

أشارت بيد ترتجف نحو فمها الذي يغطيه العرق. هز رأسه ثم أخبرها أنه ولد، على أمل أن ينشغل عقلها قليلًا بذلك. ولكنها أغلقت عينيها وتنهدت.

كان تنفس الطفل يخرج خشنًا، وهكذا بادر بوضع قناع الأوكسجين على الفور على فمه الضعيف. وبدأ الدكتور "هوب" في الضغط ببالون أسود بإيقاع ضغطة كل ثلاث ثوانٍ ليضخ الهواء إلى رئتي ابنه.

"تنفس!.. تنفس!".

لو كان أوقف التنفس الاصطناعي، لربما توفي الطفل قبل حتى أن يكتب من بين الأحياء. ولكن الدكتور، وهو يستمر تلقائيًّا في الضغط على البالون، سأل نفسه عمَّا إذا كان من الأفضل للطفل أن يموت الآن. كان قد ساعد في ولادة العديد من الأطفال المشوهين من قبل؛ أطفال ذوي إعاقات كبيرة بدرجة تفوق بكثير هذا الحنك المشقوق، ولكن مثل هذا السؤال لم يخطر له أبدًا من قبل. كان دائمًا ما يبذل كل جهد ممكن لإنقاذ حياة الطفل، وعلى نحو ما تدرب عليه، ولكن الآن، وفي حالة ابنه، أول مولود له، اعتراه الشك. مر أمامه شريط ذكريات طفولته فجأة، فتوقف. حركات الضغط على البالون أقرب إلى طعنات في أحشائه هو. وعندما توقف فجأة عن الضخ، وهو يؤكد لنفسه أنه يتحرى فقط ما اذا كان ابنه قادرًا على التنفس من تلقاء نفسه أم لا، شعر كما لو أنه أزاح حملًا ثقيلًا عن كتفيه.

سمعها تسأله من خلفه:

- هل هو حي، "كارل"؟ بالله عليك، أخبرني أنه على قيد الحياة.

أخرجته توسلات زوجته مما هو فيه، فعاد يضخ الهواء إلى رئتي ابنه بكل قوة الدنيا.

عاد صوت تنفس الطفل الخشن، ليكون الرد الشافي لقلب أمه.

***

مات الفأر.. على الرغم من جهود "فيكتور". ثلاثة عشر فأرًا ميتًا ولم يعش أي فأر. كانت تلك هي النتيجة في منتصف الطريق. وتعذب الدكتور، ولكنه كان عذابًا سابقًا

لأوانه، فبعد نصف ساعة كان يستخرج ستة فئران صغار أحياء من الأم الثالثة؛ اثنين منها ملتصقان عند الجمجمة، وماتا على الفور، ولكن الأربعة الآخرين كانوا مثاليين. كان كل فأر في حجم وشكل خنصر طفل، ولكن بذيل، وأربعة أرجل وأذنين. الجلد وردي يخلو من الشعر. العيون منتفخة مغلقة. بدأت الأفواه تنفتح وتنغلق، تبحث عن حلمة ثدي لترضع. تنفس "فيكتور" الصعداء. فمن بين هذه الأجنة الستة المزروعة هناك ثلاثة مهندسة وراثيًا. وبالتالي هناك فأر واحد على الأقل مستنسخ من بين تلك الفئران الأربعة الناجية. ارتجفت يد الدكتور وهو يودع الصغار الأربعة في صندوق به قصاصات من الورق الممزق، قبل أن يضع الصندوق تحت مصباح حراري. سيطعمهم بعض الحليب بالقطارة في اليوم الأول، ثم سوف يضع كل فأر منها مع فأر كبير جاء إلى الدنيا بالطريقة الطبيعية قبل بضعة أيام. وذلك لأن أمهات الفئران اللاتي تلدن للمرة الأولى أحيانًا ما تلتهم ذريتها حديثة الولادة.

أخرج أربع عينات حية أخرى من الأم الرابعة، ومنحته الأم الأخيرة المزيد من الأمل، فقد وجد أن خمسة من الأجنة السبعة التي زرعها قد خرجت حية، وهكذا صار الإجمالي ثلاثة عشر فأرًا.. نتيجة فاقت توقعاته بكثير.

ومرت ثلاث ليالٍ، وفي 16 يناير 1980، اكتشف "فيكتور" أن شعر ثلاثة من الأحد عشر فأرًا - حيث مات فأران بعد يوم من ولادتهما - كان قد بدأ ينمو، بينما ظهرت على الجلد الوردي للثمانية الأخرى شعيرات بيضاء بوضوح. وتبدد كل التوتر الذي اعتمل بداخله خلال الاثنتين والسبعين ساعة الماضية. حل محله نوع من الذهول، وفي تلك الحالة التي تشبه الغيبوبة أخذ يحدق في الفئران البنية الثلاثة لنصف ساعة كاملة، بينما ترضع من أمهاتها. وبين فينة وأخرى يداعب ظهر إحداها بطرف إصبعه.

***

توقعت "يوانا" أن تكون شفة ابنها الأرنبية مختلفة تمامًا. وكان أسوأ ما تنتظره أن تكون ندبة لا يتجاوز طولها سنتيمترين، يمكن إخفاؤها بقليل من الغرز. لم تكن قد رأت سوى ندبة زوجها، ولم تحاول من قبل أن تتخيل شكلها قبل خياطتها. ولذلك،

وعندما وضع المولود بين ذراعيها، فوجئت بمنظره، حتى إنها بادرت من فورها فدفعته بعيدًا عنها. وصاحت فيه، وهي ترفع ذراعيها في اشمئزاز:

- أبعده عني!

فتدحرج الطفل من فوق صدرها ليستقر فوق بطنها العاري ورأسه لأسفل.

تردد "كارل"، فهو لم يكن يعرف ما يجب عليه القيام به. لم يمر عليه من قبل موقف كهذا في كل حياته المهنية. كانت كل امرأة يقوم بتوليدها تتوق لعناق طفلها واحتضانه في صدرها على الفور، حتى لو كان يعاني من تشوه ما. بل إن بعضهن ترفضن أن يؤخذ الطفل بعيدًا عنها.

- أبعده عني "كارل"!

فكرت "يوانا" في منظر فم الطفل وهو عالق بصدرها مثل كوب الشفط، وعندما حمله زوجها في النهاية بعيدًا عنها، لم يبتعد عنها ذلك الإحساس، فنظرت في قلق إلى بطنها لتطمئن أن الطفل غير موجود حقًّا. وجدت أثرًا ضئيلًا من دم الحبل السري في البقعة التي كان قد وصل إليها الطفل على بطنها. ولكنها ظنت أنه دم من شفته الأرنبية، فانهارت وأخذت تصرخ في رعب شديد.

***

بعد مولده ببضعة أيام، أدخلوا "فيكتور هوب" دير الأخوات كلير في "لا تشابل"، على بعد بضعة كيلومترات من "فولفهايم". الشيطان عض الطفل – حسبما زعمت أمه المتدينة، على الأقل. ألم تتجنب الأرانب كلها، الأحياء منها والأموات، وليس فقط في بدايات حملها، ولكن طوال الأشهر التسعة؟ ومع ذلك فقد أتاها وجه الطفل مشوهًا. فلا بد أن للأمر علاقة بقوة أخرى خفية.

وأكد لها الأب "كايزرجربر"، الذي جاء لتعميد الطفل، شكوكها. فقد فزع الرجل ما إن رآه، وبادر غريزيًّا برسم علامة الصليب على جسده.

لم تكن "يوانا" لتفوتها تلك الإشارة.

- إنه عمل الشيطان، أليس كذلك؟

كانت تأمل في إجابة مؤكدة، حتى تتخلص من الملامة وتأنيب الضمير؛ وبالفعل حصلت على التأكيد الذي تبتغيه. لم يكن أكثر من مجرد إيماءة، ولكنها كانت كفاية بالنسبة لها. وفي اللحظة بين سؤالها ورده، كان القس يرمق الدكتور بطرف عينه، حيث كان يقف في ركن من الغرفة المظلمة واضعًا يده على فمه المشوَّه.

الخطأ خطؤه هو. هو من نقل الشر إلى ابنه. لم يكن ينبغي له أبدًا أن يجلب أي طفل إلى هذا العالم. هذا ما كان الأب "كايزرجربر" يفكر فيه، ولكنه لم يتفوه به بصوت عالٍ؛ فهو لا يزال يحترم الدكتور. ولهذا السبب أطرق برأسه فحسب. في الوقت الذي كانت فيه الأم تتنفس الصعداء.

دومًا ما كانت دير راهبات "كلير" في "لا شابيل" مكانًا للأطفال المعاقين عقليًّا وجسديًّا، ولكنهم قرروا خلال الحرب فتح أبواب الدير للمواطنين من فرنسا وبلجيكا الذين اضطروا إلى الفرار من منازلهم. وعندما انتهت الحرب، عاد الدير ليكون ملجأً من جديد. وكان "فيكتور هوب" أول مرضاه الجدد، ولما كانت علته الجسدية لا ترقى إلى كونها إعاقة حقيقية، فقد سجلت الأخوات في ملف المريض أنه يظهر بعض علامات التخلف. ولم تسجلن أي تفاصيل أخرى. ووقَّع الوالدان على الملف.

قدرت الأخت "ميليثا" الرسوم الشهرية لرعاية "فيكتور" وتنشئته على أساس دخل الطبيب، ولكنها زادت تلك الرسوم مرة أخرى عندما شاهدت الطفل. وأخبرت والديه أن تلك الزيادة لتغطية نفقات إضافية، مثل دمى خاصة ومطهرات. ولكنها أخبرت أختًا لها بعد ذلك أن سبب طلبها مزيدًا من المال كان أنها مقتنعة بأن الدكتور "هوب" وزوجته مستعدان لأن يدفعا أي ثمن للتخلص من هذا الطفل. كما أن هناك جزءًا من المال راح للأب "كايزرجربر".

كان هو من اقترح على الأبوين وضع الطفل تحت رعاية الأخوات "كلير" في الوقت الحالي. وكانت الأخت "ميليثا" قد استدعته منذ أسبوع لتعرفه بأنها أعادت فتح المؤسسة. وطلبت منه أن يبحث لها عن بعض "التعساء" - كانت تلك هي الكلمة التي

اختارتها. وبطبيعة الحال كان لا بد أن يكافأ على جهوده. ألم يكن في انتظار أن تتم ترقيته من أب إلى قس؟

ولم يتوقع الأب أن يعثر على "تعس" بهذه السرعة.

قال للطبيب وزوجته بعد التعميد:

- لا بد من طرد الشر منه.

كان يقرص مؤخرة الطفل خلسة أثناء طقوس التعميد، حتى يبكي ويصرخ بذلك الصوت الشؤم عندما يسكب الماء المقدس على رأسه. ووضعت الأم يديها على عينيها؛ بينما أشاح الأب بوجهه بعيدًا. ثم كرر رجل الدين فعلته مرة أخرى، بل مرتين.

يقرص. يسكب.

يقرص. يسكب.

وهكذا أنهى كل ما معه من ماء مقدس وبقي "فيكتور" الصغير يبكي بكل حرقة.

- لا يمكن دفع الشر إلا بمساعدة الرب.

قالها وهو يضغط على كل كلمة يتفوه بها. أعاد وضع الطفل الذي لم يتوقف عن العويل إلى مهده دون أن يكلف نفسه عناء تجفيف رأسه. فالتصق الشعر الأحمر الخفيف بالجمجمة الصغيرة، والمياه تقطر من قماش التقميط.

وحرص الأب على أن يلقي بنصيحته بنبرة لا مبالية، وهو ينظر إلى عيني الأم:

- لقد أعادت الأخوات في "لا شابيل" افتتاح مؤسستهن.

تعمد ألا ينظر إلى الطبيب. فهو لم يكن يدري ما سيقوله عن فكرة كهذه. أما بالنسبة للأم، فقد كان شبه متأكد من أنها لا تريد هذا الطفل. فقد رفضت أن تحمله خلال التعميد، ولاحظ أنها كانت تتحاشى النظر إلى طفلها.

نظرت الأم لزوجها. بينما تظاهر الأب بالنظر إلى المهد، حيث كان لا يزال "فيكتور" يصرخ بكل قوته. وبحركة مسرحية، وضع يده على جبهته، وأطل على الطفل من تحت

تلك اليد وهز رأسه بلطف في تعبير مصطنع عن مدى قلقه على الطفل. كان ينتظر بفارغ الصبر الحصول على رد، ولكن الرد لم يأته.

هكذا قال وهو يلتفت إلى "يوانا":

- بوسعي أن أحدد موعدًا لكما، إن رغبتما، لمقابلة الأخت "ميليثا".

- سوف نفكر في...

ولكن زوجته صاحت بفروغ صبر:

- أنا لا أريده، "كارل"!

- "يوانا"، علينا أن...

صرخت فيه بهستيرية:

- الشيطان فيه! ألا ترى ذلك بنفسك!

والتفتت بحدة نحو الأب، الذي فهم من نظرتها أنها تريد منه أن يتدخل.

- دكتور... أعتقد أن هذا أفضل شيء للطفل.

فجأة، تغيرت تعبيرات وجه الدكتور. كانت هناك نظرة اندهاش في البداية، وبعدها شردت عيناه، وكأنه يحاول أن يتذكر أمرًا ما.

حدس الأب أن كلماته قد لامست وترًا حساسًا، وهكذا بادر بملامسة ذلك الوتر مجددًا، فقال وهو يتعمد النظر في عيني الدكتور:

- عليك أن تفكر في مستقبل الطفل.

التفت الدكتور في بطء ينظر إلى المهد. لم يكن العويل ليتوقف إلا لثوانٍ يلتقط فيها الطفل بعض الهواء بذلك الصوت الخشن المقرف.

- فكر في الطفل يا دكتور.

راقب الأب الدكتور وهو يأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول:

- حسنًا إذن، لا مانع في أن تحجز لنا موعدًا. اليوم لو أمكن.

بعدها سارع الدكتور بالخروج من الغرفة.

***

عاش في الدير خلال السنوات من 1945 وحتى 1948، سبع عشرة راهبة، علاوة على اثني عشر مريضًا. وكان "فيكتور هوب" أصغر مريض هناك، وأكبرهم هو "إيجون فايس". كان "إيجون" في السابعة والعشرين من عمره ودخل إلى المكان بعد شهر من دخول "فيكتور"، ووفقًا لتعريفات التشخيص في ذلك الوقت، فقد تم تسجيله تحت وصف "غبي" - أشد شكل من أشكال التخلف. وأمضى معظم فترة إقامته في الملجأ مغلولًا إلى سريره، حيث لم يتوقف عن إطلاق الأصوات الحيوانية. وبالطبع لم يكن هناك من شك في أن الشيطان بداخله.

كانت وسيلة "إيجون فايس" المفضلة للتواصل هي أن يعوي مثل الذئب، أو يتذمر مثل كلب مسعور، وهو ما أثار أعصاب الراهبات والمرضى الآخرين. ولكن "فيكتور" كان مفتونًا بهذه الطريقة. وكانت أصوات "إيجون" بالنسبة له تغييرًا أحبه بعيدًا عن أصوات التراتيل والصلوات الرتيبة التي كان المرضى يخضعون لها، والتي رأت الأخوات أنها أكثر فائدة من أي دواء.

يبقى معظم المرضى في أماكنهم لا يفعلون أي شيء. قد يتحرك بعضهم في الصباح من السرير إلى الكرسي، ويقف البعض الآخر ويبقى واقفًا على قدميه حتى يحين موعد النوم مرة أخرى. ويكون على جميع المرضى الذهاب إلى الكنيسة مرة واحدة في اليوم. وإذا لم يتمكنوا من السير إليها وحدهم، فإنهم ينتقلون إلى هناك في الكراسي المتحركة؛ أمَّا "فيكتور" فكنّ يحملنه. كانت الترانيم باللغة اللاتينية، والصلاة باللغتين الفرنسية والألمانية، على أمل أن يفهم جميع المرضى ما يقال على الأقل. تجلس راهبة في المقدمة لتقود الصلاة والتراتيل، بينما تتوزع بقية الأخوات بين المرضى، الذين يجلسون في امتثال طوال القداس. بل إن بعضهم يتمتم بما يسمعه من صلاة.

وحده "إيجون فايس" كان ينتحب من دون انقطاع، وكثيرًا ما أُعيد إلى القاعة الرئيسية قبل نهاية القداس. كانت أدوية "الباربيتورات" لا تساعد في حالته، فحتى في نومه كان يلهث ويعوي كما لو كان يفر من كلاب مسعورة تطارده. كان الشيء الوحيد

الذي يجعله يصمت هو غمسه في حوض ماء مثلج، ثم نقله إلى حوض آخر ساخن، ومن ثم العودة الى الحوض المثلج مرة أخرى. عندئذٍ يسكت لمدة ساعة تقريبًا، وهو الوقت الذي يمر قبل أن يجف.

لم يتكلم "فيكتور" في السنوات الثلاث الأولى. ظنوا في السنة الأولى من حياته أن من الطبيعي ألا يخرج منه أي صوت بسبب تشوه فمه، ولكن حتى بعدما تم إصلاح الحنك المشقوق جراحيًّا لم ينطق بأي كلمة، وظنت الراهبات أنه ليس ذكيًّا بما فيه الكفاية ليتعلم الكلام. وبعد بضعة اختبارات إضافية، لم يبد خلالها أي رد فعل، ثبت لديهن هذا التقييم.

كان والده في البداية لا يزال متشبثًا بأمل أن تحل المشكلة نفسها. وعندما تبين له أن هذا لن يتحقق، فإن ضميره ارتاح إلى حد ما، بعدما تحقق تمامًا من أن ابنه في تلك المؤسسة بسبب ضعف عقله. فقد كانت فكرة أن حنك طفله المشقوق هي السبب الرئيسي في جعله لا ينام الليل. وهو اعتاد زيارة المصحة أسبوعيًّا خلال العام الأول، وفي كل مرة كان يرى تلك المجموعة التعسة من البلهاء، وكان يشعر أن ابنه لا ينتمي إلى ذلك المكان. ولكن تبين له لحسن الحظ الآن أن الولد مغيب العقل مثلهم.

أمَّا أمه فلم تذهب أبدًا لرؤيته. ولم تسأل زوجها عنه وعن حاله. لذلك فضَّل زوجها ألا يحدثها عنه، إلا في ذلك اليوم.

- لقد شخصوا حالته على أنها تخلف عقلي. هذا ما أكدته الفحوصات رسميًّا.

لم تبدِ "يوانا" أي رد فعل إلا رعشة من رموش عينيها.

- يمكنه البقاء هناك للمدة التي نريدها.

نظرت إليه وهي تتوقع منه أن يكمل كلامه:

- أخبرتهن بأننا سنكون ممتنين لو أمكن للأخوات أن ترعاه. هذا أفضل للولد. وقد وافقتني الأخت "ميليثا" الرأي.

أومأت زوجته برأسها. من دون تعليق. إلى أن همّ بمغادرة الغرفة. حينئذٍ سألته بنبرة يأس:

- لماذا يحدث لنا هذا "كارل"؟

كان دوره هذه المرة ليلوذ بالصمت. فما من إجابة لديه. ليس لديه إجابة إلا أن من الأفضل ألا يفكروا في إنجاب أطفال. ولكنهما لم يسبق أن ناقشا هذه المسألة. والآن فات أوانها.

وُلدت "لويز براون" يوم 25 يوليو عام 1978، في انجلترا. وهي كانت نتاج تعاون ناجح بين عالم الحيوان "روبرت إدواردز" من "مانشستر"، و"باتريك ستبتو"، إخصائي أمراض النساء والتوليد، من "أولدهام". وكان "إدواردز" قد بدأ تجارب التخصيب المختبري في الستينيات. وفي السبعينات، اكتشف "ستبتو" طريقة لإستخراج خلايا البويضة من خلال قناة المهبل ومن ثم إعادة زرعها عبر نفس الطريق. وفي خريف عام 1977، تحقق حمل "لويز براون" عندما دمجت خلية بويضة من أمها بشكل صناعي في طبق "بتري" مع خلية حيوان منوي من الأب، وأعيد زرع الجنين الناتج في رحم الأم. وقد تسبب الإعلان عن خبر ولادة "لويز براون"، في صيف عام 1978، في ضجة كبيرة في جميع أنحاء العالم. حيث اختلطت ردود الأفعال بين الاشمئزاز والإعجاب. أما بالنسبة لـ"فيكتور هوب"، الذي كان يعمل منذ سنوات لتحقيق نفس الهدف، فقد كانت ولادة أول طفلة أنابيب بمثابة إسدال قاسٍ للستار على أبحاثه الجارية.

بدأ "فيكتور" تجاربه على البرمائيات والفئران أثناء تنفيذه أبحاث الدكتوراة في جامعة "آخن"، وفي عام 1970، عندما كان منتسبًا في عيادة خصوبة في "بون"، أجرى أول محاولة لتخصيب بويضة بشرية خارج الرحم. وكان قد حصل على البويضات البشرية من المستشفى في "بون"، من المبايض التي استئصلت لأسباب تتعلق بأمراض النساء. أمَّا الحيوانات المنوية التي استخدمها فكانت منه. وبعد خمس سنوات من التجارب، عثر أخيرًا على الطريقة المثلى لتعزيز اندماج البويضة والحيوان المنوي في طبق بتري. ومن ثم ترك البويضة المخصبة في بيئة أخرى لتنمو وتصير جنينًا، على النحو الذي أجراه على بيض الفئران. واستغرق الأمر منه عامًا آخر قبل أن يتقن تمامًا هذا الإجراء، ولكن النتيجة في مجملها كانت سريعة نسبيًّا.

وفي ربيع عام 1977، وبناءً على قوة هذه النتائج التي توصَّل إليها، أقنع عدة أزواج بالمشاركة في تجربة تتقدم ببحثه خطوة أخرى، حيث عثر على أزواج كانت الزوجة غير قادرة على إنتاج بويضة ناضجة نتيجة لشذوذ في عمل المبيض. وأخبرهم الدكتور "هوب" أن من الممكن أن يتم تخصيب بويضة متبرعة بالحيوانات المنوية للزوج، ومن ثم، وبعد ثلاثة أيام، عندما تكون قد انقسمت وتضاعفت إلى ست عشرة خلية، يقوم بزرعها عن طريق شق البطن في جدار رحم الزوجة. وعلى مدى عام ونصف العام قام بهذا الإجراء تسع مرات، على أربع سيدات مختلفات. وقد رفضت أجسادهن الأجنة في غضون ثلاثة أسابيع. وكانت آخر مرة وجد فيها ذلك بعد يومين من ولادة "لويز براون". وعندما ورده الخبر، تملكه اليأس، وجمع الدكتور "هوب" أوراقه وبياناته الهائلة التي جمعها على مر السنين، ووضعها على الرف.

وقد اعتاد "فيكتور هوب" تدوين بياناته على أي قصاصة قديمة من الورق يتصادف أن تكون في متناول يده، وكلما وأينما واتاه الإلهام؛ ورقة من دفتر، مظروف مستعمل أو غير مستعمل، صفحات ممزقة من مجلات، وقصاصات الصحف، وورقة من نتيجة الحائط، أكياس الخبز الورقية، أو حتى أكياس محلات البقالة أو الدواء. والبيانات نفسها قد تأخذ شكل كلمات، أو جمل، أو معادلات أو رسومات - شخبطة كثيرًا ما تملأ كل سنتيمتر من أي مساحة فارغة على الورقة. يدون ملاحظاته أفقيًّا أو رأسيًّا أو قطريًّا، على الهامش أو بين عناوين أو أعمدة تلك الصفحة المنتزعة من مجلة أو صحيفة. وخط يده فوضوي، وهذا أبسط وصف له.

وبالنسبة لأي غريب - وهذا في الحقيقة يعني الكل – فإن تلك البيانات تبدو بلا قيمة للوهلة الأولى، إلا في كونها تعكس ذلك التعامل الفوضوي غير الناضج لـ"فيكتور هوب" مع أبحاثه. وبصعوبة كبيرة، مع ضرورة وجود معرفة سابقة، يمكن للمرء أن ينجح في ربط معادلة أو رسم بواحدة من التجارب العديدة التي نفذها الدكتور، ولكن حتى عندئذٍ يبقى من المستحيل العثور على أي علاقة منطقية بينها وبين مئات ومئات غيرها من التدوينات .

الحقيقة أنه لم تكن هناك أي علاقة منطقية بينها، ليس على الورق على الأقل. فالسياق كله داخل رأس "فيكتور". ولا يحتاج إلا إلى كلمة أو معادلة واحدة ليستحضر، في جزء من الثانية، كل معلومة من المعلومات المرتبطة به. فهو يتعامل مع تلك الملاحظات على أنها مفاتيح لأبواب تدخل به إلى قبو مكتظ بالمعلومات. فقد كانت الطريقة التي يعمل بها عقله عجيبة وهبة من الهبات في هذا الفرع من العلم، حيث وفَّرت عليه ضرورة الرجوع المستمر إلى ما سبق له تسجيله، ووفرت عليه الكثير من الوقت. على أن موهبته هذه كانت عبئًا على حياته الشخصية، وهذا لأن كل كلمة يقرؤها أو يسمعها تثير في عقله عددًا كبيرًا من التداعيات التي لا طائل من ورائها أو تحيي في نفسه ذكريات غير سارة.

ولو كان الدكتور "هوب" يعيش في عالمنا اليوم، فلربما تم تشخيص حالته بمتلازمة "أسبرجر". فقد وصف الدكتور "هانز أسبرجر"، طبيب الأطفال في جامعة فيينا، هذه الدرجة الخفيفة من مرض التوحد في أطروحته عن التوحد لدى الأطفال Die Autistischen Psychopathen im Kindesalter. وكان قد درس الأطفال الذين يعانون من قصور شديد في التنشئة الاجتماعية، والخيال، وفي مهارات التواصل بالطبع. فعلى الرغم من سلامة قدرتهم اللغوية، فإنهم غالبًا ما يبدون من الظاهر متحذلقين أو متصنعين. ولا يبدو أن لدى هؤلاء الأطفال روح دعابة على الإطلاق، كما أن الحس العاطفي لديهم محدود. كما أنهم يتعاملون مع كل ما يقال لهم بشكل حرفي. ولكنهم من ناحية أخرى أذكياء للغاية، وقادرون وهم في سن مبكرة على تذكر الأشياء الأكثر تعقيدًا، حتى وإن كانت بلا أهمية، من قبيل جدول مواعيد ترام فيينا، أو أسماء جميع أجزاء محرك الاحتراق الداخلي مثلًا.

ونشر الدكتور "أسبرجر" نتائجه في العام 1944، ولكن أنظار الأكاديميين لم تنتبه إلى دراسته إلا في الستينيات، حتى إنهم لم يعتمدوا الحالة رسميًّا كمتلازمة مرضية إلا في العام 1981. واليوم هناك اعتقاد شائع بأن كلًّا من "ليوناردو دا فينشي" و"ألبرت آينشتاين" كان يعاني من تلك المتلازمة.

بالطبع لم تسمع الأخوات "كلير" في" لا شابيل" بمتلازمة "أسبرجر"، ولا حتى مصطلح "توحد". هن لا يعرفن إلا ثلاث فئات محددة مسبقًا من فئات الانحراف النفسي: الغباء وهو لمعدل الذكاء من صفر إلى 20؛ والبلاهة وهو لمعدل الذكاء من 21 إلى 50 عامًا، والحماقة لما بين 51 و 70.

وبالتالي تم تصنيف "فيكتور هوب" ضمن الحمقى. ولأنه لم يتكلم كلمة واحدة، فقد افترضت الأخوات أنه لم يكن يعرف أي كلمات أو يفهمها. كما أن سلوكه ينم عن هذا أيضًا. هو بالكاد يبدي أي رد فعل أو انفعال لما يقال له. وكان الشيء الوحيد الذي يبدو أنه مفتون به هو صوت "النهيق الحيواني" الذي يطلقه "إيجون فايس". بوسعه أن يجلس لساعات يحدق في ذلك الشاب ويستمع إليه. كما أنه كان المريض الوحيد الذي يستطيع النوم في سرير واحد بجوار ذلك الغبي دون أن يقلقه ذلك. وهكذا شكَّت الأخوات في أن تكون حالة "فيكتور هوب" أسوأ مما كن يخشينه، وأنه قد يكون معتوهًا أو غبيًّا، على الرغم من أنه كان لا يزال صغيرًا جدًّا بدرجة لا تسمح لهن بالتيقن من حالته.

وعندما كان في سن الثالثة، بدأ "فيكتور" في الكلام. فجأة. وحدث هذا ذات ليلة صيفية شديدة الحرارة عام 1948. كانت الحرارة شبه الاستوائية التي اجتاحت جزءًا كبيرًا من أوروبا ولعدة أسابيع قد اخترقت جدران الدير السميكة في "لا شابيل"، وتسببت في ارتفاع درجة الحرارة داخل المبنى الذي يكون في العادة باردًا بشكل كبير. ومع الحرارة جاء الذباب والناموس. فقد جذبت رائحة الطعام الفاسد بسبب الحر الذباب. أمَّا الناموس فجاء بسبب رائحة عرق المرضى، الذين لم يكونوا يستحمون سوى مرتين أسبوعيًّا، على الرغم من هذا الحر الشديد.

وإذا لم تحرم الحرارة المرضى من النوم ليلًا، فإن زن الذباب والناموس منعهم من النوم تمامًا. كما أن صرخات "إيجون" أيضًا أصبحت لا تطاق. وكانت ظروف الطقس قد زادت من حالته بشكل خطير. فالحرارة تعتصر العرق من مسامه، ويتسلل الذباب إلى داخل أكمامه وساقي سرواله، ويمتص الناموس الدم من جسده عبر نسيج ملابسه. ولم يتمكن من طردها عنه، لأنه كان مربوطًا إلى السرير من كعبيه ومعصميه. وهكذا

كانت رائحته ودغدغة الذباب الزاحف على جلده وحكة لدغات الحشرات تدفعه إلى غضب مجنون.

وعجز بقية المرضى الآخرين عن النوم. وتعكر مزاجهم. وتمردوا. وذات ظهيرة، مزق "مارك فرانسيس"، الأبله، البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا، جميع ملابسه وبدأ يركض عبر أرجاء المبنى بحثًا عن مكان أكثر برودة، ولا يصل إليه صوت "إيجون". وتطلَّب الأمر قوة ثماني عشرة أختًا للإمساك به وكبح جماحه.

بينما قام "فابيان نادلر"، وهو أبله أيضًا، وعمره أربعة عشر عامًا، بتحطيم زجاج نافذة بقبضته العارية، وبدأ يحاول طرد أسراب الذباب عبر الفتحة. وانضم إليه بقية المرضى يساعدونه. وأخذوا يتقافزون ويتدافعون عبر أرجاء المكان، يطاردون ذبابًا يرونه أو لا يرونه. وانتهز "أنجيلو فنتوريني"، أبله يعاني من شلل جزئي في العشرين من عمره، فرصة هذه الضجة والتقط كسرة زجاج، وتوجه الى سرير "إيجون فايس". كان يفترض أنه في طريقه لتخليصه من الشياطين التي تسكن جسده، ليتسنى له طرده هي الأخرى عبر فتحة النافذة المكسورة مع الذباب. ولكنه تعثر قبل أن يصل إلى سرير "إيجون" ومزقت كسرة الزجاج فخذه بدلًا من جسد المسكين.

على أن مزاج "فيكتور"، الأحمق الذي في الثالثة من عمره، لم يتكدر بأي من هذا. فلا يبدو أن الحرارة أو الحشرات تؤثر فيه. بل إنه حتى لم يلحظ اعتداء "أنجيلو فنتوريني". بل جلس إلى كرسي بجانب سرير "إيجون" والشيء الوحيد الذي لفت انتباهه هو الحشرات - ليست تلك التي تهاجم جسده، ولكن التي تزحف على وجه صاحبه. فكلما حطت ذبابة أو ناموسة على وجهه، كان "فيكتور" يبادر بطردها عنه بحركة من ذراعه. بقي يفعل ذلك طوال اليوم. وبدا أن هذا يهدئ "إيجون فايس" إلى حدٍّ ما، وبين الحين والآخر كان يلتفت ليحدق في عيني الطفل الصغير بنظرة جوفاء. كان ينظر شزرًا، ولكن حقيقة أن "إيجون فايس" بدأ يلاحظ وجود الطفل وينظر إليه، مثلت في نظر "فيكتور" نوعًا من الانتصار على الخوف الذي يسيطر عليها. ولو كانت الفرصة أتيحت لـ"فيكتور" كاملة، لكان قد نجح في ترويض "إيجون".

ولكنه كان في كل ليلة يعود إلى سريره. وكانت الأخت المشرفة ليلًا ترفع جوانب الفراش لارتفاع تعجز معه ذراعه عن أن تمتد وتطرد الذباب والناموس عن رفيقه. ورأى تحت الوهج الخافت لأضواء المصابيح فوق كل سرير الحشرات وهي تطن فوق رأس جاره، وسمع صوته يتصاعد عاليًا مرة أخرى.

عندئذٍ قرر "أنجيلو فنتوريني" الإقدام على محاولة ثانية لإسكات الشياطين العابثة داخل جسد المسكين، وفي هذه المرة نجح. لم يتذكر أي شيء عن فعلته بعد ذلك، حيث أنه كان مبتلى بالمشي أثناء النوم منذ طفولته، ولذلك ظنت الراهبات أنه قد تصرف دون وعي منه.

غير أن هذا محض هراء. فحتى تسير أثناء نومك، أي ما يسمونه "السرنمة"، فلا بد من أن تكون في الأصل نائمًا. وفي تلك الليلة لم يمكن لأحد أن ينام - بما في ذلك "فنتوريني". ولذلك كان مستيقظًا عندما فارق فراشه. ومن أجل أن يتظاهر بكونه يمشي وهو نائم فإنه سار في الممر الضيق بين الأسرَّة وهو يسند رأسه على وسادة استقرت فوق كتفه. ولكن حالات مشيه أثناء نومه لم تكن تنطوي من قبل على تلك الوسادة.

حملقت الأخت "لودوميرا"، التي كانت في ورديتها تلك الليلة، عبر نافذة الحجرة الواقعة في نهاية العنبر، وتعرفت على "أنجيلو فنتوريني" من مشيته المتعثرة، قبل أن تعود لتقرأ من كتاب الصلوات الذى أمامها. أدركت من سابق خبرتها أنه سيمشي نائمًا جيئة وذهابًا قبل أن يتعب ويعود إلى سريره.

على أن "فنتوريني" في تلك الليلة لم يمشِ نائمًا جيئة وذهابًا ثلاث مرات. بل توجه مباشرة إلى سرير "إيجون". وربما لم يرَ "إيجون" ظل "فنتوريني" وهو ينحني عليه. وربما لم يدرك الخطر. وربما كان يتوق فقط إلى أن تتوقف الحكة. وبأي حال، لم يقاوم "إيجون" عندما ضغط "فنتوريني" بالوسادة على وجهه. بل لم يهز رأسه. ولم يحاول أن يتملص برسغيه أو كاحلي قدميه من قيوده. حاول فقط أن يواصل الصراخ. لكن صوته الآن خرج مكتومًا، على النحو الذي يخرج منه أحيانًا حتى إن لم تكن هناك وسادة تضغط على وجهه. ولهذا السبب لم تكن الأخت "لودوميرا" تراقب في البداية ما يجري.

فهي لم تنظر إلا حينما أدركت أن صوت "إيجون فايس" قد سكت فجأة. كان "أنجيلو فنتوريني" يرفع وسادته عن وجه "إيجون" في تلك الثانية. ودس الوسادة مرة أخرى على كتفه وأسند رأسه إليها، وكان يسير في الممر، عائدًا إلى سريره.

عبر الممر، كان "مارك فرانسوا" جالسًا في السرير، يتمايل جذلًا من جانب إلى آخر، ويصفق بيديه، ويضحك. تحركت الأخت "لودوميرا" بسرعة. أضاءت النور، وسحبت الحبل الذي دق جرس في مكان ما في الدير، وهرعت إلى سرير "إيجون". تسلل "فنتوريني" إلى سريره، وتمدد وراح في النوم على الفور، على الرغم من طنين الذباب والناموس.

تأكدت الأخت "لودوميرا"، من عيني "إيجون" المفتوحتين، أنه قد مات. رسمت الصليب على جسدها في جزع. ثم سمعت صوت غير مألوف يأتيها وراء ظهرها. التفتت، وغطت فمها بيسراها، وهي ترسم الصليب ثانيةً بيمناها.

كان "فيكتور" جاثيًا على ركبتيه في سريره، ويداه على قضبانه، وقد أسند رأسه على يديه. ويتكلم من دون توقف، كلامًا ظنت الأخت "لودوميرا" في البداية أنه رطانة لا معنى لها، ولكنها أدركت فجأة أن له إيقاعًا مميزًا. كان ذلك عندما أدركت أن الولد يهذي بالألمانية:

جوزيف المقدس، عزاء البؤساء، صلِّ لأجلنا.

جوزيف المقدس، أمل المرضى، صلِّ لأجلنا.

جوزيف المقدس، راعي الموتى، صلِّ لأجلنا.

جوزيف المقدس، رعب الشياطين، صلِّ لأجلنا.

ذكرت شهادة وفاة "إيجون فايس" أن سبب الوفاة هو إسفكسيا الاختناق، بسبب ابتلاعه لسانه.

وذكر تقرير متابعة دوري لحالة "فيكتور هوب"، صدر في التوقيت نفسه تقريبًا، أنه "يتحدث بكلام غير مفهوم".

حضرت السيدتان من "فيينا". بطلب محدد، كان بالفعل قد قوبل بالرفض من العديد من الأطباء الآخرين. قالوا إن رغبتهما خارج نطاق الممكن - في المستقبل المنظور على أي حال. على أن السيدتين كانتا على قناعة بأن في هذه الأيام، ومنذ ولادة "لويز براون"، كل شيء ممكن، وأن اعتراض الأطباء كان بدافع أخلاقي وليس بدافع عملي.

- أهذا لأننا من نفس الجنس؟ أهذا هو السبب؟ ألهذا ترفض القيام بذلك لأجلنا؟

- كلا، إنه مستحيل. ببساطة مستحيل.

وأخبرهما الطبيب أن الأمر غير مسموح به، مما زاد من تصميمهما على القيام به.

هكذا قررتا في النهاية عبور الحدود. فربما وجدتا طلبهما في ألمانيا.

وفي 11 نوفمبر 1978، قالت إحداهما للدكتور "هوب":

- نريد طفلًا.

- منّا نحن الاثنتين.

شعرتا بأن الدكتور اعتقد أنهما تتحدثان بما لا تفقهانه. وتبدد كل أمل أحستا به على امتداد رحلة القطار إلى "بون" في الهواء. شعرتا بالسخافة والسذاجة، وهمتا بالنهوض من مقاعدهما عندما قال الدكتور باقتضاب أنه يستطيع أن يحقق رغبتهما.

ذُهلتا، وأخذتا في التأكيد على الرغبة في إنجاب طفل يكون ابنًا لهما - على نحو ما يكون بين أي رجل وامرأة، وأن يمتلك الطفل صفاتهما الوراثية.

- يمكنني أن أفعلها، ولكن ليس بهذه السرعة.

- معنا كل ما تحتاج إليه.

بادرت الثانية ومدت يدها إليه بملف.

- هذه هي نتائج الفحوصات والتحاليل، وكذلك جدول الدورة الشهرية. ونحن الآن في فترة الخصوبة.

نظرت الأخرى إلى رفيقتها بإعجاب، وهي تقول بتفاخر:

- الدورة الشهرية لدينا متزامنة.

علَّق الدكتور بنبرة جافة:

- هذا أمر لم أجده إلا في راهبات الدير.

باغت بتعليقه هذا السيدتين. ولكن الدكتور فتح الملف وأخذ يتفحصه.

- ما فرصتنا يا دكتور؟

- أنا لا أحب التنبؤ والمقامرة.

شعرت السيدتان بعدم ارتياح في وجوده. ولكن هذا الانزعاج تبدد مع تلك السعادة التي بدت عليهما لاحقًا.

قال لهما بعد أن فحص الملف:

- عودا في الغد. وعندئذٍ سنبدأ.

كان يرغب في إثناء السيدتين عن رغبتهما. كان عليه أن يفعل ذلك. ولكنه كالعادة، تفوه بأشياء لم يقصد أن يقولها، وعبَّر عن أفكار بزغت في عقله بغتة.

ففي اللحظة التي سمع فيها فمه وهو يخبرهما بأنه قادر على فعلها، كان الأوان قد فات. فقد أساءت السيدتان فهمه حينما قال لهما إنه لا يمكن أن يفعل ذلك على الفور. أو ربما كان هو من فشل في توضيح ما يقصده، كالعادة.

عندما شرحتا له رغبتهما، تخيَّل في لحظة خاطفة، الطريقة التي يمكنه بها تنفيذ ذلك. كان الأمر ممكنًا، من الناحية النظرية. سيأخذ النواة من خلايا عشوائية مأخوذة من كلتا المرأتين، ويدمجها في بويضة مخصبة أزيلت منها النواة مسبقًا. لقد كانت تجربة أجراها عدة مرات عندما كان طالبًا، وإن كان ذلك على ضفدع أو ثعبان، وليس على إنسان.

لهذا قال:

- يمكنني أن أفعلها.

ولكن في اللحظة التالية تجسدت كل العقبات العملية أمامه. فقد كانت بويضات الإنسان أصغر ألف مرة من بويضات البرمائيات. وتجاربه على تلك البويضات لم يسبق أن أنتجت بالفعل جنينًا قادرًا على التطور إلى مرحلة البلوغ. وهذا هو السبب الذي دفعه إلى التعقيب بأن التنفيذ لن يكون ممكنًا على الفور. فهو يحتاج إلى مزيد من الوقت، وهذا ما كان يقصده. ربما أشهر، وربما سنوات.

لكن كلماته الأولى منحت الأمل للسيدتين، وقد تشبثتا بهذا الأمل. وعندئذٍ شعر أنه لا يمكن أن يخيب لهما أملًا، وهو ما دفعه إلى أن يخبرهما بكثير من الأشياء التي فاجأتهما.

فحص السيدتين. واقترحت إحداهما أن تحمل كلتاهما في الوقت نفسه. وربما كانت السيدة تمزح، إلا أن الدكتور لم يأخذ كلامها على محمل المزاح. الحقيقة أنه فكر في كلامها، وأدرك أن أمامه فرصة فريدة تتجسد في هاتين السيدتين.

حينما أخبرهما أنه سيبدأ في اليوم التالي، كان يعلم أن هذا أسرع من المنطقي. فقد كان عليه أن يجرِّب أولًا على خلايا حيوانية أخرى - خلايا فأر؛ أو خلايا أرنب. لكنه لم يخبرهما ذلك. ولو أنه طلب منهما العودة في غضون ستة أشهر، فلربما غيرتا رأيهما.

عادتا في اليوم التالي في الموعد المحدد وقام بتنفيذ ما يريد. ولكنهما لم تدركا أنه قد استخدم بويضات غير مخصبة. بهذه الطريقة سيكسب على الأقل شهرًا إضافيًّا.

***

تأخَّرت الدورة الشهرية عن السيدتين أسبوعًا. وفي تلك الأيام السبعة صارتا على قناعة بتحقق الحمل. وأخبرتاه بذلك بجذل شديد. ومن ثم قد يكون جسداهما قد رفضا الجنين من دون أن تلاحظا ذلك. إلا أن الدكتور لم ينكر نظريتهما، على الرغم من أنه يعلم أنه لم يكن هناك أبدًا أي جنين. ومن ثم عمد إلى زرع مجموعة أخرى من البويضات غير المخصبة في كل منهما، فهو لا يزال يجرب.

كان هذا هو أبعد ما وصل إليه في تلك النقطة. كان قد تمكن من تنمية أجنة الفئران من بويضتين أنثويتين، ولكن لم ينمُ أي من الأجنة ليصل إلى أن يكون فأرًا حيًّا. أمَّا

بالنسبة للخلايا البشرية، فكان قد تقدم إلى أبعد من مرحلة الاندماج النووي. ولكنها كانت نتيجة استثنائية.

كان يبقى حبيس المختبر لعدة أيام في المرة الواحدة. وكان يعمل على العديد من التجارب في وقت واحد، فيبدأ التجربة الجديدة قبل الانتهاء من سابقتها. يدون البيانات متفرقة متناثرة، بطريقة استغربها حتى هو نفسه. يقول لنفسه أنه سيعود إليها لاحقًا. كانت أفكاره مثل قطع الدومينو، فما إن تسقط فكرة حتى تتبعها بقية الأفكار تلقائيًّا.

وفي 15 يناير 1979، زارته السيدتان مرة أخرى في مكتبه. كان يريد تأجيل اللقاء لأنه بحاجة إلى شهر آخر. ولكنهما أصرتا، فاستسلم للأمر الواقع، لأنه لا يريد أن يفقدهما.

- هل ستنجح العملية هذه المرة، دكتور؟

كان يتوقع السؤال، وأعد له الإجابة:

- هذا ما سيخبرنا به الزمن.

- وإذا لم تنجح؟

تمنى أن تسألاه هذا السؤال.

- عندئذٍ سأحب أن أجرب مرة أخرى. إذا وافقتما طبعًا.

نظرت السيدتان إلى بعضهما. وقالت سيدة:

- تظن إذن أن الأمر لن ينجح هذه المرة؟

كان سؤالها تأنيبًا أكثر منه سؤالًا، ولكن رده كان عنيدًا أيضًا:

- هذا ما سيخبرنا به الزمن.

عقبت السيدة بعد لحظة سكوت:

- لقد كنا نناقش هذا.. ربما علينا أن نتوقف. فنحن...

- ليس عليكما أن تدفعا لي أي مال.

- المشكلة ليست في المال. المشكلة أننا لم نعد نثق في جدوى هذه العملية.

قالتها بنبرة من قررت أن تنهي علاقتها برجل.

وبادرت رفيقتها:

- أخبرونا بأن ما نطلبه مستحيل.

صاح فيهما:

- من هؤلاء الذين أخبروكما بذلك؟

خرجت صيحته أعلى مما قصده. وفزعت السيدتان. شعر للحظات أنهما ينسحبان من بين يديه كانسياب الماء، ولكنه تذكر أنهما ما كانا ليعودا إليه لو أنهما قد استسلمتا للأمر الواقع تمامًا. عليه فقط أن يقنعهما. وهكذا اصطحبهما إلى مختبره.

- أحيانًا ما يبدو أنه مستحيل لا يكون في الحقيقة إلا أمرًا صعبًا فحسب.

عرض عليهما ثلاثة فئران عمرها خمسة أيام، في حجم إصبع رضيع. يغطي جلدها شعر خفيف، لونه في فأرين بني وفي الثالث أبيض. كانت الفئران في صندوق مملتئ بالورق الممزق، وترضع من فأرة سوداء.

- هذه ليست أمهم البيولوجية. بل حملتهم لبعض الوقت.

والتقط فأر وفأرة، وهو يقول:

- هذان هما الأب والأم. الصغار منهما.

نظرت السيدتان في انبهار.

لم يحاول خداعهما هذه المرة. فأخبرهما أنه في حاجة لتنفيذ بعض التجارب الأخيرة على البويضات البشرية، ولكنه متأكد من جدوى الأمر. وأمضى ساعة ونصف الساعة في محاضرة حول كيفية وسبب أن العملية ستنجح هذه المرة، ولم تقاطعه السيدتان أبدًا. وهكذا وفي نهاية المطاف تمكن من إقناعهما بالانتظار شهرًا آخر قبل المحاولة التالية.

في ذلك اليوم بالذات كتب كل ما قاله لهما. والآن وبعد أن رأت السيدتان الفئران، توقع أن ينتشر الخبر بسرعة، لذلك كان عليه الخروج بطريقته إلى العلن، قبل أن يبادر بقية العلماء بالهجوم عليه واتهامه بنشر الأكاذيب. رغم أنه كان يفضل الانتظار حتى تنجب السيدتان فعلًا، لكن هذا الخيار لم يعد بيده.

هكذا صار محتوى المقال موجودًا بالفعل من الناحية العملية. ولم يرجع إلى تدويناته إلا مرات قليلة. وبعث به في اليوم التالي إلى المجلة، التي كانت قد نشرت قبل سنوات بعض مقتطفات من أطروحته. كان قد التقط صور بولارويد للفئران الصغيرة والأخرى الكبيرة، وبعث مع المقال شرائح مجهرية واسكتشات لكل مرحلة من مراحل عملية الانقسام تلك. ثم عاد ليحبس نفسه في مختبره.. مرة أخرى.

مرة أخيرة.

التحقت "لوتيه جيلين" بدير الأخوات كلير في "لاشابيل" بعد عام من نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان والدها، "كلاس"، من "ڤالز" في هولندا، وفي 1928 انتقل إلى "لييج" في بلجيكا ليعمل في مناجم الفحم. والتقى بعد عام بممرضة بالمستشفى، اسمها "ماري فوجزيتش"، أكبر بنات إحدى العائلات الكاثوليكية المهاجرة من بولندا. كانت "ماري" في ربيعها التاسع عشر. وتزوجا بعد علاقة استمرت ستة أشهر فحسب. كان ذلك في مارس 1930. كانت "ماري" وقت الزفاف حاملًا منذ ثلاثة أشهر في طفلتها "لوتيه"، لذلك أخفت بالكورسيه ذلك الانتفاخ الصغير أسفل فستان الزفاف. ولم يلحظ أحد شيئًا – ليس قبل ستة أشهر، ووقتها قلة هم من اهتموا بإحصاء الأشهر واكتشاف الحقيقة ومن ثم السخط. حتى والداها غضا الطرف عن تلك الحقيقة. وربما لهذا السبب تحديدًا بقي "كلاس" و"ماري" يشعران بوطأة ذلك الذنب.

وبعد ستة عشر عامًا، وثلاث بنات، قررا التحرر من هذا الذنب بإرسال "لوتيه" إلى دير "لاشابيل". ولم تبد "لوتيه" أي مقاومة. كانت ترغب في أن تصير معلمة وظنت أن هذه هي أولى الخطوات نحو ذلك الهدف. على أن والديها لم يخبراها أن لا مدرسة هناك في دير "لاشابيل". وسرعان ما تبينت لها تلك الحقيقة حينما ألحقتها الراهبات بالعمل في

الملجأ. كان عملها هو تغيير ملاءات المرضى، وإفراغ وتنظيف أواني الغرف. كما كان عملها يشمل تنظيف الجروح. ولم يكن مسموحًا لها خلال ذلك العام بالتحدث مع المرضى.

امتد ذلك العام التأهيلي إلى قرابة 21 شهرًا، وعندئذٍ أصر أبواها على أن تسمح الأخت "ميليثا" لابنتهما بأن تكون راهبة مبتدئة؛ وكانت الابنة تطلب من أبويها خلال زياراتها للمنزل ألا يعيداها إلى تلك الدير ثانيةً.

غير أنها شعرت ببعض القيمة منذ أن بدأت ترتدي ذلك الزي الذي يميز الراهبة المبتدئة، حتى ولو كان يجعلها تتصبب عرقًا خلال ذلك الصيف الحار الذي شهده العام 1948. ولم تتغير طبيعة مهامها، وذلك لأنها كانت أدنى الراهبات رتبةً. ما تغير هو اسمها. صار اسمها الأخت "مارثا"، وهو اسمها في الدير الذي وقع اختيار الرئيسة عليه. كانت القديسة "مارثا" أخت مريم المجدلية، والتي كانت تنهض بكل إخلاص بأعمال المنزل، بينما تروح أختها لتسمع تعاليم المسيح. وقد أخبرتها الأخت "ميليثا" أيضًا أن اسمها هذا مكافأة لها على عملها بجدٍّ وتفانٍ.

أما المكافأة الكبرى التي سعدت لها، فكانت السماح لها بالتحدث إلى المرضى. أخبرتها الأخوات بذلك في نفس اليوم الذي لقي فيه "إيجون فيس" مصرعه. ولا شك في أن هناك ارتباطًا، حيث إن ذلك التصريح كان مشروطًا بالحفاظ على السرية وعدم البوح بما يقوله المرضى لها. "بما يهذي به المرضى"؛ ذلك هو التعبير الذي استخدمته الأخت "ميليثا". فالأخت "ميليثا" لا تعتبر كلام المرضى إلا هذيان. ما يهذي به "مارك فرانسوا" على سبيل المثال. فبعد بضعة أيام من تلك الحادثة، أشار للأخت "مارثا" أن تقترب وهمس في أذنها أن "إيجون" مات مقتولًا. وأكد لها كلماته بتمرير سبابته على عنقه بحركة الذبح. عندئذٍ سألته عمن فعلها. دس سبابته خلف أذنه، وأشار خلسة نحو "أنجيلو فرتوريني". ولما أبلغت تلك المعلومة للرئيسة، اصطحبتها الأخت "ميليثا" لتلقي نظرة على جثة "إيجون". وأظهرت لها أن عنق الميت سليمة من دون قطع.

- أترين، أخت "مارثا"، كلامهم كله هراء، فهم مرضى. لهذا من الخطر أن ننقل عنهم أي كلام.

هكذا فهمت الأخت "مارثا" تمام الفهم.

بعد وفاة "إيجون"، حلت أصوات "فيكتور" المنغومة محل عويله. فما إن تنطفئ الأنوار، حتى يبدأ الولد في الترنم بها ولا يوقفه إلا بزوغ نور الصباح. كان صوته رتيبًا بلا أحاسيس. يكاد يكون تمتمة، ولم يقلق أي من المرضى. بل على النقيض، فقد كان ذاك الصوت الرتيب يساهم في تهدئتهم حتى يروحوا في النوم. وكان "فيكتور" ينام في ساعات النهار، أو يتظاهر بذلك. وأيًّا كان ما يفعله، فقد كان بمثابة من صنع جدار من حوله يحصنه. فلم يبد أنه يسمع أصوات الراهبات أو ضوضاء المرضى. وبعد وقت تخلت الأخوات عن محاولات التواصل معه؛ أما المرضى فلم يتوقفوا عن محاولاتهم، ربما لأنهم كانوا سرعان ما ينسون أنهم قد حاولوا وفشلوا من قبل. فيجلس "جان سورمون" عند طرف فراش "فيكتور" ويبدأ في الصياح مثل الديك؛ ويقف "نيكو بومجارتن" جوار الفراش وهو يقلد صوت الترومبيت؛ ويتأمل "مارك فرانسوا" في "فيكتور"، قبل أن يشرع في إطلاق وابل من الرصاص عليه من مسدس وهمي.

رفض "فيكتور" تناول أي طعام منذ موت "إيجون"؛ كان يشرب فحسب. لا يمس طبقه الذي يوضع له على المنضدة جوار الفراش، ولما ينتهي المرضى الآخرون من طعامهم يتم رفعه. قالت الأخت "ميليثا" إنه حتمًا سيأكل عندما يشعر بالجوع، ولكنها بدأت تقلق بعد مرور ثلاثة أيام على الولد من دون تناول أي طعام.

قالت لها الأخت "ماري غابرييل":

- إنه حزين على "إيجون".

- إنه صغير جدًّا على ذلك. هي حيلةٌ منه فحسب. وسنعلمه ألا يجرب مثل تلك الأمور معنا مرة أخرى.

وفي تلك الظهيرة، وبمساعدة ثلاث راهبات غيرها، أجبرته على الأكل بعدما دست الطعام في فمه بقوة وهي تسد أنفه حتى يبتلعه مجبرًا. لم تتركه إلا بعدما انتهت وجبته كاملة.

وما هي إلا دقيقة، حتى كان "فيكتور" يتقيأ تلك الوجبة كاملة على ثياب الأخت "ميليثا".

أخذ "مارك فرانسوا"، القابع في الجهة الأخرى من القاعة، يصرخ ضاحكًا على المنظر. وفي محاولة منها لاستعادة كرامتها، أخذت الرئيسة تلطم "فيكتور" على أذنيه بقوة أخرست الكل.

لم تهتز عضلة في جسد "فيكتور". حتى مع ذلك الاحمرار الظاهر على وجهه من أثر لطمات الأخت "ميليثا". بقي الولد ساكتًا.

- هناك شر أكيد في هذا الولد.

هكذا علقت، وبعدها قررت أن تبقى أخت عند فراشه، لتقرأ له من الإنجيل، ليل نهار. كانت تأمل من تلك الطريقة أن تقلق ذلك الشيطان الكامن في "فيكتور"، حتى يغادر جسده في نهاية المطاف، بحثًا عن مكان آخر بعيدًا عن هذا القلق.

تم نقل فراش "فيكتور" إلى غرفة منفردة، وتعاقبت الأخوات في جلسات القراءة عليه، في ورديات مدة كل منها ساعتان نهارًا وأربع ساعات ليلًا.

كانت وردية الأخت "مارثا" في الليل؛ وهو أمر لم ترفضه، خاصة وأنها بذلك ستنام براحتها خلال ساعات الصباح، ولن تحضر طقوسه.

في أول ليلة، تأملت "فيكتور" وهو راقد في الفراش مغلق العينين. حدقت في تلك الندبة فوق فمه، والتي أفسدت جمال وجهه، ونظرت إلى أنفه المسطح، والذي تأثر منظره كثيرًا بهذا التشوه. فقد كانت الندبة وكأنها تدفع بمنخاريه لأعلى، لذلك كان المنخار الأيمن أوسع من الأيسر.

- هكذا تعرفين أنه متخلف عقليًّا.

كان هذا هو تفسير الأخت "نويل" الذي قالته لها.

كما تأملت شعره، وكم هو أحمر؛ ولكنها لم تجد فيه أي شيء شيطاني، على النحو الذي صرحت به الراهبات الأخريات. بل اقتربت منه ولامست شعره في حذر. ولم يحدث شيء.

لم تشعر بلدغة في يدها. لم يضربها برق غاضب.. لا شيء.

ولكن، ربما حدث أمر ما، فعندما مسَّت بيدها جبهته، توقف الولد عن ترانيمه. ثم عاد يتكلم من جديد بلا توقف. كان من المفترض أن يحبط صوتها صوته وهي تقرأ له، ولكنها عجزت عن ذلك. فقد شعرت وكأن صوته ينومها ويسيطر على عقلها.

كانت نبرة صوت الولد تثير الشفقة. فالصوت خارج من أنفه، لتخرج النبرة خشبية ميكانيكية رتيبة. ولكن لأنها ترانيم وأناشيد يرددها، فقد كان بوسع من ينصت أن يحول تلك الأصوات إلى كلمات حقيقية.

تجادلت الأخوات بشأن مستوى ذكاء الولد. بعضهن تصر على أن من يحفظ كل تلك الآيات الطوال عن ظهر قلب لا يمكن أن يكون متخلفًا عقليًّا. وأخريات قلن إن بوسع الببغاء تعلم هذا الأمر. وأدلت الأخت "ميليثا" بدلوها، وقالت إن الأصوات التي يصدرها الولد ليست ترانيم حقيقية، ولكنها همهمات الشيطان الذي يتلبسه. وبهذا الرأي، أنهت الرئيسة أي جدال.

ولكن الأخت "مارينا" تعرفت في أصواته على صلاة القديس "جوزيف"، وكذلك صلاة الروح القدس. كان "فيكتور" يتلوها من دون تلعثم أو توقف، أحيانًا بالفرنسية، وأحيانًا كثيرة بالألمانية؛ بل إنه كان يفعلها أفضل مما تفعلها هي. فهي تجد صعوبة في حفظ الصلوات والتمكن منها، وفي كل مرة تتلوها على مسامع الأخت "ميليثا" تجد نفسها قد تعثرت، ونسيت بعضها. وأدى عجزها عن أداء هذه المهمة على النحو الصحيح إلى أن يكون للأخت "ميليثا" عذرها في تأجيل ترقيتها إلى أن تكون راهبة مبتدئة. صحيح أنها قد ترقت في النهاية، ولكن الرئيسة حذرتها بأن هذا الأمر قد ينقلب عكسًا إن لم تحفظ كل شيء عن ظهر قلب قبل القسم.

لهذا السبب بدأت الأخت "مارثا" منذ تلك الليلة في ترديد الصلوات وراء "فيكتور". كانت تهمس حتى لا يسمع أحد صوتها في القاعة. وفي حال سمعت صوتًا في أي مكان في المبنى كانت تتوقف وتعود لتقرأ بصوت عالٍ من الإنجيل، كما يفترض منها أن تفعل.

وفي ظهيرة اليوم التالي قرأت عليه بصوت عالٍ من الإنجيل على مدار ساعتين، بعد أن حلت محل الأخت "نويل". ولما انتهت، همست في أذنه أنها تنتظر وقت التدرب معه مجددًا في تلك الليلة. ولكنها لم تجد منه أي رد فعل.

مرت الليلة الثانية تمامًا مثل الأولى.

يقول "فيكتور":

- ..وح..إكمة..وا...إهم.

فتقول هي من ورائه:

- روح الحكمة والفهم.

وهكذا..

ومع نهاية الليلة، داعبت شعره الأحمر مجددًا، وهي تسأله:

- هل تصلي من أجل "إيجون"؟

أومأ برأسه، ولكنه لم يفعل سوى ذلك.

- جميل. سيساعده هذا بالتأكيد على أن يجد السلام.

لم يرد عليها. ولكنها شعرت وهي تخرج من الغرفة أنه يلاحقها بنظراته. فرمقته من وراء كتفها، فوجدته يشيح بوجهه بسرعة إلى الناحية الأخرى.

- لا بد أن تأكل شيئًا.

قالت له ذات ليلة وهي تقرب قطعة شوكولاتة من فمه. ولكنه أبعد رأسه إلى الناحية الأخرى.

كانت ليلتها الرابعة معه. وكانت الليلة السابقة غريبة فعلًا. فقد كان "فيكتور" يلاعبها. هذا ما تعتقده على الأقل. فقد كان يسكت في منتصف في وسط الترانيم التي يرددها، ليترك لها مجالًا لتكمل هي. وبعد أن تبدأ في التلاوة يعود هو ليكمل بعد بضع آيات. كررا هذه الطريقة عدة مرات، وكان هو يهز رأسه ويصحح لها وقت أن تخطئ. فأدركت لحظتها أنه يختبرها. وهكذا صارت هي، الفتاة في العشرين، تلميذة بين يدي طفل في الثالثة من عمره.

بقيا يلعبان هذه اللعبة على مدار ساعتين، ولم يرتاحا خلالها إلا ثلاث فترات قصيرة، كان "فيكتور" يروح خلالها في النوم رغمًا عنه. كان قد مر عليه أسبوع من دون طعام، وتملكه الجوع. وقررت الرئيسة أن تحقنه بالجلوكوز غير المذاب إن استمر في عناده ورفض الأكل. وعلقت الأخت "نويل" أن في هذا الأمر خطورة، ولكنها لم تشرح طبيعة تلك الخطورة. لذلك قررت الأخت "مارثا" أن تقنع "فيكتور" بتناول الطعام.

- لا بد أن تأكل.. إن لم تأكل فسوف تؤذيك الأخت "ميليثا" من جديد.

ولكنها ظنت أنها تكلم جدارًا.. فهو لم يبد أي رد فعل.

- إن لم تأكل ستموت.

لم تحرك تلك الكلمات أي عضلة في وجهه الصغير.

- إذا مت فلن تتمكن من الصلاة لأجل "إيجون".

ظهرت مسحة من السخط على وجه "فيكتور"، سريعة عابرة، ولكنها كانت كافية.

- لن يصلي أحد آخر لأجل "إيجون". لن تفعل الأخوات ذلك.

عندئذٍ تشبث "فيكتور" بعصبية في الغطاء ورفعه إلى منتصف صدره.

- لن يصلي لأجله بقية المرضى. لا أحد. لا "مارك فرانسوا"، ولا "أنجيلو فنتوريني". ولا "نيكو بومجارتن". لا أحد.

رأت عينيه تتحركان بعصبية نحوها.

- كلا. ولا حتى أنا، "فيكتور". لأنك إذا مت فسوف أصلي لأجلك أنت.

لم يكن في كلامها منطق، ولكن الأخت "مارثا" أصرت على المنطق الوحيد الذي يفهمه "فيكتور هوب".

منطق (إذا... سوف). السبب والنتيجة. هذه هي المعادلة التي يفهمها عقله.

هكذا يعمل عقله ويتفاعل. السبب والنتيجة.

هكذا اقتطعت الأخت "مارثا" قطعة شوكولاتة وقربتها من فم "فيكتور". ففتح الولد فمه ليسمح لها بوضع القطعة فوق لسانه.

- من الأفضل أن تجلس وأنت تأكل حتى لا تختنق.

رفع رأسه وأخذ ينظر حوله في إعياء، وكأنه أدرك للتو أنه لم يعد في العنبر الرئيسي. سعدت لما وجدت "فيكتور" يمص قطعة الشوكولاتة. وتناول منها القطعة الثانية من دون اعتراض، ودسها في فمه. ثم الثالثة.. والرابعة. كان يتناول الشوكولاتة في نهم، وكأنه شعر بالجوع بغتة.

قالت له وهو يتناول القطعة الأخيرة:

- الآن تحتاج إلى بعض الماء.

أومأ برأسه، وتفوه بشيء لم تفهمه.

- ماذا قلت؟

كانت هذه هي أول مرة يستخدم صوته في التواصل.

سمعته يقول:

- أجل.. أخت.. من.. فضلك.

أصابها الذهول. فلم يسبق لأي من الأخوات أن علمته تلك الكلمات. بل لم يسبق لهن تعليمه أي شيء، إلا المشي. غير أنه من الواضح أنه قد استغل زمن السكوت الطويل في المراقبة والاستماع، وتخزين كل شيء في عقله؛ إلى أن يأتي اليوم الذي يسترجع فيه كل ذلك؛ أو وقت أن يقرر هو أن يستخدمه.

- سأذهب لأحضر لك كوب ماء. سأعود سريعًا.

مشيت إلى الحمام. تمنت لو أنها توجهت مباشرة إلى الأخت "ميليثا" لتخبرها بما حصل. كانت تود أن تعرف الجميع بأن "فيكتور" قد عاد لتناول الطعام.. وأنه يتكلم!

ولكن لا أحد يوقظ الرئيسة إلا في حالة طوارئ جدية فحسب. ورأت الأخت "مارثا" أن الخبر يمكن أن ينتظر. فليس فيه أي طارئ. بل هي أخبار طيبة في الحقيقة. ليس لـ"فيكتور" فحسب، بل ولها أيضًا. فقد أثبتت ذاتها وأهليتها من خلاله. وهي، الأخت "مارثا"، "لوتيه جيلين" في حياة أخرى، من نجحت في إقناع "فيكتور" بالعودة لتناول الطعام، وهو الأمر الذي عجزت عنه بقية الراهبات.

ولما عادت بكوب الماء وجدت "فيكتور" راقدًا من جديد، يردد صلاة أخرى.

- "فيكتور".. "فيكتور"، أحضرت الماء لك.

ولكن الولد استمر في التلاوة وكأنه لا يسمعها. شعرت بالقلق. هل كانت تحلم؟ ونظرت إلى غلاف الشوكولاتة الخاوي فوق المنضدة، وسخطت.

- "فيكتور"؟ ألم تكن تريد ماءً؟

أنصتت إلى صوته. كان يردد صلاة العطف الرباني. ويكاد ينتهي منها.

قررت أن تردد معه العبارات الأخيرة:

- "ولو كنا لا نستحق هذه الرحمة، فنرجوك أن تمنحها لنا، ونخضع لكل تصاريفك وما قدرته لنا في حياتنا، حتى نستحق الخير الذي قدرته لنا في السماوات. خلال الرب يسوع. آمين".

كانت تنهي رسم علامة الصليب على جسدها، عندما نهض "فيكتور" جالسًا. مد يده من دون أن ينظر إليها نحو كوب الماء وتناوله من يدها.

- ..أ..شكرك.

تنفست الصعداء:

- تؤمر.. هل من الممكن أن نصلي مجددًا لأجل "إيجون"؟

أومأ "فيكتور" برأسه. لاحظت أنه مستمر في تفادي نظراتها. ربما تمكنت أخيرًا من الوصول إلى قرارة نفسه، ولكنه لا يزال مصرًّا على عدم الاقتراب منها أكثر.

رددا صلاة القديس جوزيف سويًّا، ثم اقترحت الأخت "مارثا" على "فيكتور" أن يغلق عينيه لبعض الوقت. كانت الساعة الرابعة فجرًا. ووجدته مترددًا.

- أعتقد أن "إيجون" يرغب في ذلك. بل أنا متأكدة من ذلك.

طمأنت كلماتها الولد. فأغلق عينيه، وبدأت تغني له في هدوء:

نامت الأزهار الصغيرة..

أتعبها عطرها..

ومالت برؤوسها الصغيرة نحوي..

وكأنها تقولي لي.. تصبحين على خير.

سكتت، ثم قالت له:

- هذه أنشودة هولندية، "فيكتور"؛ كانت تشدو بها جدتي لي طول الوقت.

ولكنها أدركت أن "فيكتور" راح في النوم بالفعل.

في الصباح التالي، شاهدته الأخت "ميليثا" وهو يأكل الخبز. يجلس متربعًا فوق الفراش ويمسك بالخبز في يده يأكل منه قضمات صغيرة. كانت عيناه لا تتوقفان عن الحركة من ناحية إلى أخرى، وكأنه يخشى أن ينقض عليه أحد ويأخذ الطعام منه.

كانت الأخت "مارثا" واقفة إلى جوار الرئيسة. تتألق عيناها في صلابة. كانت قد استيقظت في ذلك الصباح مع بقية الراهبات، بالرغم من حقها في الاستمرار في النوم، وسارعت لتخبر الرئيسة بما جرى. ولم تصدقها الرئيسة وقررت أن تشاهد بنفسها. تمامًا، كما لم يصدق القديس توماس المسيح إلا بعدما شاهد جروحه ولامسها بيده، هكذا تذكرت الأخت "مارثا".

خشيت ألا يتناول "فيكتور" طعامه في حضور الأخت "ميليثا"، ولكنه تناول منها قطعة الخبز.

- تفضل.

- أ...شكرك.

وكأنها ظفرت بنصر ساحق.

ولكنها سمعت الأخت "ميليثا" تعلق بثقة:

- كانت القراءة له عاملًا مساعدًا. فقد خرج الشر منه. كنت أعلم أن هذا سيجدي. قامت الأخوات بعمل جيد.

لم تصدق الأخت "مارثا" ما سمعته. ولم تنجح في إخفاء إحباطها، حتى عندما وجدت الرئيسة تنظر إليها.

قالت لها الرئيسة بنبرة جافة:

- وأنتِ أيضًا، أخت "مارثا".

شعرت بيد الأخت "ميليثا" تلامس كتفها.

هذا هو كل شيء.. فحسب.

وقررت الأخت "ميليثا" أن تستمر القراءة على "فيكتور" لساعتين كل يوم، تحسبًا لأن يحاول الشيطان العودة إليه مجددًا. وأوكلت المهمة إلى الأخت "مارثا"، ليس للعلاقة التي ربطت بينها وبين المريض الصغير، ولكن حتى تتمكن – حسب تعبيرها – من حفظ نصوص الإنجيل خلال تلك الفترات.

لم تهتم الأخت "مارثا" بالسبب. بل كانت سعيدة لكونها قد صارت قادرة على تمضية ساعتين كل يوم مع "فيكتور". وكانت تحضر الولد في العاشرة صباحًا وفي الثالثة عصرًا من العنبر الرئيسي ليجلسا في غرفة صغيرة، في الطرف القصي من الدير، بعيدًا عن أصوات بقية المرضى. وكثيرًا ما يتصادف مرور الأخت "ميليثا" في الجوار، وكانت تلقي نظرة من خلال نافذة الباب الزجاجية. وأحيانًا كانت تدخل، وتطلب من الأخت "مارثا" أن تستمر في القراءة، وتقف بلا حراك في ركن الغرفة، تستمع. قبل أن ترحل من دون كلام.

قالت الأخت "مارثا" للصبي:

- إنها تراقبني.

لم تقل هذا لـ"فيكتور" من باب الطمأنة فحسب، بل كانت موقنة من أنها تحت المراقبة.

لذلك كانت تفعل تمامًا ما هو مطلوب منها، وتقرأ عليه بصوت عالٍ من الإنجيل لمدة ساعة من دون توقف. بينما يجلس "فيكتور" قبالتها، وقد عقد يديه فوق صينيته، وأطرق برأسه قليلًا، على كرسي مرتفع. جامدًا مثل تمثال. لمدة ساعة. لم تكن واثقة من كونه مهتمًا بحكايات الإنجيل، أو من أنه يفهم ما يسمعه كثيرًا – وكانت الأخت "ميليثا" قد أخبرتها أن هذا لا يهم – ولكنها تعرف أنه متيقظ يتابع باهتمام. لدرجة أنها عندما سألته عما إذا كان يتذكر النقطة التي توقفت عندها في الجلسة السابقة، أجابها بترديد العبارة الأخيرة كلمة بكلمة. وهذا إثبات جديد على تلك الذاكرة الخارقة التي يمتلكها. ورأت أن هذه دلالة على ذكاء غير عادي، ولكن الراهبات أخبرنها بأنه لا علاقة لهذا بذاك.

فقالت لها الأخت "نويل":

- لا تنسي، أخت "مارثا"، أن عقله بليد.

وأمّنت الأخت "شارلوت":

- البليد بيفضل بليد.

ولكن الأخت "مارثا" لم تصدق ذلك، ولكن ليس بيدها تقديم أي دليل على ذكاء "فيكتور". هذا حتى يأتي يوم يقرر فيه "فيكتور" أن يظهر لها ما يدل على ذكائه.

مرت عدة أسابيع على أول جلسة قراءة، ووصلت الأخت "مارثا" إلى الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج. وعندما سألته عن نهاية الفصل السابق، قال لها بكلماته المتكسرة:

- "ومر على موسى في الجبل أربعون يومًا وأربعون ليلة".

كانت تصحح له نطقه كلما تكلم. وهو أمر لم تخبر الرئيسة به. ولو تعثر في كلمة، كانت تعود لترددها عليه ببطء قبل أن تطلب منه أن يكررها من ورائها. وكان يبذل جهده، ولكن مخارج بعض الأحرف تعجزه. ولكنه كان يتحسن بسرعة، رغم أنها كانت تشك في أن يعتبر هذا دليلًا على ذكائه.

لم تكن تحب أن تضغط عليه كثيرًا، فلربما أصابه اليأس ورفض أن يجاريها.

فتحت الإنجيل على الصفحة التي ميزتها بشريط الكتاب، وكانت آخر صفحة وصلا إليها في القراءة، ووضعت الكتاب على المنضدة. مد "فيكتور" يده عبر المنضدة. ولامس حافة الكتاب بطرف إصبعه.

- أتريد أن تستمع إلى المزيد؟

- موسى.

من الواضح أنه لم يفهم ما قالته. فهو بين الحين والآخر يتجاوب بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تتوقعها منه، حتى إنها أحيانًا ما تصاب بيأس من جدوى الاستمرار، ولكنه شعور عابر سرعان ما يتبدد.

قال لها مجددًا وهو يمد إصبعه نحو الصفحة المفتوحة:

- موسى.

- هذا صحيح، "فيكتور". توقفنا عنده في آخر مرة. وموسى عند الجبل.

- موسى!

قالها في إصرار وهو يحرك إصبعه عبر الصفحة إلى نقطة أخرى، ويثبت إصبعه عندها.

لحظتها أدركت الأمر، فقد كان إصبعه يشير إلى الاسم "موسى"! انتقلت بنظرها من إصبع الولد إلى وجهه. كانت عيناه مركزتين على الكلمة.

قالت وهي تحاول أن تكبت الفرحة التي بداخلها:

- موسى. الكلمة هي موسى. صح. ممتاز، "فيكتور". وأين أيضًا تجد الكلمة نفسها؟

انتقلت إصبعه إلى نقطة أخرى. وكانت أعصاب يده مرتاحة الآن.

سمعته يردد الكلمة بطريقته مجددًا. أشار ثانيةً إلى الاسم "موسى"، والذي كان يظهر مرتين في تلك الصفحة.

- جيد، "فيكتور"، بل ممتاز! وأين أيضًا؟

حرك إصبعه من جديد. وأشار إلى الكلمة.

إنه يقرأ... الشكر للرب... إنه يقرأ!

ولكنها تسرعت في الوصول إلى هذا الاستنتاج، وهذا ما أدركته عندما حاولت أن تشير له إلى كلمات أخرى في الصفحة. فلم ينطقها "فيكتور". ربما تعرف على الاسم "موسى" بسبب تطابق شكل الحروف، وحرف M الكبير (الذي يبدو له من حيث يجلس هو حرف W)، ولكن هذا هو أقصى ما فعله. ولكنه على الأقل فهم أن كل كلمة تقرؤها تتماشى مع مجموعة أحرف في الصفحة. وهذا في حد ذاته إنجاز كبير - فهو لا يزال في الثالثة من عمره - وحتى تتأكد من تخمينها، قررت أن تقوم بما يبدد عنها كل شك. فوضعت إصبعها عند the في نفس الصفحة، وهي تنطقها بصوت عالٍ. وعندئذٍ بادر بالإشارة إلى كل the في تلك الصفحة، ثم انتظر متلهفًا لأن تلقنه كلمةً أخرى. عندئذٍ حسمت أمرها. سوف تعلمه القراءة، حتى تقنع بقية الراهبات بأنه ليس بليد العقل.

هو ليس بليد العقل أبدًا.

***

في 14 فبراير 1979 - وكانت السيدتان مسرورتين بهذا التاريخ لكونه فأل خير عليهما - قام "فيكتور هوب" بزرع جنين هجين عمره ثلاثة أيام في رحم كل منهما. كان قد استأصل نواة كل بويضة من البويضتين الخاصتين بمتبرعة مجهولة وحقن فيهما نواتين من بويضات السيدتين بدلًا منهما. وما إن اندمجت النواتان حتى بدأت الخلايا في الانقسام لينتج عن ذلك بعد ثلاثة أيام جنين مكون من ست عشرة خلية. وحتى في تلك المرحلة، فقد كان الجنين أصغر من رأس الدبوس.

وقبل موعد عملية الزرع بيومين، تلقَّى رسالة من رئيس تحرير مجلة العلوم. تقول الرسالة، ضمن أمور أخرى: "نهنئك على بحثك الفريد ونتائجه المؤكدة، والذي كان مثار إعجابنا جميعًا [....] يمكن أن يكون اكتشافك هذا بداية عصر جديد [....]، وسوف نكون في غاية السعادة في حال قمنا بنشر أعمالك، لولا بضع نقاط لا تزال في حاجة إلى مزيد من التوضيح. وفي التقرير المرفق عدد من الأسئلة والتعليقات [....]".

قرأ التقرير المرفق بإمعان وهو يهز رأسه في ضيق. فقد وجد أن معظم التعليقات غير ذات صلة ببحثه. ووجدهم يطلبون منه تقديم المزيد من الشرح للإجراءات والأساليب، وهو الذي لم يشرحها ظنًا منه أنها بديهية. وأكثر ما أثار سخطه هو ذلك السؤال الخاص بالمراجع، والذين وجدهم يصيغونه على هذا النحو... ([...] أسماء الزملاء الذين شهدوا بعض أو كل التجارب، أو أسماء المؤسسات (الأكاديمية) التي أشرفت على هذا البحث).

قال لنفسه إنهم لا يصدقونه. وشعر بإهانة. ومهانة. خاب أمله وهو يضع الخطاب والتقرير في ملف. ولكنه نجح في ذات اليوم في تهجين بويضات السيدتين في طبق "بتري".

كان آخر سؤال في التقرير هو: "هل نجحت حتى الآن في تكرار التجربة؟".

ولكنه لم يقم بذلك بعد. فبعد أن ولدت الفئران انصب تركيزه على تعديل أسلوبه ليناسب البويضات البشرية.

وهناك سؤال آخر: "هل وجدت الفئران المهجنة نفسها مخصبة؟".

لم يكن له أن يجيب عن هذا السؤال حتى لو أراد. فقد ماتت الفئران الثلاثة فجأة – أحدها بعد عشرة أيام، والآخران في غضون ثلاثة أسابيع. وقام بتشريحها، ولكنه لم يجد شيئًا غير عادي.

تبين أن واحدة من السيدتين قد صارت حاملًا. فلربما لم ينجح الجنين الآخر في أن يلتصق بجدار الرحم. على أن الفرحة كانت كبيرة، وبقي خوف أكبر من حدوث إجهاض. وعملًا بتوصيته، قررت السيدتان استئجار شقة في "بون" والمكوث فيها طوال فترة

الحمل، شريطة أن تكون على مقربة منه. سوف يقوم بأول جلسة أشعة فوق صوتية بعدما يصل الجنين إلى عمر ستة أسابيع. ففي تلك المرحلة سيكون من الممكن التأكد من نبض القلب ومن وجود عمود فقري.

في ذلك الحين كان قد أعاد كتابة المقال الخاص بالتجربة على الفئران لمجلة العلوم. فقد هداه نجاح التجربة على الأجنة البشرية إلى العمل على نشر تقريره الأول قبل التفكير في نشر التقرير الثاني.

لم يسجِّل في المقال حقيقة وفاة الفئران. ليس الآن. فهو يريد أولًا أن ينال فرصة تكرار التجربة مع فئران أخرى، حتى يتسنى له الرد بالإيجاب على السؤال الخاص بقدرته على تكرار التجربة، وكذلك السؤال عن خصوبة الفئران الهجينة. ولكن التجربة هذه المرة فشلت. لقد نجح فعلًا في صنع عدة أجنة جديدة، ولكن ولا واحدة منها وصلت إلى النضج في رحم فأرة كبيرة.

لا فكرة لديه عن موطن الخطأ في التجربة. وربما كان يعرف، ولكنه لن يعترف بهذا.

إنه الحظ. لا شيء سوى الحظ. فأسلوبه مع الميكروبيبيت، الذي فيه تستأصل النوية من الخلية وتستبدل بأخرى، يحتاج إلى أقصى حد من التمكن. فأقل حركة خاطئة سوف تضر بغشاء الخلية أو بالنواة. كما أن هناك مشكلة أخرى قد تنشأ في حال قام بامتصاص قدر من السيتوبلازم أكثر من اللازم. أكان أسلوبه خاطئًا إذن؟ بالتأكيد لا، حيث إن أسلوبه هو ذلك الذي يتبعه الباحثون في جميع أنحاء العالم. ولكن التجهيزات التي يستخدمونها أكثر تقدمًا مما لديه بكثير جدًّا، مما ينفي أي احتمالية لخطأ غير مقصود. هكذا كان "فيكتور هوب" سابقًا لعصره. ولأنه لا يمتلك إمكانيات الحصول على تلك التجهيزات المتقدمة، فإنه بحاجة إلى قدر كبير من الحظ لإنجاز ما يطمح إليه.

على أن "فيكتور" لم يكن يعوِّل كثيرًا على مسألة الحظ. بل يعزو فشله إلى الافتقار إلى التركيز. كما أنه لا يجد جدوى من التجريب في مجموعة جديدة من الفئران، وهو الذي حقق الآن نتائج إيجابية على الخلايا البشرية. الأمر الآن أشبه بالعودة إلى التجريب في دمى بدلًا من الاشتغال على كيان حقيقي.

هكذا لم يذكر في مقاله الجديد أمر تكرار التجربة، أو مسألة خصوبة الفئران الهجينة. كما لم يورد ذكر أي من المراجع. ولكنه استوفى الرد على بقية الأسئلة والتعليقات، والكثير من التفاصيل عن أساليبه. وكان هذا كافيًا ليقنع غالبية العلماء في مجلس تحرير المجلة. وقالوا إن نتائج الدكتور "هوب" ثورية وتجبرهم على نشرها، حتى ولو من باب طرح الاكتشاف للنقاش والجدال. أمَّا من عارضوا نشر المقال فكانوا يرغبون في تأجيل النشر فقط. وكانت حجتهم أن محاولة ناجحة وحيدة لا تمثل نتيجة يعتد بها، وقد تكون صدفة. وفي النهاية تغلب الرأي.

رأي الأغلبية.

***

علَّمتْ الأخت "مارثا" "فيكتور" القراءة خلال شتاء 1948. ولأنها كانت تفعل ذلك خلسة، فلم تكن تعلمه إلا وقت أن تكون في وردية الليل. وعندما يكون الكل نائمًا، تخرج الولد من فراشه وتقوده إلى مكتب يطل على العنبر العام وتغطي الستائر نوافذه. بجعبتها عدد من الأحرف والصوتيات التي دونتها مسبقًا على بطاقات منفصلة. ومن خلالها علمته أن ينطق كلماته الأولى. وتبين أنه تلميذ نجيب، وتعزز ظنها مع كل درس أنها أمام ولد ذكي. كانت لا تعطيه سوى مثالين مع بضعة أحرف فإذا به يقوم وبكل سلاسة بتهجئة سلسلة الكلمات بأكملها. وكان تقدمه سريعًا، حتى إنها اضطرت إلى أن تقدم له في كل درس حرفًا أو صوتًا جديدًا.

كما بدأ، ولأول مرة، يبدي علامات على بعض الأحاسيس التي تعتمل فيه. وكان هذا ظاهرًا إلى حدٍّ كبير في حرصه على تحريك بطاقات الأحرف فوق الترابيزة. وكانت أحيانًا أشد اندهاشًا بحماسه، وخاصة بعد هذه السنوات من السلوك الخامل، أكثر من التقدم الرائع الذي كان يحرزه في تعلم القراءة. وهو لا يتوقف ولا يستريح. حتى إنها كانت تجبره أحيانًا على التوقف بالإمساك برسغه، ورغم هذا كانت عيناه تستمران في مسح الأحرف بحثًا عن المجموعة التالية.

تنهي دومًا الدرس عقب مرور ساعة أو ساعة ونصف الساعة، لأن "فيكتور" كان عليه أن يستيقظ للقداس في الصباح التالي مع بقية المرضى. كان يتشبث بيدها وهي

تقوده إلى فراشه، حيث يرقد ليبدأ في تلاوة صلاة أخرى لأجل "إيجون فايس"، بينما تقف هي إلى جوار الفراش.

تهمس له ما إن ينتهي:

- نومًا هانئًا، "فيكتور". وفي الغد نتعلم حرفًا جديدًا.

- أي حرف منها؟

- حرف B كما في Boy، أو حرف C كما في Cat.

***

تعليم "فيكتور" أشعل الرغبة مجددًا في نفس الأخت "مارثا" في أن تمارس مهنة التدريس. فالوقت القصير الذي تمضيه وحدها مع الولد كان هو أهم أوقات يومها. جعلها "فيكتور" تشعر بأنها تمارس عملًا مفيدًا، وأقنعها تقدمه السريع بأنها خُلقت لتكون معلمة. وتمنت لو أمكنها أن تثبت للأخت "ميليثا" كم هي متمكنة من التدريس، فلربما اقتنعت الرئيسة عندئذٍ بكونها قادرة على ممارسة ما هو أهم من أعمال رعاية البيت وتنظيفه. وربما وافقت الرئيسة على أن تنتقل إلى دير آخر، حيث يتسنى لها أن تدرس حتى تنال شهادة تتيح لها أن تكون معلمة. وطالما وافقت الرئيسة فإن من المؤكد أن والديها لن يمانعا.

ولكي تقنع الرئيسة، كان على الأخت "مارثا" أن تنتهي من تعليم "فيكتور"، وهكذا صار إيقاعها معه أسرع. تطوعت بالعمل في ورديات ليل لأخوات أخريات، وأحيانًا طلبت من الولد التدرب معها من دون توقف حتى الساعة الثالثة فجرًا. علمته أن يقرأ الكلمات الجديدة وكذلك عبارات بسيطة، تكتبها له بخط يدها الجميل. كما تمكنت في ساعات النهار من العمل معه خلسة خلال جلسات الإنجيل، وتطلب منه البحث في الكتاب المقدس عن كلمات يعرفها. حتى تمكن بين حين وآخر من قراءة جملة تامة.

ومع هذا الإيقاع المتسارع كان من الطبيعي أن تقل درجة حرصها وحذرها. وذات يوم استدعتها الأخت "ميليثا".

- أخت "مارثا"، ما الذي كنتي تفعلينه في الليل في مبيت الأخوات؟

شعرت باحمرار يعتري وجنتيها.

- معذرة؟

كانت تحاول أن تكسب أي وقت. لا بد أن أحد المرضى رآها مع "فيكتور" وأبلغ الرئيسة؛ هذا هو التفسير الوحيد.

- أعرف أن "فيكتور" يأتي ليجلس معكِ في الليل. هلا فسرتي لي هذا؟

فكرت في أن تخبرها الحقيقة، ولكنها لو فعلت ذلك فربما دفعت الرئيسة إلى أن تطلب اختبار "فيكتور" في الحال، و"مارثا" متيقنة من أنه لن يرد على أي سؤال للرئيسة.

- يعاني "فيكتور" من كوابيس مخيفة.

نظرت إليها الرئيسة في تساؤل.

- ولو أنني لم أصطحبه إلى خارج العنبر لصرخ وأيقظ الكل.

- أي نوع من الكوابيس؟

- لا أدري، أخت "ميليثا". هو لا يخبرني.

ظنت أنها أقنعتها. وبدأت تهدأ بعض الشيء، وخاصة عندما رأت تبدد نظرة الاتهام من عيني الرئيسة.

- لقد كنت قلقة.

- أوه. لا داعي للقلق. "فيكتور"...

- ليس على "فيكتور"، أخت "مارثا". بل عليكِ.

لم تتوقع هذا الرد أبدًا. فنظرت إلى الرئيسة في وجوم.

- تبدين شاحبة هذه الأيام.

- أنا...

ولكن الرئيسة قاطعتها على الفور.

- ربما كان من المستحسن ألا تعملي في ورديات ليلية لبعض الوقت. كما أعتقد أن جلسات القراءة لساعتين يوميًّا قد أرهقتك. سوف تنوب الأخت "نويل" عنكِ.

كلها مجرد حجج! شعرت أنها تتحجج وحسب. فالرئيسة ترغب ببساطة في أن تفصل بينهما، بينها وبين "فيكتور". هذا هو السبب الحقيقي!

ردت بنبرة مرتجفة:

- أنا.. أشعر أني على ما يرام. لا شيء بي.

- أرى أن هذا أفضل للصالح العام. وبهذا يمكنك التركيز بالكامل على مهامك.

شعرت الأخت "مارثا" بالقلق. وأدركت أن الجدال لن يفيد. لا شيء بيدها. فقالت في حذر:

- "فيكتور" قادر على القراءة.

كم تصورت نفسها وهي تقول نفس هذه العبارة، ولكن بكل فخر الدنيا، ولكن ها هي تنطق بها وكأنها تعترف بارتكاب إثم عظيم.

- "فيكتور" قادر على.. ماذا؟

- يجيد القراءة. لقد علمته القراءة، أخت "ميليثا".

كان صوتها مرتجفًا.

- أخت "مارثا"، هل تدركين ما تقولين؟ إن الولد لم يبلغ الرابعة بعد!

سكتت الرئيسة، قبل أن تعقب بحزم:

- كما أنه بليد العقل.

هزت الأخت "مارثا" رأسها:

- إنه ليس متخلفًا. إنه...

- ليس أنتِ من يحدد هذا، أيتها الأخت!

رفعت الرئيسة رأسها في أنفة، وهمت بالانصراف، حينما صاحت فيها الأخت "مارثا":

- أرجوكي، اسمحي لـ"فيكتور" بأن يثبت لكِ هذا!

لم ترد الرئيسة عليها، وإن توقفت في مكانها.

بادرتها الأخت "مارثا" بنبرة متوسلة:

- ألن تسمحي له بأن يثبت ذلك أمامك؟

- حسنًا، دعيه يثبت هذا. الآن! وعندئذٍ سنتأكد، بطريقة أو بأخرى، أليس كذلك، أخت "مارثا"؟

- أوه... ليس في الحال. أرجوكي...

ما جرى كان أسوأ مما توقعت. فلم تمنحه الأخت "ميليثا" أي فرصة. فقد راحت إليه ومعها أربع راهبات أخريات، ووقفن حوله في دائرة، بنفس الطريقة التي يفعلنها قبل الانقضاض على مريض وإجباره على ارتداء السترة التي يقيدنه بها. وكان من الطبيعي أن يخاف.

طلبن منها أن تقف وراءه، فلم تتمكن من رؤية وجهه جيدًا والأخت "ميليثا" تتنحى خطوة جانبًا. وأشارت الرئيسة إليها وهي تقول:

- "فيكتور"، تزعم الأخت "ميليثا" أنك قادر على القراءة. هل يمكنك أن تقرأ أمامنا؟

اندهشت الأخت "مارثا" من نفسها وهي تجدها تقاطع الرئيسة بشجاعة وجرأة. أخرجت ورقة من كمها مكتوبًا فيها العبارات التي قرأها في الليلة السابقة – من دون غلطة واحدة أو لعثمة.

- أيتها الأخت "ميليثا"، هذه...

أوقفتها الأخت "ميليثا" بإشارة من يدها، وتناولت الإنجيل من الأخت "نويل" باليد الأخرى. وفتحت الكتاب على صفحة عشوائية ومدت يدها بالكتاب تحت ناظري "فيكتور".

- اقرأ لي.

ولكن "فيكتور" لم يفتح فمه.

وقال الملك، أحضروا لي سيفًا. وأحضروا السيف إلى الملك. وقال الملك، اشطروا الطفل إلى شطرين، وأعطوا شطرًا لواحدة، والآخر للثانية. هكذا أمر. سواد على بياض.

سقط ناظراه على تلك الفقرة، وأربكته لدرجة أنه عجز عن النطق.

بأي كلمة.

***

سألته إحدى السيدتين:

- هل سيتسنى لنا أن نعرف ما إذا كان الطفل لنا نحن الاثنتين معًا؟

كان الدكتور قد انتهى للتو من وضع الجل الشفاف فوق بطنها ويستعد لتنفيذ أول جلسة أشعة فوق صوتية. هز رأسه قائلًا:

- لن نعرف هذا من مسح الأشعة.

- أقصد فيما بعد، عندما يولد.

- من المؤكد أنها ستكون بنت. للأمر علاقة بالكروموسومات. فلدى النساء كروموسوم تحديد للجنس من النوع XX، ولهذا السبب...

- ولكن هل سنتمكن من التعرف على ذلك بأي طريقة أخرى؟

كان قد شرح لهما من قبل وبالتفصيل الأمور المتعلقة بجنس المولود، ولكنه عاد ليشرح لهما مجددًا، كما لو أنه لا يدرك أنه يكرر نفسه. لم تفهم منه شيئًا في أول مرة، ولكن ما تتذكره هو أن كون المولودة بنتًا لا يعني بالضرورة أنها قد جاءت من كلتيهما.

وتولد لديهما الشك، بالرغم من أن الدكتور قد عرض عليهما صورًا لاندماج نوايا مأخوذة من خلاياهما، وصور انقسام البويضة، إلى اثنتين، ثم إلى أربع، وبعدها إلى ثماني، وأخيرًا إلى ست عشرة خلية. على أن السيدة لم تجد في الصور إلا فقاعات محتبسة في الماء. لم تجد في الصور ما يقنعها بأن ما تراه هي أشياء منهما الاثنتين. نبهتها صديقتها ألا تبالغ في شكوكها، وسألتها ضاحكة عما إذا كانت تنتظر أن ترى اسمها منقوشًا على الخلايا أو شيئًا من هذا القبيل.

قال الدكتور وهو يشغل الشاشة:

- كما قد تتوقعين في حالة المولود الطبيعي، فإن من المحتمل أن يحمل من صفات إحداكما أكثر من الأخرى. أو من المحتمل كذلك أن يحمل الكثير من صفات الأجداد.

لم تجدها إجابة شافية بالنسبة لها. وعجزت عن طرد الإحساس بكونها تحمل في بطنها شيئًا غريبًا عنها.

اعتصرت يد صديقتها والمجس البارد يضغط على بطنها. لن يكون هناك الكثير لتراه على الشاشة، حسب وصف الدكتور؛ ولكنها لا تزال تأمل في أن تبدد بعض الشكوك.

حرك الدكتور المجس في صمت على بطنها. أظهرت الشاشة ذرات بيضاء ورمادية وسوداء، ليس لها قوام واضح. هي أشبه بضوء وامض خافت يتحرك على جدران خشنة في أحد الكهوف.

نظراتها تتنقل ما بين الشاشة وبطنها العاري. لم تشعر بالغثيان بعد. ربما هي ليست حاملًا من الأصل.

- ها هو ذا.

- أنا لا أرى شيئًا.

قال وهو يشير بطرف إصبعه:

- هذا. هذا الخط الأبيض المنحني. هذا هو العمود الفقري.

كان الخط أرفع حتى من إصبعه. الشيء الوحيد الذي لا يتحرك على الشاشة، مثل حيوان تسمر في مكانه أمام بندقية صياد.

- سبعة وثمانية من عشرة ملليمترات. هذا هو طوله. والآن سنحاول تحديد النبض.

أبقى المجس في نفس البقعة، وهو يمرر يده الأخرى على لوحة مفاتيح جهاز الأشعة.

- ها هو!

لم تعرف أين تنظر، أو ما يفترض أن تراه.

سألت صديقتها بصوت هامس وكأنها تخشى أن يفسد صوتها أي شيء:

- أين؟

كان الدكتور يشير إلى الشاشة بطرف قلم. شيء أشبه بضوء صغير يظهر ويختفي. أبيض وأسود.

سمعت صديقتها تعلق:

- وكأنه يغمز لنا.

اعترتها السكينة فجأة. فلقد أدى إدراكها أن هناك كائنًا حيًّا يعيش بداخلها إلى تغيير موقفها بالكامل. فلم تعد تريد إجابة عن الأسئلة التي كانت تطرحها على نفسها. فهناك صغير ينمو في بطنها. كان هذا هو حلمها الدائم. وربما اتضح في النهاية أنه ابنهما البيولوجي، وهو أمر رائع، ولكنه لم يعد بهذه الأهمية الآن.

انتبهت من أحلام يقظتها على صوت بكاء صديقتها. شعرت بأنانيتها وهي ترى عينيها الدامعتين وابتسامتها الراضية. اندهشت من نفسها، ولكنها طردت كل هذا عنها وهي تمد يدها لتحتضن يدي صديقتها.

تجنب الدكتور النظر إليهما، وتشاغل بالتعامل مع مقبضي الشاشة، كما لو كان يخشى التعامل مع تلك المشاعر. وبغتة، صار صوت الفحيح الناعم الذي كان يأتيهما من

الجهاز أعلى. الآن يسمعون صوتًا مختلفًا صادرًا عن السماعة؛ صوتًا رتيبًا غير منتظم، كما لو أن أحدهم يربت على ميكروفون بإصبعه وهو يختبره.

- القلب. أنصتا، وسوف تسمعان صوت النبض.

بدا الصوت متناغمًا إلى حدٍّ كبير مع الضوء الوامض على الشاشة، ولكنه كان يتخافت.

ولكن كان هناك ما هو أكثر. فهم ما بين لحظة وأخرى يسمعون صوت نبضات أخرى، أشبه بالصدى للصوت الأول، ولكنه ليس صدى؛ فإيقاعه مختلف.

نظرت إلى صديقتها وهي تلامس أذنها، وكأنما تلفت انتباهها إلى الصوت الآخر. فأومأت الصديقة برأسها. فقد سمعته بدورها.

- نحن نسمع صوت قلب آخر. هل هذا ممكن؟

لم يرد عليهما. كان يمعن النظر في الشاشة ويضغط أكثر بالمجس على بطنها. ويشعر بالسخط.

الآن صار صوت النبض المزدوج أوضح، ولكن الضوء اختفى. حرك الدكتور المجس بسرعة حول الجِلِّ فوق بطنها. كانت حركة رأسه وكأنها تتبع المجس في دوائر عصبية. نظرت إلى صديقتها مجددًا، فقالت الأخيرة بإصرار أشدّ:

- دكتور. نحن نسمع نبضًا آخر!

ولكنه بقي ساكتًا. فصاحت فيه:

- دكتور!

نظر إليها مشدوهًا.

- هل هناك قلب آخر؟

هز الدكتور رأسه، وأجابها بنبرة محايدة:

- إنه قلبك أنت. قلبك أنت.

شعرت بسخافة رد فعلها، فمن الواضح أنها كانت تفتعل مشكلة من لا شيء.

وضع الدكتور المجس وبدأ يمسح الجِلّ عن بطنها.

- أنا آسفة.. لقد ظننت...

- لا مشكلة.

كان صوت نبضها هي. وهو لم يكذب في ذلك. ولكن كان هناك شيء آخر. أكان عليه أن يخبرهما؟ - أن هناك أمر ما غريب يجري؟ لن يزيدها هذا إلا شكًا، ولن يؤدي هذا إلا إلى كثير من التعقيدات.

واضح أن هناك نبضًا لجنينين – مسموعين بوضوح. ولكنه لم يتمكن من رؤية النبض الثاني. كما أنه لم يعثر على جنين آخر. لقد درس الصور بعناية بعد ذلك، ولم يكشف أي مسح أشعة عن وجود عمود فقري ثانٍ.

ربما كان الجنين الثاني متواريًا تمامًا خلف الأول. هذا ممكن. ولكنه غير معتاد.

لو أن هناك جنينين، فلا بد أن البويضة قد انقسمت مرة أخيرة داخل الرحم، وبدأ كل قسم في النمو بصورة منفصلة. وفي تلك الحال يكون أمام توأم، توأم متطابق.

وكان لدى جلسة الأشعة الثانية – بعد أسبوعين – الخبر اليقين. كانت السيدة الحامل هادئة جدًّا – أشد هدوءًا من المرة الأولى، وقت أن كانت تتوقع منه أن يخبرها، في تلك المرحلة المبكرة، بنوع وشكل المولود. كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنه بها أن يخبرها بما إذا كان المولود قد أخذ صفات أيًّا منهما هو إذا كان من المعروف أن لدى واحدة منهما عيب جيني. ولكن لا هذه السيدة ولا صديقتها تعلمان بأمر أي عيب جيني. شعر بالأسف، ووجد نفسه يفكر في أن أمرًا كهذا كان كفيلًا بأن يمنحه دليلًا قاطعًا ملموسًا، ينهي به أي شك ويبدده.

قرر أنه في حال أظهرت الجلسة الثانية وجود جنين آخر، فإنه سوف يخبر السيدة بذلك. من المفترض أن يكونا واضحين بعد مضي ثمانية أسابيع، حتى ولو لم يتجاوز طولهما السنتيمترين. لا بد أن تتضح الخصائص البشرية على الجنينين حتى مع هذا

الحجم الدقيق. الرأس، الذراعان، الساقان، وعينان في الوجه، وفم ومنخار. والأقرب أن يبقى الجنين الآخر في هذه المرحلة غير مرئي.

شرع في تنفيذ جلسة الأشعة. وبدلًا من أن يقرب المنظار على الجنين مباشرة، أخذ جولة حول الكبد والمعدة والبنكرياس والمثانة والزائدة – حتى وصل إلى الرحم بحركة بطيئة.

تراقب السيدتان الشاشة وقد حبستا أنفاسهما. وينظران إليه بين حين وآخر في تساؤل. ولكنه لا يعلق.

وسرعان ما وصل إلى المشيمة الأولى في جدار الرحم. بقعة سوداء في حجم التفاحة. ولم تكن هناك مشيمة ثانية. يستقر الجنين في أسفل المشيمة مثل حجر صغير.

قرَّب أكثر. شاهد جنينين، أخيرًا! وبدأ يحصي: رأسان، أربع أذرع، أربع سيقان. وقلبان ينبضان. إلى جوار بعضهما البعض. وبينهما – مثل سبابة معوجة: عمود فقري واحد.

شحب وجهه وهرب الدم منه.

وبادرته إحدى السيدتين:

- ما الأمر، دكتور؟

عجز عن التظاهر أكثر من ذلك. ولكنه تمكن من أن يخفي الجانب الأكبر من الحقيقة:

- توأم.. أنتِ حامل في توأم.

***

ذات يوم، لم تعد الأخت "مارثا" إلى الدير في "لاشابيل". وهو ما حدث بعدما ذهبت لتقيم مع والديها في إجازة مدتها خمسة أيام، يسمح بها للمبتدئات مرة واحدة في العام. في البداية اندهش والداها من الخبر الذي أبلغتهما الرئيسة به. وأخبراها بأنهما قد شاهدا بأنفسهما الابنة وهي تستقل الحافلة عائدةً إلى "لاشابيل". ولكن بعدما أخبرتهما الأخت "ميليثا" أن عليهما إبلاغ الشرطة عن اختفائها، اعترف الأب بأنهم قد تجادلوا حول قرار الابنة الرحيل عن الدير.

عندئذٍ كان دور الأخت "ميليثا" لتندهش من هذا الخبر. وعرفت الأبوين بأنها لم تكن تعلم أبدًا أي شيء عن نوايا الأخت "مارثا". وقالت إنها بدت في غاية الرضا منذ أن صارت مبتدئة منذ أكثر من عام. وأنها كانت تستعد لأن تصير راهبة مستديمة، ولو أنها مضت في نفس الدرب لسرعان ما كانت ستترقى. كانت الرئيسة واثقة من أن الأخت "مارثا" ستعود، واقترحت عليهما عدم تعريف أي أحد باختفائها في الوقت الراهن. وقد وافقها الأبوان الرأي، خاصة وأن الناس ستتكلم في سيرة البنت لو أن الخبر انتشر.

وعادت الأخت "مارثا" بالفعل. ولكن بعد ثلاثة أشهر. وقد وصلت إلى أبويها رسالة بعد رحيلها بأسبوع. عرفتهما فيها أنها بخير. وأنها بحاجة إلى بعض الوقت لتفكر فيه في خطوات مستقبلها.

وفي 12 نوفمبر 1949، أرسلت الأخت "ميليثا" تلغرافًا إلى الوالدين احتوى على عبارة واحدة: "لقد عادت، وهي آسفة".

في البداية سار الأمر وكأنها كانت في مشوار وانتهت منه وعادت. فهي مستمرة على السلوك القويم، بل صار غطاء رأسها الأسود يليق بها أكثر. ولم يفقد الصليب الذهبي على صدرها بريقه.

وتحت ضوء الشمس يظهر لون برونزي لبشرتها – وجهها؛ ويديها. وفي مرة لمحت الأخت "ميليثا" تغير لون بشرة ذراعيها وعنقها، ولكنها لم تعلق. واكتفت بالتأكد من كون الأخت "ميليثا" آسفة على ما بدر منها، وهو ما أكدته لها الأخت. عندئذٍ طمأنتها الرئيسة ألا بأس، ورددت عليها عبارات من حكاية الابن الضال.

لم يفتحا هذا الموضوع ثانية. وفكرت الرئيسة أن هذا أفضل اختيار. وسوف تختبر الفتاة لاحقًا.

قبل رحيلها، لاحظ "فيكتور" أن هناك شيئًا ما مختلفًا في الفتاة. هي الآن تسير بأنفة، غيرت من هيئة قوامها في نظره بعض الشيء، كما أنه يلمح بروزًا في بطنها. وكذلك هناك لمحات تمرد في تصرفاتها. يلحظه كل من يعرف سلوكها قبل اختفائها. ففي السابق كانت تسير بكتفين متهدلتين، وعينين منكسرتين، وبخطوات غاية في البطء

وكأن هناك من يمسك بها ويعيقها. وعلى كل، فلم تعد الأخت "مارثا" تتحدث إليه كثيرًا كما كانت تفعل من قبل، وذلك منذ أن طلبت الأخت "ميليثا" منه أن يقرأ ورفض. ظن أنها غاضبة منه. ولم يعد يراها ليلًا، ولم تعد تأتيه لجلسات القراءة من الإنجيل. ثم رحلت، هكذا فحسب.

والآن هي هنا مجددًا. وفي أول يوم همست له:

- أوحشتني.

أراد أن يخبرها أنها قد أوحشته بدورها، ولكن الكلمات لم تطاوعه.

لاحقًا، حينما واتتها الفرصة لتتكلم معه، قالت له:

- سوف أرحل مرة أخرى عما قريب. وهذه المرة للأبد.

لم يكن يعرف ماذا يقول لها. ولكن الخبر جعله يشعر بشعور لم يعتريه من قبل.

يشم تلك الرائحة المقيتة بين حين وآخر. وقد وعى "فيكتور" تلك الرائحة منذ كان صغيرًا. وعندئذٍ يجدها تفوح من كل الأخوات في ذات الوقت. يشمها بوضوح في كل مرة تميل نحوه فيها إحداهن. تفوح من ملابسهن، ومن أياديهن. ومن أنفاسهن. نفس رائحة دهن اللحم المقدد البارد الذي يتناوله أحيانًا مع الخبز.

والأخوات يدركن تلك الرائحة أيضًا، فكلما كانت تفوح منهن كن يتصرفن بفروغ صبر. حتى الأخت "ميليثا". في كل مرة تفوح منها تلك الرائحة، تتصرف معه بفروغ صبر خلال جلسات القراءة. متوترة تكون هي. ولكنها سرعان ما تعتذر كلما انتبهت إلى عصبيتها.

- معذرة، "فيكتور". فترة وستمر.

وهو يعرف أنها تذهب، قبل أن تعود ثانيةً.

ولكنه لم يعد يشم تلك الرائحة في الأخت "مارثا" منذ أن عادت. يشمها في بقية الأخوات مرتين، ولكن ليس فيها. وحين تكون في بقية الأخوات فإنه يجد النجاة منها

وقت أن تقوم الأخت "مارثا" بتنظيفه. ولكنه لم يصل إلى أي استنتاج لسبب خلاصها من تلك الرائحة. وهكذا فوجئ تمامًا بما أخبرته هي به ذات يوم.

كانت تجفف جسده بمنشفة في الحمام.

- سرعان ما سيلحظن ذلك. أنت بالفعل تراه وتشعر به. تناولت يده ووضعتها على بطنها.

لم يشعر بشيء سوى نعومة ملمس ردائها.

- هناك طفل ينمو بداخلي.

حركت يده لأعلى ولأسفل، وشعر باستدارة بطنها؛ هناك بالفعل شيء يختفي وراء هذا الرداء.

- ما إن تكتشف الأخت "ميليثا" الأمر، حتى يتحتم علي الرحيل. سوف توبخني وتصرخ في حتى يزرق وجهها؛ ولكنني لا أهتم لذلك، لأنها حينما تفرغ من هذا الصراخ ستعرف أنه لا خيار أمامها. ولن يتمكن والداي من إعادتي إلى هنا.

جثت على ركبتيها وتناولت يداه في يديها. نظرت إلى عينيه مباشرة، ولكنه أشاح بوجهه.

- إن كان ولدًا، فسوف أسميه "فيكتور". هل تحب هذا؟

وكان يحب هذا.

عندما بدأت الأخت "ميليثا" تشك، صارت تتفقد ملابس الأخت "مارثا" الداخلية بحثًا عن أي بقع دم، في كل يوم غسيل. تناولت تقويمًا وحسبت حسبتها، وقدرت وقت حدوث الحمل ومدته التي مضت. صارت تراقب الفتاة عن كثب، وتلحظ كم مرة تضع فيها الأخت "مارثا" يدها على بطنها الظاهرة.

سألتها ذات مرة وهي تراقب رد فعلها:

- هل تعانين من وجع في المعدة؟

ولكن الأخت "مارثا" لم تحفل. بل هزت رأسها تنفي ذلك في براءة، قبل أن تنظر للرئيسة نظرة جريئة، وكأنما تسألها عما دفعها إلى هذا التساؤل.

مرت خمسة أسابيع ولم تكتشف الأخت "ميليثا" أي دليل على وجود دم في ملابسها الداخلية، فقررت أن تخضع الأخت "مارثا" للفحص. ولما لم تكن على دراية بهذه النوعية من الفحوصات، فقد طلبت من الدكتور "هوب" أن يجريها يوم أن كان موجودًا لزيارة ابنه. كانت تستشيره بين حين وآخر في أمور طبية لا تعرف عنها هي أو أخواتها أي شيء، ولكنها كانت محرجة في هذه المرة. لم تصارحه بما تشك فيه حقيقةً، ولكنها طلبت منه ببساطة أن يعطيها رأيه الطبي بشأن أخت تشتكي من ألم في المعدة منذ عدة أسابيع.

اصطحبته إلى الغرفة التي كانت تجلس فيها الأخت "مارثا" تدرس الإنجيل. وسألها في الطريق إلى هناك عن حال ابنه.

- لا توجد بوادر تحسن.

سمعته يتنهد في أسف.

- هل تعتقدين أنه سعيد هنا؟

- أنا متيقنة من هذا، دكتور.

- أتمنى ذلك. أيتها الأخت. أتمنى ذلك، لأجله.

دخلت الرئيسة والدكتور غرفة الأخت "مارثا"، التي رفعت رأسها عن الكتاب الراقد فوق الترابيزة أمامها، وسرعان ما نهضت عن مقعدها ووقفت وهي تومئ في أدب.

توقعت الأخت "ميليثا" أن ترفض الفتاة الفحص، أو على الأقل أن تطرح أسئلة قبله، ولكنها فوجئت بأن الفتاة لم تعترض أبدًا. بل تمددت على الفراش في صلابة حينما طلب منها الدكتور "هوب" ذلك. وحينما طلب منها أن تسحب رداءها لأعلى، فعلت ذلك من دون تردد. رمقت الرئيسة من مكانها في ركن الغرفة بطن الفتاة العارية. كانت منتفخة من دون شك.

وضع الدكتور يده اليمنى على بطنها:

- عرفيني بموضع الألم.

حرك يديه فوق بطنها، وهو يضغط بأطراف أصابعه فوق جلدها. ويسأل أكثر من مرة:

- هل تؤلمك هنا؟

هزت رأسها نافية.

بدأ يفحص في المنطقة أسفل السرة. يضغط بإبهامه بين لحظة وأخرى على جلدها ببعض القوة. ولم يغب عن ناظري الرئيسة ذلك القلق الذي ارتسم على وجهه.

- هلا ناولتني السماعة من فضلك؟

ناولته السماعة.

سأل الدكتور الفتاة:

- هلا حبستِ أنفاسكِ لبضع ثوانٍ؟

وجدت الرئيسة نفسها تحبس أنفاسها بدورها. سرعان ما ستعرف الحقيقة.

أنصت الدكتور، وبدا عليه القلق والسخط، وحرك السماعة، وأنصت. تتحرك أنظاره نحو وجه الفتاة، ولكنها سلطت عينيها على السقف في ثبات. وفي النهاية، زفر وهو يرفع السماعة عن بطنها. وطلب من الرئيسة بنبرة لم تكشف عن أي شيء:

- أرجو أن تتكرمي وتتركينا بمفردنا لدقيقة.

أدركت من عينيه أنه يأمرها لا يرجوها، فغادرت من دون تعقيب.

أسدلت الأخت "مارثا" رداءها في ارتياح، وجلست إلى حافة الفراش.

جلس الدكتور إلى المقعد عند الترابيزة. التقط الكتاب المقدس، وبدأ يقلبه بين يديه في عصبية:

- أريد منكِ أن تعرفي، قبل أن أخبر الرئيسة. ربما رغبتِ في بعض الوقت لاستيعاب الأمر. فأنا عن نفسي لا أفهم كيف...

- أنا أعرف بالفعل، دكتور.

لم تشأ أن تصعب الأمور عليه:

- أوجاع المعدة كانت من بنات أفكار الأخت "ميليثا". ولو أن هناك ما أشعر به بالفعل في بطني، فهو ليس سوى ركلات صغيري. إنه غاية في.. النشاط.

هز الدكتور رأسه في أسف وهو يعض على شفتيه، فظهرت الندبة في الجانب اليمن من فمه.

- منذ متى؟ هل تعرفين على وجه التقريب؟

- أربعة أشهر.

- بالفعل، كما قدرت. وإلا لما كنتِ ستشعرين بحركة الطفل.

رمق الكتاب ثم عاد ينظر إليها:

- كم عمرك؟

- عشرون.

أومأ برأسه.

- ونصف العام.

- وترغبين في الاحتفاظ بالجنين؟

أومأت هي برأسها هذه المرة:

- وبكل شوق إليه، دكتور.

- تفهمين أنه سيكون عليكِ وبكل تأكيد مغادرة الدير؟ أعتقد أن الأخت "ميليثا" لن تسمح لكِ بالبقاء.

- أعرف هذا. ولكن هل يمكنني أن أطلب منك أن تبقى لبعض الوقت بعدما تبلغها؟ فأنا لا أعرف كيف ســ...

أومأ لها برأسه في تعاطف.

- سوف أبلغها الخبر في وجودك. هل هذا ما تريدينه؟

- أجل، من فضلك، دكتور. أشكرك.

أعاد الكتاب إلى الترابيزة، ومرر أصابعه فوق غلافه، قبل أن ينهض.

- دكتور "هوب"؟

التفت ينظر إليها.

- أنت والد "فيكتور"، أليس كذلك؟ "فيكتور هوب"؟ أنت.. رأيتك تجلس معه أكثر من مرة.

- هذا صحيح. والد "فيكتور" – أجل، هو أنا.

كان يتحاشى نظراتها، ناظرًا إلى بقعة ما فوق رأسها.

- دكتور...

ترددت لحظات قبل أن تكمل:

- دكتور، "فيكتور" ليس بليد العقل أبدًا. ليس كذلك على الإطلاق.

سألته الرئيسة إن كان بمقدوره أن يساعد في التخلص من الجنين، وعما إذا كان هذا ما يرغب فيه والدا الأخت "مارثا". لم يستوعب طلبها على الفور، فقد كان ذهنه منشغلًا بعديد من التساؤلات التي تخصه. أكان ما أخبرته به الأخت "مارثا" صحيحًا؟ - أن بوسع "فيكتور" الكلام؟ أن بمقدور "فيكتور" القراءة؟

حاول في الطريق إلى مكتب الرئيسة، المار عبر ممرات الدير، أن يتيقن من صدق الفتاة. أدرك أنه لا سبب لديها يدفعها إلى الكذب عليه، وخاصة وهي على وشك أن تطرد من هنا. سألها عن سبب أنه لم يلاحظ ذلك بنفسه، وقالت له أن التواصل مع "فيكتور" صعب – وأنها مسألة ثقة. وكأنها طعنته بخنجر حاد في قلبه.

عندما كررت الرئيسة طلبها، وانتبه هو إليها، رفض على الفور:

- هي ترغب في الطفل. أيًا كانت العواقب.

- هي أصغر من أن تقرر لنفسها.

صاح فيها، بنبرة أعلى مما أرادها:

- إنها في العشرين من عمرها!

- هي لا تزال ساذجة، دكتور. ووالداها يطمحان في أن تكون راهبة موقرة. لذلك أسألك مجددًا: هل يمكنك أن تساعدنا؟

هز رأسه رافضًا، في بطء في البداية، ثم بسرعة أكبر وأكبر.

في تلك اللحظة قرر ألا يتحدث عما أخبرته به الأخت "مارثا" بشأن ابنه.

الثقة. بزغت الكلمة في ذهنه مجددًا. إن الرئيسة لم تنجح أبدًا في كسب ثقة "فيكتور"؛ وكذلك هو. كان هذا الاستنتاج الذي توصل إليه وهو يحدق في وجهها. ويستمع إليها. لذلك لم يكن "فيكتور" يتكلم. ولأنه لم يكن يتكلم، فقد اعتبروه بليد العقل. لمجرد هذا السبب. نهض عن مقعده بقوة، من دون أن يتوقف عن هز رأسه. كان يريد أن يصب جام غضبه على الرئيسة، ولكنه عجز عن ذلك، فقد كان غاضبًا من نفسه في المقام الأول. كيف بحق الرب أمكنه أن يقترف مثل هذا الخطأ الفظيع، وأن يفعل هذا بابنه؟

كانت المرأة المُسنَّة ومساعدتها من "آخن" قد قيل لهما ألا يطرحا أي أسئلة وأن يقوما بعملهما فحسب. كان هذا هو اتفاق الأخت "ميليثا" معهما. وتلقت كل منهما مبلغًا إضافيًّا من المال نظير صمتهما بعد أداء تلك المهمة.

كانت"لوتيه جيلين" جالسة في غرفتها بملابسها الداخلية، وهي لا تعلم بما تنتويه الرئيسة لها. وعقب دقائق، أمرتها الرئيسة بأن تخلع رداءها وتسلمه لها. وشعرت وكأنها تخلع عن جسدها عبئًا جاثمًا. لقد انتهى الكابوس، هكذا فكرت. الآن تموت الأخت "مارثا" وتُبعث "لوتيه جولين" إلى الحياة من جديد. غادرت الأخت "ميليثا"

الغرفة من دون كلمة. توقعت "لوتيه" أنها قد ذهبت لتحضر ملابسها العادية وأن تسألها عما إذا كان مقاسها لا يزال مناسبًا لها.

ولكن الرئيسة لم تكن وحدها حينما عادت. كان بصحبتها امرأتان، إحداهما مُسنَّة. ذلك الرداء. تلك العينان. والوجه. وكأنها تمرمغت في رماد قبل أن تأتي إلى هنا.

أدركت "لوتيه" حقيقة ما ينتظرها ما إن رأت المسنة. وصرخت. ولكن الأخت "ميليثا" بادرت بوضع يدها بقوة فوق فمها. وبيدها الأخرى دفعت "لوتيه" لتسقطها على ظهرها. ومن ثم قيدتها المرأتان إلى الفراش بقيد جلدي. حاولت أن تقاوم، ولكنهن ثلاث، وهي وحيدة. كن قد ربطن رسغيها. باعدت المسنة بين ساقي الفتاة، وقيدت المرأة الأخرى كاحليها إلى الفراش. ثم وضعتا الوسائد أسفل ظهرها، ليرتفع بطنها لأعلى. شقت المرأة ملابسها بالمقص. أغلقت عينيها. فلم ترَ الإبرة الطويلة التي أخرجتها المسنة من حقيبتها.

أمرتها الأخت "ميليثا" بلهجة صارمة:

- افعليها بسرعة.

انغرست الإبرة في داخلها، وغرست "لوتيه" أسنانها في الوسادة فوق فمها من فرط الألم. وغرست الرئيسة أظافرها في خدها الأيمن.

ثبتت المسنة فرج الفتاة بيدها، وباليد الأخرى أخذت تحرك الإبرة بالداخل. وبعد محاولتين وصلت إلى مقصدها. وأومأت إلى مساعدتها التي كانت تحمل منشفة لتتلقى عليها ما سيخرج.

لمحت الأخت "ميليثا" الجنين، الذي كان أكبر مما توقعت. ولكن ما أفزعها هو أن ملامحه البشرية كانت واضحة.

عندما أدركت أن المسنة تحدق فيها، أشاحت بوجهها.

- خذيه وادفنيه.

في نهاية اليوم، راحت "لوتيه" لترى "فيكتور". كانت ترتدي رداء الدير ثانيةً، وهمست في أذنه بشيء ما. ثم قبَّلت أعلى رأسه وهي تتفوه ببعض كلمات أخرى. وغادرت من دون أن تلتفت وراءها.

- لقد راح، "فيكتور". الطفل راح. أنا آسفة.

كان هذا هو أول ما قالته. وبعد أن قبَّلته، قالت له:

- الرب يعطي والرب يأخذ، "فيكتور". ولكن ليس هذا على الدوام. فهناك أوقات يكون القرار فيها لنا نحن. لا تنسى هذا أبدًا.

كانت تلك هي آخر كلمات يسمعها منها. ففي اليوم التالي اصطحبه أبوه عائدًا إلى المنزل.

كان هذا في 23 يناير 1950.

***

كان أمامه خيارين: إما أن يمنحهما حياتين، وإما أن يقضي على الحياتين. كانت تلك هي المعضلة التي واجهها "فيكتور هوب" خلال أبريل 1979، بينما كانت خطابات التهنئة من زملائه الباحثين، الذين قرأوا مقاله في مجلة العلوم، تنهال عليه بريديًّا وتلغرافيًّا.

إما أن يترك الجنين لينمو ويكتمل، وإما أن يجهض الحمل. وهو أمر لم يقم به من قبل. لم يقضِ على حياة من قبل أبدًا. لهذا كان ممزق النفس بشدة. فهو منذ يوم أن بدأ بحث الدكتوراه وهو يضع نصب عينيه مهمة واحدة لا سواها: أن يصنع حياة. كان هذا هو التحدي الدائم أمامه. أن يكون بمقدوره أن يقرر الحياة. وليس أن يحسم الموت.

انتبه إلى مظروف يحمل شعار جامعة "آخن". كانت البطاقة بداخله من أستاذ لا يعرفه، اسمه "ريكس كريمر"، عميد كلية الدراسات الطبية الحيوية. كانت رسالة تهنئة، ولكنها مختلفة. ولفت نظره سطر واحد فيها:

"من المؤكد أنك قد تغلبت على الرب في مجاله".

بالطبع كان "ريكس كريمر" يقصد المداعبة. ويقصد من هذه المقارنة بالرب جذب انتباه الدكتور "هوب". وافترض أن زميله يفهم المقصد الساخر هذا. ولم يخطر بباله أبدًا أنه سيفهم المعنى المناقض تمامًا.

وكانت المحادثة التليفونية التي أجراها معه في 15 أبريل 1979 سببًا في أن يعيد حساباته.

- دكتور "هوب"، أنا "ريكس كريمر" من جامعة "آخن".

سكت عمدًا حتى يمنحه فرصة لتذكر الاسم.

على أن الدكتور جاوبه على الفور:

- دكتور "كريمر"، أشكرك على البطاقة.

رد الآخر سعيدًا متفاجئًا:

- على الرحب والسعة. أنت تستحقها.

- ولكن كلامك غير صحيح.

- ما الذي تقصده بالكلام غير الصحيح؟

- ما كتبته. وأنني تغلبت على الرب.

- أوه، هذه؟ لقد كانت مجرد...

- ما كان الرب ليقدر على فعل هذا.

ارتبك "ريكس". ظن للحظة أنه قد اتصل برقم خاطئ، ولكن هذا لم يكن رأي الشخص القابع عند الطرف الآخر من الخط.

- أنا لا أفهم ما تقصده.

- أقصد أن مقارنتك غير سليمة هنا. لقد توصلت إلى استنتاج مغلوط.

كان الدكتور يتحدث بنبرة أستاذية، جعلته يشعر وكأنه قد عاد تلميذًا من جديد. يشعر وهو يستمع إلى "فيكتور" أنه تلميذ متواضع ليس إلا.

- ما كان الرب ليحاول صنع مثل هذا الشيء. ما كان ليحاول أن يصنع ذرية من أنثتين أو من ذكرين. لهذا أنا لم أتغلب على الرب في مجاله.

لم يكن في نبرة صوته ما ينم على أي دعابة أو سخرية، وهو ما أثار حنق "كريمر"، فقال بنبرة أراد لها ألا تشي عن استيائه:

- أنا لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة. ولكن سبب اتصالي هو...

قاطعه الدكتور "هوب" بسرعة:

- طبعًا، فلا ينبغي أن نبالغ في وصف قدرات الرب أيضًا.

رد عليه "كريمر" بدبلوماسية، وهو يكاد يكون موقنًا من أن الدكتور يحدثه وهو سكران:

- كلا، بالطبع لا.

غير أن الدكتور "هوب" استمر في كلامه بكل رباطة جأش:

- لأننا إن بالغنا في قدرات الرب، نكون قد استهنا بقدراتنا نحن. وهذا هو الخطأ الذي يقع فيه عدد كبير من الباحثين. أنهم يفرضون قيودًا على أنفسهم. يقررون حتى من قبل أن يبدأوا ما يمكنهم فعله وما لا يمكنهم فعله. وإن قدروا استحالة أمر ما، فإنهم يركنون بكل بساطة إلى هذه القناعة. ولكن ما يبدو مستحيلًا أحيانًا يكون في حقيقته أمرًا صعبًا وحسب. إنها مسألة مثابرة ليس إلا، أليست كذلك؟

أخيرًا وجد العميد المدخل الذي سيدخل منه إلى الغرض الأساسي من مكالمته هذه:

- وهذا لحسن الحظ هو ما حققته أنت. ولهذا، ولأسباب أخرى، أود أن أدعوك للحضور والجلوس معنا. فالجامعة تود أن تعرض عليك كرسيًا بحثيًّا، ولفترة غير محددة من الزمن. ونرحب بأن تكمل أبحاثك تحت رعايتنا، في قسم الأجنة، حيث نلت درجة الدكتوراه من قبل.

جاوبه الصمت على الطرف الآخر.

- إن أساتذتك السابقين لا ينفكون يثنون عليك. ويرغبون جدًّا في عودتك. كما أن لدينا الآن مجموعة ممتازة من أساتذة البيولوجي الجدد، وأنا على يقين من أنك ستجد فيهم عونًا كبيرًا.

- أنا أفضِّل أن أعمل وحدي.

فكر "كريمر" للحظات.

- يمكننا أن ندرس هذا الأمر بالتأكيد. الأهم هو أن توافق على الحضور والعمل معنا. هلا حددنا موعدًا للقاء؟

- من غير المناسب أن أحدد هذا الآن. أرجو أن تمنحني وقتًا للتفكير. سوف أتصل بك لاحقًا هذا الأسبوع. موافق؟

- لا بأس. سوف أملي عليك رقم تليفوني المباشر.

كرر "ريكس" رقم تليفونه مرتين، وأنهى المكالمة وهو يؤكد لـ"فيكتور" أنه سينتظر مكالمته، على الرغم من كونه غير متيقن تمامًا من كونه سيتصل.

***

ظنت أنها ستجري فحصًا للمشيمة. هذا هو ما أخبرها به الدكتور "هوب" على الأقل، حيث سيتيح له الفحص أن يتبين ما إذا كان التوأم في بطنها يعاني من متلازمة داون أم لا. ما إذا كانوا منغوليين. لم تكن قد سمعت بمثل هذا الفحص من قبل، ولكنه أخبرها بأنه حديث نسبيًّا.

شرح لها الدكتور بالتفصيل أنه سيدخل ملاقط صغيرة عن طريق المهبل وعنق الرحم لأخذ عينة من نسيج المشيمة. وأنها قد تشعر ببعض الألم، ولكنه سيخفف ذلك بمخدر موضعي. وعن طريق فحص كروموسومات عينات الأنسجة سيكون قادرًا على تحديد ما إذا كان التوأم بصحة جيدة. أم لا.

- وإذا لم يكونا...؟

- في هذه الحالة سنرى.

سرعان ما غير موضوع الكلام. حدثها عن مخاطر الفحص. وأن هناك احتمالًا ضئيلًا لحدوث إجهاض لاحقًا. ولكنه احتمال ضئيل للغاية. لدرجة أنه لن يقلقها.

تذكرت المرأة كل هذا وهي تستلقي على سرير الفحص، وتسند كاحليها إلى مساند سرير الفحص. وبناءً على طلب الدكتور، بقيت صديقتها في غرفة الانتظار. طمأنها أن الفحص لن يستغرق وقتًا طويلًا. كانتا تفضلان أن تكونا معًا خلال هذا الإجراء، ولكنهما لم تجرؤان على الاعتراض.

سمعته يقول:

- ستشعرين بلدغة بسيطة.

لم تكن تراه. وبطنها وبقية جذعها السفلي مغطى بغطاء أخضر؛ وكان الدكتور جالسًا إلى مقعد في الجانب الآخر.

تسببت اللدغة في ارتعاشة خفيفة اعترت جسدها. لكنها سرعان ما بدأت تذهب عنها، تنفست الصعداء. ثم، فجأة، شعرت بشيء بارد على بطنها. أدركت أنه الجل المستخدم لفحص الموجات فوق الصوتية. لم تكن ترى شاشة الموجات فوق الصوتية أيضًا. ولكنها لم تمانع، لأنها لم تكن تريد حقًّا أن ترى ما يحدث داخل جسدها. كانت الأصوات التي سمعتها سيءة بما فيه الكفاية: أزيز ونقر الموجات فوق الصوتية، والأصوات التي تحدثها يد الدكتور التي تبحث في درج الأدوات المعدنية، وأنين المقعد تحت وطأة جسده، وأنفاسه.

الآن يحرِّك المسبار على بطنها. عندما توقف عند نقطة معينة، ومكث هناك، أرادت أن تسأله عما يراه – عن التوأم. وعما إذا كانا بخير. ولكنه قال لها قبل أن تتمكن من أن تتفوه بأي شيء:

- أرجو أن تحبسي أنفاسك لبضع ثوانٍ. لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.

أخذت نفسًا عميقًا وحبسته في صدرها. وبالرغم من المخدر الموضعي، شعرت بشيء بارد يقتحمها. كورت قبضتيها وغرست أظافرها في راحتي يديها من فرط الخوف.

بدأ يحرك المسبار على بطنها مرة أخرى، في حركات دائرية صغيرة. كانت أنفاسه متهدجة. وكان يتنفس عن طريق فمه، مما جعل الأمر يبدو كما لو كان يلهث من فرط الجهد. ثم توقفت يده مرة أخرى.

قالت لنفسها إن أمرًا ما سيحدث الآن، فزاد توترها.

على أن شيئًا لم يحدث. وربما لم تشعر هي به فحسب. ولكن عقب بضع ثوانٍ، وعندما تمكنت في النهاية من التنفس، انتبهت إلى أنها لم تعد تسمع صوت لهاثه. انتظرت لحظات، وهي لا ترغب في إرباكه، قبل أن تسأله بصوت مبحوح:

- دكتور. هل هناك مكروه؟

لم يجبها.

- دكتور؟

ثم حدث كل شيء فجأة. سمعت حركة المقعد، في نفس لحظة رفعه المسبار عن بطنها وسحبه الأداة الباردة من داخلها. سمعت قعقعة أطباق، قبل أن تشاهد الدكتور وهو يخرج مسرعًا من الغرفة.

لم يمكنه أن يجبر نفسه على فعلها. رغم أنه كان قاب قوسين أو أدنى من ذلك. ولكنه ما إن هم بفصل الجنينين الملتصقين، حتى يخرجهما من الرحم قطعة تلو الأخرى، حتى منعه شيء – وكأن هناك من قبض على يده وسحب ذراعه بعيدًا.

انسحب من الغرفة، بخزي، وترك سيدة ترقد هناك في ذلك الوضع غير المريح. اندفع إلى الحمام، وخلع قفازه اللاتكس وغسل يديه لفترة طويلة. كان يحدق في المرآة. ولأنه لم يجد وقتًا ليحلق ذقنه منذ أسبوع كامل، فقد نبتت لحية صغيرة شعثاء، جعلته يندهش من مدى الشبه بينه وبين أبيه.

استغرق في تأمل نفسه في المرآة. والشعر الأحمر. والأنف. وتلك الندبة فوق شفته العليا.

عندئذٍ، وفي تلك اللحظة بالذات، بزغت الفكرة في عقله. لم تكن أكثر من مجرد خاطر عابر، ولكنه كافٍ لأن يحدث الشرارة التي سرعان ما ستتحول إلى جذوة نار.

لم يكن يدري كم مر من الوقت قبل أن يعود مرة أخرى إلى السيدة. بقيت في نفس الوضع من دون حراك، وكأنها تخشى من القيام بأي حركة ولو صغيرة من شأنها أن تضر الجنين.

سألته عما يجري ما أن دخل الغرفة. فأجابها بأنه قد شعر بدوار وضعف. وهو لم يكن كاذبًا في ذلك.

عندئذٍ سألته تطمئن عليه. وتطمئن على الفحص. وهذه المرة كذب عليها.. مرتين.

ساعدها على مغادرة سرير الفحص، وهو يخبرها أن تنتظر النتائج بعد أسبوع. كان قد قرر بالفعل أن عليه في هذه المرحلة أن يخبرها بحقيقة ما ينمو بداخلها. ولن يخبرها بما ينوي القيام به. فلا أهمية لذلك على أي حال. كان قد وصل بعقله إلى مرحلة تتجاوز ذلك. تتجاوزه بكثير.

عادت السيدة بعد ثلاثة أيام، وهي ترتجف بشدة، وبعد فحص آخر بالأشعة فوق الصوتية لم يعد أمامه شيء يفعله سوى أن يخبر السيدتين بأسوأ مخاوفهما. حينئذ أجهشت سيدة بالبكاء، وحكتا الحكاية كاملة في سرعة واسترسال، حتى يفهم الدكتور أنه لم يكن هناك بمقدورهما من شيء يمكنهما القيام به لمنع هذا المصير.

قالت إن البداية كانت بألم شديد في المعدة، فجلست إلى المرحاض وهي تعاني. لم تكن تعاني من اضطرابات في حركة الأمعاء طوال أيام وفجأة عانت من إسهال مستمر وطويل ومتشنج استغرق وقتًا طويلًا. اشتمت رائحة عفنة لم تشمها أبدًا من قبل، حتى كادت تتقيأ، وسارعت بشد السيفون حتى تتأكد من التخلص من كل هذا الذي تخلص منه جسدها.

هل فهم هو كلامها؟

عقب ذلك، نظفت نفسها وأفرغت السيفون مرة ثانية، من دون أن تنظر، فقد كانت في غاية الاشمئزاز من نفسها. ثم نهضت، والألم في بطنها على حاله، وهو ما دفعها إلى الظن بأن أمعاءها لم تفرغ تمامًا بعد، وهكذا جلست وهي تحاول تخليص بطنها مما فيها، فقد خيل لها أنها ستتخلص من الألم لو نجحت في أن...

هل يفهمها الدكتور؟

شعرت بحركة في أمعائها، تبعتها تلك الرائحة المقيتة، وفي النهاية، في النهاية، شعرت بأن هناك شيئًا يغادر جسدها، من المخرج الآخر، قبل أن تشعر بألم بالغ في أسفل جسدها فقدت معه أي إحساس بما يخرج منها ومن أين يخرج منها، وهكذا أفرغت السيفون مرة ثالثة، لأنه لم يخطر ببالها أبدًا أن هناك...

- أتفهم ما أخبرك به، دكتور؟

مرة أخرى، نظفت نفسها برزمة من ورق التواليت، قبل أن تلقي بورق التواليت وتفتح السيفون أكثر من مرة، وهي لا تزال مشمئزة من نفسها، ثم وقفت لترفع سروالها، ولاحظت أن الألم قد ذهب، وعندئذٍ فقط، عندئذٍ فقط، رأت الدم ينسال بغزارة على الجزء الداخلي من فخذيها، فنظرت إلى داخل المرحاض، حيث راح كل شيء خرج منها بكل قوة.

هل فهم؟

طمأنها أنه بالفعل يفهمها.

فمن ذا الذي خدعه، في نهاية المطاف؟

لم يطرح "فيكتور" على نفسه ذلك السؤال. ولم يعد للسؤال أي أهمية بالنسبة له. وما إن غادرت السيدتان مكتبه، حتى اتخذ أول خطوة في تنفيذ خطته التالية. التقط سماعة التليفون واتصل برقم "ريكس كريمر".

- دكتور "كريمر"، معك "فيكتور هوب". وعدتك أن أتصل بك.

- وأنا سعيد لاتصالك، دكتور "هوب".

- أتذكر حديثنا عن الرب في المرة الفائتة؟ قلت لي إنني تغلبت على الرب في لعبته؟

- بالتأكيد أذكر.

- وأنا غيرت رأيي.

- إذن تعتقد أنك قد فعلتها؟

- أقصد أنني أود تجربة شيء آخر.

- شيء آخر مثل ماذا؟

- شيء خلاف صنع ذرية من إناث فقط أو من ذكور فقط. حتى أتغلب حقًّا على الرب في لعبته، لا بد لي من أن أقتحم أرضًا جديدة بالكلية.

- ما قصدك؟

- لقد خلق الرب الإنسان على هيئته.

- صحيح، ومن ضلع آدم خلق المرأة...

- أكيد. من الممكن جدًّا أن تخلق امرأة من ضلع رجل. ممكن تمامًا. لا أجد أن هذا أمر صعب. فلو أنك أخذت خلية عظمية، وسحبت نواتها واستبدلتها بنواة.

- دكتور "هوب"، أنا كنت أمزح فحسب. ما الذي ترمي إليه من وراء كل هذا؟

- الاستنساخ.

- الاستنساخ؟

- الاستنساخ. أي أن أصنع نسخة جينية مطابقة من...

- أنا أعرف معنى الاستنساخ، ولكن ما الذي تريد استنساخه؟

- فئران. مثلًا.

- مستحيل. من المستحيل بيولوجيًّا استنساخ الثدييات.

- إنها مسألة أسلوب فحسب. لا بد أن يكون ممكنًا، بالتجهيزات المناسبة. بل إن هذا أبسط، من حيث المبدأ، من تجربتي الأخيرة.

- أنا لا أعرف شيئًا عن هذا. لقد طرحت عليَّ أمرًا لم أكن أتوقعه. سيكون علينا أن نناقش هذا في مناسبة أخرى. دعنا نحدد موعدًا للقاء، اتفقنا؟ ومن ثم...

- في الغد. سوف أحضر إليك في الغد.

- كما تحب. هل يناسبك الحضور في العاشرة؟

- في تمام العاشرة.

***

ذات يوم، لم تفارق "يوانا هوب" فراشها. ورفضت تناول الطعام وترك سريرها إلا للذهاب إلى المرحاض. ورفضت النهوض في اليوم التالي أيضًا، وفي الأيام التي تلته. وفي نهاية المطاف لم يجد زوجها، الذي حاول أكثر من مرة إخراجها من حالتها هذه، ولكنها كانت تطلب منه في كل مرة أن يتركها لحالها، سوى الاستسلام. وكذلك كان حال اثنين من أصدقائه مرا عليه في اليوم الثالث. في البداية كانت هناك نوبات متكررة من البكاء، ولكنها تلاشت تدريجيًّا مع خمود نور عينيها. ولم تكن تبدر منها سوى بادرة حركة وحيدة: نوبات غضب، تصبها على نفسها، فتضرب رأسها بقبضة يدها. وبعد ذلك يعتريها انهيار دائم. ويتبدد من وجهها كل أثر للعاطفة، ولا شيء يتحرك فيها إلا نبض قلبها.

لم يندهش لحالها أحد في "فولفهايم".

- إنها لم تنجح في تجاوز ما حدث.

- لقد تشربت دماؤها جنون طفلها.

- لم تسمح للدكتور "هوب" بأن يمسها مجددًا منذ أن ولد ذلك الطفل.

- تستحم خمس مرات في اليوم.

- لا تنطفئ الأنوار أبدًا أثناء الليل.

- أخذ الشيطان بذرته.

- دعونا نصلي.

كما لم يندهش أحد من رعاية الدكتور لزوجته واهتمامه بها، بدلًا من أن يضعها في دار للرعاية. فهو بالطبع أفضل شخص مؤهل لمساعدتها في حالتها، وأفضل من يقدم لها الدواء ومن يقوم لها بنقل دم إن اقتضى الأمر ذلك.

- وهذا هو الأفضل لها.

كان يكرر هذه الجملة مرارًا وتكرارًا، تمامًا كما كان يقول إن أفضل شيء لابنه هو أن يودع في الدير.

هكذا اندهش العديد من أهل القرية لما عرفوا أن الدكتور قد أعاد طفله للمنزل.

- ألا يكفيه انشغاله بزوجته ورعايتها؟

- هي لن تتحمل أمرًا كهذا بأي حال.

على أنه لم يحاول أن يخفي ابنه عن أعينهم. وكان يصطحبه أثناء التسوق، ويجعله ينتظر في السيارة عندما يذهب للكشف على مريض في منزله، ويأخذه بين الحين والآخر للتمشية في أنحاء القرية، محييًا كل من يمر عليه كما لو أنه ليس هناك ما يضيره.

بالطبع صعق كثيرون من ذلك الشبه الكبير بين الأب وابنه – الشعر، والفم، والعينان – حتى إنهم قد تساءلوا عما إذا كان الابن قد ورث أي شيء على الإطلاق من أمه. ولكن ما تعجب له القرويون أكثر من الشبه هو أن هناك خطأ واضحًا في الصبي.

- إنه لا يتكلم.

- إنه لا يضحك.

- إنه متخلف عقليًا.

كما لم يفهم أغلبهم سبب إقدام الدكتور على إخراجه من المصحة، وخاصة بعدما أشاع الأب "كايزرجربر"، الذي صار أبًا لكنيسة "فولفهايم"، أن الشر لا يزال كامنًا في الصبي. أشاع هذا بعدما تحدث مع رئيسة الدير. وكلما حاول أحد الاستفسار من الدكتور عن السبب كان يتلقى الإجابة نفسها دومًا:

– لقد كان خطأ. مكان "فيكتور" ليس هناك.

يومئ القرويون في تعاطف للدكتور، ولكن أحدًا لا يصدقه. وكلما رأى الناس الصبي في مكان عام كلما زاد اقتناعهم بوجود شيء ما خطأ في الصبي.. شر أكثر منه خيرًا.

وكان "كارل هوب" يدرك أن الناس يتحدثون، وكم كان يود أن يظهر لهم أنه ليس هناك من شيء خاطئ في ابنه، ولكنه للأسف لم يكن يمتلك الكثير مما يعرضه. وهذا ليس فقط لأن "فيكتور" لا يتكلم. بل وكذلك لكونه نادرًا ما يبدي أي انفعال. ومع ذلك، لم يتوقف عن أخذ الصبي معه في كل مكان يذهب إليه، على أمل أن يؤدي التواصل مع الناس إلى فك عقدة لسان "فيكتور". مراده هو أن يعيد ميلاد "فيكتور" من جديد. كانت تلك هي الصورة المثلى التي يتخيلها.

لا يزال لا يجد أي علامة على القدرة على القراءة التي حدثته الأخت "مارثا" عنها. كل ما يقوم به "فيكتور" هو تقليب صفحات الكتب المصورة التي يعطيها له والده، هذا هو كل شيء. وعندما يسأل الصبي سؤالًا، فإنه يكتفي بهز كتفيه من دون تفاعل يذكر على الإطلاق.

بقي "كارل" على قناعة بأنه سيشهد التغيير ذات يوم. وظل يذكّر نفسه بأنها مسألة ثقة. وهذا ما حثته الأخت "مارثا" على تذكره. وبعد كل شيء، كيف يمكن له أن يتوقع أن يغفر له الطفل كل شيء على الفور، بعدما فعله به طوال خمس سنوات؟ وكان ذلك سببًا آخر لإصراره على التحدث إلى ابنه وكأنه لا يوجد أي مانع لذلك. كما كان يتحدث أيضًا إلى زوجته، منذ أن دخلت في تلك الحالة الجامدة. وعلى الرغم من أنه لم يتلق أي رد، إلا أنه أخبرها طوال الأشهر القليلة الماضية بأمور كثيرة وبدرجة تفوق ما أخبرها به في كل السنوات السابقة.

ولكنه لم يخبرها بأنه قد أعاد "فيكتور" للمنزل. وهو لم يكذب حول هذا الموضوع؛ بل رغب ببساطة في ألا يتطوع بإخبارها ذلك، خشية أن تلعنه زوجته إلى الأبد. وهذا هو السبب، السبب الوحيد، الذي يجعله مرتاحًا لعدم سماع صوت "فيكتور".

وذات يوم شعر ببادرة أمل. كان قد ترك "فيكتور" في غرفة الخياطة الخاصة بزوجته، وانشغل بالكشف على المرضى. أجلسه أمام لعبة بازل لم تكمل زوجته تجميعها قبل أن يستقر بها المقام في فراشها إلى الأبد.

- لم لا تكمل هذه البازل؟

قالها لـ"فيكتور"، وهو يعلمه كيفية التعامل مع قطع البازل.

لم يكن يتوقع الكثير، لأنها بازل مكونة من ألفي قطعة؛ صورة لبرج بابل. ولكنها كانت الشيء الوحيد الذي لديه حاليًا في المنزل لتحفيز عقل ولده، وهو قد شاهد في "لا شابيل" بعض المرضى ينشغلون بالبازل. ووفقًا للأخت "ميليثا"، فإن للبازل دورًا علاجيًّا يضفي بعض التنظيم على عقولهم البليدة. وقد تفاجأ عندما عادت "يوانا" ذات يوم إلى المنزل ومعها لعبة البازل هذه منذ نحو ستة أشهر. هل حنت إلى طفولتها، أم أنها طريقتها لمحاولة إحياء الطفل المفقود داخلها؟ واقترح عليه أحد زملائه أنها طريقة "يوانا" لملء بعض الفراغ، قطعة قطعة. ورغم عدم اقتناعه، إلا إنه اعتبر البازل علاجًا جيدًا، لأن له تأثيرًا مهدئًا على زوجته. واتضح له فيما بعد أن تأثيره كان مهدئًا للغاية، وبأكثر من اللازم.

عندما انتهت ساعة العيادة، عاد إلى غرفة الخياطة ووقف يراقب ابنه من عند الباب. شاهد كيف كان ابنه يفرز باهتمام القطع المتناثرة، ويختار قطعة قبل أن يضعها بثقة في مكانها الصحيح ومن المرة الأولى. اقترب من الترابيزة، وبكل دهشة رأى أن "فيكتور" قد انتهى بالفعل من أكثر من ثلاثة أرباع الصورة.

إنه غير بليد العقل أبدًا، إنه ليس كذلك أبدًا.

ولكنه اضطر إلى مراجعة رأيه بعد قليل. فقد بقي يراقب ابنه عن كثب وهو يعمل بإصرار على البازل لمدة خمس عشرة دقيقة. بإصرار - كان ذلك الوصف أكثر ما اهتم له. فقد كانت حركات "فيكتور" ميكانيكية. تمسح عينا الصبي القطع. وتختار واحدة، ثم يضعها في مكانها. ومرة أخرى يكرر الحركة ذاتها. نفس طريقة البحث، نفس طريقة الاختيار، ونفس طريقة وضع القطعة في مكانه. ومرة أخرى. بحث، واختيار،

ووضع القطعة في مكانها. ومرة أخرى مجددًا. ولكن وجه "فيكتور" بقي خاويًا بلا انفعال طوال الوقت.

إنه سلوك قسري. ذلك هو ما فكر فيه دكتور "هوب"، وتأكدت مخاوفه حينما اختطف قطعة بازل من يد "فيكتور". فلم يحاول "فيكتور" المقاومة. ولم ينزعج. ولم يتحير. أو يغضب.

هيا، قل شيئًا! اظهر أي رد فعل، بحق الرب! أراد أن يصرخ في الصبي، ولكنه كبح جماح غضبه. هز رأسه، وهو يحدق في ابنه، الذي تجمدت حركته، ويده ثابتة في الهواء، وإبهامه وسبابته في وضعهما وكأنه لا يزال يمسك بقطعة البازل. انتظر في تلك الوضعية المتصلبة حتى أعاد له والده في النهاية قطعة البازل. وضعها الصبي في مكانها الصحيح بدقة، ثم انتقل بإصرار إلى القطعة التالية.

قسري. لم تفارق الكلمة عقل الدكتور، بل تملكته. وعجز عن عدم التفكير في المكان الذي أنقذ منه "فيكتور".

استرعى انتباهه أن الناس، منذ أن أعاد ولده إلى المنزل، قد صارت تتحاشى الحضور إليه. وانتبه إلى أن الأب "كايزرجربر" كان أول من صار يتجنبه، وخاصة أنه كان من قبل يأتيه مرة أسبوعيًّا ليقرأ من الإنجيل على "يوانا". تولى الدكتور هذه المهمة، ولكن هذا لأنه اعتقد أن تلك هي رغبة زوجته. ولو كان الأمر بيده لما قرأ من الإنجيل أبدًا، فهو ليس على هذا القدر من التدين مثل زوجته. هو أقل تعصبًا منها، على الرغم من أنه لم يصرح بهذا الرأي علانية من قبل.

شعر بأن مرضاه قد بدأوا يبتعدون عنه. وغرفة الانتظار التي كانت مزدحمة دومًا لم تعد كذلك منذ أن عاد "فيكتور". وتضاءل عدد المرضى أسبوعًا من بعد أسبوع، إلى أن جاء يوم لم يأتِ فيه للعيادة مريض واحد.

تذكر أشهره الأولى في "فولفهايم" منذ عشرة أعوام مضت. كان طبيبًا حديث التخرج، وقت أن وصل هو وزوجته من قرية "بلومبيرس" المجاورة، والتي كان بها طبيبان مخضرمان. ورغم أن "فولفهايم" قد بقيت من دون أطباء لسنوات، فإن القدرة على اجتذاب

القرويين إليه لا علاقة لها بقدراته كطبيب. فهم لا يثقون كثيرًا في الغرباء، واستغرق الأمر أشهرًا قبل أن يقبلوه هو وزوجته بينهم. ولم يخطر له أبدًا أن يكون لمظهره الخارجي علاقة بقلة عدد من يأتيه من المرضى، ولكنه أدرك أن تغير القرويين من جهته كان بسبب إشفاقهم على "يوانا" وإخلاصها للكنيسة، أكثر منه بسبب قدراته الطبية.

لم يعرف كيف يحوِّل الدفّة تجاهه هذه المرة، ومن دون مساعدة زوجته. إلا أن الحقيقة هي أنه يعرف – والأمر بسيط للغاية – ولكنه كان مصممًا تمامًا على ألا يعيد "فيكتور" إلى ذلك الملجأ. كل ما عليه هو أن يوضح هذا التصميم لأهل القرية، وكذلك الأب "كايزرجربر"، وأن ليس هناك من شر كامن في ابنه، كما أن "فيكتور" ليس بغبي؛ بل إن الشر والغباء في ما يتمسكون به من خرافات. إن دوره كطبيب يقتضي منه أحيانًا أن يساير معتقداتهم، ولكنه هذه المرة يخوض كفاحًا من نوع آخر – كفاحًا أشد صعوبة. كفاحًا هو مقتنع به.

***

وبالرغم من جهود والده الحثيثة، فإن أفكار "فيكتور" كانت تأخذه كثيرًا إلى تلك المؤسسة. ففي منزله الجديد أشياء عديدة تذكره بذلك المكان؛ الصليب المعلق على الجدار في كل غرفة، ركن معمودية المياه المقدسة في الصالة الأمامية، وتمثال العذراء مريم والأخواص الجافة فوق رف المدفأة، والبراويز المعلقة في كل مكان، تحذرك من أن الرب يراقبك، وتنبهك إلى أن أهل هذا المنزل لا يسبُّون. كما أن الروائح الصادرة عن غرفة العيادة وغرفة الانتظار تعود به إلى تلك الذكريات. فهي أحيانًا ما تكون رائحة البينج أو المطهر؛ وأحيانًا أخرى يكون عبق العرق والأجساد التي لم تغتسل.

ولكن أكثر ما عاد به إلى الدير كانت تلك الكلمات التي يسمعها كل ليلة وقت أن يرقد في فراشه. فوالده في الغرفة المجاورة يقرأ من الإنجيل. صعب عليه أن يفهم الكلمات، ولكنه يعرفها، ويسهل عليه متابعتها. بل هي تذكره بالأخت "مارثا".

كانت هناك مريضة في الغرفة المجاورة لغرفته. هذا ما أخبره به والده. كما أخبره بأن من المحظور عليه الدخول إلى هناك – محظور تمامًا. ولكنه لم يفهم. فالغرف الوحيدة التي لا يمكنه دخولها هي غرف البنات. هذا ما تعلمه. وكذلك من المحظور على

المرضى دخول غرف الراهبات، ولكن مسموح لهم زيارة بعضهم البعض. كان هذا مسموحًا به على الدوام.

هكذا تسلل إلى غرفة المريضة. مرة. ومرة أخرى. ثم عددًا من المرات. ولكنه فعل ذلك في وقت نوم أبيه. كان أبوه يصدر صوت شخير أثناء نومه، وهو نفس الصوت الذي كان يصدره مرضى آخرون.

لاحظ من بعيد، في أول مرة يتسلل فيها لرؤية تلك المريضة، أن يداها تتخذان وضعية الدعاء، وأن هناك سبحة تلتف حول يديها: تعرف عليها؛ إنها نفس السبحة التي لدى جميع الأخوات. ربما كانت المريضة راهبة إذن، ولهذا كان من المحظور عليه أن يدخل غرفتها.

تسلل واقترب أكثر، وتأمل وجهها في ضوء الشمعة التي كانت مضاءة على الدوام. وجهها أشبه بوجوه الأخوات، ولكن من دون الحجاب والرداء. ربما كانت مجرد مريضة – مريضة هادئة. هي ليست مثل "إيجون فايس"؛ بل أقرب إلى "ديتر ليبرت". هذه راقدة دائمًا على ظهرها، ولا يتحرك منها سوى صدرها، الذي يرتفع وينخفض. "ليبرت" مجرد نبتة، أخبره "مارك فرانسوا" ذات مرة بذلك، ولكن "فيكتور" لم يصدقه.

في زياراته للمريضة يجلس إلى جوار الفراش ويراقب صدرها وهو يعلو وينخفض. وأحيانًا يقرأ من الإنجيل الموضوع فوق منضدة الفراش. وعادةً ما يمكث هناك طالما كان يسمع صوت نوم والده. وما أن يتوقف ذلك الخوار، حتى يسارع بالانسحاب إلى غرفته.

وذات يوم، توفيت المريضة. أدرك ذلك من فوره، لأن الصدر توقف عن الحركة. ومن رائحتها كذلك. إنه يعرف تلك الرائحة. رائحة الموت.

عندما يموت إنسان، يكون عليك أن تصلي لأجله. هذا واجب عليك. أن تصلي لروح الميت حتى يرقد في سلام، هكذا تعلم من الأخوات. وهكذا تشابكت أصابع يديه وبدأ يتلو صلاة الروح القدس. بصوت عالٍ. كما كان المرضى يفعلون حتى تسمعهن الأخوات.

أول ما خطر على بال "كارل هوب" هو أنه يحلم. ثم ظن أن هناك من اقتحم المنزل. ولكنه ما إن أدرك أن ذاك الصوت هو صوت طفل، حتى تذكر "فيكتور"، وقفز من فراشه.

أسرع الخطى إلى غرفة ابنه، ولكنه تمهل حينما وصل إلى بابها، حتى لا يجزع الصبي.

"هلمّ أيها الروح القدس، وأرسل من السماء شعاع نورك. هلمّ يا أبا المساكين. هلمّ يا معطي المواهب. هلمّ يا ضياء القلوب. أيها المعزّي الجليل، يا ساكن القلوب العذب. أيتها الاستراحة اللذيذة، أنت في التعب راحة، وفي الحر اعتدال، وفي البكاء تعزية...".

لم يكن ينصت إلى ما يقوله، ولكن إلى طريقة نطقه. لديه بلا شك معوقات في النطق. ولكنه صوت "فيكتور"، وليس أحدًا غيره. إنه ينطق! يتكلم! غير أن بهجة هذا الاكتشاف تاهت في إدراكه أن صوت "فيكتور" لا يخرج من غرفته، بل من غرفة "يوانا".

"أيها النور الطوباوي، املأ باطن قلوب مؤمنيك. لأنه من دون قدرتك لا شيء في الإنسان ولا شيء طاهر. طهّر ما كان دنسًا، إسق ما كان يابسًا، اشف ما كان معلولًا، ليّن ما كان صلبًا، أضرم ما كان باردًا، دبّر ما كان حائدًا، أعطِ مؤمنيك المتّكلين عليك ثواب الفضيلة، هب لهم غاية الخلاص، أعطهم السرور الأبدي. آمين".

شعر بجسده يرتعد بشدة. وهرع إلى غرفة النوم، وهناك رأى ابنه جالسًا إلى جوار فراش زوجته. يلتمع شعر "فيكتور" الأحمر في ضوء الشمعة، بينما هو محني الرأس معقود اليدين، يصلي بنبرة صوت رتيبة لأجل "يوانا".

لا بد ألا تنتبه هي إلى ذلك، فكر "كارل هوب"، وهو يسرع نحو الصبي في فزع. جذب ابنه من فوق كوعه، وأبعده بقسوة عن الكرسي. صرخ الصبي، بينما كان الدكتور يرمق زوجته. وما هي إلا لحظة حتى أيقن، من لون وجهها وانفراجة فمها، أنها قد فارقت الحياة. ترك ابنه، وضغط بسبابته ووسطاه على شريان عنق زوجته، وأحس ببرودة جسدها، وتوقف قلبها، فأخذ يردد اسمها من دون توقف، رغم علمه بأن الأوان قد فات.

نظر إلى ابنه، الذي بقي صامتًا لثلاثة أشهر قبل أن يتكلم بغتة. ثم رمق زوجته، الميتة. هذا يتكلم، وهذه ميتة – وفجأة اقتنع بضرورة أن يكون هناك ارتباط بين هذا وذاك، بين كلام ابنه ووفاة زوجته – أحدهما أدى إلى الآخر. وبالرغم من أنه لم يصدق أبدًا خزعبلات حلول الشيطان في ابنه، ولكنه وجد نفسه في تلك اللحظات، ووسط الظلال الطويلة التي صنعها ضوء الشمعة على الجدران، يصدقها. وأوقد هذا الاقتناع المؤلم شيئًا

ما في نفسه. وكأنه باب فتحه أحد ليطلق سراح كل هذا القدر من الغضب والأسى وخيبة الأمل الذي بقى حبيسًا لسنوات، ليس عبر فمه، في صورة سباب ولعنات، ولا عبر عينيه مع دموعه، ولكن عبر يمناه، التي هوت بصفعة قوية ساحقة على خد ابنه.

كان "كارل هوب" يقول لنفسه دومًا إنه لن يقدم في أي يوم من الأيام على ما أقدم عليه الآن. منذ سنوات مراهقته، ومنذ أن بدأ يفكر في أنه سيكون يومًا ما أبًا لأطفال، وهو عازم على ألا يفعل بأبنائه ما فعله أبوه به. ولكن الصفعة التي هوى بها على وجه "فيكتور" جعلته ينتبه في ارتياع إلى الخصلة التي مقتها دائمًا في أبيه: الطبيعة الميالة للعنف.

ولكنه عجز عن مقاومة الدافع. ولو كان هناك من اقتحمه الشيطان وحل فيه فإنه هو، "كارل هوب"، لحظة أن صفع "فيكتور". لقد ندم فعلًا على قيامه بذلك، ولكن ما حدث قد حدث. فما جدوى الأسف؟ يوم أن أبدى أبوه الندم على ضربه له، لم يتوقف عند ذلك الأمر كثيرًا. فقد كان موقنًا من أن أباه الذي يتأسف له الآن لن يتورع عن إعطائه نفس هذه العلقة في الغد، أو بعد الغد.

الأفضل أن يفكر في طريقة يعوض بها ابنه عما حصل. ما الذي يمكن أن يدفع "فيكتور" إلى مسامحته؟ كيف يتسنى له أن يكسب ثقته الآن؟

فكر أن لعبة بازل جديدة ستكون بداية معقولة. فانتهز فرصة بين مكالمات التعزية – وكانت كثيرة حتى خُيِّل له أن كل أهل القرية قد تذكروا بغتة أنه يعيش بينهم – وراح إلى محل اللعب في شارع "جالمي"، وابتاع منهم ألعاب البازل الثلاثة الموجودة لديهم. كان يخشى أن يرفض "فيكتور" أي شيء يمنحه إياه الآن، ولكن الصبي سارع بفتح العلب من دون تردد، وبدأ على الفور في تجميع صورة إحدى قطع البازل في غرفة الخياطة، بعيدًا عن المعزين.

ومع نهاية النهار كان قد أتم ألعاب البازل الثلاثة. رغم أن والده كان يتمنى أن ينشغل بها حتى انتهاء الجنازة. ولكن "فيكتور" كان يرفض أن يبعثر البازل التي ينتهي منها، حتى يبدأ في تجميعها من جديد.

لذلك اتخذ "كارل هوب" قراره.

- هنا. أعتقد أن هذا ما كانت سترغب فيه.

يقصد زوجته، ولكنه كان يفكر كذلك في الأخت "مارثا" وهو يناول "فيكتور" الكتاب المقدس. كانت قد أخبرته خلال حوارهما القصير في الدير أن "فيكتور" يستمتع بقراءة الإنجيل. ولكنه كان يريد من ابنه أن ينسى سنواته في الدير في أسرع وقت ممكن، ولذلك كان يتعمد أن يبعده عن ذاك الكتاب. وحقيقة أن ابنه كان يصلي لأجل "يوانا" – وهي الحقيقة التي توصل إليها لاحقًا – هي التي جعلته يغير رأيه. ربما كانت هذه هي الوسيلة إلى كسب ثقته. وهو لا يفعل ذلك لأجل "فيكتور" فحسب، ولكن كذلك لأجل زوجته، لأنه كان متيقنًا من أن تلك هي رغبتها، كما قال بالفعل لابنه. كما أنه – رغم أنه لن يعترف بذلك – يفعل ذلك لأجله هو؛ وحتى يرتاح باله. شعر وهو يفعل ذلك براحة من يتخلص من ديون قديمة عليه.

لم يكن يعول كثيرًا على قدرة "فيكتور"، وهكذا اندهش للغاية لما وجده يبدأ القراءة على الفور. ورغم أنه لم يكن يقرأ بصوت عالٍ، إلا أن الدكتور كان متأكدًا من أنه يقرأ. من طريقة تحريك "فيكتور" لإصبعه تحت الأسطر في كل صفحة.

الآية الأولى.. الثانية.. الثالثة.. الرابعة.. الخامسة.

سأله وهو يشعر بأنه يطلب أمرًا مبالغًا فيه:

- لماذا لا تقرأ بصوت عالٍ، "فيكتور"؟

ولكن الصبي قرأ بصوت عالٍ بالفعل.

انبهر الدكتور. وقال لنفسه إنه كان يشعر بذلك دائمًا.

- استمر.. استمر، "فيكتور".

وَقَالَ الرب: "لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلًا بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ...".

انشغل عقل الدكتور بتخيل ما كانت زوجته ستقوله تعليقًا على ما يراه هو الآن.

حاول التركيز على ما يقوله "فيكتور".

وَقَالَ الرب: "لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، و...

كان يصحح له كلمة بصورة لا إرادية، حينما ندم على ذلك فورًا، فقد تذكر غصبًا طريقة والده في تقويم سلوكه. والأسوأ هو أنه تخيل أنه يسمع صوت والده.

اعتاد والده أن يأمره بأن يتعلم من أخطائه، وهو ما فهم منه أن والده لا يرى إلا الأخطاء التي يرتكبها. لم يمتدح والده أبدًا أي فعل صائب يقوم به، ويقول أن هذا هو "المنتظر منه". تلك كانت كلماته تحديدًا.

كرر "فيكتور" نطق الكلمة بنفس الخطأ.

صوّب والده الكلمة ثانيةً، رغم أنه لم يجد بأسًا في هذا.

زار "كارل هوب" الأب "كايزرجربر"، عقب بضعة أيام من جنازة "يوانا". كان الدكتور يرغب في تسوية ديون عليه، ثم سأله بجرأة قبل أن يغادره:

- أما زلت تعتقد أن من الأفضل لابني أن يكون في المؤسسة؟

فأجابه بصدق:

- أعتقد أن هذا أفضل.

- ولكنه ليس متخلفًا عقليًا.

فكر الأب أن هذا ليس السبب الوحيد.

- يمكنني أن أثبت لك أنه ليس متخلفًا. بوسع "فيكتور" أن يثبت لك هذا.

قال له الأب، رغم عدم اقتناعه:

- حسنًا. هذا شيء أحب أن أراه.

- ليس الآن. فهو يتمرن. ولكنه سيدهشك قريبًا.

الأب "كايزرجربر" يشك في أن "كارل هوب" يائس. وقد تأكدت شكوكه في منزل الدكتور بعد بضعة أسابيع. حاول أن يتملص من دعوة الدكتور، ولكنه لم ينجح.

عرض عليه الدكتور في البداية مجموعة من ألعاب البازل منجزة فوق الترابيزة وعلى الأرض في الغرفة الصغيرة. وقال في فخر:

- لقد أنجزها "فيكتور". جميعها. وبنفسه، ومن دون مساعدة مني.

أومأ القس برأسه، وهو يتساءل في قرارة نفسه عما إذا كان هذا هو الشيء الوحيد الذي دعاه ليشهده.

ثم طلب منه الدكتور أن يتبعه إلى غرفة المعيشة، حيث كان "فيكتور" يجلس على رأس السفرة. دعا الدكتور القس إلى الجلوس فجلس، متعمدًا أن يترك كرسيًّا خاويًا بينه وبين الصبي.

كانت آخر مرة شاهد فيها الولد وقت أن كان في الملجأ، قبيل أيام من اصطحاب الدكتور لابنه إلى المنزل. وكانت الأخت "ميليثا" قد أخبرته أن الدكتور قد تشاجر معها، واتهم المؤسسة بالعديد من الاتهامات. وباعتباره راعيًا لكنيسة "فولفهايم"، فقد شعر أن عليه أن يبدي الأعذار دفاعًا عن الدكتور. وأخبرها أن حالة زوجة الدكتور متأخرة، وأن أعصاب الدكتور منهارة بسبب ذلك. فقالت له بغير رضا:

- إذن عليه أن يذهب هو نفسه إلى طبيب!

سألته الرئيسة عما إذا كان موافقًا على أن من الأفضل تجاهل الدكتور في الوقت الحاضر. هي لا تطلب معاقبته، ولكن إفساح المجال له حتى يفكر بطريقة سليمة. وبطبيعة الحال، هي لم تكن تنتظر منه ردًا على طلبها.

كان هذا منذ أربعة أشهر، وقت آخر مرة يرى فيها القس "فيكتور". ولكن مظهر الطفل لم يتغير. هذا ما أدركه على الفور. ملامحه. سحنته. نظرته. كما لو أن الولد يجلس في مكانه والديكورات من حوله هي التي تتغير. مجلد ضخم يرقد فوق الترابيزة مفتوحة صفحاته أمام الصبي؛ وحدس القس أنه الإنجيل.

أكد له الدكتور "هوب"، الذي جلس قبالته إلى الناحية الأخرى من المائدة، حدسه:

- "فيكتور" يقرأ الإنجيل.

بقى الولد ساكتًا، ولكن والده متوتر للغاية. لم يتوقف عن فرك يديه، وكان يشيح بوجهه عندما ينظر القس إليه.

- ممتاز!

رمق "فيكتور"، الذي تسمرت عيناه فوق صفحات الإنجيل، ولكن بطريقة بدا معها وكأن والده هو من أجبره على الجلوس بهذه الطريقة وأمره ألا يتحرك. كم عمر الولد الآن يا ترى؟ ستة أعوام؟

قال الدكتور وهو يضغط على كلماته:

- ولكن بوسعه القيام بأمور أخرى أيضًا. أليس كذلك يا "فيكتور"؟

بقي الولد ساكتًا. لم يعرف القس على أيهما يشفق؛ الولد أم والده.

- اقترح يا أبتاه آية من سفر التكوين.

- ما الذي تقصده؟

- أريد رقمين فحسب. الفصل 12، آية 7، مثلًا.

- إذن. الفصل 7، آية 6، مثلًا.

فكر لحظات محاولًا تذكر تلك الآية، ولكن الدكتور أشار إليه برأسه أن عليه أن يوجه كلامه إلى "فيكتور". فنظر إلى الولد وكرر طلبه، وقد تذكر نص الآية.

"ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض".

خيم الصمت على الغرفة. ليس هناك من صوت سوى صوت الساعة فوق رف المدفأة. جابت عينا القس المكان في تململ. إلى جوار الساعة يستقر تمثال مريم العذراء أسفل قبة زجاجية ومن فوقه، على الجدار، أخواص من العام الماضي.

سمع الدكتور يقول:

- "فيكتور"، الفصل 7، آية 6.

رمق القس الصبي بطرف عينه.

استحث الدكتور ابنه مجددًا:

- "فيكتور"، لقد طلب منك الأب "كايزرجربر" أن تقرأ له شيئًا.

فكر القس أن عليه أن يضع حدًا لهذا المشهد المؤلم:

- لماذا لا تدعه يقرأ أي جزء يحبه من الإنجيل. أكيد أن هذا...

- لا، لا، بل يمكنه القيام بذلك! لقد فعلها مئات المرات. ولكنه لا يريد الآن! الفصل 7، آية 6، "فيكتور"!.

تذكر القس زوجة الدكتور. ما كانت لتسمح للأمر بأن يصل إلى هذا الحد.

- دكتور...

قاطعه الدكتور محتدًا:

- أنت لا تصدقني؟ تعتقد أنني أصطنع هذا كله. تعتقد أن "فيكتور" متخلف، هكذا!

- دكتور، لا عيب في ذلك. ابنك متخلف عقليًا. وليس عليك أن...

- اثبت له، "فيكتور"! اثبت له أنه مخطئ!

- ليس عليك أن...

- اسكت!

صُدم القس، فانتبه الدكتور إلى ما انساق إليه.

قال بصوت أهدأ، كبح به جماح غضبه، ولكنه فضح ما وصل إليه من يأس:

- يجب أن يتكلم "فيكتور".

ولكن "فيكتور" لم يتكلم، ولاحظ القس من وجه الدكتور المحمر أنه يبذل جهدًا كبيرًا ليتمالك أعصابه. فكر أن يقترح عليه إعادة "فيكتور" إلى "لا شابيل"، حتى وهو يدرك أنه قد لا يكون للولد مكان هناك؛ ولكنه وجد أن من الحكمة ألا يصرح بتلك النصيحة.

نهض وهو يقول له:

- عليَّ أن أذهب الآن، دكتور. أنا آسف جدًّا.

لم ينهض الدكتور ليودعه. فقط أومأ برأسه وهو ينظر في لا شيء.

فكر القس في جملة أخرى يقولها. ونظر إلى "فيكتور" نظرة أخيرة، وهو يقول لنفسه إنه قد حاول إنقاذه، وإنه ليس بوسعه القيام بأي شيء آخر.

***

"آمين".

هذا ما يقوله المرضى حينما يتحصلون على شيء من الأب "كايزرجربر". وأحيانًا يقول "مارك فرانسوا": "آمين واخرج!"، ولكن هذا خطأ. ستعاقبه الأخت "ميليثا"، لاحقًا. أمَّا الباقون فلا يقولون سوى آمين. قالوها حينما تحصلوا على جسد المسيح من الأب "كايزرجربر". وإذا لم تحصلوا على شيء منه، فعليكم أن تصمتوا. هكذا قالت لهم الأخت "ميليثا".

تساءل "فيكتور":

- الا يعرف أبي ذلك؟ ألم تخبره الأخت "ميليثا"؟

لقد ظن "كارل هوب" أن الأمور تجري على ما يرام حتى ذلك الحين. ومنذ لحظة أن أعطى ابنه الإنجيل لاحظ أن الولد قد تغير – كما لو أن فتح الإنجيل قد أدى إلى انفتاح "فيكتور" بدوره.

أحيانًا يظن أن السبب هي الصفعة. وأن ضربه للولد قد حرر ذلك الشيء الذي لازم الولد. ولكنه يفضل أن يطرد تلك الفكرة عنه. بل هو الإنجيل. فهو حاز ثقته لما أعطى الولد الإنجيل.

لم يدر بينهما أي حوار جاد منذ ذلك الحين؛ كلا، بل إن المسألة أقرب إلى حوار من جانب واحد. فهو إن سأل "فيكتور" سؤالًا تأتيه الإجابة في صورة كلمة واحدة.. "نعم"... "لا"... "لا أعرف". لا أحد يعرف ما يفكر فيه الولد. وهو لا يبدي أي رد فعل، حتى حينما يخبره بأمر مهم.

سأله ذات يوم:

- أتعرف السيدة التي كانت ترقد في الفراش بالطابق العلوي؟

أومأ "فيكتور" برأسه.

- تلك كانت والدتك.

لم يبد "فيكتور" أي رد فعل. وكأن والده يحدثه عن حالة الطقس.

- كانت مريضة.

كانت هذه هي آخر مرة يحدثه فيها عن والدته. ولم يسأله "فيكتور" أبدًا عنها. كان بخيلًا في أسئلته على قدر بخله في ردوده.

مرة واحدة فقط، سأله فيها "فيكتور":

- كيف صرت طبيبًا؟

- بالجد في الدراسة، وكثرة القراءة.

- فقط؟

- كما أن عليك أن تتعامل جيدًا مع الناس. وأن تفعل الصواب.

- أتعامل جيدًا. وأفعل الصواب.

إجابة غير وافية، ولكنها كافية لـ"فيكتور"، كما يظهر، لأنه أومأ برأسه وعاد إلى ما كان مشغولًا به. القراءة طبعًا. ولم يكن يقرأ سوى الإنجيل.

يقرأ "فيكتور"، ويصحح والده له. ما إن يتمكن "فيكتور" من إجادة القراءة، حتى يجعل الأب "كايزرجربر" يشهد ذلك بنفسه: هكذا قرر الدكتور ما إن انتهت جنازة زوجته، وهذا هو السبب الذي دفعه إلى أن يثير فضول القس مسبقًا. فقد اعتبر ذلك تحديًا.

وارتفع سقف طموحاته عندما لاحظ ذات يوم أن "فيكتور" قد تجاوز مرحلة القراءة إلى الحفظ. لسوف ينبهر الأب "كايزرجربر".

لم يبد أن "فيكتور" قد وجد صعوبة في ذلك. ربما اعتبرها لعبة، رغم أنه لا يبدي أي دلالة استمتاع وابتهاج بما يفعل. إنه لا يبدي أي شيء في الحقيقة. هذا الأمر لم يتغير فيه. وهو ما يسبب ضيقًا مستمرًا للدكتور. ولكن يكفيه الآن أن يظهر للقس مدى ذكاء ابنه.. يكفيه هذا الآن.

ولكن، ما كان نصرًا محققًا انتهى إلى هزيمة مخزية. وبعدما غادر القس، مكث الدكتور في مكانه يكرر بقسوة كلمات الآية على مسامع "فيكتور". مقطعًا مقطعًا. ولما... كان ... نوح... ابن... ستمائة... سنة... صار... طوفان... الماء... على... الأرض...

حتى بكى "فيكتور"، وانهمرت دموعه، فعاد والده إلى رشده. غير أن "فيكتور" بقي يتعامل مع كل موقف بالانسحاب السلبي.

مع كل موقف.

حينما اتصل "ريكس كريمر" بـ"فيكتور هوب" في أبريل 1979، كان العديد من أساتذة "فيكتور" السابقين لا يزالون في الجامعة. وطلب العميد، الذي تقلد هذا المنصب عام 1975 فحسب، من زملائه مسبقًا أن يزودوه بآرائهم حول "فيكتور هوب". وذكر بعض الأساتذة، خاصة أساتذة المواد النظرية البحتة، مثل العلوم الاجتماعية أو السياسة أو الأخلاق، أنهم لم يتعاملوا معه كثيرًا أثناء الدراسة – ولكن مظهره يجعله لافتًا للانتباه في أي مكان يوجد به – وإن كانت نتائجه في الاختبارات تبين قدرة متميزة على الإحاطة بالموضوعات. على أن الأساتذة الذين أشرفوا عليه في المختبر يحتفظون بذكريات

حية عن "فيكتور هوب" الطالب. أجمعوا جميعًا على أن مظهره وصوته يجعلان منه شخصية لا يمكن أن تنسى، بطبيعة الحال؛ ولكنهم أعجبوا أكثر بحماسته، أو شغفه على حد وصف أحد الأساتذة. بوسعه أن يقضي الساعات في اليوم الواحد على تجربة واحدة وبكل صبر وطول بال، كما أن مثابرته أفضت إلى نتائج غير عادية في كثير من الأحيان.

وكلهم أكدوا أنه أحد أكثر الطلاب موهبة. وبعضهم أضاف أن هذا ينطبق فقط على مواهبه الفكرية، ولكنه لا يمتلك أي موهبة تواصل اجتماعي على الإطلاق. وقال أحدهم:

- انطوائي. لا أعتقد أنه كان يتواصل كثيرًا مع بقية الطلاب.

وحسبما يقول مشرفه السابق دكتور "برجمان"، والذي تقاعد الآن، فإن "فيكتور" يمتلك مخزونًا هائلًا من المعرفة النظرية، مما مكنه من السعي لتحقيق أفكار ثورية لا يمكن تحقيقها في بيئة تطبيقية، ليس في زمننا الحالي على الأقل.

وخلال اجتماع بشأن البت في تعيين "فيكتور هوب"، قال الدكتور "مازيراث":

- يذكرني أحيانًا بـ"جول فيرن"، الذي كتب عن صواريخ الفضاء من قبل حتى اختراع محرك الوقود.

وعلق الدكتور "جينيه"، أستاذ علم الوراثة السابق، بذكاء:

- ولكنَّ هناك فارقًا. فقد حصر "جول فيرن" نفسه في تأليف القصص ولم يجرب أبدًا تطبيق أفكاره.

وعاد إلى هذه النقطة لاحقًا، حينما أخبره "ريكس كريمر" بأن "فيكتور" يرغب في تجربة استنساخ الفئران. عندئذٍ صاح "جينيه":

- أرأيتم، هذا هو ما أقصده! نحن بالكاد تعلمنا الوقوف، بينما هو يستعد للركض!

وقال "مازيراث":

- إنه يرفع سقف الطموحات العلمية، ولا أعلم إن كان هذا أمرًا جيدًا أو سيءسيءا.

وافقه "كريمر" قائلًا:

- هذا ما قاله لي بالضبط عبر التليفون. إننا نحن العلماء نفرض حدودًا على أنفسنا؛ وإن العديد منا يرتكب هذا الخطأ.

وكأن "جينيه" وجد هجومًا عليه في هذا الكلام:

- ولكن دورنا أن نكون واقعيين أيضًا! فأفكاره هذه لا تعدو أن تكون محض هراء في زمننا هذا! ومؤكد أنك تعرف هذا أيضًا!

مازحه "مازيراث":

- قادنا الهراء إلى الكثير من الاكتشافات العظيمة.

ولكنه عندما رأى "جينيه" يشيح بوجهه ممتعضًا، سارع معقبًا بأن مثل تلك التجارب سابقة لأوانها بكثير.

"كريمر":

- ها أنتم تصدرون عليه أحكامًا حتى من قبل أن تمنحوه فرصة أن يشرح ما لديه لكم. ربما كان قد وصل إلى مراحل متقدمة بكثير عمَّا نتخيل. ألم يفاجئ الجميع بتجربته الأخيرة؟ والتي هي سبب ضمه إلى جامعتنا. أتريدون حقًّا أن تطلبوا منه أن يتوقف؟

أجابه "مازيراث" في هدوء:

- تعجبت لاستعداده لقبول كرسي الأبحاث. فقد سبق وعرض عليه أن يكون أستاذًا هنا، بعدما نال الدكتوراه، ولكنه رفض.

"جينيه":

- تلقَّى عرضًا مغريًا من عيادة الخصوبة في "بون". عرضوا عليه حرية إجراء أبحاثه بكل استقلالية.

عقب "مازيراث":

- ما يرغب فيه حقًّا هو تطبيق نظريته. ماذا كانت كلماته؟

"جينيه":

- أريد أن أقدم حياة. سخرنا من الفكرة بعدها. وخاصة طريقة عرضه لها بكل جدية. والآن يريد أن يذهب بعيدًا. ولا أدري إن...

وتدخل "كريمر":

- لننتظر ونرَ ما لديه في الغد.

أجابه "جينيه":

- وإني أتحرق شوقًا لمعرفة ما لديه. لا أستطيع الانتظار.

استمر "فيكتور هوب" يتحدث لما يقرب من ثلاث ساعات دون انقطاع. حتى شعر أنه يجلس في لجنة امتحان مرة أخرى. كان هناك خمسة علماء بيولوجيا يجلسون أمامه، من بينهم اثنان من أساتذته السابقين. وأخطأ في أسمائهم مرتين خلال الرد على أسئلتهم، وإن لم يكن هذا عن قصد.

أحد الخمسة كان "ريكس كريمر". كان العميد ودودًا. غير لحوح. غير متحفظ. وغير مبالغ في تملقه له.

صافحه الأستاذان اللذان لم يلتقِ بهما من قبل في أدب. ولم يطرحا أي سؤال واكتفيا بالاستماع في صمت ودهشة.

أمَّا أستاذاه السابقان، فاتخذا منه موقفًا نقديًّا، ولكن هذا لم يهمه على الإطلاق. فقد كان قادرًا على تقديم إجابة مستفيضة على كل سؤال، وشرح لهم بالتفصيل رغبته في استنساخ الفئران – وخلال عام، كما أوضح لهم بكل جرأة. وأبان لهم رأيه، وأن الطريقة الحالية لتهجين الخلايا باستخدام فيروس "سينداي" قد عفا عليها الزمن، وأن طريقته التي تستخدم "الميكروبيبتيت" تمتلك فرصة نجاح أكبر بكثير. وأكد لهم أنها مسألة تقنية لا أكثر.

عندما انتهى، كان لدى أحد أساتذته القدامى سؤال أخير. سؤال كان هو يتوقعه. هل مقصده، في حال صارت تجربته واقعًا ممكنًا، في نهاية المطاف هو استنساخ البشر؟

كان جاهزًا لهذا السؤال بإجابة، ولكنها حيرتهم:

"قُمِ اصنَعْ لنا آلِهَةً تسيرُ أمامَنا...".

لطالما كان معجبًا بهذه العبارة الإنجيلية.

نهض بعد أن قالها، وانصرف.

تمت الموافقة على مشروع "فيكتور هوب" بفارق صوت؛ صوتين مقابل ثلاثة. وبدأ العمل في جامعة "آخن" في 1 سبتمبر 1979. تسلَّم مختبره الخاص وخصصت له ميزانية سخية لشراء المعدات التقنية. وصارت تحت تصرفه غرفة مع مكتب وأريكة، حتى لا يضطر إلى الانتقال من" بون" إلى "آخن" كل يوم. كان عليه أن يقدِّم تقريرًا إلى العميد مرة في الأسبوع، وأن يحضر اجتماعًا مع بقية أساتذة البيولوجيا مرة كل شهر لتعريفهم بمستجدات تجاربه.

ولم تكن لديه مستجدات يعرفهم بها في الأشهر القليلة الأولى. وأخبرهم أنه يتمرس على أسلوبه. وأن خلايا البويضة لا تزال تتعرض للضرر باستمرار وإلى حد كبير بسبب "الميكروبيبيت"، مع تبعات ضارة. سألوه عن نوعية تلك التبعات التي يقصدها. أجابهم بأن البويضة قد تتمزق أكثر في نقطة الاختراق، وهو ما قد يؤدي إلى انقاسمها إلى كيانين مختلفين لا ينفصلان بالكامل.

قال أحد البيولوجيين:

- توأم سيامي؟

- بالتأكيد.

لم ينجح مشروع "هوب" البحثي في الوصول إلى أي نتائج ملموسة بحلول نهاية العام. فوجد دكتور "جينيه" مبررًا لقناعته أن من الأفضل للجامعة أن تستثمر المال في مشاريع أخرى.

وعقب ثلاثة أشهر، توصل "ريكس كريمر" إلى اكتشاف سيكون ذا أهمية كبيرة لتجربة "فيكتور هوب". فقد نجح في إنتاج العامل "سايتوكالاسين ب" من العفن. فقد كان "ميكوتوكسين" فاعلًا على "سايتوسكيليتون"، ومنع جزيئات البروتين من التكاثر. وهو ما سمح "للسيتوبلازم" المحيط بنواة الخلية أن يبقى ناعمًا، ونجم عن ذلك احتمال ضرر ضئيل عند غرس "الميكروبيبتيت" في خلايا البويضة، وزاد إلى حد كبير من فرص سلامتها.

في جلسة المراجعة التالية، أعلن "فيكتور" أن عامل الإعاقة الذي اكتشفه الدكتور "كريمر" أحدث فارقًا كبيرًا، وأنه في سبيله إلى تحقيق النتائج. ومع ذلك، فقد استغرق الأمر منه ما يقرب من ثمانية أشهر قبل أن يتحقق الاستنساخ، حيث إن "فيكتور" لم يأخذ عاملًا آخر في الاعتبار. ربما زادت فرص النجاح، لكنها لا تزال ضئيلة بحيث استمر الحظ في لعب دور أساسي.

وفي النهاية، كان هذا هو ما توصل إليه:

542 خلية زرعت بالجراحة المجهرية في نواة غريبة.

253 خلية استمرت حية بعد العملية.

48 خلية اندمجت في النواة الجديدة.

16 خلية تطورت إلى أجنة دقيقة.

3 أجنة صارت فئران مستنسخة.

***

في 31 أغسطس 1951، أوصل الدكتور "كارل هوب" ابنه إلى القسم الداخلي في مدرسة الإخوان المسيحيين في "أبين"، وهي بلدة تبعد حوالي عشرين كيلومتر جنوب شرقي "فولفهايم".

قال لـ"فيكتور" وهما ينتظران عند البوابة الخشبية:

– هذا أفضل شيء لك.

لم يعد يفكر في أفضل شيء بالنسبة له هو. ولم يخطر له ذلك على بال. فما إن اتخذ قراره، حتى أقنع نفسه أنه يفعل ذلك من أجل "فيكتور". وإلى جانب ذلك، فإن "يوانا" كانت لتصر على ذلك، هكذا ذكَّر نفسه أكثر من مرة، حتى يقلل من دوره في هذا القرار. وهكذا لم يشعر بأي ذنب عندما حان وقت إرسال "فيكتور" إلى المدرسة الداخلية. لم يكن يشعر بأي شيء وهما واقفان عند البوابة. وكأنه يقوم بتوصيل شحنة وحسب.

لم يكن قد أخبر "فيكتور" مسبقًا. بدا له هذا أيضًا أفضل شيء. ولكنه قال للصبي فقط إنه ذاهب إلى المدرسة. ولم يخبره بحقيقة كونها مدرسة داخلية وأنه سيقيم فيها لبعض الوقت إلا وهما في السيارة في الطريق إليها.

أمَّا بعض الوقت هذا فكان عشر سنوات. لم يكن "فيكتور" يعود إلى المنزل إلا في إجازات الكريسماس، وعيد الفصح، والصيف.

- سوف أراسلك.

كانت هذه هي آخر كلمات يقولها "كارل هوب" لابنه قبل أن يتوارى الابن خلف البوابة.

ولكنه لم يراسله.. ولا مرة واحدة.

في المجمل، كانت المدرسة الداخلية بالفعل أفضل شيء حدث لـ"فيكتور". فالعيش في المدرسة، التي كانت في نظر أغلبية الفتيان قطعة من الجحيم، كان متنفسًا للصبي بعد عام ونصف العام عاشه مع والده. فقد منحته القواعد الصارمة والجدول الزمني الدقيق النظام الذي كان غائبًا عنه في المنزل، والذي كان ضروريًّا جدًّا بالنسبة له. والتراتيل والصلوات، والرهبان في ملابسهم، والصالات وأصداؤها، والمهجع الأشبه بالكهف، وبكاء ذلك الصبي الذي يحن في كل ليلة إلى منزله وهو راقد في السرير جواره - كل هذا كان مألوفًا لـ"فيكتور". كان الأمر كما لو أنهم منحوه بدلة مصنوعة خصيصًا له بعد عام ونصف العام من ارتداء ملابس واسعة عليه وكأنها شوال. والحقيقة أنه قد عايش ذلك حرفيًّا في أول يوم له في المدرسة، بعدما ارتدى الزي المدرسي. وقد تسلم بقية رفاقه في السنة الأولى ملابسهم أيضًا، وبينما أبدوا ضيقهم وعدم ارتياحهم لها، كان "فيكتور" جالسًا في مكانه في هدوء.

شعر وكأنه قد عاد إلى بيته الحقيقي مجددًا. يتطلع نحو باب القاعة الكبرى بين الحين والآخر، وكأنه ينتظر أن تدخل منه الأخت "مارثا" في أي لحظة.

ومن حسن حظ "فيكتور" أنه كان في فصل الأخ "رومبوت"، وهو راهب شاب تولى تدريس السنتين الأولى والثانية بدلًا من الأخ "لوكاس" منذ عام فحسب. وكان الأخ "لوكاس" يعتبر التلاميذ كتلًا من الصلصال يلزم أن تعجن بقسوة لتتشكل كما يدور في خلده هو، في حين يفضل الأخ "رومبوت" أن يكون المنطلق مع كل طفل هو ما يتمتع به من مواهب فردية، ومن ثم تحفيز تلك المواهب وجعلها تزهر وتنمو.

كان الراهب الشاب رقيق الملامح، وأضفت عليه رموشه الطويلة وحواجبه الرقيقة مسحة أنثوية. كما أن صوته عذب لطيف، وهو ما تبين للأولاد لما قرأ الصلاة الربانية صباح اليوم الأول من العام الدراسي الجديد، وبعد ذلك حكى لهم قصة من الكتاب المقدس. وقد سعد "فيكتور" كثيرًا بمظهر الأخ "رومبوت" وصوته، وصلاته وقصصه من الكتاب المقدس. وعندما سألهم الراهب عما إذا كان أي منهم يعرف القراءة، فارتفعت الأيادي من حوله، قام هو أيضًا، بعد تردد قصير، برفع يده عاليًا. وكانت هذه هي البداية.

وبعيدًا عن منظر وشخصية الأخ "رومبوت"، فقد كانت له طريقة تدريس أثرت بشكل كبير على نشأة "فيكتور هوب". فأثناء دراسته ليصبح معلمًا، طوّر الراهب أسلوب تدريس خاص به، وقام بتطبيقه على تلاميذه. ويقوم نهجه المبتكر، والذي اقتدى به كثيرون في نهاية المطاف، على التركيز على الحساب والعلوم الطبيعية، على وجه الخصوص، في تقدم محسوب، من الملموس إلى التخطيطي، ومن ثم إلى المجرد. وفي هذا الأسلوب محاكاة للطريقة التي تعالج بها أدمغة الأطفال الصغار المعلومات. وقد توافقت تمامًا مع حالة "فيكتور هوب". ووجد الراهب في "فيكتور" دليلًا يثبت صحة منهجه، غير أن الواقع يبين أن العكس هو الصحيح: أي أن "فيكتور" كان الولد المناسب تمامًا لأسلوب الراهب، ليس إلا.

خلال العام الدراسي 1951/1952، كان الأخ "رومبوت" المسؤول عن السنتين الأولى والثانية، وهو فصل يتألف من فتيان في أعمار ستة وسبعة وثمانية أعوام. وفي وقت لاحق، في بداية كل عام دراسي جديد، يقوم باصطحاب أفضل تلاميذه إلى مرحلة العامين التاليين،

مما أتاح له فرصة تطويع أسلوبه تدريجيًّا ليناسب الفئة العمرية التالية، وبالتالي تطبيق نظرياته. وكان "فيكتور هوب" الولد الوحيد في السنة الأولى الذي نجح في الوصول إلى السنة السابعة، أعلى سنة، في غضون ثلاث سنوات فقط. كان الأخ "رومبوت" يرقيه إلى المرحلة التالية في كل عام، على الرغم من فارق السن المتزايد بين "فيكتور" والأولاد الآخرين في الصف. وعندما وصل إلى المستوى السابع بعد ثلاث سنوات، كان "فيكتور" في التاسعة من عمره؛ بينما كان عمر أكبر الطلاب في فصله ثلاثة عشر عامًا.

وبعد عام، في 30 يونيو 1955، تخرَّج "فيكتور" في المدرسة الابتدائية. بعد أربعة أعوام فقط.

تشهد تلك الحقائق، التي دونتها إدارة مدرسة الإخوان المسيحيين في "أبين" في سجلاتها، بذكاء "فيكتور هوب"، ذلك الصبي الذي بدأ حياته محكومًا عليه بكونه بليد الذهن. ولكن تلك السجلات لا تبين كيفية تكوين "فيكتور" لرأيه في الرب أثناء دراسته، أو بالأحرى كيفية إساءة ذلك التكوين. وهو أمر واضح إلى حد بعيد من بطاقات التقارير التي دون فيها الأخ "رومبوت" بخط يده الأنيق درجات التلميذ "فيكتور". فقد حصل "فيكتور"، عامًا تلو الآخر، على درجات تتراوح بين 10 و9، وأحيانًا 8، في كل مادة – عدا الدين. كان قد حصل في أول عام على 10 من 10 في الدين. وهو شيء متوقع، خاصة مع معرفته للكتاب المقدس والتي أدهشت كثير من الأساتذة. ولكنها كانت معرفة مصطنعة لا أكثر. فهو لم يكن يفهم ما يقرأ أو يردد. وفي العام الثاني نال 8 في الدين، ثم نال 7 في العام الثالث. وفي عامه الأخير، منحه الأخ "رومبوت" 4 من 10؛ وكانت أول مرة يرسب فيها في أي مادة. وقد كتب الأستاذ في تعليقه: "لا يمكن أن يكون "فيكتور" قسًا". ربما كان يقصد السخرية فحسب، فلو أنه كان يعرف بما يدور في ذهن "فيكتور"، لما كان قد كتب أبدًا تعليقًا كهذا.

كان الانضباط نابعًا من الخوف. تلك كانت الحقيقة، وليس فقط في المدرسة، ولكن في العديد من المدارس الكاثوليكية الأخرى. ولم ينجم الخوف عن خشية العقاب الجسدي فقط، ولكن من خلال رسم صورة الرب القادر شديد العقاب لكل مخطئ.

الغضب. تلك كانت الكلمة المستخدمة كثيرًا. سيحل غضب الرب على الآثمين.

أما الآثمون فهم التلاميذ، ويتصرف أغلب الرهبان وكأنهم هم الرب، أو على الأقل ممثلوه في الأرض.

كان الأخ "رومبوت" استثناءً، ومع ذلك أيضًا، ولو بشكل غير مباشر ودون وعي، فقد ساهم في نفور "فيكتور" من الرب. فمن خلال خمس مرات في الأسبوع، وبينما يدرس غيره من التلاميذ في الفصل الكتاب المقدس من خلال حكايات بسيطة ورسوم توضيحية، كان يطلب من "فيكتور" أن يذهب ليجلس في مؤخرة الفصل ليقرأ في نسخة الكبار من الكتاب المقدس (كما سمَّاها الأخ "رومبوت") في هدوء. وفي أسلوبه التدريسي، فإن هذا يسمى التمييز، أي أن يقوم بتطويع المهام وفق مستوى إتقان كل تلميذ على حدة.

ويقرأ "فيكتور". بالطبع "فيكتور" يقرأ. يدفن نفسه، ويستغرق في الكتاب، ويختفي تمامًا في لغته، والتي، كلما كبر، بدأ يفهمها على نحو متزايد. وكلما فهم، كلما أدرك أن صورة الرب التي يرسمها معظم الرهبان تتماشى تمامًا مع ما كتب عنه في الكتاب المقدس. ولم تكن تلك الصورة في ذهنه، وبعبارة ملطفة للغاية، تحمل أي جانب إيجابي.

الأطفال حتى سن الرابعة تقريبًا يرون الناس عمومًا إمَّا أخيارًا وإمَّا أشرارًا. وهو نفس حال "فيكتور" – والفارق هو أن في حالته لم يتغير هذا التصور قط. ويتعلم بقية الأطفال تدريجيًّا حقيقة أن كل إنسان يحمل بين جوانحه شيئًا من الخير وشيئًا من الشر، من الأسود أو الأبيض. ويكتشفون أن النسبة بين الخير والشر تتغير من إنسان لآخر، وهذا يتوقف على الظروف والمواقف التي يجدون أنفسهم فيها.

عانى "فيكتور" مشكلة مع تمييز الفروق الدقيقة. فهو غير قادر على إظهار ما يعتمل فيه من عواطف، وبالمثل غير قادر على تمييز ذلك في الآخرين. بالنسبة له فإن كل شيء إمَّا أسود وإمَّا أبيض. وهو أمر خارج عن إرادته، حيث إن متلازمة "إسبرجر" التي يعاني منها تمنعه حتى من الظن أنه يعاني من اختلال ما.

ولو أن شخصًا ما – أبًا أو أمًا مثلًا – قد أولى "فيكتور" بعض الاهتمام، فلربما أدرك تدريجيًّا أو اكتشف بنفسه أن كل إنسان مكون من باقة كاملة من الأحاسيس والمشاعر. كان سيتغير في تلك الحالة، بالمعنى الشامل لكلمة تغيير؛ وهذا لأن "فيكتور" لم يتجاوز أبدًا مرحلة البرعم، إن جاز التعبير. ولكن قناعته بأن الناس إمَّا أخيار أو أشرار تعززت

مجددًا في المدرسة الداخلية. ومن المؤكد أن لافتقاده لحميمية الآخرين دور في ذلك، وكان لرهبان المدرسة دور أيضًا. فقد كانوا أساتذة في إخفاء مشاعرهم الحقيقية عن بعضهم البعض وعن التلاميذ؛ والحقيقة أن هذا أمر منتظر منهم. ولا نستثني من هذا الأخ "رومبوت". الأكيد أن طيبته ظاهرة، ولكنها الجانب الوحيد الذي يكشف عنه. أمَّا ما كان يعتمل بداخله، وحقيقة مشاعره وأفكاره – فهي جوانب بقيت دفينة يخفيها عن الآخرين. فكيف ننتظر من "فيكتور" أن يكتشف أن الحياة تحتوي على ما هو أكثر من الخير الخالص أو الشر البحت؟

وكلما زادت خبرة "فيكتور"، كلما صار قادرًا على ربط خير أو شر إنسان بصوته أو بطبيعة التواصل الجسدي معه. لأنه عاجز عن تبين أي شيء من قراءة وجه الشخص الذي يتعامل معه.

في البداية كان الصوت. النبرة وعلو الصوت. فالصوت العالي تصاحبه نبرة ثقيلة. وهذا يعني الشر.

كان الأخ "رومبوت" يتحدث دومًا بصوت ناعم، وعندما يشدو كان يفعلها بصوت معسول، وليس مثل رتابة أصوات بقية الرهبان. فقد كان الاستماع إلى الأخ "رومبوت" متعة.

كان للأخ "لوكاس"، معلم الصفين الثالث والرابع، والأخ "توماس"، معلم الصف الأول، نبرة صوت تشبه أقل نغمة في بيانو الكنيسة. ولكنهما قادران على فعل ما لا يفعله البيانو؛ يمكنهما القيام بكل الوقفات مع استمرار تلك الاهتزازة في الصوت. لم يكن صوتهما موجهًا أبدًا إلى "فيكتور"، ولكنه يسمعهما عبر جدران الفصل. وكأنهما سحابة رعدية تمر فوقهم، وتخيَّل "فيكتور" الرب وهو يلقي بالصواعق على الطلاب، وهذا لأن الرهبان يرفعون أصواتهم باسم الرب.

"سوف يحيق بكم غضب الرب".

"خافوا من يوم الحساب، فالرب سيحاسبكم أينما كنتم".

"انتقام الرب شديد".

وبالمثل، كان للأب "نوربرت"، الذي يشرف على الدراسة عادة في المساء، صوت نبرته سيءة. وقد عايشه "فيكتور" بنفسه. وهو لم يعرف السبب، ولكن الأب "نوربرت" صاح في وجهه. كان يصيح دائمًا في الأولاد الآخرين، ولكن لم يسبق له أن صاح في وجهه من قبل. دائمًا ما يصيح في بقية التلاميذ قائلًا:

- انظروا إلى "فيكتور".. ينبغي أن يكون نموذجًا تحتذون به

ولكنه هذه المرة، هذه المرة الوحيدة، كان يصيح في "فيكتور".

- انظر إلي، "فيكتور هوب"! انظر إلي عندما أتحدث إليك!

ولكنه عجز عن ذلك. لم ينظر في وجه الأب "نوربرت". كان يريد ذلك، ولكنه عجز عنه. كما لو أن رأسه تسمر على وضعه فوق عنقه. عندئذٍ شعر بلطمة على أذنه.

- سوف يعاقبك الرب على ذلك، "فيكتور هوب"!

التواصل الجسدي.. التلامس. هذا أيضًا إمَّا خير أو شر.

من الشر أن تضرب إنسانًا. فبخلاف الفلكة، كان الأب "نوربرت" يقرص أذن التلميذ بشدة حتى يبكي التلميذ المسكين. رآه "فيكتور" يفعل ذلك كثيرًا. ومن الشر أيضًا أن تضرب أصابع تلميذ بمسطرة خشبية. وهو ما فعله الأخان "لوكاس" و"توماس". كانت العلامات الزرقاء الداكنة تظهر على أصابع تلاميذ تلك الصفوف.

التمس "فيكتور" الخير في لمسة الأخ "رومبوت". كانت لمساته لطيفة. حينما يضع يده على كتفه. أو لما يربت على رأسه. وطريقة ميله عليه ليرشد يده وهي تكتب. كل هذا خير.

وماذا عن الرب؟ الصورة التي رسمها "فيكتور" له تشكلت إلى حد كبير من كلام الأخ "توماس"، والأخ "لوكاس"، والأب "نوربرت". وحيث إنهم قدَّموا صورة الرب المتوعد، الذي ينزل أشد العقاب، والقادر على كل شيء، والقاهر، والعليم، فإن "فيكتور"، قليل الحيلة، وهو الذي بالكاد قادر على التفريق بين المجرد والحقيقي، استنتج بديهيًّا أن الرب مصدر كل شر.

وتأكدت لديه تلك الصورة للرب، تلك الصورة المرعبة، من خلال ما قرأ في الكتاب المقدس، والذي كان الأخ "رومبوت" يسمح له بأن يقرأه في هدوء، وهو لم يدرك أبدًا ما كان الصغير يستخلصه منه: أن الرب سمح بالحروب، ودمر المدن، وأنزل الطواعين، وأن الرب يعاقب ويقتل.

للرب ما أعطى، وللرب ما أخذ، "فيكتور". تذكر ذلك.

الرب يعطي، هذا صحيح، ولكن الرب يأخذ بأكثر مما يعطي.

ولكن يسوع خيّر.

اكتشف "فيكتور" أمورًا جديدة في العهد الجديد عندما كان في مجموعة التعلم الخامسة والسادسة. كان قد قرأ هذا الجزء من الكتاب المقدس من قبل، ولكنه الآن يقرؤه ببصيرة مكتسبة من بقائه لأكثر من عامين في مدرسة داخلية.

قرأ "فيكتور" كيف أطعم يسوع الجياع. كيف هدَّأ يسوع العواصف؛ كيف شفى يسوع المرضى. كيف أحيا يسوع الأموات.

اكتشف "فيكتور" أن يسوع لم يرفع صوته أبدًا، ولم يضرب الناس، ولم يعاقبهم.

ولذلك، كان يسوع خيّر.

لم يكن الأمر مجرد اكتشاف بالنسبة لـ"فيكتور". بل وجد فيه الراحة أيضًا. فقد كان يسوع ابن الرب، بالرغم من كل شيء. فعل الأب أشياء شريرة؛ وفعل الابن أشياء خيّرة. هذا سيناريو مألوف، وسيناريو مريح. ولم يكن من قبيل المبالغة القول أنه قد اعتبر يسوع صديقًا له. ووجد أن يسوع حقيقي بالنسبة له أكثر من الرب - أشد إنسانية. ولذلك سيكون من الأسهل لـ"فيكتور" أن يتخيل صورة له.

وبالإضافة إلى اتخاذه صديقًا له، فإنه سرعان ما وجد في يسوع شريك ألم ومعاناة – ولم يحدث هذا شيئًا فشيئًا، ولكن فجأة، عندما وصل إلى نهاية إنجيل متى. "يا إلهي، إلهي، لماذا تخليت عني؟" ضربته هذه الجملة مثل صاعقة. لقد تخلى الرب عن ابنه. تركه لمصيره. وهو موقف مألوف جدًا لـ"فيكتور". ألم يفعل أبوه ذلك معه؟

لم يتخيل "فيكتور" نفسه يسوع؟ بالتأكيد لا، لأنه لا يمتلك من الأصل أي خيال. كما أنه أدرك أنه هو ويسوع كائنان منفصلان. فالأكثر دقة أن نقول إن "فيكتور" اعتقد أنه مثل يسوع. يشتركان في نفس المصير، وبالتالي فهما من الأخيار. فعل يسوع خيرًا أكثر من "فيكتور"، وهذا أكيد، ولكن لا يزال أمام "فيكتور" متسع من الوقت للحاق به. وإذا أصبح طبيبًا، إذن سيكون قادرًا على شفاء المرضى. وتلك كانت طريقة تفكيره.. إذن.

بقي شيء واحد عجز عن فهمه: كيف صار أبوه طبيبًا؟ فمن المفترض أن يكون الأطباء أخيارًا، أليس كذلك؟

***

مع مرور الوقت، بدأت مسيرة "كارل هوب" الطبية في الازدهار مرة أخرى. وأدرك أهل القرية أن الطبيب قد بدأ يتعرف على أخطائه، على أي حال؛ على الرغم من أنهم كانوا يتساءلون عن سبب الحاقه ابنه بتلك المدرسة، فإنهم ارتاحو لكون "فيكتور" قد أضحى الآن بأمان وبين يدي الرب مرة أخرى. هذا على حد تعبير الأب "كايزرجربر".

ولكن الدكتور نفسه لم يكن على ما يرام، وهذا ما لاحظه مرضاه. وكان من الصعب الدخول معه في أي حوار. ونادرًا ما ضحك. وكان يفقد وزنه. ولكنه يمارس مهنته كطبيب بشكل جيد، وهذا هو المهم، أليس كذلك؟

إنه حتى لا ينظر في عيني – إلى هذا الحد وصل الأمر؛ وأنا من سمح بذلك. هكذا كان "كارل هوب" يحدث نفسه كلما حضر ابنه إلى المنزل لبضعة أيام، بعد قضاء أشهر بعيدًا عنه في المدرسة.

وخطر له أن مستوى ذكاء ابنه يتطور وبسرعة كبيرة. وقد زادت صعوبة واجباته المنزلية، في اللغة والحساب. وأكد له الأخ "رومبوت" ذلك. أخبره أن "فيكتور" أفضل تلاميذه، وأنه يتفوق عليهم بمراحل.

كم اطمأن الدكتور عند سماع ذلك. وهو الذي رفض تمامًا فكرة أن يكون ابنه بليد العقل.

كان يريد أن يعرف ما إذا كان ابنه ساكتًا في الفصل، كما هو في المنزل. وهو ما أكده له الراهب:

- أجل. "فيكتور" أنطوائي للغاية. يستمع إلى الكثير ولا يتحدث إلا نادرًا. وليس له أي أصدقاء.

ها هو عنصر مشترك آخر بيني وبين "فيكتور": "لا أصدقاء".

لاحقًا، قام مجددًا بإعداد قائمة ذهنية بجميع الضغائن التي قد يكنها ابنه ضده. وجاءت عليه أوقات كان فيها على استعداد لمناقشتها مع "فيكتور". كان يريد لـ"فيكتور" أن يعرف طبيعة والدته، وسبب قرارهما إرساله إلى الملجأ. وكذلك فكر في إعطاء "فيكتور" الملف المرضي الذي سلمته الأخوات له - عجز عن أن يقنع نفسه بالتخلص منه، ربما لأنه لم يكن جاهزًا تمامًا للتظاهر بأن هذا الفصل في حياة "فيكتور" لم يحدث حقًّا. كما قصد أيضًا أن يفسر لـ"فيكتور" في يوم من الأيام سبب ضربه له. أراد أن يقول له إنه في تلك اللحظة كان أسير قوة تملكته، قوة تفوقه بكثير جدًّا. وهو يتمنى أن يسأل "فيكتور" الصفح والمغفرة.

ولكنه في كل مرة يعتزم فيها التحدث معه، يتراجع ويقرر في اللحظة الأخيرة أنه من الأفضل لـ"فيكتور" أن ينسى، لا أن يغفر. ربما كانت الصدمات التي تعرَّض لها أشد قسوة من أن ينساها ابنه، ولكن السنوات التي أمضاها الصبي في المصحة ستتلاشى من ذاكرته في الوقت المناسب. فقد كان صغيرًا. أيوجد إنسان يتذكر ما مر به من أحداث قبل سن الخامسة؟

أيوجد؟

السابع عشر من شهر ديسمبر 1980.. الصباح الباكر.

- فعلتها.

- "فيكتور"؟

- أجل، "فيكتور".

- "فيكتور".. ولكنها الساعة الرابعة والربع فجرًا!

- فعلتها.

سأله "ريكس كريمر" في ضيق:

- ما هذا الذي فعلته؟

- الفئران المستنسخة.

- معذرة؟

- لقد استنسخت الفئران.

شعر العميد بارتباك وحيرة. كانت نبرة صوت "فيكتور" هادئة رتيبة، كما لو أنه يبلغه وبكل بساطة عن أمر روتيني، في تناقض صارخ مع هذه القنبلة الصاعقة التي أسقطها في أذنه للتو.

- هل أنت جاد، "فيكتور"؟

- طبعًا.

- كم عددها؟

- ثلاثة.

- أين أنت؟ في الجامعة؟

- أنا هنا بالفعل.

- وأنا في طريقي إليك.

حاول "ريكس كريمر" وهو في طريقه إلى الجامعة أن يحسبها بالعقل. فقد مر خمسة عشر شهرًا منذ أن قام بتعيين "فيكتور"، وطوال تلك المدة لم يقدم "فيكتور" أي شيء يذكر. حتى إن بقية أساتذة البيولوجيا ألحّوا على "ريكس" أن يضع حدًّا لهذه التجربة، ولكنه أصرَّ على موقفه المؤيد للدكتور "هوب". ولم يكن هذا الموقف نابعًا من الأمل بقدر ما يعود إلى حقيقة أنه غير مستعد بعد للاعتراف بأنه كان على خطأ في تأييده لـ"فيكتور". وكان قد عاد للتو من عطلة نهاية الأسبوع حينما أيقظته مكالمة الفجر هذه. ورغم أنه تحدث مع "فيكتور" قبيل خروجه في إجازة، وإن صح ما أخبره به "فيكتور"، فإنه يكون قد زرع الأجنَّة في آخر مرة تحدثوا معًا، ومولد الفئران وشيك. ولكن "فيكتور" لم يخبره بأي شيء – وكأنه كان مترددًا في أن يتفوَّه بكلمة إلى أن يضع يده على الدليل القوي الملموس.

وصل العميد إلى الجامعة، وتوجَّه من فوره إلى المختبر، حيث وجد "فيكتور" منكبًا على المجهر.

- أين هي، "فيكتور"؟

أشار "فيكتور" من دون أن يرفع رأسه عن المجهر إلى ترابيزة عند ركن المختبر. فوقها قفص زجاجي ممتلئ إلى نضفه بنشارة الورق. ألقى "ريكس" نظرة على ما بداخله، وأحصى سبعة فئران صغيرة، وفأرًا كبيرًا أبيضَ. تبين له في الحال أن الفئران الصغيرة عمرها لا يزيد على بضعة أيام؛ وقدّر أنها قد ولدت للتو. أي أن "فيكتور" قد كتم السر عنه لفترة أطول مما حسبها هو.

- كم عمرها؟

اكتفى "فيكتور" بأن رفع له يده، وأصابعها تشير له بالأربعة.

- إذن لماذا لم تتصل بي إلا الآن؟

وضع "فيكتور" طبق "بتري" آخر تحت المجهر:

- لأنني لم أكن لأتأكد قبل أن يتبين لها لون. انتظرت حتى نما شعرها.

حدق العميد أكثر في داخل القفص، ولاحظ الآن فارقًا في اللون بالكاد واضح.

- فئران بيضاء وبنية؟

- تلك البنية هي المستنسخة. أمَّا البيضاء فهي الطبيعية. المستنسخة من بويضات فأرة سوداء؛ واستبدلت نواة البويضات بنواة من أجنة عمرها خمسة أيام لأم بنية اللون. أمَّا الأم التي حملت تلك الأجنة فهي فأرة بيضاء.

أخذ "ريكس" وقته في استيعاب ما سمعه. وحاول أن يكرر لنفسه ما قاله "فيكتور". إذا قام "فيكتور" بنزع نواة بويضات فأرة سوداء واستبدلها بنواة من أجنة أخذها من فأرة بنية. ولذلك، فإن الفئران البنية الثلاثة في القفص الزجاجي مستنسخة من أجنَّة فأرة؛ وليست نتاج انقسام خلوي طبيعي. أي أن "فيكتور" قد نجح، لأول مرة في تاريخ العلم، في استنساخ حيوان ثديي. وتسمَّر "ريكس" في مكانه مشدوهًا مصعوقًا.

- ياه.. لقد فعلتها حقًّا!

لم يرد "فيكتور" عليه. كان يهيئ المجهر بيسراه، بينما يدوِّن بيمناه معلومة ما على قصاصة ورق.

عاد العميد ينظر إلى الفئران:

- "فيكتور"، هذه هي أول مرة في التاريخ. ألا تدرك هذا؟

أجابه "فيكتور" بنبرة محايدة:

- سرعان ما سيعرف العالم هذا.

- ما الذي تقصده؟

- لقد كتبت التقرير بالفعل وأرسلته إلى رئيس تحرير مجلة (الخلية).

- ولكن هذا غير ممكن. ليس من حقك. أقصد.. كان عليك أن تعرضه علينا أولًا، أو عليَّ وحدي، على الأقل. ليست هذه هي الطريقة التي تجري بها مثل هذه الأمور. وخاصة في حالة كهذه بالتأكيد.

- كان من اللازم الإسراع.

أخذ "ريكس" نفسًا عميقًا، وعيناه مثبتتان على ظهر زميله.

- ولماذا (الخلية)؟ كنت قد أرسلت آخر مقال لك إلى (العلوم). والأخيرة تاثيرها أكبر، أليس كذلك؟

- إنهم يطرحون الكثير من الأسئلة.

- هذا طبيعي! ولهذا السبب هم...

- هناك حالات يكون على المرء فيها أن يقبل بالحقائق فحسب.

- "فيكتور"، لا أحد ينكر أنك عالم كبير، ولكن هذا لا يعني أن ليس عليك أن تشرح وتفسر ما تقوم به.

- ليس عليَّ أن أفسر أي شيء لأي أحد.

أجابه "فيكتور" في تجهم. ورجع بكرسيه إلى الوراء، قبل أن ينهض ويتوجه نحو الترابيزة. التقط أحد الفئران المستنسخة، ووضع الحيوان الضئيل في راحة يده وهو يشير به إلى العميد.

- هذا هو ردي.

حدق "ريكس" في "فيكتور" بكل دهشة الدنيا. لم تكن كلماته أو غضبه هو ما أدهشه، ولكنه مظهره الذي تغير. صارت له الآن لحية بلون الجزر، ولأول مرة يراه "ريكس" بلحية، وأسفل عينيه دوائر وهالات زرقاء داكنة، وازدادت وضوحًا مع شحوب

بشرته وبروز عظام وجهه. لا بد أنه لم يحلق ذقنه منذ أسبوع على الأقل، وربما لم ينم كثيرًا طوال هذا الوقت أيضًا.

- "فيكتور".. كم مر عليك من وقت وأنت تعمل من دون انقطاع؟

رمق ساعته، ثم أشاح بوجهه، وكأنه يحاول أن يحصي عدد الساعات التي مضت عليه وهو مستيقظ. ثم هز رأسه في حيرة:

- لا أعرف.

- "فيكتور"...

كان "فيكتور" يداعب لحيته في شرود.

- "فيكتور".. ربما من الضروري أن تذهب لترتاح لبضع ساعات. سوف أبقى هنا وأحل محلك.

أومأ "فيكتور" برأسه وهو يحدِّق في الفأر القابع في راحة يده. مرر إصبعه في حذر على هيكل الحيوان الضئيل عدة مرات، وكأنه يطمئنه قبل أن يتركه. ثم وضع الفأر في القفص مع بقية الفئران، واستدار على عقبيه وتوجه نحو الباب.

- "فيكتور"، أين يمكنني أن أجد تقريرك؟ أود أن أقرأه.

أشار له بيسراه وهو يمضي:

- إلى جوار جهاز الفاكس.

ولما قرأ "ريكس" المقال، تساءل عن سبب تشكيك مجلة "العلوم" فيها، فقد وجدها دقيقة واضحة. وقدَّم "فيكتور" وصفًا تفصيليًّا للأسلوب الذي اتبعه، خطوة خطوة. كما كان يقوم بعد كل خطوة بتقييم النتائج، ويطرح بنفسه بعض الأسئلة المهمة في النهاية، وكأنه يدعو بقية العلماء للمشاركة في الرد على تلك الأسئلة. وكذلك أكد على أهمية أسلوبه القائم على "السايتوكالاسين ب"، وهو العالم الذي نشر "كريمر" مقالًا عنه بالفعل. وفي النهاية، يدعّم كافة النتائج بالبيانات التي كانت مستحيلة من قبل.

وعندما عرّف العميد بقية أساتذة البيولوجيا بالخبر، أبدوا سخطهم الشديد في البداية، ولكنهم بعد أن قرأوا التقرير وجدوا انفسهم مجبرين على الإقرار بأن الطريقة التي وصفها ثورية بحق – وهي للوهلة الأولى بسيطة للغاية لدرجة أنهم تعجبوا من أن أحدًا لم يفكر فيها من قبل. وكانوا يتطلعون إلى التعرف على رد فعل المجتمع العلمي عند نشر تلك المقال.

وهو ما تم في 10 يناير 1981. قامت مجلة "الخلية" بتخصيص الغلاف لصورة الفئران المستنسخة، وكان مقال "فيكتور هوب" هو المقال الرئيسي. وجاء رد الفعل هائلًا. وأصاب الذهول كبار العلماء من جميع أنحاء العالم، وأثنوا كثيرًا على "العالم العبقري"، وغطت الصحف المحلية والعالمية الموضوع. وانهمرت الطلبات على "فيكتور" لإجراء مقابلات، ولكنه كان يرفضها الواحدة تلو الأخرى، كما رفض أن يتم تصويره مع الفئران. وبعد الكثير من الإلحاح ومحاولات الإقناع، وافق في النهاية على أن تقوم الجامعة بتوزيع صورته الرسمية الموجودة لديها، وهي نفس صورته الموجودة في بطاقة التعريف لدى الجامعة. لم يكن ملتحيًا في تلك الصورة، وهو الآن يحب لحيته ويبدو أنه قرر ألا يحلقها أبدًا.

كان "ريكس كريمر" هو المتحدث باسم الجامعة، وبالطبع كان من المتوقع أن يسأله الصحفيون عما إذا كان استنساخ البشر قد أضحى ممكنًا الآن، وعما إذا كان الدكتور "هوب"، أو غيره، يفكر في الشروع في هذا. أخبرهم "ريكس" أن من المبكر جدًّا تناول هذا الموضوع، وأن هذا أشبه بالتفكير في المشي على ساقين، بينما لا يزال هذا العلم بالكاد يحبو. كما أكد أن على أن هذه الفئران مستنسخة عن أجنة، أمّا الاستنساخ عن حيوانات ناضجة فهو حكاية أخرى. وحتى يتحقق ذلك سيكون من اللازم استخدام نواة خلية ناضجة، أي خلية قد نمت بالفعل لتؤدي وظيفة بعينها. وأعلن أن هذا الأمر غير ممكن في هذا القرن بالتأكيد، وهو ما كان يؤمن به أيضًا.

يقتضي العلم أن يقوم "فيكتور" بإعادة تجربته، وهذا مبدأ علمي جوهري. ولكن هذا ليس هو الأسلوب الذي يفكر به. عقله يلح عليه بأن يمضي إلى الخطوة التالية. فطالما إنه

قد نجح في إنجاز شيء ما، إذن عليه أن ينتقل إلى النقطة التالية. إذن. هذا هو ما تعلمه، ولكن محاولات "ريكس كريمر" في أن يقنع "فيكتور" بتكرار تجربته، لم تجدِ.

- "فيكتور"، لا بد أن تكرر التجربة. لا يمكنك أن تفترض وحسب أنها ستنجح في أي مرة ثانية. كما أنه لا تزال هناك عدة أسئلة بلا اجابة. هل تعيش الفئران المستنسخة لنفس عمر الفئران الطبيعية؟ هل يمكنها أن تتناسل؟ ما مستوى الخصوبة لديها؟ وهناك نقاط أثارها العلماء الآخرين، "فيكتور"، وأجد نفسي عاجزًا عن الرد عليها.

- الزمن كفيل بتقديم الإجابات.

- ورغم هذا عليك أن تبين لهم أن تجربتهم ليست مجرد ضربة حظ. لا سبيل غير ذلك.

- وحدها حيوانات السيرك هي التي تكرر ما تقوم به مرات ومرات.

- حسنًا، ما الذي تعتزم القيام به، "فيكتور"؟

- أريد أن استنسخ الثدييات البالغة.

تنهد العميد في فروغ صبر.

- وإذا نجحت فسوف يكون هذا إثباتًا كافيًا يدل على نجاح أسلوبي. أليس هذا هو ما يريدونه؟

- ولكنهم لن ينتظروا كل تلك السنوات الطوال.

- الأمر لن يستغرق سنوات طويلة.

- "فيكتور"، أعقلها، ولو مرة. أنا مؤمن بقدراتك، ولكن...

قاطعه "فيكتور":

- التجربة مجدية، إذا أمكن إلغاء برمجة الخلايا المتبرع بها. إذا أمكننا أن نعيدها إلى مرحلتها الأساسية. إلى طور الجي زيرو أو "G0 Phase"، وهي مرحلة أولية للخلية، فلا تنقسم فيها ولا تستعد للإنقسام. كما أن هناك أسلوبًا آخر يتمثل في تغيير برمجة

البويضات الملتقية. وهو ما يمكن أن يتحقق بالتحفيز الكهربائي. على أنه ينبغي مزامنة الدورات عند لحظة الدمج، وإلا فسوف نحصل على كروموزومات شاذة.

كم ود "ريكس" أن يقول لفيكتور إنه مخطئ، ولكنه عجز عن ذلك. فلقد كان كلام "فيكتور" منطقيًّا للغاية، وطريقة شرحه جعلت الأمر يبدو مباشرًا سلسًا وكأنه لن يقوم سوى بسكب بعض السوائل في زجاجة ومن ثم يرجها وحسب، فيصل إلى ما يبتغيه.

- "فيكتور"، لن توافق الكلية أبدًا...

- سأفعلها على كل حال.

- هذه ليست هي الطريقة التي نعمل بها هنا. سبق وأن أخبرتـ...

- إذا لم أتمكن من القيام بذلك هنا، إذن...

- تبًّا، "فيكتور"، إنك تصعب الأمور هكذا عليَّ! كنت محظوظًا لأني ساندتك دومًا، وحتى الآن، وأرجو أن تدرك ذلك!

- وأنا لم أطلب منك ذلك.

تنهد العميد ووجد نفسه مجبرًا على الإقرار بذلك:

- هذا صحيح.

تبينت له المعضلة الخطيرة التي يواجهها. فلو أنه أجبر "فيكتور" على الامتثال للقواعد، فعندئذٍ سيغادر "فيكتور" الكلية. وهو ما يعني طبعًا خسارة كبيرة لذلك القسم، والذي تلقَّى للتو منحة كبيرة من الجامعة لأجل إتمام البحث. ولكنه لو ترك "فيكتور" يفعل ما يحلو له، فإن بقية البيولوجيين، ورغم أن من الواجب أن يتحلوا بالمسؤولية، سيحتجون ويثيرون له العديد من المشاكل. وربما كان من الممكن إشراك "فيكتور" في ذلك لو أنه أبدى ولو قليلًا من التحلي بروح الفريق والتعاون مع زملائه، ولكنه بعيد كل البعد عن ذلك. وهو غير مُجبر بالمرة على العمل مع أحد. ولن يطيع أي سلطة، ولن يضع أي أحد في حسبانه، كما أنه لا يبدي أي تقدير لأي شيء أو لأي شخص. موهبته تعوض له أغلب ذلك، ولكن إلى متى؟

- أمهلني وقتًا للتفكير، "فيكتور".

- لا وقت لديَّ.

- وهل ستمثل بضعة أيام فارقًا معك؟

- الرب خلق الدنيا في بضعة أيام.

- سوف تصيبني بالجنون! اسمعني...

سكت "ريكس" بغتة. ها هو "فيكتور" مرة أخرى يأتي على ذكر الرب، مما نبه "ريكس". فقد كان يعتبر دائمًا تلميحات "فيكتور" عن الرب نوعًا من المزاح، ولكنه الآن يشك في هذا. ففي خلال خمسة عشر شهرًا عرف فيها "فيكتور" لم يسمعه في أي مناسبة يحكي نكتة. بل لم يجده يضحك على أي دعابة يسمعها من أي شخص آخر. كان يأخذ كل شيء على محمل الجد. لم يفكر العميد في هذا الأمر إلا الآن، ولكن من الممكن أن يكون "فيكتور" جادًّا تمامًا عندما تحدث عن الرب. "ريكس" لا يؤمن بالرب، فهو لم يتربَّ على الدين من الأصل. وكان والداه من أحرار الفكر، وتركا له حرية الاعتقاد.

سأله وهو يتمنى ألا يسمع منه إجابة:

- ليس عليك أن تجيبني عن هذا، ولكن.. هل تؤمن بالرب؟

- باعتباره خالق كل شيء حي.. أجل.. أؤمن به.

كان "فيكتور" يتحدث وكأنه أمر بديهي.

- ومن خلق الرب إذن؟

- الإنسان.

في تلك اللحظة ارتعش جسد العميد، ليس فقط لتلك النبرة المخلصة التي نطق بها "فيكتور" إجابته، ولكن كذلك وبنفس القدر لفحوى الرد ذاته. خلق الرب الإنسان وخلق الإنسان الرب – هذا هو ملخص كل شيء. واحد يقود للآخر، والآخر يعود بك إلى الأول. كانت حقيقة بسيطة للغاية، بساطة جميع تفسيرات "فيكتور". وتذكر "ريكس"

صورة الثعبان الذي يلتهم ذيله، ويلتهم جسده تدريجيًّا حتى لا يبقى منه شيء. للأمر منطقه الخاص، ولكنه مستحيل على المستوى العملي. وعندما يحاضر "ريكس" في مادة الوراثة، فإنه غالبًا ما يلجأ إلى مثال الثعبان لإثبات الفرق بين الدين والعلم. فالدليل في الدين غير مادي. أمَّا في العلم فإن الدليل هو أساس كل شيء. ولطالما كان ينظر إلى الدين والعلم بصفتهما كيانين منفصلين تمامًا. وأن هناك هوة لا يمكن تجاوزها تباعد بينهما. ولكن من الواضح أن تلك الهوة لم تكن موجودة في نظر "فيكتور"؛ أو ربما كانت، ولكن لديه جسر يربط بينهما – و"فيكتور" يقف على ذاك الجسر. وهذا ما يفسر سلوكه أيضًا، وخصوصًا عقليته. وكما قال ذات مرة، فإن بعض الأمور لا بد أن تؤخذ ببساطة أمرًا مفروغًا منه. كان ذلك الرجل المتدين الذي يتحدث، وليس العالم. وبهذا المعنى، كانت نتيجة إيجابية واحدة هي كل ما يحتاجه "فيكتور"؛ ولذلك كان لا يجد أي لزوم لإجراء مزيد من التجارب.

– أعتقد أني قد بدأت أفهمك، "فيكتور"، ولكن هذا لا يعني أنني متفق معك. عليَّ أن أتدبر هذا الأمر.

أومأ "فيكتور" برأسه.

– سوف أعرفك قراري في أسرع وقت ممكن. هذا إذا لم تسبقني نهاية هذا العالم.

أبدى "فيكتور" تململه وسخطه. ونهض "ريكس" مبتسمًا ومد يده يربت على كتف "فيكتور":

– أمزح معك!

ظن "ركس كريمر" أنه قد توصل في النهاية إلى طرف خيط يقوده إلى فهم طبيعة "فيكتور هوب". ولكن إن كان لطبيعة "فيكتور" عدة طبقات، فإن "ريكس" يكون بالكاد قد خدش سطح أولى تلك الطبقات. كان مثال الثعبان الذي يلتهم نفسه مثالًا جيدًا، ولكن ذلك أقصى ما أمكنه أن يصفه. كان يفترض أن "فيكتور" يمتلك قدرًا من الوعي بذاته، ولكن هذا لم يكن واقع الحال. فالأمر أبسط من ذلك بكثير، وفي الواقع –

أكثر منطقية. فالإجابة تكمن في الثعبان نفسه. "فيكتور" هو الرأس والذيل معًا. يلتهم ويُلتهم في آنٍ واحد. وهذا ما كان. فلم يكن لديه من خيار آخر.

ولم يمهل "فيكتور" "ركس كريمر" وقتًا لاتخاذ القرار. وبدأ بالفعل التجارب على خلايا الثدييات البالغة. وكان قد كشط سنتيمترًا مربعًا من بشرة فخذه، وصنع مزرعة خلايا حية بعدد من الوسائط المختلفة. وفعل الشيء نفسه بخلايا كبد فأر كبير، وكذلك بعض الخلايا من معدة ثور. وتساءل عما إذا كان مضطرًا لتعريف العميد بخططه الدقيقة، ولكنه رأى أن الوقت لا يزال مبكرًا على ذلك. سيخبره فقط برغبته استنساخ الثدييات الكبار. هذا كل شيء. وعندئذٍ لن يكون على الأقل قد كذب عليه.

كان الحل الذي اهتدى "ريكس كريمر" إليه، ووافق عليه أعضاء هيئة التدريس، هو أن يحاول "ريكس" بنفسه إعادة تجربة إنتاج الفئران المستنسخة. ومن شأن ذلك أن يسمح لـ"فيكتور هوب" بالمضي قدمًا في تجاربه الخاصة. كما رتب "كريمر" الأمر بحيث يكون هو المشرف المباشر والوحيد على "فيكتور"، وعندئذٍ يكون بوسعه أن يشرح ما يجري لبقية العلماء. وظن العميد أنه بهذه الطريقة سيكون متحكمًا في كل شيء، غير أنه في الحقيقة كان كمن يلتحق بعربة تنطلق بعدما حدد "فيكتور" مسارها بالفعل.

***

في عامه الأخير في المرحلة الابتدائية، حصل "فيكتور" على 4 درجات في مادة الدين، وحتى هذه الدرجات كانت بكرم من الأخ "رومبوت"، خاصة وأن "فيكتور" لم يبد أي اهتمام بهذه المادة طوال العام. هكذا رأى الأخ "رومبوت" حقيقة أن "فيكتور" رفض أن يفتح الإنجيل، وترك ورقة الامتحان فارغة. حاول الراهب أن يقنع تلميذه، ولكن كلامه لم يجد آذانًا مصغية. وشعر بخيبة أمل، وهو الذي كان يخطط إرسال "فيكتور" إلى مدرسة تأهيل القساوسة.

لكن "فيكتور" يريد أن يكون طبيبًا. وذكر ذلك عدة مرات بشكل عابر، وأظهر اهتمامًا كبيرًا بمجال العلوم الطبيعية. واعتقد الأخ "رومبوت" أنه يدير ظهره للعقيدة، ويميل صوب القوانين العملية للطبيعة الأم. ولأنه مخلص لأسلوبه التعليمي، فقد شجع اهتمام "فيكتور" بتزويده بالكتب والواجبات في المجال الذي اختاره.

هكذا لم يلتحق "فيكتور" بالمدرسة الدينية. ولكنه كاد لا يجد له مكانًا في مدرسة الإخوان المسيحيين الثانوية العادية. ولم يكن للأمر علاقة بذكائه، ولكن بالانطباع الذي تركه عن نفسه خلال الأسبوع الأخير من المرحلة الابتدائية.

مجنون – هذا ما كان يصفه به بقية التلاميذ؛ بعد ذلك الموقف الذي لم يتوقعوا جميعًا أن يقوم "فيكتور" بمثله، وهو التلميذ المثالي في نظرهم.

إنه "الكفر البيّن!" هكذا وصف رئيس الدير ما فعله "فيكتور هوب". واعتقد الأخ "رومبوت" أن تلميذه لم يحسن اختيار كلماته، وأنه ليس في الأمر كفر أو تجديف؛ على الرغم من أنه لم يثر تلك النقطة في دفاعه عن "فيكتور"، حتى لا يتم طرد أفضل تلميذ لديه من المدرسة. ولقد نبههم إلى ذكاء "فيكتور" ونباهته. وقال لهم إنه سيكون من المؤسف أن يخسروا موهبة "فيكتور" لمجرد خطأ "وتعدٍ واحد". وقد سمَّاه "تعديًا" فقط لأن كلمة أفضل لم تخطر بباله في تلك اللحظة. وفكر في استخدام "هفوة" أو "زلة"، ولكنه وجد أن الكلمتين أقل كثيرًا من مستوى الفعلة.

الفعلة التي نعتها رئيس الدير بـ"مُشينة".

ردد الأخ "رومبوت" الكلمة وراء رئيسه في خنوع، رغم أنه يرفضها بشدة. ولكنه كان يريد أن يكسب رئيسه لصفه.

وفي النهاية ارتضى رئيس الدير بفرض الكثير والكثير من الواجبات الإضافية على "فيكتور"، ومنحه فرصة أخيرة. أي أن هفوة أخرى تساوي طرده من المدرسة بدون نقاش.

ارتاح الأخ "رومبوت" للقرار، ولاحقًا اتفق مع تلاميذه على أن ما اقترفه "فيكتور" ذنب عظيم.

فهو، وبقية التلاميذ، لم يعتقد أبدًا أن بمقدور "فيكتور" القيام بما فعل.

حدث ذلك خلال الأسبوع الأخير في شهر يونيو 1955. كانت الامتحانات قد انتهت، ووفق تقاليد المدرسة، كان طلاب الصفوف العليا (صف الأخ "رومبوت" في ذلك العام) في

طريقهم لزيارة "كالفاري هيل" في "لا شابيل". وصفها الرهبان بأنها نزهة مدرسية؛ واعتبرها الطلاب نوعًا من الحج، وكانوا ينطقون بالكلمة وكأنهم يبصقونها من أفواههم.

كان طلبة الصف السابع، وعددهم سبعة عشر، في معية الأخ "رومبوت" والأب "نوربرت"، الذي كان عليه أن يقودهم عبر "محطات الصليب". والطريق إلى "كالفاري" تقع أعلى تل "ألتنبرج". وبنته الأخوات كلير في "لا شابيل" في العام 1898 تعبيرًا عن "توقيرهن للصليب". يقع الدير، وكذلك الملجأ الذي أمضى فيه "فيكتور" السنوات الخمس الأولى من حياته، في سفح "ألتنبرج"، حيث يوجد درج حجري ضيق يصعد حتى "كالفاري هيل". ولأنه من غير المسموح للمرضى بالتجول خارج أسوار الدير، فلم يسبق لـ"فيكتور" أن زار المكان وقت أن كان يعيش هناك. ولذلك لم تكن لديه أدنى فكرة أنه كان قريبًا جدًّا من منزله السابق في ذلك اليوم، ولكنه خطط لأمر آخر.

يمكن القول إن البداية كانت مع الاستهزاء. فهو قد أدرك المقصود من الاستهزاء الذي تحدث عنه القديس لوقا الإنجيلي: "لسوف يستهزئون منه ويعتدون عليه".

ولم يكن "فيكتور" يجيد ركوب الدراجة.

وكان من المقرر أن يقطع الراهب والقس والطلبة السبعة عشر الرحلة من "ايوبين" إلى "لا شابيل" بالدراجات، فهي مسافة خمسة عشر كيلومترًا. كان لدى أغلب الصبية درَّاجاتهم؛ والباقون استعاروا درَّاجات الطلاب الأصغر سنًا. وتسلم "فيكتور" درَّاجة يمتلكها صبي في الصف الرابع.

انطلقت المجموعة يتقدمها الأخ "رومبوت" ويتأخرها الأب "نوربرت"، تسمر "فيكتور" في مكانه، يركب الدراجة ويداه متشبثتان بمقودها، ولكن من دون أن يتحرك خطوة.

- هيا، "فيكتور هوب".

استحثه الأب "نوربرت" بتربيتة خفيفة على مؤخرة رأسه.

ولكن "فيكتور" بقي في مكانه، محني الرأس.

- "فيكتور"، إن كنت تنتظر الرب أن يتحرك بالدراجة بدلًا منك، فأنت للأسف مخطئ!

كان الأب "نوربرت" معتدل المزاج ويتحدث بمرح. ولكنه عندما أدرك أن "فيكتور" لم يلحق بهم نادى على الأخ "رومبوت" أن ينتظر، وعاد إلى "فيكتور" ليقرص أذنه، بعدما ظن أنه يتمرد على الرحلة.

وكان من الطبيعي أن يضحك بقية الطلاب. كانت ضحكاتهم مكتومة في البداية، لأنهم كانوا سعداء بأن هناك من يتلقى التوبيخ مثلهم.

ولكن القس أدرك في تلك اللحظات أن هناك شيئًا ما خطأ، فعلى الرغم من ضغطه المتزايد على أذن "فيكتور" إلا أن الصبي لم يتحرك. وربما كان ما قاله عندئذٍ مجرد حيلة منه لحث "فيكتور" على التحرك. ولكن أيًّا كان السبب، فإنه قال بصوت عالٍ وبنبرة بها مسحة من السخرية:

- أرى أن "فيكتور هوب" لا يجيد ركوب الدرَّاجة.

هكذا تعالت الضحكات. وابتسم القس ابتسامة عريضة.

واستثار كبار رجال الدين والعجائز عامة الناس.

سارع الأخ "رومبوت" بترك دراجته واتجه نحو "فيكتور". بينما واصل "نوربرت" صياحه:

- إن كان "فيكتور هوب" لا يعرف كيف يقود الدراجة، فسيكون عليه أن يمشي من هنا إلى "كالفاري هيل"!

وعاد الصبية للضحك.

وتعالى صياحهم.

أمر الأخ "رومبوت" الطلبة بالتزام الصمت. بينما ترك الأب "نوربرت" أذن "فيكتور" وابتعد عنه بدراجته.

مال الأخ "رومبوت" على "فيكتور"، واضعًا يده على كتف الصبي. وسأله بصوت رقيق:

- هل سبق لك أن ركبت دراجة، "فيكتور"؟

هز "فيكتور" رأسه نفيًا. وسكتت الضحكات التي أعقبت ذلك بغتة، حينما رفع الأخ رأسه ووجَّه إلى تلاميذه نظرة نارية.

قال الأب "نوربرت" بفظاظة:

- أوه، لنتركه هنا إذن.

ولكن الأخ "رومبوت" هز رأسه رافضًا:

- يمكنه أن يستقل دراجتي.

شاهد الطلبة كلهم القس وهو يرفع حاجبيه في اندهاش، ولكن الأخ "رومبوت" تجاهله.

- ضع دراجتك في مكانها. وتعالَ معي.

هكذا اتجهوا إلى "لا شابيل"، يتقدمهم الأخ "رومبوت" ومعه "فيكتور هوب" الجالس وراءه، متشبثًا بالمقعد بشدة. لم ينظر إلى يمينه أو يساره، لأنه كان يعرف أن زملاءه الطلبة يحدقون فيه، ويسخرون منه.

"لسوف يستهزئون منه ويعتدون عليه".

وهكذا بدأ كل شيء...

الحكم على يسوع بالموت. المحطة الأولى.

هكذا تقول اللافتة بثلاث لغات: الألمانية والفرنسية والهولندية.

حدَّق "فيكتور" في النحت وتعرف على المشهد.

واستثار كبار رجال الدين والعجائز عامة الناس.

صاح الحشد: "اصلبوه!".

بونتيوس بيلاتي. الذي غسل يداه.

ويسوع المقيد الصامت المستسلم لقدره.

المشهد منحوت من الحجر الرملي الأبيض ويتوج محرابًا من الرخام الأسود. وكل من المحراب والنحت المنقوش في داخل المغارة، وراء سياج من الحديد الزهر. وأخبرهم الأخ "رومبوت" أن الغار مصنوع من زجاج بركاني تم جلبه من منطقة "إيفل".

ثم جاء دور الأب "نوربرت". وقبل أن يشرع في الصلاة الأولى، ذكّر الطلاب أن الكلام ممنوع طول الطريق في درب الصليب، وخلال جميع محطاته الأربع عشرة. وأن صوتهم يجب ألا يكون مسموعًا إلا في الصلاة.

- هذا المكان المقدس لا يسمح إلا بالكلام المقدس.

مكان مقدس. كلمات مقدسة. احتار عقل "فيكتور".

ثم فتح الأب كتاب الصلوات، وبدأ يتلو:

"نعبدك، أيها الرب يسوع، ونمجدك".

وردد وراءه كل التلاميذ:

"لقد كنت فداء العالم بهذا الصليب المقدس".

تلا الأب "نوربرت" صلاة المحطة الأولى، وبعد أن انتهت ردد كل الطلاب صلاة الرب.

عقب ذلك، مشى الجميع عبر ممر ممهد ملتوٍ يفضي إلى المحطة الثانية، بينما كان الأب "نوربرت" يقرأ من دون توقف من كتاب الصلوات، وهو يحمله بين يديه المدوتين أمامه، وكأنه يحمل طائرًا ميتًا من جناحيه.

"يحمل يسوع الصليب على عاتقه. المحطة الثانية".

عاد "فيكتور" إلى تأمل المشهد أمامه، مستغرقًا فيه. الغار. السور. المحراب. اللافتة. وقبل كل هذا وذاك، النحت.

كان العمل الفني ثلاثي الأبعاد متقنًا للغاية، للدرجة التي قد تتصور معها أن تلك الشخوص الحجرية سوف تقفز إلى خارج المشهد في أي لحظة - وكأنها تقف ساكنة

فقط حتى يتفرج عليها الناس، ومن ثم تعود إليها الحياة. ولكن "فيكتور" يعلم أنها ليست حقيقية، وهذا لأنها صغيرة للغاية. أقصر منه في الحقيقة.

"آمين".

بينما كان يتبع خطى زملاء الفصل إلى المحطة التالية، شعر برغبة في النظر وراءه، وبقي ينظر خلفه إلى أن غاب النحت عن ناظريه، وتيقن تمامًا من أن تلك الشخوص لن تتحرك.

وهكذا انتقل مع بقية المجموعة من محطة إلى أخرى، وشاهد يسوع يسقط ثلاث مرات. وشعر ثلاث مرات برغبة في أن يساعده كي يقف على قدميه مجددًا.

وتساءل "فيكتور" عن سبب وجود ذلك السياج في كل محطة – وقال لنفسه إنه موجود ليمنع أي أحد من مساعدة يسوع.

"نعبدك، أيها الرب يسوع، ونمجدك".

"لقد كنت فداء العالم بهذا الصليب المقدس".

وصلوا إلى المحطة الحادية عشرة.

"يسوع مصلوب".

"أغرقته جراحكم".

سمع "فيكتور" الأب وهو يتلو، وهو يحدق في المطارق المرفوعة وقد سكنت حركتها وهي في طريقها إلى طرق المسامير لتخترق يدي المسيح وقدميه. ولأول مرة يشعر "فيكتور" بالارتياح لأن الحياة لم تدب في تلك الشخوص. ولكن هذا لا يعني أنه لن يجد المسيح في المحطة التالية وهو معلق مصلوب. يعرف "فيكتور" أن هذا هو ما سيراه، ولذلك لم يردد صلاة الرب، لأنه يعتقد أن المسيح قد صلب بسبب غلطة الرب. فهو من تخلى عن ابنه وتركه لمصيره.

"آمين".

هذه المرة، لم ينظر "فيكتور" خلفه وهم يبتعدون. هو يعرف أنه لو نظر فسيرى الشخوص وهي تعود للحركة. هذا ما سيحدث هذه المرة بالتأكيد، وعندئذٍ ستنهال المطارق على المسامير. وهو لا يريد أن يشهد ذلك.

تثاقلت خطواته بعض الشيء، فلا رغبة لديه لأن يرى يسوع وهو معلق في الصليب. ولكن يد الأخ "رومبوت" كانت تدفعه برفق من كتفه إلى الأمام.

اتخذ المسار انعطافة حادة، ووصلوا إلى ساحة كبيرة أمام المحطة الثانية عشرة. وفغر "فيكتور" فاه في دهشة.

ها هو ذا يسوع مصلوب، والمشهد بنفس الحجم الطبيعي. ليس في داخل غار، ولكن فوقه. ليس في عمل نحتي، ولكن تمثالًا وحده، وكأن أحدهم قد اقتاده من النحت وعلقه على الصليب. وكأنه توفي هناك، فوق التل.

إلى يمين يسوع ويساره صليبان آخران، عليهما رجلان آخران بنفس الحجم الطبيعي. وعند أسفل صليب يسوع، وبنفس الحجم الطبيعي أيضًا، يقبع أربعة رجال، وكان من السهل على "فيكتور" أن يتعرف عليهم، لو أنه كان منتبهًا.

لم يكن يرى في كل ذلك سوى يسوع على الصليب – كبيرًا، رمادي اللون؛ وكأن غبارًا انهمر من السماء واستقر فوقه.

هكذا تنامى في نفس "فيكتور" الخاطر الذي اعتراه لما سخر منه الصبية في بداية الرحلة.. وتنامى أكثر وأكثر. تجسد في هذه الآيات:

"يَا هَادِمَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّام، خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ. وَسَخِرَ مِنْهُ أَيْضاً رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ وَالشُّيُوخُ".

"خَلَّصَ غَيْرَهُ؛ أَمَّا نَفْسُهُ فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَ! أَهُوَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ؟ فَلْيَنْزِلِ الآنَ عَنِ الصَّلِيبِ فَنُؤْمِنَ بِهِ!".

انسحب "فيكتور" من المجموعة، ولم يره الأخ "رومبوت" أو الأب "نوربرت"، فقد كانا مغمضي العينين أثناء الصلاة. ولم ينتبه إليه سوى بعض الطلاب الذين لمحوه بعيون نصف مغلقة، وهو ينسحب.

"تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ، فَلْيُخَلِّصْهُ الآنَ إِنْ كَانَ يُرِيدُهُ! فَهُوَ قَدْ قَالَ: أَنَا ابْنُ اللهِ".

توارى عن الأنظار بين أشجار الصنوبر الشاهقة على جانبي الكهف. وبدأ الطلاب ينبه بعضهم بعضًا.

"وَكَانَ اللِّصَّانِ الْمَصْلُوبَانِ مَعَهُ يَسْخَرَانِ مِنْهُ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ!".

ظهر من الجانب، مثل إنسان يبزغ من بين أجنحة الطيور. وأسرع الخطى أسفل صليب القتلة، ومر على مريم المجدلية، والجندي الروماني، حتى توقف تحت قدمي يسوع. وقف وظهره إلى الصليب، يستند إليه. أعلى رأسه يوازي موضع السرة في جسد يسوع.

"وَمِنَ السَّاعَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ ظُهْرًا إِلَى السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ، حَلَّ الظَّلَامُ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا. وَنَحْوَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ".

عندئذٍ مد "فيكتور" ذراعيه محاكيًا يسوع من فوقه، وفتح فمه وصرخ:

"إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟".

تردد صدى صراخه الحاد في أرجاء المكان، فتطلع الجميع إلى مصدر الصوت.

ليشاهدوا مذهولين "فيكتور" أمامهم.

مصلوبًا.. وقد تدلى رأسه على صدره.

مثل المسيح.

***

مرَّت أسابيع على نشر مجلة (الخلية) لمقال "فيكتور هوب"، قبل أن تهب عاصفة عاتية من الغرب، عبر الأطلنطي. ففي معهد "ويستار" للتشريح والبيولوجيا في ولاية فيلادلفيا، عكف العالمان "ديفيد سولار" و"جيمس جراث" على دراسة محتوى المقال

وهما في غاية الدهشة. فقد كان العالمان يعملان على الموضوع نفسه منذ سنين عديدة، حتى اكتسبا سمعة محترمة ومرموقة في هذا المجال. لذلك أثار ما توصل إليه "فيكتور" العديد من التساؤلات لديهما. ولا شك في أن للغيرة المهنية دور هنا، ولكنها لم تكن محل نقاش. فما كان يهمهما هو تلك الأسئلة. ولهذا قررا القيام بما رفض "فيكتور" بكل إصرار أن يقوم به: "تكرار التجربة".

ولم يحاولا القيام بخطوات مختصرة. فاستغرقت التجربة منهما ثلاث سنوات طوال – ثلاث سنوات عكفا فيها على تلك النقطة الصغيرة نفسها، مثل نسرين يحلقان بكل إصرار فوق فريسة.

ولو أن هناك من أحد كان بوسعه أن يشعر باقتراب تلك العاصفة، فإنه بالتأكيد "ريكس كريمر". فهو بدوره قد حاول خلال تلك السنوات الثلاث أن يكرر تجربة "فيكتور هوب"، ولكنه فشل في كل مرة في استنساخ جنين الفأر. دومًا كان هناك شيء ما خطأ. وذات مرة ماتت الأجنة وهي بعد في وسيط النمو، وفي مرة أخرى فشلت عملية زرعها في الرحم، أمَّا في المرات النادرة التي نجم عن التجربة فيها مولد فئران، فإنها كانت إمَّا تولد ميتة أو تولد بعيوب خلقية فادحة. وكان "فيكتور" يشجعه على الاستمرار في محاولاته، ولكنه لم يفصح له أبدًا عن الطريقة السليمة، أو يساعده. وعلى الرغم من توقعاته المتفائلة، فلم ينجح "فيكتور" في استنساخ أي فأر كبير خلال السنوات الثلاث ذاتها، حتى بدأ "كريمر" يشك في سلامة الأسلوب الذي يتبعه. وأخبره "فيكتور" أن الأسلوب ليس المشكلة في تجربته، ولكن مشكلته كانت في عدم نجاح محاولاته لإلغاء برمجة الخلايا. وسلّم بالفعل بأنه وجد الأمر أصعب مما تصور – وكانت هذه هي أول مرة يعترف بها بأمر كهذا – ويوم أن نجح بالفعل في تحقيق تقدم، اعترف كذلك بأن الحظ قد لعب الدور الأكبر في ذلك. وشرح قائلًا إنه بعد أن تخلى عن تجربة معينة ترك الخلايا المستخدمة في طبق "بتري" ونسيها. وهو في الظروف العادية يضيف مصلًا تكميليًّا لوسيط النمو حتى يحافظ على حياة الخلايا، ولكنه لم يفعل هذا في تلك المرة، ولذلك كانت الخلايا جائعة بالمعنى الحرفي للكلمة. وبعد بضعة أيام، تصادف أن مر على طبق "بتري" ذاك وقرر، بدافع الفضول، أن يفحص تلك الخلايا. ووجد أن بعضها قد مات؛ ولكن بعضها الآخر لا يزال حيًّا، رغم أنها كانت قد ضعفت

جدًّا لدرجة فقدت معها وظيفتها المتخصصة. ولذلك فقد ارتدت تلك الخلايا إلى صورتها الأولى، كما لو أنها لم تنقسم أكثر من مرة أو مرتين – وهي تلك المرحلة بالتحديد التي يحاول "فيكتور" الوصول إليها على مدار ما يقرب من عامين. وكل ما كان عليه هو أن يستنتج كمية المصل المطلوبة لضمان ألا تتحصل الخلايا على التغذية الكافية لتنشط وفي الوقت ذاته تبقى حية وحسب، ثابتة عند المرحلة GO.

استمع "ريكس" إلى حكاية "فيكتور" بدهشة كبيرة، وحينما انتهى منها، أخبره بأن كل الاكتشافات العلمية قد تحققت من أخطاء مثل هذه، مصادفات عجيبة سرعان ما تتحول إلى حقائق مثبتة.

- لقد أمسكت بطرف الخيط الآن. ولن يستغرق الأمر طويلًا.

- متى، "فيكتور"؟

لو حصل العميد على موعد محدد فإنه سيتمكن من تهدئة أعضاء هيئة التدريس الذين أوشك صبرهم على النفاد.

- قبل نهاية العام.

كان هذا الكلام في يوليو 1983.

- أي بعد ستة أشهر فقط من الآن.

- ستة أشهر من الآن.

لم تكن نبرة كلامه تدل على ما إذا كان يعتبر هذه المدة وقتًا طويلًا أم لا.

أمَّا في الوقت الحالي، فقد عاود "فيكتور" الاتصال بالسيدتين. ولكنه قبل أن يفعل دوّن على ورقة ما يريد أن يقوله لهما. كلمة بكلمة. بل إنه قرأ ما كتبه على نفسه بصوت عالٍ، محاولًا أن تبدو نبرة صوته طبيعية قدر الإمكان.

كان يريد منهما أن تأتيا إلى "آخن". ويريد ذلك بشدة. وكان من الطبيعي أن تسألاه عن السبب. فأجاب بأنه يريد التحدث عمَّا جرى في الماضي. وكذلك يريد أن يناقش

المستقبل. يريد أن يخبرهما بأن العلم قد حقق قفزات كبيرة خلال السنوات القليلة التي مضت. ولم يخبرهما بالدور الذي لعبه في تحقيق تلك الطفرة. وسيقول لهما إن ما كان مستحيلًا صار الآن صعبًا فحسب. وما كان صعبًا من قبل هو الآن أسهل بكثير. وجد أن الكلام الذي جهزه لا بأس به.

أجابت سيدة اتصاله، وأخبرها باسمه وسأل عن حالها وحال صديقتها. كان قد دوّن كل شيء في الورقة، يقرأ منها وهي إلى جوار التليفون. غير أنها أجابته إجابة مخالفة للسيناريو الذي كتبه. فقد تركتها صديقتها ورحلت مع غيرها. ولم يكن هذا منذ وقت بعيد. من شهر أو شهرين تقريبًا.

لم يكن يعرف بماذا يرد عليها. لم تسعفه كلمات مناسبة. ومن حسن حظه أن السيدة تطوعت بالفضفضة. أخذت تحكي وتحكي لفترة من الوقت، وهكذا لم يكن عليه سوى أن يصدر أصوات متعاطفة بين الحين والآخر.

وفي النهاية، توقفت في وسط كلامها واعتذرت – فهي لا تريد أن تزعجه بحكاياتها. سألته عما يمكنها أن تفعله لأجله. وربما كانت تقصد أن تسأل عن سبب اتصاله، ولكن "فيكتور هوب" لم يكن ليفسر سؤالها على هذا النحو. فقد تعامل معه بشكل حرفي. أي أنها تريد فعلًا أن تفعل شيئًا لأجله. ذلك الشيء الذي يريده تحديدًا.

- أريدك أنت تأتي إلي.

كانت نبرته نبرة أمر.

أجابته بأنها تواجه مصاعب مالية، وأنها لا تمتلك ثمن الرحلة؛ ناهيك عن أجرة الإقامة في فندق.

أخبرها بأنه سيعوضها عن أي مصاريف. وألا تشغل بالها بالمال.

فسألته عن الموضوع الذي يريدها لأجله، وهكذا أتيحت له الفرصة ليعود للقراءة من ورقته.

لم يجد صعوبة في إقناعها. فهي كانت تشعر أصلًا بالجرح والإهانة. والغيرة. والوحدة. كل هذا كان يعتمل بداخلها طوال شهرين. وقد جاء عرض الدكتور في وقته.

فمن شأن طفل أن يعيد إليها الشعور بأنوثتها. وسيكون ذلك كالشوكة في ظهر رفيقتها السابقة. ونهايةً لوحدتها. والأجمل من كل هذا أنها ستحظى ببنت – بنت تشبهها تمامًا.

طبق الأصل.

***

وصلت العاصفة التي ضربت "فيلادلفيا" منذ ثلاث سنوات والتي وصلت مع مرور الوقت إلى حد الإعصار إلى البر الأوروبي مع نهاية فبراير 1984. وذلك حينما تم نشر مقال في مجلة العلوم للعالمين "ديفيد سولار" و"جيمس جراث" يبطلان فيه كل ما توصل إليه "فيكتور هوب". فقد قام "سولار" و"جراث" بتطبيق أسلوبه في استنساخ أجنَّة الفئران، ولم ينجحا ولا مرة في ذلك. فقاما بتحليل تقرير "هوب" بكل دقة وتفصيل وأبطلا بلا رحمة كل سطر فيه. وخلصا إلى ما يلي: "استنساخ الثدييات من خلال نقل نواة خلية إلى بيضة مستحيل من وجهة النظر العلمية".

الأهم كان ما بين السطور. فقد اقترح المقال أن عمل "فيكتور هوب" بلا أي قيمة، والأسوأ أنه اتهمه بالاحتيال.

اقتحم "ريكس كريمر" المختبر من دون أي استئذان. كان يقبض على نسخة مجلة العلوم، وهو يلوح بها مقتربًا من "فيكتور"، الجالس إلى مكتبه.

- هل قرأت هذا؟

- إنهما وقحان منعدما الكفاءة.

- هذا هو نفس الاتهام الذي يوجهانه لك.

- ومن يهمه ما يقولانه؟

- إنهما عالمان لهما سمعتهما، "فيكتور"! ومن رواد هذا المجال!

- هذا لا يعني لي أي شيء.

- بل يعني كل شيء، فما يقولانه يصير فورًا حكمًا قاطعًا.

- ليسا سوى نصابين.

فقال له "كريمر" بنبرة جافة:

- ولكنني لم أنجح بدوري في تكرار تجربتك. ولا مرة، خلال ثلاث سنوات.

في هذه المرة، سكت "فيكتور" ولم يعقب أو ينظر تجاهه.

استطرد العميد قائلًا:

- لطالما كنت أساندك وأدعمك، وأود أن أدافع عنك مجددًا، ولكني أريد منك أن تتعاون معي هذه المرة. إن بقية هيئة التدريس في غاية الغضب.

تمتم "فيكتور":

- وما شأنهم؟

- إنه شأنهم بالتأكيد. فهذا أمر يؤثر على سمعة الكلية بأسرها. لقد وصلتني استفسارات وشكوك نائب رئيس الجامعة. ويلزم علينا أن نقدم لهم الرد القاطع.

- أنا لن أرد على افتراء.

- هذا ليس افتراءً! ألا يمكنك أن تقتنع بهذا؟ هذا نتيجة أعوام من البحث أمضاها اثنان من كبار العلماء المحترمين. وإذا لم تدافع عن نفسك، فإن هذا يعني أنها قضية محسومة.

- ما هو المحسوم؟

- كل شيء. التجربة برمتها. سوف ينقطع التمويل وسترفع الكلية يدها، بل وقد يتم إلغاء الأمر كله.

لم يرفع "فيكتور" رأسه، ولكن أنفاسه تسارعت:

- هناك المزيد.

- ماذا قلت؟

- أقول، هناك المزيد.

- وما معنى هذا؟

- أنني قادر على إثبات أنهما على خطأ.

- افعلها إذن.

- لا يزال الوقت مبكرًا.

- وعدتني أن تنتهي في ستة أشهر. ونحن الآن في الشهر السابع. كان أملي أن تقدم لي أي نتيجة، "فيكتور".

تنهد "ريكس" في يأس. لقد أدرك أنه قد منحه قدرًا مبالغًا فيه من الثقة، وأن عليه أن يدفع ثمن سذاجته هذه.

عقد "فيكتور" يديه، ورفع رأسه:

- لقد انتهيت. ولكن علي الآن أن أنتظر.

- ما الذي تقصده، "فيكتور"؟ دعك من كلام الألغاز هذا. ليس هذا وقته أبدًا.

- لسوف أريك.

نهض واتجه نحو الترابيزة التي تحمل المجهر الذي يستخدمه خلال عملية حقن الخلايا. من حول المجهر رزم من الورق والدوريات، والكثير من أنابيب الاختبار الفارغة. وبنظرة سريعة، أدرك "ريكس" أن هناك الكثير من قصاصات الملاحظات في كل أنحاء المختبر، ولكن لا شيء يدل على أي عمل لفيكتور سوى تلك القصاصات. لا توجد أدوات اختبار، أو أطباق بيتري، أو حتى أقفاص فئران. كما لو أن "فيكتور" قد أتم تجربته، كما يزعم، ومن ثم صار يقضي وقته في قراءة المجلات، مثله مثل أي حارس في وردية ليل.

عاد إليه "فيكتور" ومعه رزمة من البطاقات، وبدأ يبحث فيها. وكمن يستعد لدور في لعبة البوكر، اختار خمس بطاقات من الرزمة، ووضعها فوق المكتب، أمام "كريمر". كانت خمس صور متطابقة، لها نفس التاريخ ولكل منها رقم مسلسل مختلف. كانت صور لشرائح مجهرية. ومن دون أن يقدم أي تفسير، وضع "فيكتور" خمس صور

أخرى فوق سطح المكتب. كانت بدورها متطابقة، ولا تختلف كثيرًا عن الصور الخمس الأولى. يظهر في كل صورة طرف محقن يخترق جدار الخلية. وفوق الصور العشر، وضع "فيكتور" خمس صور أخرى، تظهر كل منها خلية بعد الانقسام الخلوي الأول – وكان التاريخ يعقب تاريخ الصور السابقة بيوم واحد. واستمر يضع الصور، مجموعة تلو الأخرى، من دون أن يتفوه بكلمة، لتظهر مرحلة تلو الأخرى من مراحل تكون جنين.

لم يكن هذا ليثير أي انفعال لدى "كريمر". فلم يختلف ما يعرضه عليه "فيكتور" عن تلك الصور التي التقطها هو بنفسه. وكذلك لم تكن المجموعة التالية من الصور، التي تظهر أجنة ذات ثماني خلايا، وهي المرحلة السابقة على زرعها في الرحم، بالجديدة.

- ما الذي تريد أن...

- مهلًا.

كان يضع مجموعة جديدة من خمس صور، وهو يشير بقوة إلى كل صورة، وكأنه يريد أن يؤكد أهميتها. لاحظ "كريمر" أن المجموعات الجديدة من الصور تظهر مراحل نمو الجنين. من ثماني إلى ست عشرة، ثم إلى اثنتين وثلاثين خلية. وعلى حد علمه، فإن هذا لم يتحقق أبدًا من قبل بطريقة صناعية، من دون أن يتسبب في مشكلات جمة. لم يكن في المجموعة التالية من الصور إحصاء عدد الخلايا بالعين المجردة، ولكن لا بد أنها ست وأربعون خلية، ولما وضع "فيكتور" المجموعة الأخيرة، حتى إن سطح المكتب امتلأ عن آخره بالصور، أدرك "كريمر" أن الجنين الذي في الصورة قد نمى إلى مائة وثماني وعشرين خلية.

سأله بكل حماس:

- كيف فعلتها؟ ولماذا تتركها تنمو إلى هذه المرحلة؟

- عندما تنتقل بويضة مخصبة بالطريقة الطبيعية من قناة فالوب إلى الرحم، فإنها تصل هناك عندما تنمو إلى الحجم المبين في الصورة. عقب خمسة أو ستة أيام من التخصيب.

وأكمل، وهو يضع إصبعه على واحدة من صور المجموعة الأخيرة:

- وبالتالي تتزايد فرص نجاح بويضة مخصبة صناعيًّا في أن تزرع نفسها في الرحم، إذا انتقلت في مرحلة متقدمة عما جرى من قبل.

- ولكن أحدًا لم ينجح في إنتاج أجنّة على هذا النحو من قبل.

أجابه "فيكتور" بنبرة آلية:

- أحيانًا لا يكون المستحيل إلا أمرًا بالغ الصعوبة فحسب.

- ولكن كيف، "فيكتور"؟

- المسألة تتعلق بالتوصل إلى المعادلة الصحيحة. إنها كيمياء بحتة. وسوف أعد تقريرًا مفصلًا لأجلك.

عاد الأمل يطل برأسه داخل عقل "ريكس":

- أريد منك أن تعد هذا التقرير بسرعة.

إلتقط واحدة من صور المجوعة الأخيرة، وقرأ التاريخ: 10 فبراير 1984. أحصى على أصابعه، وهو يقول:

- مرت ثلاثة أسابيع. لذا قد يولد هذا الفأر في أي وقت من الآن.

وجد "فيكتور" يهز رأسه.

- هل وقع خطأ؟ هل أجهض الجنين في النهاية؟

هز "فيكتور" رأسه مجددًا.

سأله "ريكس" بصبر فارغ:

- ما الأمر إذن، "فيكتور"؟

أجابه "فيكتور" وهو يحدق في اللا شيء:

- سوف ننتظر تسعة أشهر. تقريبًا.

تسعة أشهر. طافت العبارة في عقل "كريمر". تسعة أشهر. صعق، وهو يتمنى أن تكون الفكرة التي خطرت له للتو مجرد فكرة مجنونة. شعر بالغثيان وهو ينظر إلى الصورة التي في يده، رغم أنه يعلم أن هذه النظرة لن تأتيه بجديد. كل أجنّة الثدييات تبدو متماثلة في هذه المرحلة.

- هل هذه....

لم يستطع أن يكمل سؤاله.

- هذه أجنّة بشرية.

دفن "ريكس" رأسه بين يديه.

لو أن هناك من سوف يتهم بالاحتيال في هذه الحكاية كلها فلن يكون هذا الشخص سوى "ريكس كريمر"، لأنه من اكتشف أن "فيكتور" يقوم بمحاولة استنساخ إنسان. إنه يدرك بالتأكيد ما يفعله، ولكن ليس بيده أي خيار. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة المتبقية له حتى يصحح هذا الوضع. قد يكون قراره قصير النظر، أو تشوبه المصلحة الذاتية؛ وربما كان دافعه الفزع والخوف، ولكنه قراره هو على أي حال.

صحيح أن "فيكتور" هو من مهَّد له الطريق، ولكن السيناريو التالي معلق بيد "كريمر". فقد طلب من "فيكتور" الاستمرار في تجربته، ولكن بشرط أن يقوم باستنساخ بعض الفئران خلال أسرع وقت ممكن، وخاصة أن هذه هي التجربة الأصلية التي كان من المفترض أن يعمل عليها. ربما وجد "فيكتور" أن هذه خطوة في الطريق الخطأ، ولكنها كفيلة على الأقل بإفحام "سولار" و"جراث"، والأهم أنها الخطوة الكفيلة بإقناع بقية المتشككين. كما أنها ستكون فرصة لـ"فيكتور" ليمهِّد للناس تقبُّل مسألة استنساخ البشر، والتي ستكون في كل الأحوال بمثابة صاعقة أصابت البشرية جمعاء بغتة.

تخيَّر "ريكس كريمر" كلماته وعباراته بكل عناية وبلاغة، ومن حظه الحسن أنها قد وجدت أذنًا صاغية. كما اقترح العميد أن يقدما هذه الصور على أنها صورة لأجنة فئران وليست بشرية.

- عليَّ أن أعرض أي شيء عليهم. هذه هي الوسيلة الوحيدة لإقناعهم ونحن في هذه المرحلة.

- إقناعهم بماذا؟

- بسلامة ما نقوم به؟

كان حريصًا مرة أخرى في اختيار الكلمات، ولكنه كان بالفعل يقصد ما يقول. واعتقد مخلصًا أن "فيكتور" قد حقق ما يقول أنه قد حققه، رغم أنه غامض جدًّا بشأن النتيجة النهائية للتجربة – بل هو غامض في كل ما يتعلق بالتجربة برمتها. حتى الآن على الأقل. وكان يتمنى في قرارة نفسه ألا تكون الأجنة قد زرعت في رحم امرأة، أو أن يرفضها الرحم في نهاية المطاف. لسوف يعفيه ذلك من قدر كبير من الإحساس بالذنب، رغم أن هذا ليس هو همه الأول حاليًا.

سأله "فيكتور":

- وماذا لو كانوا يريدون أن يتعرفوا على مكان الأجنّة؟

- سنخبرهم عندئذٍ أنها قد أجهضت. وبوسعي أن أعرض عليهم بعض الأجنة الخاصة بأبحاثي.

- سنخبرهم؟ أنت تقول "سنخبرهم"...

- أجل، "فيكتور"، هذا صحيح: نحن. أنت وأنا. لا بد أن تكون قصتنا واحدة. وعندما يحين الوقت المناسب سنخبرهم بالحقيقة. وعندئذٍ سيفهمون كل شيء. كل ما نريده الآن هو أن نكسب الوقت. ولا بد أن نجهز العالم للخبر المنتظر.

أومأ "فيكتور" متفهمًا، وشعر "ريكس" أنه قد أقنعه. كان محقًّا في اعتقاده بإمكانية ترويض "فيكتور" وتوجيهه إلى مسار معين من خلال حسن اختيار الكلمات. بلاغة الكلام تؤثر في "فيكتور". فيبدو أنه يعطي للكلمات تقديرًا أكبر من المعلومات. وربما يعود هذا إلى كونه يعتبر الكلمات أرقى مستويات المعرفة – لم يكن "كريمر" متيقنًا من هذا الأمر، ولكن هذا لا يهم في الحقيقة. هذا تفسير كافٍ لسبب عدم اهتمام

"فيكتور" بالأبحاث العلمية، لأن الأبحاث عبارة عن بيانات، وليست بليغة. ففيها تكون الأهمية للمضمون، وليس لجماليات اللغة.

عاد "ريكس" ليختبر نظريته بأن طرح سؤالًا آخر على "فيكتور". رغم أنه كان مقتنعًا بأنه قد استخلص من "فيكتور" كل شيء، حتى أنه كان يعرف الإجابة مسبقًا.

سأله عن السبب الذي دفعه إلى أن يستنسخ نفسه. وكان متيقنًا من أنه سيسمع منه كلامًا عن الخالق الذي خلق الإنسان على صورته.

ولكن إجابة "فيكتور" كانت مختلفة تمامًا هذه المرة. أول ما فعله هو أن أشار إلى فمه – إلى تلك الندبة في شفته العلوية، والتي يكاد الشارب يخفيها.

- بسبب هذه.

- ما الذي تقصده؟

- هذا سيكون أقوى إثبات. تمامًا مثل لون الفراء بالنسبة للفئران.

أدرك "ريكس" على الفور مقصده. صار الأمر كله علميًّا بحتًا فجأةً، علميًّا بحتًا؛ الإثبات والبرهان. ما الذي جرى لبلاغة الكلام؟

- أنت إذن تعني.. لو أن المولود، عندما يولد، لديه هذا.. فإن هذا سيكون بالفعل الدليل المادي على أن ذلك الطفل مستنسخ منك.

هز "فيكتور" رأسه مؤمنًا على كلامه.

- ولكن ربما كانت هذه الندبة من العلامات الموروثة في العائلة، أليس كذلك؟

كان "ركيس" يجهل مدى قرب ملاحظته من الحقيقة.

- يمكن أن تورث، مثل أي عيب جيني، أليس كذلك؟

أجابه "فيكتور" بسرعة، وبنبرة مهنية:

- كل عيب خلقي مثل هذا يحمل سمات مختلفة عن مثيله. المكان، والشكل، والعمق، والاتساع. ولذلك، وإذا أمكنني أن أثبت أن العيب الموجود في الطفل متطابق تمامًا مع ما هو موجود لديَّ...

- ولكن كيف ستفعل هذا؟ فالعيب لديك...

لم يجد الكلمة المناسبة، واكتفى بإشارة مفهومة.

عندئذٍ، قدم "فيكتور" إليه ملفًا، وهو يقول:

- من خلال هذا.

فتح "ريكس" الملف، وحدق في الصور بكل دهشة. الصور جميعها بالأبيض والأسود، ومقربة للغاية، حتى إن كلًّا منها يعرض بكل قسوة كل ما أخفته الندبة لسنوات. لم يمكنه أن يبعد عينيه عن الصور. بدءًا من النسيج الناقص، والعظم الظاهر تحتها. وكلما أمعن النظر في الصور، شعر بأن شيئًا ما يتمزق بداخله - كما لو أن هناك عدوى تنتقل إليه بمجرد النظر إلى الصور. وجد نفسه يسأل "فيكتور":

- وماذا عن المرأة، "فيكتور"؟ المرأة. هل تعرف؟

لم يجبه "فيكتور"، وكانت هذه إجابة كافية بالنسبة لـ"ريكس".

لم يخبرها "فيكتور". لقد حاول، ولكنه عجز عن ذلك. بادر بتعريفها، وكان الأمر سلسًا في البداية، كما خطط له. قال لها إن المولود سيكون من خلايا بويضتها، وإنه ليس هناك أي حيوان منوي. وكان صادقًا في ذلك، وهكذا قاله لها من دون أي اضطراب.

كانت تردد نفس كلماته لنفسها. خلايا بويضتها.. من دون حيوان منوي.

أدرك "فيكتور" من رد فعلها المتحمس أن ما قاله لها قد جعلها تعتقد شيئًا لم يخطر بباله أبدًا. وذلك لما قالت له بصراحة:

- إذن، فالمولود سيكون شبهي تمامًا!

همَّ بأن يقول لها إن المولود لن يكون شبهها – وإن من المستحيل أن يشبهها. وكاد يطمئنها بأن يعدها بأن يصنع لها مولودًا شبيهًا لها في المرة التالية.

كاد يفعلها، ولكنه وجدها تقول له:

- طفل أو طفلة تشبهني تمامًا. ستكون هذه هي هبة الرب لي.

كلمات أطفأت لديه كل رغبة في أن يصارحها..

بالحقيقة.

***

اكتسب "فيكتور" خلال المرحلة الثانوية في مدرسة الأخوان المسيحيين العديد من أسماء الشهرة التي كانت تسخر من منظره. بل أن المعلمين، سواءً كانوا رهبان أو عاديين، كانوا ينعتونه أحيانًا "الأحمر" أو "الشفة". وكان "فيكتور" يسمع كل تلك الأوصاف، وخاصة حينما يصيح التلاميذ من وراء ظهره بكل أنواع الأوصاف القبيحة، ولكنه كان يتجاهلها. لم يكن في الحقيقة مشغولًا إلا بقليل من الأمور. وكان هذا من حسن حظه، ففي تلك الأيام لم يكن هناك من أحد ليقف إلى جواره ويحميه مثلما كان الأخ "رومبوت" يفعل في المرحلة الابتدائية.

وكان من الطبيعي أن يعتقد من حوله وهم يرون تلك اللامبالاة، أن "فيكتور" قد أقام من حوله جدارًا يحميه من كل أذى يوجه إليه – وأحيانًا ما يكون الأذى بالمعنى الحرفي للكلمة، عندما يلقون عليه بالورق أو يصوبون عليه الكرات، أو بالمعنى المجازي، عندما يضايقه الحمقى الصغار وينعتونه بأقبح الصفات.

ولأنه لا يبدي أي رد فعل يذكر، فلم يكن عمر تلك المضايقات طويلاً. فعند بداية كل عام دراسي جديد، وحينما يرغب زملاؤه في استعراض عضلاتهم أمام الوافدين الجدد على الفصل، يكون "فيكتور" هو الفريسة السهلة بين أيديهم، ولكن ما هي إلا أسابيع حتى يملون ويتركونه وحاله.

كما أنه يمشي جوار الحائط في سكن الطلاب أيضًا، وكثيرًا ما تراه يسير وهو يدس رأسه في كتاب يقرأه. يقرأ.. يقرأ.. ثم يقرأ. في كل وقت وفي أي مكان. يقرأ كتب الدراسة.. والموسوعات.. والدوريات.. والمراجع.

كانت قائمة الكتب التي استعارها من مكتبة المدرسة طويلة إلى حد مثير للدهشة، ولكن موضوعات الكتب محدودة، فهو غير مهتم إلا بالكتب التي تتناول العلوم الطبيعية. فلم يحدث أن استعار كتابًا في أي موضوع آخر، أو أن قرأ كتابًا لمجرد التسلية.

وهكذا كان "فيكتور" مستغرقًا في هدفه بعيدًا عن كل من هم حوله. فهو لا يتكلم – إن حدث وتكلم – إلا عن أعاجيب الجسد البشري، أو عن آلية عمل جهاز أشعة إكس، أو عن دواء جديد تم التوصل إليه للتغلب على مرض مخيف. وما إن تشجعه على الكلام، حتى يبدأ ويسترسل ثم يسترسل بكل إسهاب حتى يفقد الكثير من حوله القدرة، والرغبة، على متابعة ما يقول. وهو لا يكون مدركًا لذلك، لكونه فاقد لهذا التفاعل مع الغير. ولا يتوقف إلا حينما يصيح فيه المعلم أن يغلق فمه ويسكت عن هذا المونولوج المستمر.

كما شهدت سنوات المدرسة الثانوية تنامي حالة "الارتباك والسرحان" التي صارت من علامات شخصية "فيكتور" وبدرجة أكثر وضوحًا. كان هذا على الأقل تفسير معلميه لعادته في تسليم واجبات غير مكتملة. أسماه بعض المعلمين كسلاً، والحقيقة أنهم كانوا الأقرب إلى الحقيقة. فلم يكن "فيكتور" ببساطة يكلف نفسه عناء القيام بالعديد من واجباته، لأنه لا يرى أي منطق في أن يكرر نفس الشيء مجددًا طالما أنه تعلَّم كيفية القيام به، أو أن يكتب شيء على الورق مرة أخرى بينما هو قد انطبع بالفعل في عقله.

وبسبب ما كان يعتبر شرودًا وارتباك، وكذلك مجال اهتماماته المحدود، لم يكن "فيكتور" إلا طالبًا متوسط المستوى. كان ينال درجات ممتازة في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا؛ ومتوسطة في اللاتينية واللغات، وبالكاد ينجح في الجغرافيا والتاريخ والرياضيات. وكاد يرسب في الدراسات الدينية والموسيقى والفنون. وبالطبع لم يكن بمقدوره أن يقفز سنوات الدراسة، على النحو الذي كان يفعله في المرحلة الابتدائية. وهكذا استغرق "فيكتور" ستة أعوام حتى ينتهي من دراسته الثانوية، مثله مثل بقية الطلبة، ولكن التحاقه بالثانوية في سن أصغر أفاده؛ فقد كان في السادسة عشرة حينما

تخرج في الثانوية، ليكون أصغر الطلاب المتخرجين في ذلك اليوم الأخير من يونيو 1961، وليستعد للالتحاق بالجامعة.

مرَّت عليه الأعوام الستة من دون أي حادثة غريبة، ومن دون أن يجعل من نفسه فرجة للآخرين. فقد توصل "فيكتور" إلى حالة من التصالح مع نفسه ومع معتقداته – بمعنى أن أي فكرة جديدة لم تكن لتقلقه. فهو الآن مؤمن بأمر وحيد: الرب فعل أشياء سيءة وشريرة، ولم يفعل يسوع إلا الخير.

وقد تلقى يسوع عقابه على ذلك في النهاية. شاهد "فيكتور" ذلك بعيني خياله. وهكذا تيقن من أن فعل الخير لا يقود صاحبه إلا إلى العقاب. وهو الأمر الذي تأكد له في كالفاري هيل، حينما جرّه الأب "نوربرت" بعيدًا عن الصليب ولطمه على أذنيه، لطمات نزلت عليه كأنها صاعقة.

– سوف يعاقبك الرب على ما فعلت، "فيكتور هوب"!

سيحاول الشر دومًا أن يبدد الخير. مرة تلو الأخرى.

وبرغم كل ما صادفه، إلا إن "فيكتور" كان عازمًا على الاستمرار في فعل الخير. فلا يزال هدفه في الحياة أن يكون طبيبًا، وطالما أنه يحمل هذا الهدف على عاتقه، ويعمل على تحقيقه، فلا شيء قادر على أن يجعله يغير رأيه.

ولكن عليه أن يبقى محاذرًا الشر. فهو كامن ينتظر الفرصة لينقض عليه. يعرف هذا بمجرد النظر إلى أبيه. فهو الطبيب الذي يفعل الخير، والأب الذي يقترف الشر. الأسوأ أن هذا الشر يسود. ورغم أن "فيكتور" نادرًا ما يزور البيت، إلا إن أباه يجد خلال تلك الأوقات القليلة أي سبب ليغضب منه. ويبدأ في الصراخ، أعلى وأعلى، وأحيانًا ما يصل إلى حد الجنون.

"ما الذي فعلته لأستحق هذا، بحق المسيح!"

تلك هي صيحته المألوفة، ويعرف "فيكتور" أنه يقصد ذلك الشر الذي استولى عليه.

حتى أهل القرية يقولون الشيء نفسه. فذات يوم، لم يكن والده قد عاد من كشف منزلي، وكان هناك أشخاص في انتظاره عند البوابة. بينما كان "فيكتور" في غرفته وأصواتهم في الخارج تصل إليه عبر نافذته.

- الدكتور ليس في حالته الطبيعية، أليس كذلك؟

- حالته من أسوأ لأسوأ.

هذا ما سمعه. ووجد فيه "فيكتور" ما يكفي.

كان "فيكتور" في الخامسة عشرة حينما اكتشف أن المصحة العقلية التي أمضى فيها سنواته الأولى كانت قرية لا شابيل. لم يفكر أبدًا فيها أيام كان في المدرسة. ليس لأنه نسيها، ولكن وقت طويل قد مر على آخر مرة حفَّز فيها أي شيء ذاكرته المنزوية داخل عقله. لم يعد لأي شيء القدرة على إحداث ذلك الأثر. ألقى وراء ظهره ذكريات القداس الأسبوعي والصلوات اليومية. وركن الإنجيل على الرف الذي اعتاد أن يقرأه بكل شغف، تمامًا كما سيفعل مع كتب الدراسة القديمة في نهاية العام الدراسي. لم يدرِّس له في الثانوية مدرِّس مثل الأخ "رومبوت"، وهو الذي بحنوه ورقة صوته بقي يذكره بالأخت "مارثا"، ولكنه ما إن انتقل إلى المبنى الجديد حتى نسيه، هو والأب "نوربرت" الذي بدوره كان يذكره بالأخت "ميليثا".

وفي المجمل، وبخلاف ذلك السلام الذي توصل إليه مع معتقداته، فقد وجد "فيكتور" راحة عقله في المدرسة. ولكن شيء ما حدث ليحفز ذاكرته، ليس بغتة، ولكن تدريجيًّا – كما لو أن أحدهم بدأ يسحب خيوطًا من داخل عقله، وتحوَّلت الأصوات إلى نغمة مألوفة.

حدث ذلك كما حدث من قبل.. في النزهة السنوية للفصل.

اعتاد طلَّاب اللاتينية في الصف الخامس القيام برحلة إلى نقطة تقاطع الحدود الثلاثة، ومنها يتجهون إلى كالفاري هيل في لا شابيل. ولم يسبق لـ"فكيتور" أن ذهب إلى تلك النقطة الحدودية، ولكنه كان معتادًا جدًا على كالفاري هيل. ولكنه لم يرفع يده

حينما سألوا الطلاب عمَّا إذا كان أيًّا منهم قد تتبع من قبل محطات الصليب. كما أنه لم يكن مهتمًا كثيرًا بتلك الرحلة. ولم يكن شغوفًا بمشاهدة النقطة الحدودية، ناهيك عن عدم رغبته في الذهاب إلى كالفاري مجددًا، عبر طريق المسيح.

في هذه المرة، ذهب الطُّلَّاب في عربة. عدد الطلاب واحد وعشرون طالب، ولم يرغب أي منهم في الجلوس جوار "فيكتور". وهو لم يهتم. بل لم يلاحظ ذلك أصلاً. على أن هناك من جلس أمامه، ومن جلس خلفه، ومنهم "نيكو فرانك"، طالب طويل القامة عمره سبعة عشر عامًا، الذي ربَّت على كتفه بينما تهم العربة بالانطلاق.

- "فيكتور"، أتعرف أننا سوف نمر إلى جوار المصحة النفسية مباشرة؟

وبادر الصبي الجالس إلى جوار "نيكو فرانك" بالتعقيب:

- أجل، ومن الأفضل لك ألا تلمحك الراهبات، وإلا فلسوف يمسكن بك.

- وعندئذ سوف يضعنك مع المجانين، حيث ينبغي أن تكون.

لم يهتم "فيكتور" للضحكات التي تعالت بعد هذا التعليق الساخر. كلمات بعينها هي التي أقلقته فعلاً: المصحة. الراهبات. المجانين. ثلاثة خيوط ذكريات كانت قد تمزقت تمامًا.

كان "فيكتور" ينظر عبر النافذة، ولكنه غير منتبه إلى شيء ممَّا يمر أمام عينيه. بل إنه لم يلحظ أن العربة مرت بالفعل على منزله.

قال معلم اللاتينية، الأخ "توماس":

- هنا يعيش "فيكتور" خلال العطلة. والده هو طبيب البلدة.

علَّق "نيكو فرانك" ساخرًا، وهو يربِّت على رأس "فيكتور":

- ظننت أنه يعيش في مصحة المجانين!

صاح الأخ "توماس" بصرامة:

- "فرانك"، اجلس وتأدب!

استمرت الضحكات فترة أخرى من الوقت.

مصحة المجانين. ذلك الخيط. بداية نغمة.

عندما وصلت العربة إلى أعلى جبل فالسربرج، ترجل منها الجميع. وكان "فيكتور" آخر من خرج منها. وبينما يشرح السيد "روبرت"، معالم الجغرافيا، ما هم بصدد أن يروه، كان "فيكتور" يتطلع حوله. كان المكان مزدحمًا. عشرات من السياح يتجولون في القمة، التي تنتشر فيها الأكشاك ومجموعة من المصاطب للجلوس.

قال المعلم:

- سوف يقومون ببناء برج جديد هنا، سيكون أطول من برج جوليانا. أمَّا البرج القديم فهو هناك، في الأرض الهولندية. هل سبق لأحد منكم أن ذهب إلى هولندا؟

لم يسمع "فيكتور" السؤال. فقد كان يفكر في المصحة. وفي الراهبات. وفي المجانين.

"حمقى". "مخابيل". الكلمتان اللتان ظهرتا في عقله.

- "فيكتور"، هيا بنا!

توجهت مجموعة الطلبة نحو نقطة الحدود الثلاثية. وتبعها "فيكتور".

عمود من الإسمنت. هذا هو كل شيء.

- بلجيكا... هولندا... ألمانيا

هكذا ردد السيد "روبرت"، وهو يتجول حول العمود، مادًا ذراعيه لتصنع أربع زوايا.

لم يفهم "فيكتور" ما يحاول المعلم أن يوضحه لهم. فالأمر تجريدي أكثر من اللازم بالنسبة له. لو كان الأخ "رومبوت" في مكانه لكان قد جعل تصور الأمر أسهل بالنسبة له؛ كان سيلتقط قطعة طبشور ويرسم بعض الخطوط على الأرض، ومن ثم سيمكن لفيكتور فهمه. وعلى كلٍ، فقد كان عقله في مكان آخر. وهذا لم يحسن من أمور لم تتحسن عندما ينشط شيء يقوله الأخ "توماس" شيئاً ما في عقل "فيكتور".

- هذه هي البقرة المقدسة لأي جغرافي.

وعقَّب، وهو يضع يدًا على الحجر وأخرى على كتف زميله المعلم:

- التمثيل المادي لشيء هو في الحقيقة غير مرئي. تمامًا مثل الرب، بمعنى آخر.

لم يسمع "فيكتور" السخرية في صوت الراهب. لم يسمع سوى "البقرة المقدسة" و"الرب". وهو ما دفعه إلى تذكر صوت آخر:

تنطق "موزيز"، "فيكتور". بحرف زال، كما في "روزيز".

شعر بارتعادة تسري في جذعه. ومنذ تلك اللحظة غاب عن كل شيء من حوله. لم ير أولاد فصله وهم يجوبون منطقة الحدود الثلاثة، مادين أذرعتهم وسيقانهم. ولم يسمع معلم الجغرافيا وهو يسأله عمَّا إذا كان يرغب في السفر للخارج، مثل بقية الأولاد. كما لم يسمع الأخ "توماس" وهو يقول:

- "فيكتور" يحلم بالسفر إلى ما هو أبعد من ذلك. إنه يحلم بالبحار السبعة.

بعد أن تجوَّل الأولاد في أعلى نقطة في هولندا، حيث تمثل النقاط الحدودية الثلاث، وفقا للأخ "توماس"، شوق الناس لشيء يرتبطون به في حياتهم، عادوا مرة أخرى إلى العربة.

قال لهم السيد "روبرت":

- الآن ستتحركون إلى لا شابيل. إلى كالفاري هيل. وسيعرفنا الأخ "توماس" بتاريخها.

وبدأ الراهب يشرح:

- كان هناك صبي اسمه "بيتر أرنولد" يعيش هنا في نهاية القرن الثامن عشر. وكان يعاني من الصرع، وذات يوم اشترى تمثالاً للسيدة مريم من السوق، وعلقه في شجرة بلوط قديمة.

- "فيكتور"، هل أنت منصت؟

سأله السيد "روبرت"، الذي كان يجلس إلى جواره، وهو يلكزه.

أجابه "فيكتور" بنبرة آلية:

- وعلَّقه في شجرة بلوط قديمة.

أومأ معلم الجغرافيا، وعاد إلى حكايته:

- وشُفي من الصرع. ولهذا السبب بنت الأخوات كلير كاتدرائية إلى جوار شجرة البلوط تلك. وبعد بضعة سنوات أخرى وقعت معجزة ثانية. فقد شفي "فريدريك بيلتسر"، وهو ولد في الرابعة من عمره، فجأة من الجنون بعدما توجه أبواه إلى الكاتدرائية للصلاة من أجله. عندئذ قررت الراهبات بناء دير ومصحة عقلية إلى جوار الكاتدرائية، حتى ترعين المزيد من المرضى المساكين.

"المساكين". معظم الكلمات مرت على رأس "فيكتور" مرور الكرام، ولكن هذه الكلمة تعلقت بها مثل صنارة صيد. فلم يكن قد سمعها منذ أن غادر المصحة.

لنصلي للمساكين. هكذا كانت الأخت "ميليثا" تبدأ الصلاة عندما يتجمعون في الكتدرائية. المساكين – هم المساكين.. المرضى.

وبدأت تروس عقله تدور، في وتيرة دعاء.

"مارك فرانسوا"

"فابيان نادلر"

"جان سورمون"

لكل اسم يظهر وجه.

"نيكو بومجارتن"

"أنجلو فينتوريني"

"إيجون فيس"

رأى أمامه مشهد "أنجلو فينتوريني" وهو يضع الوسادة فوق وجه "إيجون فيس".

لنصلي لأجل "إيجون فيس"، الذي ترك الدار الفانية إلى الآخرة الأبدية.

لتجد روحه السلام.

هل تصلي لأجل "إيجون"؟ جميل. لذلك بالتأكيد ستجد روحه السلام. الرب أعطى والرب أخذ، "فيكتور".

رأى الأخت "مارثا" وهي تستدير لتبتعد عنه. تمشي وكأنها تحمل صليبًا ثقيلاً.

عثروا على "فيكتور" في ساحة الكنيسة في الدير. كان جاثيًّا على ركبتيه أمام شاهد، وقد تشابكت يداه.

أدرك السيد "روبرت" أن "فيكتور" ليس مع بقية الطلبة عندما كانوا في المحطة السادسة من محطات الصليب. ولم يكن أحد يعرف منذ متى وهو متغيب. لم يكن أحد يفتقده.

عثر عليه الأخ "توماس" والأخت "ميليثا". وما أن رأته رئيسة الدير حتى وضعت يديها على فمها من فرط المفاجأة.

سألها الراهب:

- أتعرفينه؟

ولكنها هزت رأسها مجيبة:

- كلا، لا أعرفه. لم يسبق لي أن رأيته. لابد أنه تائه.

اصطحب الأخ "توماس" الصبي بعيدًا عن المكان. ولم يمانع "فيكتور" في ذلك.

إنه ليس تائه. ولكن المكان الذي وجدوه فيه هو ببساطة أقصى ما أمكنه أن يصل إليه.

كان الدكتور "كارل هوب" يقرأ الجريدة بعد تناوله الإفطار، حينما دخل ابنه المطبخ. صب لنفسه كوبًا من الحليب، وبقي واقفًا عند حوض المطبخ.

- متى أخرجتني من مصحة لا شابيل؟

كانت تلك مفاجأة مزدوجة بالنسبة للأب، أن يقوم "فيكتور" بتوجيه سؤال إليه فجأة، وموضوع السؤال نفسه.

- ماذا قلت؟

سأله مندهشًا، ولكنه تظاهر بالاهتمام بالجريدة، متمنيًّا ألا يجرؤ "فيكتور" على تكرار السؤال.

ولكنه سأل.

وجد الدكتور نفسه يقول له من دون أن يرفع عينيه إليه:

- المصحة؟ ما الذي خطر على بالك؟ أنت لم تكن أبدًا في مصحة.

- ولكن، ألم أكن... الأخوات...

فقال له الطبيب، بنبرة أعلى:

- كلا، "فيكتور"، أنت لم تكن في مصحة!

ألقى بالجريدة على الترابيزة، ورفع رأسه نحوه مستطردًا:

- طالما قلت لم تكن إذن أنت لم تكن! أنا الذي أعرف!

بقي ابنه في مكانه لفترة أطول قليلًا. من الواضح أنه كان يفكر فيما سمعه، قبل أن يدور على عقبيه خارجًا. وسقط كوب الحليب من يده. أسقطه متعمدًا، وابتعد بكل بساطة.

تجمَّد "كارل هوب" في مكانه للحظات، وكأنه التصق بالكرسي. ثم نهض سريعًا وركض وراء ابنه.

عندما عاد "فيكتور" إلى مدرسته الداخلية بعد بضعة أيام، وجد وهو يفرغ محتويات حقيبته ملفًا عليه اسمه. في الركن الأيمن العلوي مكتوب: المصحة العقلية في دير سانت كلير، ويلي الاسم عنوان في لا شابيل. لم يكن في الملف أي خطابات؛ فقط بطاقة فهرس مدون فيها عدة تواريخ وصورتين بالأبيض والأسود.

حدق "فيكتور" في الصورتين من دون حماس، كما لو أنه يراهما بأعين طبيب شاهد مثلهما كثيرًا من قبل.

تفحَّص البطاقة. كان بعد كل تاريخ كلمة أو كلمتين. أمام تاريخين توجد عبارة "بليد العقل". ثم قرأ عبارة أخرى: يمكنه التحدث، وإن كان الكلام غير مفهوم. ثم قرأ السطر الأخير: تم خروجه. كان أمام العبارة تاريخها: 23 يناير 1950.

وحده هذا التاريخ هو الذي جعله ينفعل ويهتز من داخله...

يهتز بشدة.

***

شعر "ريكس كريمر" على الفور بأن شيء ما يوشك أن يقع. فقد بدأ زملاؤه في هيئة التدريس يتجنبونه قبل الاجتماع، وكلما حاول أن يتحدث إلى أي منهم، كان يجد إجاباته مقتضبة، هذا إن أجابه. فقال لنفسه أنهم سرعان ما سيغيرون تلك المعاملة.

عندما دعا نائب رئيس الجامعة إلى عقد هذا الاجتماع، تولى "ريكس" إدارته، ووزَّع صور الأجنة البالغ عمرها ستة أيام. وشعر بشيء من عدم الارتياح وهو يخبرهم مدعيًا أنها أجنة فئران، وزاد عدم ارتياحه عندما لم يجد تعليقًا من أحد. ولاحظ أن بعض أعضاء هيئة التدريس ينظر إلى النائب، الذي تنحنح قبل أن يقول:

- لا يمكن أن تأخذ أي شيء كأمر مسلَّم به بعد الآن. ونحن نفهم أنك ترغب في دعم الدكتور "هوب"، ولكن هناك الكثير الذي يلزم إعادة النظر فيه في هذا الصدد.

- ولكن.. الصور تتحدث عن نفسها، أليس كذلك؟

- ليس للأمر علاقة بالصور.

ازدرد "ريكس" لعابه في قلق. وتساءل عمَّا إذا كان النائب يعرف أنه يكذب بشأن حقيقة الصور. الفكرة في حد ذاتها جعلته يرتعد. كان قد بدأ يدرك أنه قد ارتكب خطأ

فظيعًا. أحداث الأيام القليلة الماضية أربكته. وبدأ يفعل أشياء لم يفعلها من قبل؛ أشياء لم تخطر له ببال أبدًا.

انتهز النائب فرصة سكوت "كريمر".

- سيكون هناك تحقيق. وقد شكلنا لجنة علمية دولية، ولسوف تتولى التحقيق فيما إذا كان الدكتور "هوب".. مدعيًّا أم لا.

مدَّعي. هذه أسوأ تهمة يمكن أن تُوجَّه إلى عالم. وحقيقة أن لجنة تحقيق قد تم تشكيلها دون معرفة "ريكس" تعني أن لديهم شكوكًا حوله هو أيضًا. وهو ما جعل عقله يترنَّح. أيمكن أن يكون ذلك كله في الواقع خدعة وأنه لم يكن قادرًا على تبيُّن ذلك لأنه لا يعتقد أن "فيكتور" يمكن أن يكون مدعيًّا؟ هل يمكن أن يكون "فيكتور" قد استغل تصديقه؟ حاول "ريكس" ترتيب الأوراق في عقله، ولكن النائب كان لا يزال يتكلم، كما لو أنه يقرأ بيانا.

- سيركز التحقيق، أولًا وقبل كل شيء، على تجربة الفأر المستنسخ التي شكك فيها الدكتور "سولار" والدكتور "جراث". وسيكون على الدكتور "هوب" أن يقدِّم إيضاحات بشأن تجربته، وسوف تحقق اللجنة في ما زعمه في مقال مجلة "الخلية" وفي ما احتوى عليه المقال من البيانات البحثية الفعلية.

كانت البيانات البحثية متاهة لا يعرف مفتاحها إلا "فيكتور" – و"كريمر" يعرف ذلك. كما أن "فيكتور" يرفض شرح أسرار أسلوبه، لأنه يعتقد أن في ذلك مضيعة للوقت. و"ريكس" يعرف ذلك أيضًا. ولكنه قرر في جزء من الثانية ألا يتفوَّه بأي شيء. وسف يتبين أعضاء اللجنة بأنفسهم صعوبة التعامل مع "فيكتور هوب". وعندئذ سيتفهمون أنه حتى هو، بصفته العميد، ليس له يد في المسألة برمتها. بل قد يكون لمصلحته أن تنتهي اللجنة إلى أن الأمر كله خدعة. ومن ثم يوضِّح للكل أن لا علاقة له بذلك – وأن "فيكتور" قد خطط ونفذ كل شيء بنفسه.

- ما رأيك، دكتور "كريمر"؟

كان العميد مستغرقًا في النظر إلى الصور، ويتساءل كيف كان من الممكن أن يترك نفسه منقادًا بهذه الطريقة طوال الوقت. تذكر سعادته عندما أطلعه "فيكتور" على

الصور، ولكنه تذكَّر صدمته لمعرفة أنها أجنة بشرية. ولم يفعل شيئًا – ولم يتخذ أي إجراء. ولا حتى عندما أطلعه "فيكتور" على شكل المولود عندما يولد.

- دكتور "كريمر"؟

أخرجه صوت النائب من أفكاره.

نظر "ريكس" إليه، وقال:

- أجل، أعتقد أنه من المهم بالنسبة لنا أن نتأكد من أن شيئًا لم يطرح بصورة مغلوطة.

عندما عرف "فيكتور" عن وجود تحقيق في أنشطته، توجه مباشرة إلى نائب رئيس الجامعة لتقديم استقالته. وأخبره النائب بأن العالم سيفسر هذه الخطوة على أنها اعتراف بالجرم. وإذا كان "فيكتور" مقتنعًا بأنه لم يفعل شيئًا خاطئًا، فإنه من الأفضل أن ينتظر نتائج التحقيق. أمَّا بالنسبة لـ"فيكتور"، فإن التحقيق يعني عدم ثقتهم به، ولكن النائب أكد له أن التحقيق ليس معني بالكشف عن الكذب بقدر ما يبتغي تسليط الضوء أكثر على الحقيقة وبالتالي دحض انتقادات "سولار" و"جراث". ولما فكر "فيكتور" في هذا الكلام قرر أن بوسعه أن يغض الطرف عما يجري، وصرف النظر عن الاستقالة.

ولكنه أصر على عدم حضور التحقيق، لأنه لا يمكن أن يتحمَّل مشاهدة غرباء يعبثون في مشروع حياته. وعندما سأله النائب عمَّا إذا كان يقبل بتقديم عرض عملي لأساليبه، أجابه بأنه قدَّم وصفًا واضحًا في مقاله، وأن بقية الجوانب مسألة تقنية، تتعلق بالتدريب والتدريب والتدريب. ولذلك يرى أن من الضروري أن يبقي أسلوبه سريًّا، حتى لا يسرقه الآخرون. واعترض النائب على ذلك، قائلًا أنه بذلك يصعب من عمل اللجنة. ولكن "فيكتور" قلب الترابيزة عليه ببراعة عندما أجابه بأنه بذلك يمنحهم فرصة لقياس مستوى كفاءتهم.

في حواراته مع أعضاء اللجنة، قلل "ريكس كريمر" عن أهمية دوره في القضية. واعترف لهم بأنه قد كان عليه لكونه العميد أن يمارس المزيد من السيطرة، ولكنه دافع عن نفسه قائلاً بأن الدكتور "هوب" أصر على أن يعمل بمفرده وباستقلالية تامة. وقال أنه قد حاول كثيرًا أن يتعرف على أساليب الدكتور "هوب"، ولكن الأخير رفض تمامًا الكشف عن مزيد من التفاصيل. وإذا كان الأمر كذلك، فقد أرادت اللجنة أن تعرف

السبب الذي منع "كريمر" من مناقشته؟ فقال "كريمر" لهم أن الدكتور "هوب" كان يصده في كل مرة قائلاً بأنها مجرد مسألة تقنية. فسأله أحد أعضاء اللجنة إن كان يصدق ذلك. فقال له مكررًا أنه لا يصدق أيًّا من ذلك.

جرى التحقيق على قدم وساق لمدة شهر، قبل أن يتلقى "كريمر" مكالمة تليفونية في المنزل من "فيكتور"، الذي كان يتجنب الحضور إلى الجامعة، وعاد إلى بون في تلك الأثناء. ولم يفاجأ بمكالمة "فيكتور" تلك؛ فقد توقع أن "فيكتور" يريد معرفة مستجدات عمل اللجنة.

أجابه وهو يتعمد أن تكون نبرته محايدة تمامًا:

- "فيكتور"! مضى وقت طويل.

- أريد مساعدتك.

- "فيكتور"، اللجنة لا زالت تحقق. وليس بوسعي تعريفك أي شيء. فأنا لا أعرف أي شيء. إنهم يقومون بعملهم، و...

- لست أتصل بخصوص اللجنة. إنني غير مهتم بذلك على الإطلاق.

رغم تفاجوء "ريكس" بما سمع، إلا إنه حافظ على حذره. لن يدعه يستدرجه إلى أي شيء ثانيةً. وسأله وهو يحاول أن يحافظ على حيادية صوته:

- ما الأمر إذن؟

- الأجنة.

عندئذ تنهد "ريكس" بصوت عال:

- حسنا، ماذا عن الأجنة؟

ولكنه سريعاً ما استدرك:

- أي أجنة؟

- المستنسخة.

- "فيكتور"، لا أعلم إن كنت أســ...

صاح فيه "فيكتور":

- "ريكس"، أنا بحاجة إلى مساعدتك!

أصابت "ريكس" الحيرة. أول مرة يسمع فيها "فيكتور" بهذه العصبية. هو دومًا واثق من نفسه، ولم يطلب منه أي نصيحة أبدًا، ناهيك عن المساعدة.

- ما الأمر إذن؟

- إنها أربعة.. سيكونون أربعة.

كان يتحدث بسرعة كبيرة حتى صار من الصعب فهم ما يقول.

- أربعة، أتفهم هذا؟ وهذا كثيرٌ جدًا! لم يكن ما...

صاح فيه "ريكس"، قبل أن ينتبه لنبرة صوته:

- اهدأ، "فيكتور"! إنني أحاول أن أستوعب ما تقصده.

كان يعلم جيدًا ما يعنيه "فيكتور"، ولكن ليس لديه فكرة عن موقفه ممَّا سمع، ولا ما إذا كان يجب أن يصدق ذلك أم لا. فعندما أطلعه "فيكتور" على صور الأجنة الخمسة قبل ستة أسابيع، أخبره أنه قد زرع الخمسة كلهم في رحم المرأة على أمل أن ينجح جنين واحد على الأقل في الاستقرار في الرحم. وكان "ريكس" يعتقد أن العدد كبير - فالإجراء العادي يستعين بما بين جنينين إلى أربعة أجنة، على الأقل في حالة الإخصاب في المختبر. أمَّا الآن فيبدو أن جنينًا واحدًا فقط هو الذي لم يستقر، وأن الأربعة الأخرى قد زرعت نفسها وبدأت تنمو. وإذا كان هذا صحيح، وجرى كل شيء في مجراه الطبيعي، فإن هذا يعني ولادة أربعة توائم. أربعة مستنسخة دفعة واحدة. هذا إذا كان الأمر صحيحًا. ولكنه لم يصدق ذلك. والأكثر من هذا أنه لا يريد أن تكون له علاقة بالموضوع كله.

- أنا لا أفهم المشكلة، "فيكتور". أربعة من خمسة يعتبر نجاحًا في نظري.

- بل هذا كثيرٌ جدًا.

- ألم يمكنك توقع هذا؟ أم أنك كنت تقلل من شأن قدراتك؟

كان يتعمد السخرية في نبرة صوته، وتساءل عما إذا كان "فيكتور" قد انتبه لذلك.

- كنت أريد أن أتأكد.

- والآن صرت متأكدًا؟

- ولكنها أربعة. ولا أدري إن كانت السيدة سترغب فيهم جميعًا. وما إذا كانت تريد تربية الـ...

- إذن؟ في تلك الحالة يمكنك أن تحتفظ لنفسك باثنين منهم.

- لا أستطيع. فأنا لا أدري كيف...

قال له "ريكس" بنبرة أبوية:

- عليك أن تكون أهلاً للمسؤولية. فلست أنا من سيقول لك بأنك مسؤول عن أي طفل من هؤلاء الأطفال الذين ستأتي بهم إلى الدنيا.

انتظر في دهشته هذه أن يسمع أي إجابة، ولكنها لم تأتِ.

- "فيكتور"؟

ولكن الخط كان قد انقطع بالفعل.

أتمت اللجنة عملها في شهرين. ولم تذكر في تقريرها الذي قدمته إلى نائب رئيس الجامعة في 30 مايو 1984 أي كلمة عن وجود احتيال، أو خديعة، أو بيانات ملفقة. ولم يجد المحققون المستقلون أي إثبات على أي من هذا. ولكنهم رغم ذلك لم يعتمدوا تجارب "فيكتور هوب" أو يقروا بأن نتائجها يمكن أن تعتبر نتائج أصيلة. بل على العكس، ذكرت اللجنة أن ملاحظات "فيكتور هوب" هي في أغلبها "ناقصة بسبب الحذف والكشط، وفقراتها غير مفهومة، والبيانات مشوشة ومتضاربة". وبالتبعية، خلصت اللجنة إلى أن "التوجيهات العلمية الأساسية لم تكن متبعة"، وبالتالي قررت "وجوب تمحيص قيمة مبحث د. "فيكتور هوب" برمته".

***

- أنا فخور بك، "فيكتور". حقيقي فخور بك.

هذا ما كان والده يود أن يقوله، عبر التليفون، لما عرفه "فيكتور" الخبر. كان مستعدًا لأن يقولها.

غير أن النبرة التي أخبره بها ابنه أنه قد نال شهادة الطب هي التي دفعته إلى السكوت. كانت نبرة لامبالية للغاية. وما الجديد. فقال لنفسه: "ألا يمكنك أن تسعد لنفسك ولو مرة، "فيكتور"؟ أن تصرخ بذلك عاليًا، وبكل ما فيك من قوة!".

لم يبح بتلك الأفكار. واكتفى بأن قال له:

- جيد جدًّا، "فيكتور". ممتاز.

قالها وكأنه يبدي رأيه في طبق تناوله للتو.

وبدأ كتابة خطاب إليه بعبارة (عزيزي "فيكتور")، ولكنه شطبها فورًا. ثم جرب (بني)، و(يا بني)، حتى استقر في النهاية على (فيكتور).

***

استدعى نائب رئيس جامعة "آخن" "فيكتور هوب" إلى مكتبه ظهر يوم 27 يونيو 1966. رمق الشاب وهو يسأل نفسه عمَّا إذا كان قد التقاه من قبل. ربما لا، وإلا لكان قد تذكره من دون أدنى شك.

كان الدكتور "بيرجمان"، عميد كلية علوم الطب الحيوي، قد أخبر نائب الرئيس في اليوم السابق أن "فيكتور هوب" قد تخرَّج بامتياز، وأنه دائمًا ما كان طالبًا هادئًا، مجدًا، وأن مواهبه الواضحة تعززت بمثابرته غير العادية – أي أنه شاب قليل الكلام متميز الأفعال. وكان أمل الدكتور "بيرجمان" أن يستكمل "فيكتور هوب" الدراسة لنيل درجة الدكتوراه في الكلية نفسها. وسأله نائب الرئيس في نهاية المقابلة:

- هل هو من النوع العاطفي؟ فما سمعته هو...

ولم يجد العميد ما يقوله.

جلس الشاب في وضعية متخشبة. رأسه محني بعض الشيء، وعاقدًا ذراعيه وساقيه. وأدرك النائب أنها وضعية دفاعية، تنم عن خجل وخوف، وكذلك عن تحفظ. بدأ النائب الكلام بعدما جلس إلى مكتبه:

- "فيكتور".

اعتدل الشاب في مقعده، ولكنه لم ينظر إليه.

- "فيكتور"، أبارك لك أولًا حصولك على الشهادة. وكل أساتذتك يقولون شعرًا عنك.

- جزيل الشكر.

اندهش النائب لثانية بسبب ذلك الصوت الأخنف. حتى إنه احتاج إلى لحظات ليتذكر ما كان ينوي قوله.

آه... سوف يبارك له أولًا، قبل ان يعزيه.

- ولكنني آسف لاضطراري أن أعزيك.

بقى "فيكتور هوب" على وضعه، من دون أي حركة.

- لقد توفي والدك.

حاول أن تخرج الكلمات ببعض العاطفة.

لم يبد أن الخبر قد حرَّك شعرة في جسد الشاب. اكتفى بأن هز رأسه بضع مرات. ربما كان يتوقع مثل هذا الخبر. أو ربما عرَّفه والده بما كان يخطط للقيام به، أو أنه أقدم على ما فعل من قبل في محاولات سابقة. حتى تساءل النائب عمَّا إذا كان من المفروض أن يخبره على أي حال.

- لم تتفاجأ؟

هز "فيكتور" كتفيه، وحسب.

- كنت تتوقعه.

الآن يهز "فيكتور" رأسه.

- وما الذي كنت أتوقعه؟

عقد النائب يديه، وتنهد قبل أن يقول:

- لقد حسم أبوك أمره. وانتحر.

لم يبدر منه أي رد فعل في البداية. ولكنه سأل:

- كيف؟ أتعرف كيف فعلها؟

إنه يعرف كيف، وكان هل عليه أن يخبره؟ أهذه مهمته؟ إن كان الشاب يريد أن يعرف، فمن حقه هذا طبعًا. ولكن كيف يخبره؟

قال وهو يتمنى أن يكون واضحًا كفاية:

- من شجرة.

أومأ الشاب برأسه، قبل أن يتمتم بشيء لم يفهمه النائب.

- مثل "يهوذا" إذن.

- ماذا قلت؟

هز "فيكتور" رأسه والتزم الصمت.

- هل سيأتي أحد لاصطحابك؟ إلى المنزل؟ هل أتصل بأحدهم؟

- شكرًا أيها النائب، ولكن لا.

سكت لحظة، ارتخت فيها يداه في حجره، قبل أن يسأل:

- هل عليَّ أن أعود إلى المنزل؟ هل هذا ضروري؟

أجابه النائب ساخطًا:

- أعتقد هذا. فسوف ترغب الشرطة في سؤالك. لا شيء غير عادي. إجراء طبيعي، في حالات الـ...

لم يعثر على الكلمة المناسبة، فلجأ إلى تغيير الموضوع.

- هل خططت لما تنوي القيام به؟ أعني مستقبلك؟ بعد أن تخرجت.

هز "فيكتور" كتفيه مجددًا:

- لم أفكر في هذا بعد.

- يرغب أساتذتك في أن تسعى لنيل درجة الدكتوراه هنا في الجامعة. أنت ذو مستقبل واعد، خصوصًا وأنت موهوب. سيكون من المؤسف ألا تستغلها.

خُيِّل للنائب أنه لمح ردة فعل خاطفة، ولكنها كانت من السرعة التي تدفعه إلى اعتبارها محض وهم. ورأى أن يعود لهذا الموضوع في وقت آخر.

- هل أطلب من أحد اصطحابك؟

هز "فيكتور" رأسه نفيًا، وهو ينهض:

- أشكرك، سأتدبر حالي.

- أتمنى هذا. ولكن لو كان هناك أي شيء بوسعي القيام به، فأرجو ألا تتردد عن الحضور إليَّ.

- سأفعل، نائب الرئيس. أشكرك.

- مرحبًا بك في أي وقت، وتعازيَّ مجددًا.

قدَّم أحد الأخصائيين الاجتماعيين في الشرطة الخطاب إلى "فيكتور". كان الظرف مفتوحًا. فبادر الرجل بالاعتذار عن ذلك، لينفي عن نفسه أي شبهة.

ولما غادر الرجل، قرأ "فيكتور" الرسالة. لم يكن ينتظر فعليًّا أن يجد فيها أي إجابات، وخاصة أن لا أسئلة لديه. ولكنه صدم لفحواها.

"فيكتور"، بداخل كل إنسان قوى خفية أقوى من الإرادة والعقل. فبوسعك أن تفعل كل ما تقدر عليه من خير، ولكنك في النهاية سيتوجب عليك أن تتحمل عواقب ما اقترفته من شر. أي أن فعل الخير وحده لا يكفي، حيث إن عليك أن تقهر الشر أيضًا؛ وهو الأمر الذي لم أفعل تجاهه إلا القليل. وقد فات الأوان بالنسبة لي.

لا لوم عليك. اذكر هذا. لقد قمت بما هو أفضل مما توقعه أي أحد منك. ولا بد أن تفتخر بنفسك.

كانت أمك لتفتخر بك. فقد كانت مسيحية تقية ورعة. وهذا أمر آخر لا بد لك من أن تتذكره. أعلم أنها كانت تتمنى أن تمنحك كل حب الدنيا، ولكن كان هناك ما هو أقوى منها. وأملي أن تسامحها.

وليس عليك أن تغفر لي. فأنا لا أستحق ذلك. كان عليَّ أن أتحمل ما عليَّ من مسؤوليات، ولكني لم أفعل. وهي فعلة لا تغتفر. فمن يقدّر له أن ينجب أطفالًا ويأتي بهم إلى الدنيا، لا بد أن يكون ملتزمًا تجاههم. لا تنسَ هذا.

وفي هذا الخصوص، أعرفك أن كل ما أمتلكه هو لك، بشكل طبيعي. المنزل، الأثاث، المال، والمهنة. أنت كنت تريد أن تصبح طبيبًا: والآن لم يعد هناك أي شيء أو أي إنسان قادر على أن يقف في طريقك.

أتمنى لك كل نجاح وسعادة.

والدك.

اهتز كيان "فيكتور" لكلمات أبيه. لم يؤثِّر فيه انتحاره وموته، بقدر ما تأثَّر بكلماته. كانت زلزالًا اهتز له كل أساس بناه "فيكتور" لعالمه. لطالما كان يفترض أن فعل الخير كفاية، وأن كل ما عليه هو تجنب الشر. فالشر في النهاية محاولة لتحطيم من يفعل الخير. ولكنه يرى الآن أن الحقيقة عكس ذلك. وهذه فكرة جديدة كليًّا بالنسبة له. جعلته يفكر، بل ولأول مرة في حياته: جعلته يشك. في كل ما عرفه. وفي كل ما فعله. وفي كل ما سوف يفعله. وجاءت زيارة الأب "كايزرجربر" في نفس تلك الأمسية لتزيد الطين بلة.

توجَّه الأب "كايزرجربر" للقاء "فيكتور هوب" بشأن ترتيبات الجنازة، رغم ثقل الزيارة على نفسه. ولذلك كان يرغب في أن تكون الزيارة قصيرة قدر الإمكان، وأن يكون كلامه مباشرًا جدًّا:

- أفضِّل أن تكون المراسم محدودة، وأتمنى أن تتفهَّم هذا.

- كلا، أنا لا أتفهَّم.

- هذا أمر غير مسموح به. تلك هي الحقيقة.

- ما هو غير المسموح به؟

- إقامة مراسم لأبيك في الكنيسة.

- ولكني لا أريد هذا من الأصل.

- تلك كانت رغبته هو.

- ما رغبته؟

- وصيته للحانوتي ألم تطلع عليها؟

نفى "فيكتور" ذلك.

- أوصى بأن يُدفن إلى جوار زوجته؛ أمك. أراد ذلك لأجلها. وهذا غير مسموح به، ولكننا نفكر في تنفيذ رغبته. ولكن هذا سيتم سريعًا، ومن دون أن يعرف الكثيرون بذلك. فلا تأبين، ولا رثاء. على الضيق.

- وما المانع؟

- لأنه.. كما تعلم. الكل يعرف ما جرى. والكل رآه.

- ولكن ما السبب؟

تضايق القس لإصرار "فيكتور".

- الرب لا يشاء هذا.

- وما مشيئة الرب؟

وجده القس يجادل مثل طفل، فلكل إجابة سؤال.

وحتى يهرب من مزيد من النقاش، رأى أن يقولها له بصراحة:

- لأنه انتحر.

- وما الدليل على أن الرب لا يغفر الانتحار؟

- في الإنجيل.

- في أي موضع منه؟

تزايد ضيق وحرج القس. من النادر أن يناقضه أحد. والأسوأ أنه لا يعرف الإجابة، فهو لا يدري في أي موضع في الإنجيل ورد تحريم الانتحار. ورغم هذا فقد ذكر آية. في نهاية إصحاح متى، تتحدث عن انتحار يهوذا.

- متى 27، الآية 18.

بادره "فيكتور":

- "لأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُمْ أَسْلَمُوهُ حَسَدًا".

بلغت دهشة القس مداها و"فيكتور" يعقب:

- ولكن الإنجيل لم يتحدث هنا أو في أي موضع آخر عن الانتحار.

فقد القس رباطة جأشه، ولكنه سرعان ما استعادها.

- لن تسمح الكنيسة بذلك! الحياة هبة من الرب. ومحرَّمٌ علينا أن ننهيها بأيدينا. وليس لنا اختيار في الحياة أو الموت. الرب هو من يقرر! للرب ما أعطى وللرب ما أخذ، ولا أحد سواه.

صاح فيه "فيكتور":

- ومن منحه هذا الحق؟ ولماذا نسلم لإرادته؟ إنه شر، والشر لا بد من مواجهته.

عندئذٍ أكد الأب "كايزرجربر" لنفسه أن الشيطان قد تملَّك من هذا الشاب.

- عار عليك أن تتفوه بهذا! ألم يعلموك أي شيء في تلك المدرسة؟ لقد أخرجك والدك منها مبكرًا! وكانت الأخت "ميليثا" على حق، لم تتخلص أبدًا من الشر بداخلك!

وسرعان ما نهض وتوجَّه إلى الخارج. مشي خطوتين قبل أن يتوقف ويلتفت وراءه. وكان "فيكتور" جالسًا كما لو أن يد الرب ذاتها قد سحرته.

- جنازة والدك يوم السبت في تمام العاشرة والنصف. قداس هادئ ومحدود. ومن ثم سنرقده في قبره إلى جوار أمك. حسب وصيته.

لم يحضر "فيكتور" جنازة والده. كان قد عاد إلى غرفته في الجامعة قبلها بأيام. كان محتارًا ضائعًا تائهًا تمامًا، ورأسه يعج بالأصوات والكلمات.

لقد أخرجك والدك منها مبكرًا!

بوسعك أن تفعل كل ما تقدر عليه من خير، ولكنك في النهاية سيتوجب عليك أن تتحمل عواقب ما اقترفته من شر.

الشر لا بد من مواجهته.

لم تتخلص أبدًا من الشر بداخلك!

للرب ما أعطى وللرب ما أخذ، ولا أحد سواه.

كان في حالة تمنعه تمامًا من مفارقة غرفته.

وزاره النائب وعميد الكلية. كان هذا في منتصف أغسطس، حيث كان الطقس حارًّا جدًّا.

طرق النائب الباب، ولكن لم يجبه أحد، رغم أنه والدكتور "بيرجمان" يسمعان صوتًا بالداخل. وكأنه صوت شريط تسجيل يشغله أحدهم على الوضع البطيء.

صاح النائب باسم "فيكتور".

توقف الصوت، ولكن أحدًا لم يفتح الباب.

ذهب النائب ليحضر مفتاحًا احتياطيًّا من الحارس، متمنيًا ألا يكون "فيكتور" قد استسلم لليأس، وانتحر مثل أبيه.

عندما فتح الباب بوغت بدفقة من الحرارة تنقض على وجهه، أعقبتها على الفور رائحة نتنة – رائحة لحم منتن. ربط عقله بين تلك الرائحة وما فكر فيه، حتى من قبل أن يرى أسراب الذباب، التي اندفعت تخرج من الباب. العشرات من الذباب الأخضر.

تراجع النائب وقد توترت أعصابه، واصطدم بالعميد. وبحركة غريزية كتم الاثنان أنفيهما. كان تفكيرهما واحدًا. وكان ترددهما في الدخول واحدًا.

ولكن ماذا عن الصوت؟ من أين أتى الصوت؟

دفع النائب الباب بقوة، قبل أن ينظر في الغرفة.

كان الشاب جالسًا إلى مكتب، منشغلًا بكتاب، واضعًا مرفقيه فوق سطح المكتب، وقد سد أذنيه بيديه. المكتب في ركن الغرفة، إلى يمين النافذة، وقد ارتصت في فراغ النافذة علب الطعام الفارغة. إلى يسار النافذة كاونتر صغير عليه سخَّان ومقلاة، وفوقهما الكثير من المعلبات الفارغة. والكثير من الذباب.

نادى عليه النائب وهو يلهث:

- "فيكتور"؟ "فيكتور هوب"؟

لم ينظر الشاب نحوه. كان الذباب يحوم حول رأسه، ويتحرك فوق ساعديه.

تجرأ العميد واقترب، ونظر من فوق كتف النائب إلى داخل الغرفة. أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يدخل إلى الداخل، ويتجه إلى النافذة مباشرة، وفتحها بكل قوة. سقطت المعلبات على الأرض، ونظر "فيكتور" حوله منتبهًا ومتفاجئًا. بالكاد تعرَّف الدكتور "بيرجمان" على ملامحه. ذلك الوجه الشاحب كان أشد شحوبًا من المعتاد، والعينان حمراوان، وقد نمت لحيته الحمراء الخفيفة. بادره العميد:

- ظننا أن هناك مكروهًا قد جرى لك. كيف حالك؟

أجابه "فيكتور" بصوت مبحوح، وهو ينظر عبر النافذة:

- أبحث عن إجابات.

عض العميد على شفتيه، وتبادل النظرات مع النائب:

- جميعنا يبحث عن الإجابات، "فيكتور".

سأله النائب:

- منذ متى وأنت هنا؟

التفت "فيكتور" نحو الباب. وقعت عيناه للحظات على ربطة عنق النائب. ثم عاد ينظر للأرض وهو يهز رأسه.

عاد النائب ليخاطبه مجددًا:

- ربما تحتاج إلى تغيير الأجواء، "فيكتور". وأنا والدكتور "بيرجمان" نود التحدث معك عن مستقبلك، وغير ذلك. هل يمكن أن ننتظرك في مكتبي بعد نصف الساعة من الآن؟

أومأ الشاب من دون أن ينظر في عيونهما. فكَّر النائب أنه محرج، لذلك حاول أن يهوِّن عليه:

- نحن نتفهم تمامًا أنك تواجه أوقاتًا عصيبة. هذا طبيعي. وأي شخص في مكانك سيكون هكذا. ولسوف نبذل جهدنا لمساعدتك. لا تقلق أبدًا.

لمَّح النائب إلى الدكتور "بيرجمان"، فبادر قائلًا:

- نراك لاحقًا، "فيكتور".

قال النائب للدكتور بعدما ابتعدا:

- إنه يائس. يعجز عن التعامل مع حقيقة موت والده.

- أوافقك الرأي. أخذت بالك من الكتاب الذي كان يقرؤه؟

- كلَّا.

- الإنجيل.

- الإنجيل.. هو يائسٌ جدًّا إذن.

حدَّد الدكتور "بيرجمان" لــ"فيكتور" مسارات مختلفة يمكنه أن يتبع أحدها في بحثه لنيل درجة الدكتوراه، أو – على حد وصف العميد – القسم المناسب لما لديه من مهارات.

يمكنه أن يختار علم الأورام، ويتخصص في أبحاث السرطان. أو طب الشيخوخة، حيث يمكنه العمل على الوقاية من الأمراض المعدية لدى كبار السن. ولكن الدكتور "بيرجمان" يراه أيضًا قادرًا على تحقيق إنجاز في علم الأجنَّة، حيث شرعوا في مشروع بحثي للتخصيب في المختبر، يترأسه العميد نفسه.

راقب النائب "فيكتور هوب" عن كثب، بينما كان الدكتور "بيرجمان" يتحدث. لم يبد الشاب أي حماس، ولم يطرح أي أسئلة، واكتفى بحركات من رأسه بين الحين والآخر – بدت ردودًا مهذبة.

ثم تدخَّل نائب رئيس الجامعة في الكلام:

- الأمر غاية في البساطة، "فيكتور". فلو كنت ترغب في نيل درجة الدكتوراه – وبالطبع نحن نتمنى أن تفعل – فيمكنك أن تختار ما بين قسم الأورام أو طب الشيخوخة أو قسم الأجنَّة؛ أو لنقل أن عليك أن تختار ما بين إنقاذ الأرواح أو إطالة عمرها أو صنعها.

أشار بسبابته إلى أسماء الأقسام الثلاثة، التي كان الدكتور "بيرجمان" قد كتبها. ثم كرر عبارته مرة أخرى:

- إنقاذ الأرواح أو إطالة عمرها أو صنعها.

- صنعها.

لم يكن من الواضح لهما إن كان رده تساؤلًا أم تأكيدًا.

أجابه النائب، وهو سعيد لتمكنه أخيرًا من لفت انتباه "فيكتور":

- صنع الأرواح الجديدة.

ثم تذكر الإنجيل الذي كان "فيكتور" يقرؤه:

- تهب الحياة. تمامًا مثل الرب.

تهب الحياة. تمامًا مثل الرب.

الرب يعطي، والرب يأخذ، "فيكتور". ولكن ليس دومًا. فأحيانًا ما يتوجب علينا القيام بذلك بأنفسنا... تذكر هذا.

وفجأة..

فهم كل شيء.

وفجأة..

صار لديه مجددًا هدف.. في هذه الحياة.

***

انطلق "ريكس كريمر" بسيارته إلى "بون" في 15 يونيو 1984. كان "فيكتور هوب" قد تلقَّى اتصالًا بالأمس من نائب رئيس الجامعة، يطلب منه العودة إلى الجامعة لأن تقرير اللجنة قد صدر، ولكن "فيكتور" رفض. وطلب منه أن يرسل إليه بنسخة منه، ومن دون حتى أن يهتم بالسؤال عن نتيجته.

أربك رد فعله النائب، ولكن "كريمر" اقترح عليه أن يتوجَّه لزيارة الدكتور "هوب" ويسلمه التقرير بنفسه. ووجد في هذه فرصة ليتحدث مع "فيكتور" مجددًا بعد انقطاع دام شهرين.

أوقف السيارة أمام منزل له شرفة، وأمامه لافتة تشير إلى أن "فيكتور هوب" دكتور أخصائي في التخصيب. لم يكن قد أخبره أنه آت، وتمنى أن يكون "هوب" في المنزل. أمَّا أن يسمح له "فيكتور" بالدخول فتلك مسألة أخرى.

لاحظ أن يده ترتجف وهي تدق الجرس. وسمع جلبة في الجانب الآخر من الباب ولما لمح الدكتور، وجد أن لحيته قد نمت كثيرًا.

نظر "فيكتور" إلى "كريمر"، ثم نحو الشارع، كما لو كان يتأكد من أنه قد حضر بمفرده.

- جئتك بتقرير اللجنة. طلب مني النائب أن أستعرضه معك.

لم يرد عليه الدكتور.

- ربما كان من الأفضل أن ندخل. لا أعتقد أن من المناسب أن نناقشه هنا.

- هل لا تزال تصدقني، دكتور "كريمر"؟

لم يتوقع "ريكس" السؤال، ولا النبرة التي وجهه إليه بها. كانا قد اعتادا مخاطبة بعضهما بالاسم الأول، ولكنه الآن يسمع "كريمر" مجددًا، كما لو أنه يريد التأكيد على ما صار بينهما من مسافة وتحفظات. أجابه بشيء من التردد:

- لم يخلص تقرير اللجنة إلى أنهم لا يصدقونك. بل هم مهتمون بالمعايير التي وضعتها لبحثك موضوع التحقيق.

- أنا لا أتحدث عن اللجنة. أتحدث عنك أنت. هل لا تزال تصدقني؟

لم يجد أمام هذا السؤال المباشر أي خيار:

- لا بد أن أعترف لك أن لديَّ شكوكًا.

- أتريد أن تراها؟ هل ستصدقني عندئذٍ؟ عندما تراها؟

وكأنه يردد أبيات قصيدة. يتحدث بنبرة رتيبة منغومة، ولكنها خالية من العواطف. ثم دخل الدكتور إلى الداخل.

وقف "ريكس" في مكانه مفزوعًا. وسأل نفسه: "هل يريد حقًّا ذلك؟". بالطبع يريد أن يراها، ولكنه كان خائفًا من أن يتورط في شيء لا بد فعلًا أن يبقى بعيدًا عنه. ولكنه يريد أن تتضح الصورة أمامه. ولهذا حضر إلى هنا. وهكذا تبع "فيكتور" إلى الداخل.

صعد الدكتور إلى الطابق العلوي، ووقف ينتظر عند باب غرفة. وعندما لحق به "كريمر"، طرق الباب، ولكنه لم يستمع ردًّا.

قال "فيكتور" وهو يدير مقبض الباب:

- ربما كانت نائمة. لقد أرهقها الحمل. وكانت هناك بعض الصعوبات بالفعل.

الغرفة شبه معتمة. وفي منتصف الغرفة انتصب فراشًا طبيًّا معدنيًّا عتيق الطراز محاطًا بكل أنواع التجهيزات. تعرَّف "ريكس" على جهاز أشعة فوق صوتية وجهاز قلب، كانت شاشته مضاءة. وهناك محلول معلَّق على حامل، وأنبوبه متصل بذراع سيدة ترقد في الفراش. وأسفل الغطاء بدت بطنها ضخمة بالحمل. قدّر "كريمر" أنها الآن في الشهر الخامس.

أشار له "فيكتور" أن يقترب من الفراش. تحرك للأمام محاذرًا، ولمح شعرها الأسود القصير. ثم نظر إلى وجهها. كان منتفخًا. عيناها مغلقتان، وفمها نصف مفتوح. تتنفس في هدوء وبصورة طبيعية.

لَّمح له "فيكتور" أن عليهما مغادرة الغرفة. فنظر "ريكس" إلى وجهها نظرة أخيرة. وإلى بطنها. هل تعلم حقيقة ما ينمو بداخلها؟ تعمد الاصطدام بالفراش، محركًا إياه بضع بوصات. فاستيقظت المرأة، وتفاجأت. عيناها واسعتان داكنتان. هي و"فيكتور" مختلفان في السمات الجسدية اختلاف الليل عن النهار.

سارع "فيكتور" يطمئنها.

- هذا هو الدكتور "كريمر". عميد جامعة "آخن".

لاحظ "ريكس" أنها حركت يدها غريزيًّا تحمي بطنها، وما في داخلها. سألها بنبرة آلية:

- كيف حالك؟

أجابته بصوت ضعيف له لكنة مميزة:

- الأمر متعب جدًّا. ولكن الدكتور يطمئنني.

شعر أنها تدربت من قبل على تلك الإجابة، ولكن ربما كانت تطمئن نفسها بتلك الكلمات طوال الأشهر الطويلة حتى تقوي عزيمتها. ولاحظ أيضًا أنها بالكاد تدرك طبيعة ما يجري لها. تبدو له سيدة بسيطة، أقرب إلى طفلة، رغم أنه من الواضح أنها في أواخر العقد الثاني من عمرها.

حدَّق في بطنها ثانيةً، وفكَّر في أن يسألها عنها. ولكنه لم يفعل. فهو لا يريد أن يستثير "فيكتور". ليس الآن.

- طالما أن الدكتور يطمئنك، فبالتأكيد كل شيء على ما يرام.

غادرا الغرفة إلى مكتب "فيكتور". وسأله على الفور:

- هل تعلم؟

- بماذا؟

- أنها حامل في أربعة أطفال. أربعة صبية مستنسخين.

قالها متعمدًا أن يفهم منها أنهم مستنسخون منه هو.

- هم ثلاثة فقط. هناك جنين مات في الرحم. وهو لا يزال هناك، ولكن قلبه توقف.

- هل تعلم؟

- كلَّا.

- هي لا تزال تعتقد أنها ستلد أنثى؟

أومأ "فيكتور" برأسه، وعندئذٍ أدرك "ريكس" أنه أمام مجنون. الآن آمن بذلك وصدَّق.

ولكنه لم يعقِّب. نبَّه نفسه إلى ضرورة أن ينأى بنفسه عن هذا، وبادر بتعريف "فيكتور" بفحوى التقرير.

ولكن "فيكتور" قاطعه:

- لا أريد أن أعرف. وأنا لن أعود في كل الأحوال.

هذا هو تحديدًا الحل الذي ارتآه نائب رئيس الجامعة. فلقد انتهى العام الدراسي، ولذلك طلب من "كريمر" أن يقنع الدكتور بألا يعود للعمل. وبالتالي فلن يضطر إلى فصله من منصبه.

وطالما أنه لا حاجة إلى إقناعه، فقد نهض "ريكس" من فوره. وترك التقرير فوق المكتب.

صاحبه "فيكتور" إلى الباب. وبقي لـ"ريكس" أمر واحد يود أن يعرفه.

- متى ستلدهم؟ بالتقريب؟

أجابه "فيكتور" بنبرة قوية:

- التاسع والعشرون من سبتمبر.

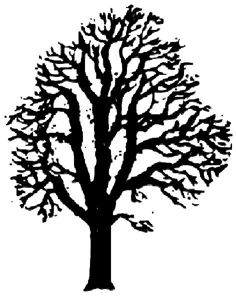

الجزء الثالث

1

عبر "ريكس كريمر" قمة جبل "فالسربرج" بسرعة السلحفاة. مرَّت سيارته ببطء عبر جموع السائحين الذين يقصدون منطقة الحدود الثلاثية. أتى إلى هنا زمان وهو طفل، ولا يزال يتذكر أنه قد صعد في برج "بودوين"، الذي ينتصب الآن أمام ناظريه. مال بجذعه إلى الأمام حتى كاد صدره يلامس مقود السيارة، وتطلع إلى أعلى. هناك رأى مجموعة من الأطفال، بعضهم يشير إلى شيء ما على البعد، وآخرون يلوحون لعائلاتهم وأصدقائهم في الأسفل.

ثلاثة وأربعون مترًا. ذلك هو ارتفاع البرج. معلومة أخرى يتذكرها "ريكس". لطالما كانت ذاكرته قوية مع الأرقام.

لم يلحظ العميد السابق أنه قد انتقل من هولندا إلى بلجيكا. كان في طريقه من "كولون" إلى "فولفهايم". وبعد أن مرَّ على "آخن" و"فالس"، تتبع اللافتات حتى وصل إلى الحدود الثلاثة.

كان "فيكتور" قد وصف له الطريق:

- بعد منطقة الحدود الثلاثية تستمر في طريق "دي تروا بورن". وفي نهاية ذلك الطريق، تمر من تحت جسر مقوَّس، وعندئذٍ سترى المنزل أمامك مباشرةً. هو فيلا لها بوابة. بعد الكنيسة مباشرة. رقم 1 في شارع "نابوليون".

استعان "كريمر" بتركيزه كله وهو يناور بسيارته في منعطفات الطريق الضيق للغاية. وهو الأمر الذي أنقذه من ذلك الإحساس الذي رافقه طوال الرحلة. ولكنه ما إن لمح الجسر، حتى عاوده التوتر من جديد، بل وأسوأ من ذي قبل.

كان قد التقى "فيكتور" صدفة خلال معرض للأجهزة الطبية في فرانكفورت منذ أسبوع. بعد أن مرت أربعة أعوام على آخر مرة كانا فيها معًا. لقد تعمد ألا يتواصل مع "فيكتور"، حتى في ظل وجود العديد من الأسئلة التي لم يجد لها إجابة.

عقب الأشهر الأولى القليلة التي مرت عليه من بعد لقائهما في بون، بقي "ريكس" مراقبًا للدوريات والصحف، وكان سعيدًا طالما لا يجد مقالًا كتبه "فيكتور" أو كان موضوعه "فيكتور". وهكذا افترض فشل تجربة الاستنساخ – هذا مع افتراض أنها لم تكن كذبة منذ بدايتها. وتزايد عدد العلماء الذين خلصوا إلى استحالة نجاح مثل تلك التجارب؛ فطوال كل تلك الفترة لم ينجح أحد في استنساخ حيوان ثديي. ولكن الأمر صار لغزًا بالنسبة لـ"كريمر": هل كان "فيكتور" يخدعه وحسب؟ وهل هو، العميد، مجرد أضحوكة تلاعب بها "فيكتور"؟ هو انتهى من هذا الموضوع مع زملائه في جامعة "آخن"، وصار من الصعب عليه أن يواصل العمل معهم. وبعد أن خفت الضجة بقي في منصبه رئيسًا للقسم، ولكنه يعرف أنه قد فقد احترام زملائه. وبعد مرور عام قبل عرضًا من شركة تعمل في التكنولوجيا الحيوية في "كولون"، حيث تولى رئاسة فريق بحثي وقسم مستحدث لتقنية الدي إن إيه.

وبهذه الصفة، سافر "ريكس كريمر" إلى معرض "فرانكفورت" يوم السبت 29 أكتوبر 1988، حتى يتعاقد على أجهزة جديدة. وما إن دخل أرض المعرض حتى وجد "فيكتور" أمامه، على مسافة ليست بعيدة. وانتابته صدمة.

لم يبادر بالذهاب إليه. بل ظل يتجول في المعرض لمدة ساعتين، وهو يحاول ألا يفقده وسط الزحام، ولكنَّ عينيهما لم تتلاقيا. وعقب ذلك بدأ في تتبع خطوات "فيكتور". ما الأجهزة التي لفتت انتباهه؟ ما الأسئلة التي يطرحها على العارضين؟

صوته! عندما اقترب "ريكس" بما يكفي ليسمع صوته المميز، تذكر فجأة الجمل التي اعتاد "فيكتور" أن يقولها له:

"ذلك هو الخطأ الذي يقعون فيه. أنهم يضعون حدودًا لأنفسهم".

"الرب خلق الإنسان على صورته".

"هناك حالات لا يجد المرء أمامه فيها سوى أن يقبل الحقائق".

"إنهم أربعة. وهذا كثير جدًّا".

تعمَّد أن يمر إلى جوار "فيكتور"، آملًا أن يكون "فيكتور" هو من يتعرف عليه ويحييه، كما لو أنه يحاول أن يجد لنفسه عذرًا في حال رآهما أحد معًا. ولكن "فيكتور" لم يذهب إليه. بل بدا وكأن زميله السابق لم يتعرف عليه عندما تبادلا التحية بالرأس مجاملةً وهو يمر من جواره.

وفي النهاية، تغلب عليه فضوله. فالتفت إليه وقال له شيئًا. وكأنها كانت تعويذة أخرجت "فيكتور" من سحر أصابه.

- مرحبًا! إنه أنا. "ريكس كريمر". من جامعة "آخن".

أجابه "فيكتور" بنبرة جافة:

- لقد تغيَّرت.

لم يفكر في هذا الجانب. افترض أن التعرف على ملامحه ليس بالأمر الصعب، ولكنه في السنوات الأخيرة ارتدى النظارة وأطال شعره.

أجابه وهو يعدِّل من وضع نظارته بحركة غريزية:

- ملاحظة لمَّاحة. ولكن أخبرني عن حالك؟

هز "فيكتور" كتفيه في لا مبالاة. ولم يعرف هو إن كان مزاجه لا يسمح بالاسترسال في الكلام أم لا، أم أن هذه الحركة ردًا في حد ذاتها. كما أنه لم يسأل "ريكس" عن أي شيء، فوجد الأخير نفسه مضطرًا لاستكمال كلامه.

- وما الذي تقوم به هذه الأيام؟ مر وقت طويل منذ...

تعمَّد أن تكون نبرة كلامه محايدة. فهو يعرف أن زميله السابق ماكر.

- أنا طبيب عام.

- طبيب عام.. أين؟

كانت المفاجأة أكبر من أن يحتملها، لذلك كان سؤاله سريعًا حتى يستوعب.

- في "فولفهايم".

- "فولفهايم؟".

أومأ "فيكتور" مؤمِّنًا. وحسب. لم يكلف نفسه عناء شرح مكانها. لم يكن ذلك لأنه غامض أو متحفظ - كلا، هي مسألة لا مبالاة وحسب، كما لو أنها أول مرة يلتقيان فيها سويًّا. ولكن موقفه تغيَّر عندما قال له "ريكس" إنه بدوره قد ترك جامعة "آخن". فقد ظهرت الدهشة على وجه "فيكتور". تطلَّع في وجهه للحظات وجيزة جدًّا، كما لو كان على وشك أن يقول شيئًا. ولكنه التزم الصمت، حتى انتهز "ريكس" الفرصة ليلقي بملاحظة يعلم أنها كفيلة باستثارة الطبيب.

- لقد فقدت ثقتهم.

على أن اعترافه هذا ترك أثرًا مختلفًا نوعًا ما عن الذي قصده، لأن "فيكتور" صاح فيه، من دون أن يكترث لارتفاع صوته المفاجئ:

- كما فقدت أنا ثقتك!

تلفت "ريكس" حوله محرجًا. كل ما عليه هو أن يتجاهل ذلك؛ وإلا فسيدخل معه في جدل عقيم.

- وما النتيجة التي وصلت إليها في النهاية؟

توقَّع إجابة مراوغة، وكانت سترضيه؛ لأنها ستريح عقله. ولكن الإجابة أثارت لديه المزيد من الأسئلة.

- التجربة لم تنتهِ بعد.

شعر بارتجافة تعتريه:

- ما الذي تقصده؟

- إنني أبدأ من جديد.

كانت الإجابة نوعًا من الطمأنة. وهي تعني أن التجربة السابقة فشلت. وكذلك تعني أن الأمر لم يكن احتيالًا كاملًا كما ظن. ولكنها تجربة انتهت إلى الفشل، هكذا ببساطة وبكل منطقية.

ولكنه طرح عليه سؤالًا آخر. يريد أن يسمع من فم الدكتور اعترافًا صريحًا بفشل التجربة. وتمهل "فيكتور"، وهو يحدق في الأرض – وسأله "ريكس".

كانا قد اتفقا في البداية على موعد في اليوم التالي لمعرض التكنولوجيا، ولكن "فيكتور" ألغاه صباح ذلك اليوم؛ لأن شيئًا ما حدث. وكان يبدو مرتبكًا؛ ومهما تمكن "ريكس" من فهمه فإن أمرًا ما قد وقع لمديرة منزله - حادث أو شيء من هذا القبيل. فهل يمكن أن يزوره بعد بضعة أيام؟ وافق "ريكس" على طلبه، على الرغم من أن ذلك يعني أنه سيكون عليه أن يصبر لفترة أطول.

ما الذي يعرفه، حتى الآن؟ أن الثلاثة أولاد ولدوا قبل أربع سنوات، وأن الجنين الرابع مات. وكان يعلم أيضًا أن الثلاثة مستنسخون من الطبيب، وأنهم متطابقون في الشكل تمامًا، وحتى أدق التفاصيل. وأخيرًا، كان يعلم أن الأولاد لا يزالون على قيد الحياة.

عرف كل هذا من كلامه مع "فيكتور" ذلك الصباح في المعرض. وبقي "ريكس" يستمع إليه فاغرًا فمه طوال الوقت.

- هل يمكن لي أن أراهم؟

وسمح له الطبيب بذلك.

بقي لديه سؤال واحد. وهو سؤال اندهش لإجابته بشدة. بل صدمته الإجابة.. كان قد سأله عن أسماء أطفاله.

أوقف "ريكس كريمر" سيارته أمام الفيلا. وشاهد اللافتة فوق البوابة، عليها اسم "فيكتور" ومواعيد العيادة. وسمع وهو يترجل من سيارته دقَّات ساعة القرية. لقد حضر في موعده تمامًا. هناك عبر الشارع امرأة تكنس الرصيف. حيَّاها بحركة من رأسه في أدب، ولكنها بالكاد اهتمت له. خرج "فيكتور" من المنزل، وحيَّاه بإيماءة من رأسه وهو يفتح البوابة.

- اتبعني.

كان قد قطع بالفعل نصف المسافة فوق ممشى الحديقة.

وجد "ريكس" أنه يعامله كما لو كان مجرد مريض آخر قادم لإجراء فحص، وهو شعور تعزَّز عندما وجده يقوده إلى داخل غرفة الفحص. جلس "فيكتور" إلى مكتبه ودعا "ريكس" إلى الجلوس أمامه. ولاحظ "ريكس" على الفور صورة داخل برواز فوق ركن مكتبه تأخذ زاوية أمامه، كما لو كانت قد وضعت عن قصد.

- هؤلاء؟

أومأ "فيكتور" مؤمِّنًا.

- هل يمكنني أن...؟

- إنها صورة قديمة.

التقط "ريكس" البرواز، ولاحظ أن يده ترتجف. إنه لا يزال يأمل بطريقة ما أن يكون كل شيء من نسج خيال "فيكتور"، على الرغم من أن مجرد نظرة إلى الصورة أكدت له بوضوح ذاك التشابه الغريب بين الأولاد الثلاثة، ولكنه لا يزال غير مقتنع تمامًا

بأنهم مستنسخون. يمكن أن يكونوا مجرد ثلاثة توائم متطابقة، وورثوا ملامح "فيكتور": الشعر الأحمر و..

لكل شفة مشقوقة سماتها التي لا يمكن أن تتغير.

لا يزال يتذكر ذلك، على الرغم من مرور سنوات. حدَّق في أفواه الأطفال الثلاثة في الصورة، ولكن الطباعة غير واضحة بما فيه الكفاية ليميز تلك التفاصيل الدقيقة. وعلاوة على ذلك - وهذا شيء كان قادرًا على رؤيته - فقد أجريت عمليات للشفاه العليا. ولكن من المؤكد أن لدى الدكتور صورًا للأطفال قبل الجراحة، حتى ولو كان هذا النوع من الأدلة غير ضروري الآن. فقد توصَّل عالم بريطاني مؤخرًا إلى وسيلة لتشريح وقراءة الشفرة الوراثية الفريدة من نوعها لكل إنسان. أي أن من شأن اختبار دي إن إيه أن يحدد بشكل لا لبس فيه ما إذا كان الأطفال نسخًا متطابقة من "فيكتور هوب" أم لا. سأله بنبرة أراد لها أن تكون محايدة قدر الإمكان:

- لابد أنهم قد تغيروا بعض الشيء. كم عمرهم في هذه الصورة؟ عام تقريبًا؟

- عام. ومعك حق، فقد تغيروا.

- إني متلهف لرؤيتهم.

أريد أن أراهم على الفور، ولكن عندما تكلم "فيكتور" أدرك أن عليه أن يتحلى بمزيد من الصبر.

- لقد حاولت أن أتمهل.

إنه لا يقصد من كلامه التبرير، هو يريد فحسب أن يمنحه معلومة.

- ما الذي حاولت أن تتمهل فيه؟

- كان الأمر سريعًا للغاية.

- أنا لا أفهم.

- التيلوميرات في بعض الكروموسومات أقصر كثيرًا من الطبيعي.

نظر "ريكس" إليه في حيرة، ولكن الدكتور اعتقد أن نظراته تعني شيئًا آخر.

- أنت تعرف ما هي التيلوميرات، أليس كذلك؟

- بالطبع أعرفها. ولكن لا أعرف ما علاقتها بكل هذا.

ولكنه استوعب كل شيء وهو يقول تلك العبارة. فالتيلوميرات سلاسل طويلة من لبنات بناء في نهاية كل كروموزوم في النواة. وتلك التيلوميرات بطريقة أو بأخرى مسؤولة عن توفير الطاقة اللازمة لانقسام الخلية. ومع كل انقسام، يختفى عدد من هذه التيلوميرات للأبد، لأن الخلية لا يمكن أن تنتج بديلًا لها. وكلما زادت وتيرة انقسام الخلية، قل عدد تيلوميرات الكروموسومات؛ أي أنه وباختصار يكون لدى كبار السن أقصر سلسلة تيلوميرات.

شرح له "فيكتور":

- ما إن ولد الأطفال، حتى اكتشفت أن تيلوميرات الكروموسوم الرابع والتاسع أقصر بكثير من بقية الكروموسومات.

لم يكن "ريكس" على استعداد لأن يسمع بقية الكلام. فكلما عرف كلما تورط. ولكنه يمتلك بالفعل شكوكًا قوية بأنه يعلم ما يحاول الدكتور أن يخبره. فمن بين الأسئلة المتداولة بين علماء الأحياء، وهو لغز لم يحله أحد بعد: ما العمر الحقيقي للكائن المستنسخ؟ حيث إن الخلية التي توفر النواة تأتي من شخص بالغ، فإن خلايا المستنسخ ستكون، بحكم التعريف، أكبر بكثير من الخلايا الناتجة عن التلقيح الطبيعي. أهذا هو السبب؟ هل وقع خطأ ما في هذا الصدد؟

شعر بقلقه يتزايد:

- هل هذا يعني أن...

قاطعه الدكتور وقد ارتفع صوته قليلًا:

- لقد حاولت إبطاء العملية بعض الشيء.

كانت نبرة صوته تبوح باليأس، لأول مرة.

لم يلحظ "ريكس" شيئًا من هذا القبيل في "فيكتور" من قبل. أو... ربما لا: حدث هذا مرة من قبل، عندما توسل "فيكتور" إليه عبر التليفون أن يساعده بعدما اتضح له أن هناك أربعة أجنَّة مستنسخة.

- ولكنني لن أستسلم.

سمعه يقولها بكل عناد، تبدد منه كل اليأس. وبعدها سكت مجددًا.

- دكتور "هوب"، أنت تحدثت عن التيلوميرات للكروموسومات الرابعة والتاسعة. وقلت إنها أقصر بكثير. إلى أي حد هي قصيرة؟

حدق "فيكتور" في الصورة التي كانت لا تزال بين يدي "ريكس". وقال بنبرة آلية:

- أقل من النصف.

- أقل من النصف. أي أن... هل كان لذلك أي تبعات على الأطفال؟

- إنهم يكبرون في السن بصورة متسارعة جدًّا.

عندئذٍ تأكدت أسوأ ظنون "ريكس"، على الرغم من عدم معرفته بمعنى هذا الكلام من الناحية العملية.

- أهذا واضح؟ أعني هل يمكن لأحد أن يكتشف هذا بمجرد النظر؟

تمنى أن يطلب منه الدكتور الآن أن يذهبا لرؤية الأطفال، ولكن "فيكتور" اكتفى بإيماءة من رأسه وهو ينظر إلى الصورة.

- لم يبد أن هناك أي عيب فيهم في تلك المرحلة. ولكن بعدها...

سكت ولم يتم عبارته.

- بعدها ماذا؟

- صاروا صلعاء فجأة. وكانت تلك هي البداية.

تأمل "ريكس" الصورة. كان شعر الأطفال الأحمر خفيفًا بالفعل في تلك المرحلة، ولم يكن من الصعب عليه تخيل صورتهم وهم صلع تمامًا.

- هل هناك من شيء يمكنك فعله؟

- حاولت.

- وماذا ستفعل الآن؟

- لقد استهلكت تيلوميرات الكروموسومات الرابعة والتاسعة تمامًا.

الآن صار "ريكس" أسير دهشة تامة. وأكد له الدكتور مخاوفه عندما استطرد:

- ومنذ ذلك الحين توقفت الخلايا عن الانقسام، وما تبقى من خلايا بدأ يموت ببطء.

- وهو ما يعني عدم إمكانية عكس أو وقف تلك الشيخوخة؟

- ولكنني لم أخسر كل شيء بعد.

اعتدل في جلسته، ووضع يديه على ذراعي المقعد، وكأنه يهم بالنهوض.

- لم تخسر؟

- إنها عملية تحور. هكذا بكل بساطة. وطالما أنني عرفت هذا فيمكنني أن أتحسب له في المرة القادمة، عند مرحلة اختيار الأجنَّة.

عقدت الصدمة لسان "ريكس". بينما استمر "فيكتور" في كلامه:

- إنها مهمتنا في النهاية. مهمتنا أن نصحح الأخطاء التي ارتكبها هو بتعجله.

جحظت عينا "ريكس" تمامًا من فرط ذهوله.

واستمر "فيكتور" في شرحه بنبرته الرتيبة:

- أي تحوُّر لا يعدو أن يكون مجرد خطأ في الجينات. تمامًا مثل أن هذا كان خطأ في الجينات.

قالها وهو يضع يده على شفته العلوية، ويمر بإصبعه على الندبة.

وفضَّل "ريكس" ألا ينظر إليه.

- ونحن من خلال تصحيح تلك الأخطاء الجينية نصحح أنفسنا. وتلك هي الطريقة الوحيدة للتغلب على الرب في ملعبه.

وكأن هذه الجملة آلة زمن أعادت "ريكس" إلى اليوم الذي جلس فيه ليكتب خطابًا يهنئ فيه "فيكتور هوب" على مقاله، من قبل حتى أن يلتقيا.

"أنت بالتأكيد تفوقت على الرب في لعبته".

تبيَّن له أنه هو، "ريكس كريمر"، من كان السبب في إيقاد جذوة التحدي بتلك بعبارة بريئة لم يكن يقصد منها سوى التعبير البليغ ليس إلا.

همَّ "فيكتور" بالنهوض عن مقعده:

- هيا بنا؟ كنت تريد أن ترى الأطفال، أليس كذلك؟ تعالَ معي. إنهم بالأعلى.

مشي نحو الباب، من دون انتظار رده.

مكث "ريكس" في مقعده لثوانٍ أخرى، وقد جمدته الحيرة. وشعر بدوار حينما وقف على قدميه. اهتزت عيناه عدة مرات، وهو يأخذ نفسًا عميقًا. سمع صوته يأتي من الطرقة:

- دكتور "كريمر"؟

- أنا آتٍ.

صعد السُلَّم وراء "فيكتور"، وهو يحاول التركيز على ما يوشك أن يراه، ولكن العبارة التي سمعها للتو بقيت تحوم وتهيمن على عقله.

"إنها مهمتنا في النهاية. مهمتنا أن نصحح الأخطاء التي ارتكبها هو بتعجله".

قال لنفسه إن هذا محال، وإنه يتعمَّد استفزازه وحسب. يحاول "فيكتور هوب" أن يتلاعب بي. ربما سيقول لي في نهاية الأمر إن الأمر كله خدعة؛ وإنه كان يقصد منها أن يراقب رد فعلي. ولهذا طلب مقابلتي. حتى يسخر مني، لأن الناس يسخرون منه.

عندما فتح "فيكتور" الباب، كان "ريكس" لا يزال متشبثًا بأمل أن يكون كل ما يمر به الآن محض خدعة. حتى عندما وقف "فيكتور" في وسط الغرفة وقال:

- "مايكل".. "جابرييل".. "رافاييل".. هناك من...

ولكنه سكت فجأة. ولما تبين لـ"ريكس" ذلك وهو عند نهاية السلم، أسرع الخطى إلى الغرفة. وألقى نظرة على ما في داخلها.

لم يدرك على الفور أنها عبارة عن فصل دراسي. أول ما رآه فيها هي السبورة، وإليها كان "فيكتور" يتجه بخطوات واسعة سريعة. بدأ كالمحموم يمسح ما كان على السبورة وبكل قوة. ولكن "ريكس" كان قد لمح ما كان مرسومًا عليها. كان رسمًا لرجل أو امرأة. ومسح الدكتور الوجه بمسحة واحدة سريعة. لم يتبق منها سوى الشعر المضفر في كعكة فوق الرأس. إذن هي امرأة. حول الرأس هالة ملونة بالأصفر. اعتقد "ريكس" أنها هالة لأنه وجد رسمًا لجناحين خلف الجسد؛ جناحين باللون الأبيض، يتخذان شكلًا بيضاويًّا كبيرًا حول الجذع.

رسمة طفل، خطوطها بسيطة، ولكن تفاصيلها سهلة وواضحة. ولكنه مسحها.

انشغل الدكتور الآن بمسح النصف الآخر من السبورة، والذي امتلأ بالكتابات والشخبطة. ونجح "ريكس" في اقتناص عبارة وحيدة قبل أن يمسحها الدكتور... عبارة كانت كافية لكي يخمن فحوى بقية الكتابة الممسوحة:

... الذي في السماء...

وضع "فيكتور" الممسحة، والتفت إليه. مسح يديه، فتطاير الغبار في الهواء. مسح وجهه. تركت أصابعه علامات بيضاء على لحيته الحمراء.

كان "ريكس" قد نسي لجزء من الثانية سبب وجوده هنا، ولكن نظرة من "فيكتور" أعادت إليه ذاكرته.

كانوا ثلاثة. ثلاثة، ولم يكن هناك أي فرق لو كانا اثنين، أو أربعة. لأنه قد تبين الحقيقة على الفور. وأدرك أنها ليست خدعة أو مزحة...

وأن "فيكتور هوب" لم يكن أبدًا يسخر منه ويحتال عليه أبدًا.

2

مع بداية خريف عام 1988 اعتقد قليل من القرويين من أهالي "فولفهايم" أن قطع الشجرة من حديقة منزل الدكتور "هوب" نذير بفأل شؤم على "فولفهايم، كما كان "جوزيف زيمرمان" يتوقع. ولكن لم يمر عام كامل حتى كان أشد المتشككين مجبرًا على الإقرار بأن العجوز كان على حق. وعند ذلك الحين، كان "جاكي ميكرز" قد توصَّل إلى نظريته الخاصة في هذا الموضوع: أن النحس انتشر في أرجاء القرية بنفس قدر توغل جذور تلك الشجرة في أرضها. ولو تجرأ أحد وأعرب عن شكوكه تجاه تلك النظرية، فإنه كان يبادر بعرض خريطة تبوغرافية لـ"فولفهايم" ومحيطها، ويفردها فوق الكاونتر في مقهى "تيرمينوس". وقد ميز كل بقعة أصابها النحس بعلامة إكس. ولكل علامة رقم، وهي متصلة مع بعضها بخط متقطع إلى حيث موضع الشجرة وقت أن كانت قائمة. وعلى هوامش الخريطة، دوّن "ميكرز" تفاصيل الحوادث التي وقعت، والضحية والتاريخ. وعزز موقفه بأن أدرج كذلك الحوادث المؤسفة ذات الآثار المحدودة، وكان قادرًا على رد الاعتراض بأن من المحال أن تنتشر جذور الشجرة حتى تصل إلى "لا شابيل"، حيث كان يبين أن المسافة بين "لا شابيل" وأصل الشجرة أقل من خمسمائة متر في خط مستقيم.

واتفق الجميع على أن هجمة المصائب بدأت مع حادث "تشارلوت مينوت" في يوم 29 أكتوبر 1988. وكانت جنازتها في حضور حشد غفير من الناس في الكنيسة، وكان معظمهم قد حضر على أمل أن يحضر الدكتور "هوب" وأبناؤه الثلاثة. ولكن الدكتور لم يظهر، لا في القداس أو عند الدفن. وذكر "جيكوب وينشتاين" بعد ذلك أن الدكتور اتصل قبيل الجنازة ليعتذر، كان الأطفال مرضى جدًّا. هو افترض أن مرضهم بسبب

الحزن، بطبيعة الحال، ولكن عندما تكشفت تفاصيل وصية "تشارلوت" بعد أيام، أعاد النظر في افتراضه هذا، مثله مثل العديد من القرويين.

عرف الأب "كايزرجربر" الأخبار بنفسه من كاتب عدل "ليجراند" في "جيمينش". فقد قال له كاتب العدل إن "تشارلوت مينوت" قد أوصت بكل أموالها – هو لم يفصح عن المبلغ، لكنه كان مبلغًا ضخمًا – لمؤسسة سرطان الأطفال. ولم يكن لمثل هذا الخبر في حد ذاته أن يحدث كل تلك الجلبة، لولا أن كاتب العدل عقَّب بأن قال إن سيدة "مينوت" قد أعادت كتابة وصيتها قبل شهرين فقط من وفاتها. أمَّا قبل ذلك التغيير، فكان أطفال الدكتور هم المستفيدين الوحيدين من أموالها. وكان من المفترض أن يتسلموا مالها – كما أوصت – في يوم عيد ميلادهم الثامن عشر.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد. فقد رأت "إرما نيسبوم" صندوقًا كبيرًا يصل إلى منزل الدكتور، عليه علامة التحذير من الإشعاع، وفي اليوم التالي زاره شخص ألماني أخبر "إرما" أن الأولاد ليسوا على ما يرام.

– مكث هناك أكثر من ساعة، ولما خرج كان مرعوبًا كمن شاهد عفريتًا. ودخل إلى سيارته، ولكنه سرعان ما خرج منها. ذهبت إليه وسألته عما به – هل الأطفال هم السبب؟ نظر إليَّ نظرة مذنب، وكانت كافية. سألته: هم ليسوا بخير، أليس كذلك؟ وجدته يتردد، قبل أن يهز رأسه نافيًا. قالها بنبرة شخص يـ... تعرفون قصدي. ثم سألني عما إذا كنت أعرف سيدة اسمها "مانود". قلت له تقصد سيدة "مينوت"؛ لقد كانت مديرة منزل الدكتور. كان يريد أن يعرف ما جرى لها وأخبرته بأنها قد سقطت من فوق درج السلم في منزل الدكتور منذ أسبوع. وأنها قد لقيت حتفها على الفور. وسألته عن سبب سؤاله. فلم يعطني سبب معين؛ وأنه سمع عنها فحسب. كان في بالغ الحزن، حتى أنه دخل سيارته ثانيةً من دون ولا كلمة أخرى.

وربط الجميع بين غياب الدكتور عن الجنازة، وفحوى وصية "تشارلوت مينوت"، وحكاية "إرما"، وتوصلوا إلى الاستنتاج نفسه والوحيد.

أطفال الدكتور يحتضرون.

- لا بد أنه.. كما تعرفون.

وقال "ليون هيسمانز":

- ربما هي اللوكيميا. شائعة بعض الشيء بين الصغار. ومميتة.

- شيء كهذا كان متوقعًا.

وزاد اقتناع أهل القرية بالنظرية خلال الأسابيع التالية، لما وجدوا أن عيادة الدكتور مغلقة في أغلب الأوقات. ولا أحد يرد على التليفون بالمنزل، والبوَّابة مغلقة دومًا، حتى اضطر عدد من مرضاه للبحث عن طبيب آخر. وكان هناك شيء من السخط، ولكن الناس قدَّروا ظروفه.

- عليه أن يعتني بأطفاله.

- لا بد أن حالتهم تتدهور بسرعة. ولهذا لم نعد نراهم في الخارج.

- بؤس، زوجته... والآن...

وعرض الكل المساعدة؛ السيدات اللاتي عرضن رعاية المنزل، والرجال الذين رغبوا في الاعتناء بحديقة منزله. وشكر لهم الدكتور ذلك، ولكنه رفض المساعدة. ولم يقبل سوى طلب من "مارثا بولين" بأن يطلب منها حاجته من البقالة بالتليفون، وأنها سترسل بها إلى منزله.

وهكذا صارت "مارثا" توصل البقالة بنفسها إلى المنزل، ومعها بعض الحلوى والهدايا للأطفال:

- طبيعي أن يرغب في أن يمضي أطول وقت ممكن مع أطفاله.. طبيعي.

ولكن فضولها تغلب عليها ذات مرة، فسألت الدكتور بعدما أوصلت البقالة:

- دكتور، هل صحيح أن...؟

تعمدت أن تسكت في منتصف السؤال، لأنها تفترض أن الدكتور يعرف قصدها.

- ماذا؟ ما الأمر؟

- أقصد الأطفال؟

أدركت من رد فعله أنه تفاجأ. ولكنه تمسك بالتظاهر بأنه لا يعرف قصدها.

- ماذا عن الأطفال؟

ترددت كثيرًا قبل أن تنطق اسم المرض الذي مات بسببه زوجها قبل عشر سنوات مضت.

سخط الدكتور، وهز رأسه معترضًا:

- سرطان؟ كلا، ليس على حد علمي.

أدركت من نبرة صوته أنها لا يمكن أن تطرح عليه سؤالًا آخر. واضح جدًّا لها أنه غير راغب في مثل هذا الحديث.

قالت لمن يسمعها في محل البقالة لاحقًا:

- هو غير جاهز لمواجهة الحقيقة بعد. عليه أن يتعلم التكيُّف معها أولًا. عندما مرض زوجي احتجت إلى ثلاثة أشهر قبل أن أتمكن من تعريف زبائني بحقيقة مرض زوجي.

بقيت حكاية مرض أولاد الدكتور هي حديث القرية على مدار أسبوعين. قبل أن تتوارى في الذاكرة في غمضة عين، بسبب مأساة أخرى أكبر وأكبر.

قال لهم "جاك ميكرز" بعد سنوات وهم في مقهى "ترمينوس":

- انظروا إلى علامة إكس هذه في منتصف شارع "نابوليون"، على مرمى حجر من منزل الدكتور. هناك وقعت الحادثة الثانية. قبل أن يمر أسبوعان على مصرع "تشارلوت مينوت"! أمَّا الضحية فهو "جونتر ويبر" – الصبي الأصم. يوم 11 نوفمبر 1988: يوم عيد الهدنة. أي أنه كان يوم إجازة.

كان "جونتر ويبر" وخمسة أولاد آخرون يلعبون كرة القدم فوق المساحة المفتوحة الخضراء بالقرية. في يوم خريفي هادئ، والسيارات والحافلات منذ الصباح الباكر تسير مكتظة بالسياح البلجيكيين عبر القرية في طريقها إلى نقطة تقاطع الثلاثة حدود.

وسرعان ما تجمَّع ازدحام المرور وسد النفق الضيق المؤدي إلى طريق "ديس تروا بورن". ومع حلول ساعة الغداء كان الزحام قد وصل إلى الطريق جوار منزل الدكتور "هوب". ومع هذا العدد الكبير من الناس العالقين داخل سياراتهم، وبالتالي تزايد العيون التي تراقبهم، كان من الطبيعي أن يتشجع الأولاد ليستعرضوا مهاراتهم. ولم يكن "لانكي ميكرز"، الذي صار الآن في الثالثة عشرة من عمره ويكاد طوله يقارب المترين، ليتخلى أبدًا عن أمله في أن يأتي يوم يكتشفه فيه أحد مدربي كرة القدم فيقفز خارجًا من سيارته ويعرض عليه عقدًا للعب لنادٍ كبير، وهو حلم يشاركه فيه بقية الأولاد أيضًا، وإن كان "ميكرز" يسحق دومًا أحلامهم تلك.

- أنت، "جونتر"، أنت! يختارونك لفريق كبير؟ أنت عاجز حتى عن سماع صفارة الحكم!

سيبقى طيلة حياته يندم على تلفظه بهذا التعليق الساخر، والذي دفع "جونتر" إلى أن يبذل قصارى جهده في استعراض مهاراته بدرجة أكبر مما فعل الباقين، فهو يريد أن يثبت أنه لا يقل عن أي واحد منهم.

كان "جونتر" يقف حارس مرمى كالمعتاد، فهو من بين قائمي المرمى قادر على كشف الملعب بأكمله. وكان "جوليوس روزنبوم" قد صوَّب الكرة للتو بعيدًا عن المرمى، وراح "جونتر" ليحضرها. وعندما التقط الكرة من الأرض، شعر بأن كل العيون في هذا الزحام مسلطة عليه، وهو الأمر الذي جعله راغبًا في مزيد من الاستعراض. وعاد منتفخ الصدر مشدود القامة ومرفوع الرأس إلى مرماه. وضع الكرة على الأرض، وأخذ يعدِّل من وضعها عدة مرات ممَّا أثار الكثير من سخط اللاعبين، وهو يقوم بحركات استعراضية، إلى أن اقتنع بأنها قد ثبتت على الوضع الذي يرغبه. وصاح فيه "لانكي ميكرز":

- "جونتر"، لا تبالغ. هيا.. أوكيه.. كلنا رأيناك الآن.

ربما كانت تلك العبارة بالذات هي التي دفعت "جونتر" إلى المزيد من المبالغة في الاستعراض. فقد ربَّت على أذنه، متظاهرًا بأنه لم يفهم. ثم رفع يديه إلى عينيه، وكأنهما منظار يرى من خلاله الإتجاه الذي سيسدد الكرة إليه. ومد ذراعه عاليًا في الهواء، وأخذ يطوحها للأمام والخلف. ثم صاح في زملائه:

- روحوا.. روحوا.. لأنني سأركل الكرة لمسافة بعيدة جدًا!

هكذا بدأ اللاعبون في الابتعاد داخل الملعب، وتراجع "جونتر" للخلف عدة خطوات واسعة، حتى يعطي لنفسه مساحة للانطلاق. كان يشعر بأن الناس في الشارع يتطلعون إليه في انبهار.. "انظروا ماذا يفعل الولد!".. وتخيلهم وهم يتصايحون سعادة به. فأخذ خطوات أخرى للوراء.. "لسوف يركض نحو الكرة".. "هذا الصبي سيركل الكرة عاليًا في السماء!"، "انظروا إلى أي مسافة وصل قبل أن ينطلق!".

كان على مسافة عشرين قدمًا من الكرة، عندما رأى رفاقه وقد بدأوا يلوحون له ويصيحون فيه. ولكنه كان بعيدًا فلم يتمكن من قراءة شفاههم. لذلك بقي مركزًا على الكرة، ورجع خطوة أخرى للوراء قبل أن يتحفز للانطلاق للأمام، مثل أي عداء. كان يسمع الكل في عقله وهم يشجعونه... "جونتر! جونتر!".

أوه، لسوف يركل تلك الكرة ركلة غير مسبوقة! فقط خطوة أخرى للوراء ومن ثم...

ومن ثم سقط "جونتر ويبر" أسفل عجلات حافلة الساعة 12:59 ظهرًا، التي كانت تدخل إلى محطتها. لقي الولد مصرعه على الفور، هكذا أعلن طبيب هرع من سيارته العالقة في الزحام بعدما تفحصه. وكان هذا عزاء والديه الوحيد، على الرغم من أنها معلومة لا تحمل أي قدر من العزاء أو الراحة. فهم فقدا طفلهما الوحيد.

راقب "فيكتور هوب"، من مكانه عند نافذة الطابق الأول، الناس يهرعون إلى مكان الحادث. كما لو أنهم جميعًا ينقضون على بقعة ما في منتصف الشارع، غير أنهم يتوقفون عند نقطة ما ليصنعوا حولها دائرة واسعة. لم يتبين له وهو واقف وراء زجاج النافذة سوى وجوه منكوبة، ترمق بحذر ما كان يرقد هناك. وهناك رجل يصيح بأعلى صوته وهو يشق طريقه عبر الزحام، والناس تتراجع لإفساح الطريق له. خمَّن "فيكتور" أن الرجل طبيب، وبالتالي هناك حادث وقع، وضحية. وربط عقله على الفور بين الأصوات التي سمعها وصرير مكابح الحافلة على مقربة من مكان الضحية.

أدرك معنى الحركات التى يقوم بها الطبيب. لقد مات. كم هو سهل أن يموت الإنسان. أمر الموت سهل. وهو أسهل من صنع الحياة. سلب الحياة سهل، حتى ولو كان هذا من دون قصد. ولقد تعلم ذلك الدرس منذ أيام قليلة.

استغرق "فيكتور هوب" في مراقبة ما يجري أمامه تمامًا، وقد عقد يديه خلف ظهره.

كان إعلان الدكتور إيذانًا بتزايد الجلبة بين الناس. كانوا بين مصدوم ومذهول، وحزين. ووقفت مجموعة الأولاد الصغيرة تبكي وتنتحب.

انفصل صبي عن المجموعة، وابتعد. أدرك "فيكتور" أنه "لانكي ميكرز". كان الصبي يصرخ ويبكي، راكضًا نحو المساحة الخضراء، حيث كومتان من المعاطف تفصل بينهما ثلاثة أمتار. كانت تصنع المرمى. وهناك كرة قابعة إلى جوار المرمى. كان "لانكي ميكرز" يركض نحو الكرة. بدا للعيان وكأنه ينزلق بسرعة، بل يحلق، كما لو أن صرخاته تمنحه قوة تخلصه من جاذبية الأرض. وبكل ما فيه من قوة اندفاع، ركل الكرة. اندفعت الكرة إلى عنان السماء، يتبعها عويله. لم ينظر "لانكي ميكرز" إليها. فقد خانته ساقاه، وخر جاثيًا على ركبتيه، وكتفاه ترتجفان بشدة. وبدأ أناس يقتربون منه مشفقين.

عاد "فيكتور" لينظر ناحية الضحية مجددًا، وقد تأكد له أنه واحد من صبية هذه القرية.

جاء شخص ببطانية. وقام الطبيب بفردها فوق الضحية ليسترها؛ لا بد من محو آثار الموت في أسرع وقت ممكن، هكذا فكر "فيكتور". محوها، مثل خطأ كتبه أحدهم على سبورة.

شاهد الناس وهم يستعدون للانصراف. فلقد انتهى العرض. عادوا إلى سياراتهم أو حافلاتهم، وتقمصوا دور السيَّاح العاديين مجددًا، في طريقهم إلى النقطة الحدودية. يعرف "فيكتور" بأنه ليس بمكان حقيقي ملموس، مجرد لمحة من خيالات البشر. غير حقيقي، ولكنه موجود. جميعهم يريدون أن يروا ذلك بأم أعينهم، حتى ولو لم يكن هناك أي شيء ليروه. نقطة تقاطع الحدود الثلاثة أشبه بالرب. ينجذب الناس إليها، ولكنهم في نفس الوقت ضحية غوايتها.

وجد الناس يخرجون فجأة من سياراتهم مرة أخرى. فقد استجد ما لفت انتباههم. ارتعشت عينا "فيكتور". تباعد أفراد المجموعة الصغيرة التي كانت لا تزال حول الضحية، لإفساح المجال هذه المرة لامرأة كانت قادمة تركض. إنها "فيرا ويبر". الآن عرف هوية الضحية. نهض الطبيب، وحاول كبح جماح السيدة. قبض بقوة على كتفيها، ولكنها أبعدته.

حدق "فيكتور" مذهولًا في "فيرا ويبر". كانت تصرخ. وتنوح. رفع "فيكتور" يده إلى النافذة ليفتحها، واضعًا إصبعه على المزلاج. جلب النسيم الهادئ تلك الأصوات الغريبة إليه. كان قد سمع تلك الأصوات من قبل. منذ فترة طويلة. أصوات الحزن. اليأس. الجنون. ولامست الاصوات شيئًا ما في داخل رأسه، فارتجف.

انحنت المرأة على البطانية وسحبتها. وتوقف صوتها. واحتضنت رأس ابنها بين ذراعيها، تهدهده في صمت، قبل أن ترفعه إلى حضنها. وداعبت شعره. كانت تتحدث إليه. ألا تعرف أنه قد مات؟

الرب أعطى والرب أخذ، "فيكتور". لا تنسى ذلك.

وفجأة انتبهت المرأة. وفهمت. لأنها توقفت عن التحدث إلى الطفل. ورفعت رأسها، تحدق في السماء، ومدت ذراعيها في الهواء وكأنها تتشبث بشيء ليس له وجود. وبينما كانت تحاول التشبث بذلك الشيء غير الموجود، عادت تصرخ مرة أخرى.

أغلق "فيكتور" النافذة، لينأى بنفسه عن الضجيج. فما كان يسمعه غريب عليه، ولكن الصوت نفسه ليس غريبًا. هو غريب فقط على من لم يألفه. وهو لم يكن ليألفه...

فهو لم يعرف قط أن الأم تكاد تموت كمدًا على طفلها.

***

اندهش والدا "جونتر" عندما زارهما الدكتور "هوب". كان ابنهما راقدًا في التابوت المفتوح في المنزل، لمن يريد أن يلقي عليه نظرة وداع أخيرة. وكان الدكتور من بين أول من ظهروا.

- تعازيّ. إني مدرك لطبيعة مشاعركم الآن.

كان لزيارته وكلماته أثر كبير فيهما. واعتبر "لوثر" و"فيرا ويبر" أنه بزيارته هذه يبدي شجاعة كبيرة، للتعبير عن تعاطفه وهو الذي يمر بدوره بوقت عصيب، وعمَّا قريب سيفقد أطفاله الثلاثة، وليس طفلًا واحدًا. ولهذا السبب لم يمتلكا الجرأة ليسألاه عما إذا كان يود أن يذهب ليلقي نظرة أخيرة على ابنهما. ظنوا أنه أمر سيثير لديه الكثير من المشاعر الجياشة. ولكنهما وجداه يطلب بنفسه أن يرى الصبي. فتطوع "لوثر" قائلًا:

- أتود أن أكون معك؟

أخبره أنه لا ضرورة لذلك. وذهب الدكتور وحده، وتوارى خلف الستائر الداكنة الثقيلة التي يقبع التابوت وراءها. ولم يمكث الدكتور طويلًا، ولكنَّ الوالدين تفهما ذلك، وعرضا عليه تناول القهوة، ولكنه رفض بأدب.

- لو وجدتما أن بوسعي المساعدة بأي شيء، فأرجو ألا تترددا في الاتصال بي. ليس عليكما إلا الخضوع لمشيئة الرب.

ورحل عنهما، بعدما خلّف فيهما كل حيرة الدنيا.

كان قد استعان بمشرط ليحدث شقًا سريعًا في كيس الصفن، بطول سنتيمترين. كان كيس الصفن ذابلًا، متخشبًا، تمامًا كما يحدث لو أن الصبي قفز في ماء مثلج، وهو رد فعل غريزي يقوم به الجسد لحماية الخصيتين. وهي تجدي في الحفاظ على ثبات درجة الحرارة لفترة أطول قليلًا، وهو ما يعني أن بعض الأنسجة لا تزال قابلة للحياة. تلك كانت مقامرة، ولكنها مقامرة منطقية. وإن لم تنجح، فإنه يكون قد حصل على الأقل على بعض الحيوانات المنوية التي يمكنه أن يعمل عليها.

كانت الخصيتان في حجم وشكل حبتي فاصوليا بيضاء جافة، تركتا في الماء لفترة طويلة جدًا. وكان عليه أن يتعامل بسرعة، فقصهما عن القناة المنوية ووضعهما في برطمان ممتلئ بالصوف القطني. ودس البرطمان في الجيب الأمامي لمعطفه.

أعاد سحب سروال الصبي على وضعه الأول بكل هدوء.

والآن عليه أن يتصرف بسرعة.

يجب علينا الخضوع لمشيئة الرب.

كانت تلك العبارة مكتوبة على بطاقة الدعوة لحضور العزاء التي وجدها "فيكتور" في صندوق البريد في ذلك الصباح، قبل أن يقصد منزل آل "ويبر".

اعتبر ذلك تحديًا جديدًا له. كما لو أن أحدهم قد عاد ليتحداه من جديد.

إنه تحدٍ يختلف عن كل ما سبقه.

يختلف تمامًا.

3

كانت رؤيتهم لأول مرة صدمة لا يمكن وصفها بكلمات. وكأن الأطفال في مرحلة شيخوخة متأخرة. الأمر ظاهر جدًّا من منظر جلودهم المجعَّدة الجافة. جلد على عظم بمعنى الكلمة. لم يستطع "ريكس" أن يبعد عينيه عنهم؛ حاول وعجز عن ذلك. إنه أسير شعور قسري، يجبره على النظر إليهم ليس بصفته عالمًا، ولكن كشخص تملَّكه الفضول.

أمَّا "فيكتور"، فيتعامل مع أطفاله من منطلق علمي بحت. يتحدث عنهم وكأنهم عينات بحثية، حتى ولو كانوا يقفون أمامه. وهو ما بث الخوف في نفس "ريكس"، وجعله لا يشعر بأي ارتياح. نظّم الدكتور الأطفال في صف واحد، ثم أشار إلى سمات التطابق الجسدي: شكل الأذن الخارجي، موضع الأسنان اللبنية، شكل الأوردة على الجمجمة، والتركيبة العجيبة للأنف والشفة العلوية.

عقب ذلك، أظهر لـ"ريكس" الفوارق بينهم، مؤكدًا له أنها قد ظهرت في مرحلة لاحقة. كانت هناك تجاعيد وترهلات في الجلد المجعَّد تختلف عن بعضها البعض، وكذلك بقع داكنة على أظهر الأيدي تختلف في أحجامها وأشكالها. ولم يشرح "فيكتور" ذلك، ولكن "ريكس" افترض أنها مثل تلك التي في أيدي العجائز.

ولاحظ، فضلًا عن ذلك، أن أحد الأولاد لديه بقع كبدية اللون أكثر من الباقين، وهو ما جعله يتساءل عما إذا كانت عملية الشيخوخة لديه أسرع منهم. كما كان لدى الصبي نفسه ندبة في مؤخرة رأسه، والتي هي وفقًا للدكتور نتيجة سقطة، وأخرى على ظهره، نتيجة لإجراء عملية جراحية لواحدة من كليتيه - وهي تجربة لم يثبت نجاحها بشكل قاطع، كما اعترف "فيكتور".

وأكد له الدكتور أكثر من مرة أنهم قبل ذلك، أي قبل أن تتسارع تلك الشيخوخة، كانوا متطابقين تمامًا ولا يمكن تمييزهم عن بعضهم البعض على الإطلاق. حتى إنه كان مضطرًا إلى تمييزهم بألوان مختلفة. بالطريقة التي تتم مع فئران التجارب، هكذا قال من دون ذرة من السخرية في صوته، كما لو كان هذا التصرف أكثر التصرفات طبيعية في العالم. ثم رفع قمصان الأولاد، وأظهر لـ"ريكس" تلك النقاط التي تشم ظهورهم: نقطة عند "مايكل"، أول من ولد بينهم، ونقطتان لدى "جابرييل"، وثلاث عند "رافاييل".

- لولا ذلك لأسميتهم "فيكتور 1" و"فيكتور 2" و"فيكتور 3".

حدَّق "كريمر" في صدور الأولاد. وتمكَّن من بعيد أن يحصي عدد الأضلع الظاهرة للغاية؛ وكانت جلودهم النحيلة ممطوطة فوقها مثل قماشة. وعرف لاحقًا أن وزن كل طفل لا يتجاوز ثلاثة عشرة كيلو جرامات. ثلاثة عشرة مع طول يبلغ مترًا وخمسة سنتيمترات؛ ولكن حتى هذا القوام يتداعى الآن، حيث تتقوس أعمدتهم الفقرية يومًا بعد يوم.

كانت صور البولارويد في الألبوم تحت عنوان على هذا النحو.. "ف1"، "ف2"، "ف3". طالعها "ريكس" عندما عاد هو والدكتور إلى غرفة الكشف. اثنا عشر ألبومًا تمتلئ بالصور. وتحت كل صورة تاريخ، ثم العنوان... "ف1"، "ف2"، "ف3".

حياة ثلاثة أطفال مسجلة بدقة. كلا، ذلك خطأ، لم يكن لها صلة بحياة الأطفال، وذلك لأن الصور لا تعطي الانطباع بكونها صورًا لأسرة أبدًا. إنها تمثل قطعًا في بازل - بانوراما تظهر أجزاءً من أجساد الأطفال، لبيان أوجه التشابه بين الأولاد الثلاثة في كل مرحلة من مراحل حياتهم. ولكن ما لفت نظر "ريكس" وهو يتصفح تلك السلسلة التي لا نهاية لها من الصور هو شيخوختهم السريعة وليس التشابه، كما لو أن الألبومات تغطي فترة ثمانين عامًا، وليس أربعة أعوام.

تمنى لو أمكنه أن يرحل، ولكن "فيكتور" لم يتوقف عن الكلام والشرح، مكررًا نفسه أكثر من مرة. حكى قصته بوعي كامل ودون أي أثر للعاطفة، واستمع له "ريكس" باستغراب. حكى له "فيكتور" عن ذكائهم، وموهبتهم في تعلم اللغات، وقوة ذاكرتهم. وقال له إنه وجد نفسه في كل تلك الأشياء. وحرص على تشجيع مواهبهم،

بحيث يتمكنون مستقبلًا من استغلال معارفهم وبصيرتهم في خدمة الإنسانية. هكذا قالها بالحرف: "في خدمة الإنسانية". وعقب عليها قائلًا: "هم أيضًا".

ارتعد "ريكس"، ولكنه أمسك لسانه، لأن الدكتور لم ينتهِ من كلامه بعد. كان قد بدأ يحكي عن خطواته التالية. فلكي يحل مشكلة التيلوميرات، فإنه يفكر في استغلال الخلايا العصبية لتكون مادة مانحة عوضًا عن خلايا الجلد. وذلك لأن الخلايا العصبية تنقسم لعدد مرات أقل من بقية أنواع الخلايا؛ وهو ما سيؤدي تلقائيًّا إلى حل معضلة التيلوميرات. كما أن الخلايا العظمية جيدة كذلك، وخاصة أنها تنمو بسرعة أقل من بقية الخلايا. والأمر نفسه ينطبق على الأعضاء التناسلية، لأن الخلايا فيها لا تنقسم إلا في مرحلة لاحقة، عند البلوغ، وهو ما يعني أن خلاياها أصغر سنًا، وعمر التيلوميرات فيها أطول. تذكر "ريكس" وهو يستمع إلى بساطة الشرح ومنطقيته أن هذا هو ما أغراه لأن يمنح "فيكتور" حرية تصرف مطلقة في الماضي. فقد كان، ولا يزال، سابقَ عصره.

وجد "ريكس" نفسه أسير الغواية من جديد، بخطوات بطيئة، ولكنها واثقة. ويبدو أن نبرة "فيكتور" الخنفاء ذات تأثير يجعله أشد اقتناعًا بما يقوله. وأراد الفكاك من كل ذلك. وألحت عليه فكرة الفرار من هذا الفخ.. عليَّ أن أهرب من هنا، قبل أن يزداد تورطي.

نهض من مقعده وقال:

- لا يمكنني أن أمكث أكثر من هذا؛ عليَّ أن أعود.

أدرك أن نبرة صوته تفضح كذبه. وكأنه يعترف بأنه يبحث عن وسيلة للهرب.

ولكن "فيكتور" لم يحاول أن يستبقيه؛ بل على العكس، نهض بدوره واصطحبه إلى الباب. وما هي إلا ثوانٍ حتى وجد "ريكس" نفسه في الخارج، ولكن ما إن انغلقت البوابة من خلفه دخل هو إلى سيارته، حتى تسمر في موضعه. وكأن هناك قوة ما تشلّه. لم تكن نابعة مما قاله "فيكتور"، بل مما قاله الأطفال، كلمات قليلة أحزنته وأصابته بالسخط.. وكان تأثيرها أشدَّ كثيرًا من كل تأكيدات "فيكتور".

"أ... عرف... مكا... فرا... مي... ود؟".

هكذا تحدَّث إليه أحد الأولاد. كان "ريكس" على وشك أن يغادر الفصل بعدما اقترح "فيكتور" عليه أن يستكملا الحديث في المكتب. وبقي الأطفال الثلاثة، الذين خضعوا طائعين صبورين طوال ما قدمه له الدكتور من عرض، في مكانهم. كان "فيكتور" قد غادر الغرفة من دون نظرة واحدة إليهم، ومن دون أي كلام. وتأخَّر "كريمر" لحظات ينظر فيها إلى الأطفال، حتى يقنع نفسه بأن ما يراه حقيقي. عندئذٍ تفوه أحدهم بكلمات، باغتت "ريكس" في البداية، فلم يستمع إليها جيدًا.

"أ... عرف... مكا... فرا... مي... ود؟".

كان صوت الولد أخنف مثل "فيكتور".

- ماذا قلت؟

"أ... عرف... مكا... فرا... مي... ود؟".

قالها الولد ثانيةً، وهو يحدق أمامه مباشرةً، وكأنه يتحدث إلى شخص آخر غيره.

أيعرف مكان سيدة "ميود". إنه لا يعرف أي سيدة بهذا الاسم.

- كلا، لا أعرف.

"هي... مـــ... ع... الرب... في السماء".

لم يكن نفس الولد الذي تحدث في البداية. وكانت تلك إجابة عن سؤال الولد الأول. ولكنَّ الصوتين متطابقان.

لم يفهم "ريكس" ما قصده. ولم يتضح له أي شيء إلا عندما تحدث الثالث.

"هي... ميتة... بابا... فعلها".

لم يستغرق كل هذا سوى بضعة ثوانٍ، ولكنها بدت مثل الدهر، واندهش لما تبين له أن "فيكتور" لم يرجع لينهر الأولاد ليصمتوا. وحتى عندما عاد، لم يبد عليه أي تأثر، أو اندهاش.. أو غضب. تجاهل الأولاد بكل بساطة، وطلب من "ريكس" مجددًا أن يتبعه إلى المكتب.

وطوال كلام الدكتور وشرحه، بقيت تلك العبارة تدور وتدور في دوامة داخل عقل "ريكس".

"هي... ميتة... بابا... فعلها".

ولم يستوعب معناها إلا حينما استقر به المقام في داخل سيارته. شعر بدوار وغثيان فظيع، أجبره على مغادرة السيارة ثانيةً. واستند إلى بابها المفتوح، يتوسل نسمات الهواء لتدخل صدره. اقتربت منه سيدة تطمئن عليه، وسرعان ما تطوعت بالحديث عن الأطفال. وسألته:

- هم ليسوا على ما يرام، أليسوا كذلك؟

لم يستطع إنكار الحقيقة؛ بل ربما لم تكن لديه رغبه في إنكارها. وسألها عما إذا كانت تعرف من هي سيدة "ميود"، وعن قصة تلك السيدة. ولكنها صححت له الاسم.. سيدة "مينوت". إنها سيدة "مينوت"؛ مديرة منزل الدكتور. وقد سقطت من فوق درج سلم المنزل. حادثة. قضاء وقدر.

طمأنته السيدة قليلًا بما حكت له. ولكن العبارة التي قالها الطفل لم تفارق عقله طوال طريق العودة إلى "كولون". حاول أن يتذكر أي شيء من أحداث اليوم، من بدايته إلى نهايته، ولكنه كلما حاول تجميعها في عقله، كلما بدت له مراوغة بعيدة المنال. وكأنه يتفرج على فيلم من الخيال. تتحرك شخصياته على شاشة. حتى إنه سأل نفسه بعد عدة محاولات يائسة عمًّا إذا كان كل ما عايشه حقيقة أم من نسج الخيال.

4

اتصل "لوثر ويبر" بالدكتور "هوب" من دون علم زوجته. فهي لم تكن موافقة.

أجابته حينما اقترح عليها الذهاب إلى الدكتور:

- لماذا؟ أنا لست مريضة.

ولكنها كانت مريضة – أمرضها الحزن. وراقبها "لوثر" يومًا بعد يوم. لاحظ تلك الأمور الصغيرة. كيف تجبر نفسها إجبارًا على النهوض من الفراش في كل صباح لتجوب المنزل على غير هدى، وكيف تتناول طعامها ببطء أشد من المعتاد، وتراكم الغسيل والملابس التي تحتاج إلى كي، وكيف أنها لم تعد تلمع حذاءه، وكذلك فترات الصمت الطويلة.

"لوثر" بدوره يعاني، كما لم يعانِ من قبل، ولكنه لم يفقد قدرته على التركيز على عمله في الورشة. وكانت "فيرا" تبقى وحدها بالمنزل طوال النهار.

كان يأمل في أن يستقر الألم عند نقطة معينة، ولكن بدا له أن الحزن ينمو بدرجة أكثر كثافة، من أسبوع لأسبوع. إلى أن جاء صباح أحد الأيام الذي قررت فيه ألا تفارق السرير على الإطلاق، فاتصل بالدكتور. كانت الفترة التي تسبق عيد الميلاد، وظن أن أيام الأعياد ستزيد من حزنها للأسوأ. وسمع من أحدهم في العمل أن هناك حبوبًا تجعل احتمال الحياة أسهل على الإنسان، وأراد أن يسأل الدكتور إن كان لزوجته أن تتناولها. ولكنه لم يخبره بذلك عبر التليفون، لأنه اعتقد أنه ليس بالأمر الملائم؛ وطلب فقط من الدكتور أن يحضر إلى المنزل.

- إنها "فيرا". مريضة.

وعده الدكتور أن يزورهما في اليوم نفسه. وهو الأمر الذي منح "لوثر" الأمل، وهذا لأن الدكتور صار من النادر أن يقوم بزيارات منزلية في تلك الأيام.

وهو لم ينس طلب الدكتور يوم الجنازة، ألا يتردد في طلب المساعدة منه، مهما كانت. وقد صدق الدكتور وعده.

وصل في تمام الثالثة والنصف. وكانت "فيرا" لا تزال في السرير. لم تأكل أي شيء طوال اليوم. ولم تتكلم. وعندما دخل الدكتور "هوب" إلى غرفة نومها، اعتدلت قليلًا، وعدلت من ثياب نومها، وهي ترمق زوجها بنظرة غاضبة. عبَّر لها عما يريد قوله بلفتة منه، فهو لم يجد سوى هذا الحل. ولكنه ارتاح في داخله لردة الفعل تلك؛ فمن الواضح أن انسحابها هذا لم يتغلب عليها بعد.

سألها الدكتور:

- تعانين من أوجاع؟

هزت رأسها أن لا. ولاحظ "لوثر" أنها على وشك أن تبكي. فشعر بغصة في حلقه.

- حزينة؟

عندئذٍ بدأت "فيرا" تنتحب، بقوة اهتز لها كتفاها.

- إنني أفتقده بشدة! وحشني! وحالتي تزداد سوءًا! لن يذهب هذا الحزن عني! "جونتر"، يا لولدي المسكين، "جونتر"!

أحنت رأسها، ودفنته بين يديها.

اقترب "لوثر" منها. ونظر إلى الدكتور "هوب"، الذي لم يبد أي انفعال. كعادته. لهذا طلب من الدكتور أن يحضر؛ لأنه سيتمكن من الحكم على حالتها بكل ذهن صافٍ، وبكل حيادية.

قال الدكتور "هوب"، بنبرة لم يتضح منها إن كانت سؤالًا أم تقريرًا للحالة:

- أحببته كثيرًا.

تبرَّم "لوثر"، ولكن الزوجة لم تندهش لكلمات الدكتور.

- كان ابني الوحيد، دكتور. كل ما لدي في هذه الدنيا. والآن رحل.

نظر "لوثر" إلى زوجته، التي عادت لتدفن رأسها بين يديها مرة أخرى. جلس على حافة السرير، وبدأ بطريقة غريبة يفرك يديه على فخذيه. يشعره هذا بالذنب أحيانًا، أن تكون زوجته منكوبة بالحزن أكثر منه. ولكن الحقيقة هي أن علاقتها بـ"جونتر" كانت دائمًا أقوى، وكانت أفضل منه بكثير في التعامل مع ابنهما الأصم. حتى إنها تعلمت لغة الإشارة. بينما تعامل هو مع إعاقة "جونتر" على أنها عبء، لذلك كانت معاملاته مع ابنه قصيرة عملية. وهو الآن يندم على ذلك.

- وما المانع في أن تنجبي طفلًا آخر؟

امتقع وجه "لوثر". ووجد زوجته ترفع رأسها عن يديها.

- سأبلغ الأربعين في الشهر القادم، دكتور.

نفس الفكرة التي خطرت لزوجها. كما أنها كانت تخشى الإنجاب منه لسنوات – منذ أن عرفت أن "جونتر" أصم، وحتى مع تأكيد الطبيب أن هذا لا يعني إطلاقًا أن أي مولود جديد سيكون أصمَّ بدوره. والآن أضحت كبيرة السن. ربما ظن الدكتور "هوب" أنها أصغر سنًا.

- عمرك ليس مشكلة. أعني في هذا العصر. إنها مسألة فنية.

قالها بلهجة مقنعة للغاية.

هزت "فيرا" رأسها:

- لا أدري، دكتور. أنا لم أفكر أبدًا في ذلك. إنه...

- يمكنكِ أن تحظي بولد آخر... إن أردتِ.

- ولد؟

- ولد عبارة عن صورة طبق الأصل من "جونتر". هذا ممكن. لا مستحيل هذه الأيام.

تدخل "لوثر" في الحوار مترددًا:

- ولكن، دكتور، هل سيكون... سيكون...

نظر إلى زوجته، ولكنه وجدها لا تنظر إليه، ووجدها محتارة، فأكمل وهو يربت خفيةً على أذنه اليمنى:

- هل سيكون...

أجابه الدكتور "هوب" بحزم، وسط بكاء "فيرا":

- كلا، لن يكون أصمَّ.

تنفس "لوثر" الصعداء، وفكَّر لحظات، قبل أن يتساءل في قلق:

- ليس علينا أن نبت في الأمر الآن، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

أجابه الدكتور في هدوء:

- لا. أنا أطرح الفكرة عليكما فحسب. خذا وقتكما. فكرا. فكري، سيدة "ويبر". ليس عليكِ أن تخضعي لمشيئة الرب.

قالها واستدار على عقبيه وخرج.

نهض "لوثر"، ولكن الدكتور أشار إليه أن يبقى:

- كن مع زوجتك، أستاذ "ويبر". سأجد طريقي إلى الخارج.

هز "لوثر" رأسه وعاد ليجلس إلى السرير. راقب الدكتور وهو يغادر الغرفة، منتصب الظهر والكتفين. في مشيته ثقة كبيرة في النفس يحسده عليها "لوثر"، ولكن تبهره كذلك. سمع زوجته تنتحب، فتذكر أنه لم يسأل الدكتور عن الحبوب التي كان من المفترض أن تجعل حياتها أسهل.

تنهد، والتفت إلى زوجته:

- "فيرا"...

رفعت زوجته رأسها. عيناها حمراء باكية. رفعت يمناها، قبل أن تدعها تسقط في حجرها. قالت له وهي تنتحب:

- إننا حتى لم نسأله عن حال أطفاله.

***

مرَّت أيام الأعياد بعدما حطت الكثير من الملح على جراح "لوثر" و"فيرا" المفتوحة. وفي أول أيام السنة الجديدة، قررا الذهاب إلى الأب "كايزرجربر"، طلبًا للمواساة.

سألته "فيرا":

- هل علينا أن نرضى بمشيئة الرب؟

عندئذٍ قص عليها القس حكاية أيوب، الذي ابتلاه الرب بعدما تحدَّاه الشيطان.

- حرم الرب أيوب من زينة الحياة الدنيا. ومن أولاده. ومع هذا لم يسيء المسكين الأدب مع ربه. وكان يقول: "للرب ما أعطى وللرب ما أخذ". وعندئذٍ ابتلاه الرب بالبثور من رأسه إلى قدميه. فقال أيوب: "هل نقبل بما يقدره لنا الرب من خير، وننكر ما كتبه من شر؟".

كانت الحكاية مصحوبة بالكثير من الحركات والإيماءات، كما هي عادة القس، الذي نظر إلى "فيرا"، وهو يعقب:

- والآن، هل فهمتِ مقصد أيوب؟ فوق رأسيكما سقف يحميكما، ولديكما سيارة لطيفة، ولدى "لوثر" عمل جيد.. وأنتما بالتأكيد لا تسخطان على الرب لأنه منحكما تلك الأشياء، أليس كذلك؟

- أقبل بأن يأخذ كل هذا ويعيد إلي "جونتر".

فأكمل الأب "كايزرجربر":

- الحكاية لا تنتهي هنا. ولأن أيوب رضي بقضاء الرب، فقد كوفئ في نهاية المطاف. اسمعا...

فتح القس الكتاب المقدس، وبدأ يتلو:

- "رُزق بأربعة عشر ألفًا من الخراف، وست آلاف ناقة، وألف ثور، وألف أنثى حمار. كما رزقه الرب بسبعة أبناء وثلاث بنات، ثم مثلهم".

تساءل "لوثر":

- وما الذي يمكن أن نفعله بكل هذا الكم من الحيوانات؟

- عليكما أ....

أدرك القس متأخرًا أن سؤال "لوثر" كان ساخرًا. وقال له هذا الأخير:

- لا تقلق، فقد فهمت.

وأمَّنت زوجته على كلامه في صمت.

في تلك الليلة، اقترب من زوجته في الفراش، ولأول مرة منذ سنوات وجدها مقبلة عليه. ولكنها كانت باردة مثل لوح ثلج، وأبعدته عنها بعد دقيقتين.

- الأمر فيه مخاطرة كبيرة.. ماذا لو...

- علينا أن نرضى.

- مخاطرة كبيرة. لابد ألا نجلب علينا سخط الرب.

تنهد "لوثر". وشعر بأن ما كان لديه من توق إليها قد ذبل الآن.

سألها، حتى وهو يتوقع الرد:

- وما الذي تريدينه إذن؟

- بوسعنا التحدث معه على الأقل.

- مع الدكتور.. ما الذي تقصديه؟

هزة خفيفة إلى جواره أنبأته أنها تهز رأسها موافقة.

اعتدل، فكان ظهره تجاهها، وهو يقول لها:

- إن كان هذا سيزيد من يقينك.

- أعتقد هذا.

حضر والدا "جونتر ويبر" لرؤية "فيكتور"، وسألته الزوجة عن احتمال أن ينجبا طفلًا أصمَّ إن حاولا بالطريقة الطبيعية.

عقَّب زوجها موضحًا:

- تقصد علاقة زوجية طبيعية.

أجابهما أن حجم المخاطرة كبير، وأن هناك طرقًا أخرى من شأنها أن تحد كثيرًا من تلك المخاطر. وأكد لهما مجددًا أنها مسألة فنية. فقالت له:

- ولكن إن كانت المخاطرة كبيرة، فإن هذا يعني أن الرب لا يريد لنا أن نقوم بذلك، أليس هذا صحيحًا؟ أي أن علينا أن نرضى بمشيئته.

سكت. ولكنه سرعان ما سألها:

- حسنًا، وماذا عن سارة؟

- سارة؟

- زوجة إبراهيم. القصة في الإنجيل. سفر التكوين.

ثم بدأ يتلو عن ظهر قلب:

"فَقَالَ: «إِنِّي أَرْجِعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ امْرَأَتِكَ ابْنٌ». وَكَانَتْ سَارَةُ سَامِعَةً فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَهُوَ وَرَاءَهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ شَيْخَيْنِ مُتَقَدِّمَيْنِ فِي الأَيَّامِ، وَقَدِ انْقَطَعَ أَنْ يَكُونَ لِسَارَةَ عَادَةٌ كَالنِّسَاءِ".

كان يتلو من دون أي مجهود في التذكُّر، ويرمق الزوجة بطرف عينه فيدرك أنها تستمع في رهبة، ولذلك قرر أن يستمر:

"وَافْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ، وَفَعَلَ الرَّبُّ لِسَارَةَ كَمَا تَكَلَّمَ. فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللهُ عَنْهُ. وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ، الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ إِسْحَاقَ".

سكت الدكتور، وهو يشعر بعرق غزير يتصبب على جسده. بينما بقي الزوج وزوجته يحدقان فيه بعيون ذاهلة، وهما ينتظران منه أن يكمل كلامه، وعندئذٍ قال لهما، وهو يدرك أنه قد اقترب كثيرًا من غايته:

– إن أردتما.. يمكنكما أن ترزقا بابن بحلول مثل هذا الوقت من العام القادم.

كان هذا في 20 يناير 1989.

كان بذلك يضيق الفترة عليه كثيرًا. فمعظم الخلايا التي حصدها – وذلك هو التعبير الذي يحلو له استخدامه – قد ماتت بالفعل. فعليه أولًا أن يستزرع الخلايا القليلة المتبقية حتى تتضاعف عن طريق الانقسام، رغم أن هذا قد ينطوي على المزيد من فقدان التيلوميرات. الأمر صعب، ولكن هناك على الأقل تيلوميرات كثيرة متبقية هذه المرة، مقارنة بما حصل منذ أربعة أعوام. قام مجددًا بتجويع الخلايا الجديدة المتشكلة وتركها بين الحياة والموت، حتى وصلت إلى المرحلة GO. كان كمن ينقذ شخصًا من الغرق مرارًا وتكرارًا، ولكنه ينقذه قبل أن يعود فيلقيه في البحر في كل مرة.

وفي نفس الوقت، كان عليه أن يفك الشفرة الوراثية المخزنة في كل نواة. وكان ذلك أكثر صعوبة مما كان متوقعًا، فقد تبين له أن الحمض النووي في العديد من الخلايا ليس سليمًا، وكأنه يحاول تجميع نص من قصاصات متناثرة صغيرة من الورق.

عندما وعد آل "جونتر" بالمساعدة، بعدما يزيد قليلًا على شهرين من وفاة ابنهما، لم يكن قد فك تلك الشفرة بعد. وعندما يفعل، سيبقى الطريق أمامه طويلًا. فكانت الخطوة التالية هي العثور على ذلك الخطأ في التعليمات البرمجية الوراثية التي سببت صمم الصبي، ثم محاولة محو ذاك الخطأ. وبعد أن يكمل تلك المرحلة سيكون قادرًا حينذاك على البدء في زراعة الأجنة. وعندئذٍ فقط سيكون قادرًا على جعل "فيرا" تحمل.

ويبقى السؤال حول إذا ما كانت قادرة أصلًا على إنتاج ما يكفي من البويضات الصالحة في تلك الأثناء.

ومنح نفسه أربعة أشهر ليتم كل تلك الخطوات، وهذا مع افتراض أن مدة الحمل هي ثمانية أشهر فحسب. مهلة قصيرة للغاية. وهو يدرك هذا. ولكن هذا هو التحدي. وهو يرى أن الأمر ممكن بأي حال.

ولأول مرة كان متيقنًا من أن كل شيء تحت السيطرة.

5

رنَّ جرس تليفون "ريكس كريمر" في يوم السبت، الأول من أبريل 1989.

– دكتور "كريمر"؟ من جامعة "آخن"؟

– أنا لم أعد أعمل هناك، مدام. مرت سنوات على ذلك.

– هل تعرف أين يقيم الدكتور "هوب"؟ قالوا لي في الجامعة...

– أنا لا أعرف هذا الاسم، مدام.

– ولكنك أتيت للقائي في بون. كان أنت، أليس كذلك؟

– أنا لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه.

– في عيادة الدكتور "هوب". أتيت لرؤيتي، وقت أن كنت حاملًا.

– لا بد أنكِ قد أخطأت الشخص.

– أنا أحاول أن أعثر على الأطفال، سيدي! أريد أن أراهم. أريد أن أعرف أين هم. لا بد أن تساعدني.

– لا أدري أين يكون، مدام. ربما في بون.

– لم يعد يعيش هناك منذ زمن. لقد ذهبت إلى هناك. منذ شهر.

– آسف. لا أستطيع مساعدتك.

- إذا حدث والتقيته أو سمعت عنه، فأرجو أن تخبره أنني أبحث عنه. قل له إنني أريد أن أرى الأطفال. لي الحق في ذلك.

- لكِ الحق؟

- أنا أمهم! أعتقد أن من حقي أن أراهم!

- أمهم؟

- طبعًا أمهم!

- اهدئي، أرجوكِ، مدام. لقد فاجئتني. تقولين الأطفال. ما الذي تعرفينه عن الأطفال؟

- لا شيء. أعرف فقط أنهم ذكور. ثلاثة أولاد! ولكنني لم أرهم أبدًا.

- أبدًا؟

- بالأشعة فوق الصوتية، سيدي، وبها فقط. كنت نائمة حينما أخرجهم مني.

- وبعد ذلك؟ ما الذي فعلـ...

- لقد وعدني أن أنجب بنتًا! بنتًا واحدة! وفجأة وجدته يبلغني أنهم أولاد. ثلاثة! الحقيقة، هم أربعة.. لأن واحدًا.. واحدًا...

- ومتى أخبرك بذلك؟

- في اليوم السابق على مولدهم. أراهم لي! بالسونار. كنت.. كنت مصدومة! لم أكن أريدهم! ليس في ذاك الحين. تفهمني؟ تفهمني؟

- أفهمك، مدام، أفهمك.

- ولكنني أتوق الآن لرؤيتهم. أريد أن أطمئن على حالهم، وأن أعتذر لهم. وأود أن أوضِّح لهم سبب عدم وجودي معهم – سبب أن أمهم لم تربيهم. لا بد أنهم قد سألوا نفس السؤال، ألا تعتقد هذا؟ ربما لا يعرفون أنني على قيد الحياة من الأساس. يا إلهي، تخيَّل إذا...

- مدام، أنا لا أعرف. علاقتي بالدكتور "هوب" لا تكاد تذكر.

- ولكنك التقيته؟ سمعت به؟

- ....

- سيدي؟

- سمعت أنه رحل إلى بلجيكا.

- بلجيكا؟

- عبر الحدود فحسب. في قرية اسمها "فولفهايم"، أو شيء من هذا القبيل.

- قلت "فولفهايم"؟

- ربما.

شعر وكأن جبلًا قد انزاح من عليه. هكذا شعر حقًّا. فقد اضطر "ريكس" طيلة خمسة أشهر مرت كالدهر إلى معايشة ذلك الإحساس المريع بالذنب، وها هو يتركه لحاله أخيرًا. تملَّكه ذلك الإحساس في كل ثانية مرت عليه خلال الأيام التي أعقبت زيارته إلى "فولفهايم". وحاول أن يستعيد صفاء ذهنه، وأن يتحلى بروح العالم، تمامًا كما فعل "فيكتور هوب"، ثم حاول أن ينظر للأمر من منظور أخلاقي. وهكذا أخذ إحساسه بالذنب يتنامى.

لو نظر إلى الأمور بمنظور براجماتي، فسيدرك أن "فيكتور" قد نجح في استنساخ نفسه؛ وحتى إذا كان وقع خطأ في التجربة، فإن الإنجاز يبقى استثنائيًّا. فقد أثبت أن من الممكن استنساخ البشر، ومن وجهة نظر علمية فإن الطفرة الناتجة بسبب التيلوميرات مجرد أثر جانبي، أثر كانت له تبعات مروعة فعلًا، وهذا مؤكد، ولكنه في النهاية مجرد أثر جانبي.

ومن ما جمعه من معلومات من "فيكتور"، فقد كانت هذه التجربة مجرد بداية. كانت طريقة يثبت بها "فيكتور" لنفسه أنه قادر على أن يفعلها. أمَّا في المرة القادمة،

فلسوف يسعى جاهدًا للقضاء على أي خلل وراثي، أو كما قال، لتصحيح أي عيوب خلقية، وكأنه سيفعل ذلك بمسحة من استيكة، هكذا وحسب. ولو وضعنا كل الأمور في الاعتبار، فيبدو أن دوافعه نبيلة، لولا أنه قالها بنفسه في زلة لسان أخرى. فهو لا يفعل ذلك لبعض الدوافع النبيلة أو حتى العلمية فقط: بل لأجله هو؛ إنه يخوض حربًا.

الأب. تلك هي الكلمة التي استخدمها أحد الأولاد. "الأب هو من فعلها". لم يقل بابا أو داد، ولكن الأب. كما نقول الرب.. الآب. وكيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ فلم يكن "فيكتور" والدهم الطبيعي؛ بل كان صانعهم. لهذا السبب علمهم أن ينادوه بهذا الاسم. تماما مثل الصانع/الخالق الآخر؛ خصمه في هذه الحرب. وهو بالفعل خسر الجولة الأولى. "فيكتور هوب" قد فشل. فقد ولَّد الأطفال بتيلوميرات قصيرة جدًّا. وكانت تلك الطفرة أسوأ بكثير من الأخرى التي تسببت في تشويه وجوههم. فالشق الحلقي كان في جيناتهم منذ البداية؛ وكانت فلتة من فلتات الطبيعة. ولكن ليس بالنسبة لـ"فيكتور". فهو يعتبر أن الشفة الأرنبية خطأ وقع فيه الرب، وخطأ لا بد من تصويبه، وهو من سيصوبه.

هكذا تلاعبت الأفكار في عقله. وهكذا فهم "كريمر" الأمور حتى تلك النقطة، أو ظن ذلك. ولكن، هل عليه أن يدع ما يحدث يحدث؟ هل ينبغي له أن يترك "فيكتور هوب" يواصل عمله من دون معوقات، لأجل العلم؟ أم أن عليه أن يمنع العبقري لأن هذا العبقري قد أوشك أن يقع في حدود الجنون؟

تلك كانت الأسئلة التي تعصف به، وكان يعلم إجاباتها علم اليقين؛ ولكنه يحاول تجاهلها، ويحجم مثل أي وقت مضى عن التورط فيها.

إلى أن جاءت مكالمة المرأة. في البداية ظن أنها خديعة من أحدهم، ولكن سرعان ما أدرك أنها بالفعل الأم. ليست الأم البيولوجية؛ بل الأم البديلة. ولكنه لم يقل لها ذلك. أخبرها فقط أنها يمكن أن تجد "فيكتور هوب". وهو عندما أخبرها بمكانه أخرج نفسه من ذاك المأزق.

***

- إنهم ذكور. ثلاثة أولاد.

كان هذا هو ما أخبرها "فيكتور هوب" به وقتما كانت حاملًا في الشهر الثامن. كان بطنها مستديرًا منتفخًا مثل طبلة. طبلة لا يتوقف الركل في داخلها. وكان الدكتور يجري جلسة الموجات فوق الصوتية الأخيرة لها. من النادر أن يقول لها أي شيء أثناء الإجراء - حتى الآن. عادة ما ينبهها إلى وجود بقعة رمادية، لكنها في كل مرة لا ترى سوى بقع دقيقة سوداء، على الرغم من أنها لم تصرِّح له بذلك أبدًا حتى لا تبدو أكثر غباء مما تشعر به بالفعل. كان يكفيها دومًا أن يقول لها إن كل شيء على ما يرام. ولكنه صارحها في هذه المرة الأخيرة:

- إنهم ذكور. ثلاثة أولاد.

- ماذا؟

- هناك في رحمك ثلاثة أولاد.

- ولكن هذا غير ممكن! غير ممكن. أنت تخدعني.

- تريدين أن تريهم؟ سوف أريهم لكِ؟

شرح لها بقدر كبير من التفصيل. ونظرت، وأحصت، وازدادت حيرة. ست عيون. ستة أياد. ثلاثة قلوب. ثلاثة قلوب تنبض. وثلاثة أعضاء ذكورية. على حد وصف الدكتور.

تمالكت نفسها، وصاحت فيه:

- ولكنك وعدتني بأنثى. دومًا كنت تقول لي إنها أنثى!

- أنا لم أقل ذلك أبدًا. أنتِ من أقنعتِ نفسك بذلك.

شعرت وكأنها تختنق.

- مستحيل. مستحيل.

- كانوا في الأول أربعة. أربعة أولاد.

هزت رأسها في حيرة.

- هنا.

تتبع بقلمه شيئًا ما على الشاشة. فأر. سنجاب. كان هذا هو ما تراه هي.

- هذا مات منذ خمسة أسابيع.

شعرت برغبة في التقيؤ. تريد أن تفرغ كل ما في جوفها. ولكن شيئًا لم يخرج.

ولما هم الدكتور بمسح جل الأشعة عن بطنها، ضربته. وصرخت فيه:

- أخرجهم! أخرجهم! أخرجهم كلهم!

- غدًا. لا يمكنني أن أخرجهم إلا في الغد.

- بل الآن! الآن! الآآآآن!

بدأت تلكم بطنها بقبضتيها.

- لا أريدهم! لا أريدهم!

قبض على رسغيها وربطهما إلى السرير.

- لا بد أن تبقي هادئة. هذا ليس في مصلحة الأطفال.

بدأت تركل بقدميها، وجسدها يتلوى بعنف، يحاول أن يتملص من أسره. وصرخت. وصرخت.

حقنها بشيء في الوريد.

سمعته يقول لها:

- ليس عليكِ أن تريهم في الغد. إن كانت هذه هي رغبتك.

وكان من المستحيل بالنسبة لها أن تنسى الأطفال، مهما حاولت ذلك، وهذا لأنهم تركوا فيها تذكارًا لا ينمحي، يمتد من جانب خصرها إلى الجانب الآخر.

تحول إلى ندبة قبيحة. وقد تلوث جزء من ذلك الشق، وتركته دون علاج لبعض الوقت. كانت ترغب في أن تعاقب نفسها، وكذلك منعها إحساسها بالخزي من طلب العلاج. إلى أن وصل الألم إلى درجة سيءة شعرت معها وكأنها تطعن بآلاف الخناجر في ذات اللحظة. عندئذٍ ذهبت إلى المستشفى. ولم يكن من الممكن إزالة الغرز بعد العلاج إلا بعد مرور ثلاثة أسابيع زيادة على فترة الشفاء المعتادة.

أخبرت الأطباء أن الجرح نتيجة عملية إجهاض قيصرية خضعت لها أثناء رحلة في الخارج. سألها الطبيب الذي أزال الغرز عما إذا كان جزارًا هو من أجرى تلك العملية. فلم يسبق له أن شهد مثل تلك الفوضى. ولكنها سكتت. وكانت هذه هي آخر مرة يرى فيها إنسان تلك الندبة.

كانت تلك الندبة نقطة ضعف بالنسبة لها. نقطة ضعفها. تؤلمها لأقل لمسة.

ولم تعد تتحمل ارتداء ملابس ضيقة. بطنها منتفخ دومًا بصورة ظاهرة للغاية. لهذا السبب لم يكن الأمر مجرد ندبة فحسب. فهي تشعر أنه قد وضع شيئًا في بطنها، بدلًا من أن يخرج منها تلك الأطفال.

ولم تحاول أن تقيم علاقة مع أي شخص. وكيف يمكن لشخص آخر أن يجد متعة في رؤية جسدها، وهي نفسها تشمئز منه؟ وطالما بقيت عازبة، فلن يكون عليها أن تخبر أي شيء لأي شخص. وتقبلت فكرة أن تعيش وحيدة.

ولم يكن التعويض المالي الذي أصرت عليه - والذي دفعه الدكتور فورًا – علاجًا لتخفيف آلامها. فقد كانت تأمل أن يموت ضميرها بتقاضيه. فهي من وافقت على أن تضع جسدها تحت تصرفه، وليس روحها. ولكنها الآن تشعر وكأنها عاهرة. بل أسوأ من أي عاهرة.

كانت تحتاج المال لتعيش وتسدد ديونها، ولهذا تقبلته وأنفقته. ولكن هذا لم يرح ضميرها أبدًا.

قررت عدة مرات أن تبحث عن الأطفال. تريد أن تتعرف على أشكالهم، وأن تطمئن عليهم. على أقل تقدير. وكانت هذه الطريقة الوحيدة التي سوف تتمكن بعدها من تصفية ضميرها. لكنها غيَّرت رأيها في كل مرة. ومع مرور الأعوام على الأطفال، كان شوقها لرؤيتهم يزيد، وكانت تحصي الأشهر والسنوات.

29 سبتمبر هو أسوأ أيام السنة بالنسبة لها. وفيه تزداد آلام بطنها إلى حد لا يطاق. وفي ذلك اليوم بلغ الأطفال العام الرابع من عمرهم، وللمرة الألف، قررت أن تحاول العثور عليهم. بلغوا الآن من العمر ما يكفي، بالتأكيد، ولا بد أنهم يسألون عن والدتهم – وعمَّن تكون. هم في هذه السن في حاجة إلى أم. ورغم ذلك فقد انتظرت بضعة أشهر؛ لتستجمع شجاعتها.

وأخيرًا.. نفذت رغبتها.

6

وصلت في يوم الأحد، 14 مايو 1989. إلى "ويتسون". استقلت القطار من "سالزبورج" إلى "لوكسمبورج" في اليوم السابق، وقضت ليلتها هناك. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي أخذت القطار إلى "لييج"، ومن هناك استقلت المواصلات المحلية إلى "لا شابيل"، وهناك وجدت أتوبيسًا يغادر كل ساعة إلى "فولفهايم".

طلبت من السائق أن ينبهها عند الوصول إلى القرية.

- وأين تريدين النزول؟ عند الكنيسة؟

اندهشت من ألمانيته الممتازة.

- شارع "نابوليون". أريد لقاء الدكتور "هوب". الدكتور "فيكتور هوب".

كانت تفعل كل هذا وهي تراهن على احتمال أنه سيكون في المنزل. وكانت قد توصلت إلى عنوانه ورقم التليفون قبل بضعة أسابيع من خلال استعلامات الدليل الدولي، ولكنها لم تتصل به قبل أن تسافر. خافت من سماع صوته. خشيت أن تفقد أعصابها. وحتى في هذه اللحظة، وبعد أن قطعت تلك المسافة الطويلة، فإنها ليست متأكدة من كونها تمتلك شجاعة دق جرس بابه. وقد جلبت ما يكفي من المال والملابس للبقاء بضعة أيام في البلد إذا لزم الأمر.

- دكتور "هوب". في هذه الحالة سيكون عليكِ النزول عند الكنيسة. فهو يعيش هناك.

بُهتت ولم تعلِّق. فهي لم تتوقع أن تلتقي أحدًا يعرفه بهذه السرعة. وشلها الخوف عن التفكير في الخطوة التالية. سألته بصوت يرتجف:

- هل سبق لك أن التقيته؟

- كلا. ولكني سمعت من الناس أنه طبيب ممتاز.

أرادت أن تسأله إذا كان يعرف شيئًا عن أطفال الدكتور، ولكنها خشيت أن تضطر إلى مزيد من الشرح، وهو أمر تتجنبه بأي ثمن. وإلى جانب ذلك، كانت تخاف أن يخيِّب ردَّه أملها، لذلك سكتت. حاولت عدم التفكير في اللقاء القادم، ولكنها عجزت عن ذلك. وفي كل مرة كانت الحافلة تتوقف فيها كانت تتوقع أن يصعد الدكتور. نفس الشعور الذي راودها قبل بضعة أشهر، عندما حاولت العثور عليه في "بون". تمنت وقتذاك أن تلتقيه صدفة، في الشارع أو في محل - ولكن الآن وبعد أن أوشكت على لقائه، فإنها تتمنى ألا تلتقيه.

غادر الأتوبيس بلدية "كلميس". وكانوا قد مروا بالفعل على قريتي "مونتزن" و"هرجنراث". قال لها السائق، وهو يرمقها من خلال مرآة الأتوبيس:

- نوشك أن نصل إلى "فولفهايم".

- لغتك الأمانية ممتازة.

كانت تريد أن تدردش معه لتتخلص من أفكارها.

- ظننت أن البلجيكيين لا يتحدثون سوى الفرنسية والهولندية.

- أغلب أهل هذه البقعة من البلاد يتحدثون الألمانية. ولكنَّ هناك كثيرون يتحدثون الفرنسية كذلك، وبعضهم يتحدث الفلمنكية. اللغات والحدود ممتزجة في هذه المنطقة منذ قرون. أتعرفين منطقة الحدود الثلاثة؟

هزَّت رأسها نافية.

- إنها على بعد بضعة كيلومترات من هنا فحسب. فوق "فالسبورج". هناك تلتقي حدود بلجيكا وهولندا وألمانيا. لابد أن تشاهدي ذلك المكان. لو بقيتِ في الأتوبيس، فلسوف نمر عليه. أصل بالأتوبيس حتى هناك، قبل أن أعود. ولو رغبتي، فيمكنكِ أن تبقي وسوف نمر على "فولفهايم" في طريق العودة.

ابتسمت ترفض عرضه:

- ربما في وقت آخر. ليس لديَّ وقت اليوم.

لا فكرة لديها عمَّا لديها من وقت، أو ما قد تحتاجه من وقت. هي أصلًا لا تعرف ما ستقوله عندما تلتقي الدكتور، رغم أنها تدربت على ذلك طوال رحلة القطار.

انعطفت الحافلة يمينًا، ومرت على لافتة تحمل الاسم، "فولفهايم". الطريق مُعبَّد بالأحجار، فمرت عليها إطارات الأتوبيس بإيقاع متراقص. وبدت الكنيسة أمامها. وقال لها السائق وهو يخفف من سرعة الحافلة:

- محطتك.

أخذت تحكم أزرار معطفها.

- وقعت هنا حادثة مأساوية منذ أشهر. فلقد دهس زميل لي صبي بالحافلة.

شحب وجهها. هذا ما كانت دائمًا تخاف منه، ولكنها حاولت ألا تستغرق في التفكير فيه. هي متأكدة من أنه أحد أبنائها. ويبدو أنها تأخرت جدًّا. اعترت جسدها قشعريرة. وسمعت ما قاله السائق لها، ولكنها لم تستوعب كلامه.

- ومن ساعتها وزميلي يلازم بيته. لم تعد لديه أي شجاعة للعودة لعمله وأنا الذي أحل محله.

مال الاتوبيس إلى جانب الطريق، وتوقف قال لها والباب ينفتح:

- وصلنا. منزل الدكتور هناك.

أشار عبر الزجاج أمامه إلى منزل طويل على مسافة من مكان توقفه.

أومأت برأسها تلقائيًّا، ونهضت، والتقطت حقيبتها، نزلت من الأتوبيس.

كانت قد أمطرت للتو، واستقبلها النسيم البارد. رفعت ياقة معطفها، وانتظرت، وهي تنظر إلى الأرض، حتى غادرت الأتوبيس. ولما ابتعد صوت المحرك تمامًا، سمعت صيحات أطفال يلعبون. استدارت ورأت عبر الشارع مجموعة من الأطفال الصغار

يلعبون في بركة مياه تخلفت بعد المطر. كانوا أربعة أولاد، وخمَّنت أنهم في الخامسة من العمر، وربما أصغر قليلًا. حدقت في الأطفال لدقيقة، مرت عليها مثل سنة، من دون أن تتحرك، وتستمع إلى أصواتهم. أمكنها من صيحاتهم أن تعرف أسماءهم: "ميشيل"، و"راينهارت". شعرت أن نبضات قلبها تتسارع، فأخذت نفسًا عميقًا. ثم زفرت الهواء ببطء من أنفها. وتحركت خطوة خطوة. كان لعجلات حقيبتها، التي تجرها وراءها، صوت مميز. مشيت حتى لم يعد يفصلها عن الأطفال سوى الشارع.

عندئذٍ تعرفت عليهم، على الرغم من أنها لم يسبق لها أن رأتهم. فقد كان الصبية صورة طبق الأصل من بعضهم البعض. حتى نفس الوقفة. وشكل الوجه. وكانوا يرتدون نفس الرداء الأزرق والقبعة الصوفية، مما عزز ذاك التشابه التام. ولكنهما اثنان. وليسوا ثلاثة. أصابها الدوار. وفي تلك اللحظة، وقت أن شعرت كأن الأرض تدور بها، رمقها أحد الأولاد؛ ثم استقر كل شيء فجأة مرة أخرى، كما لو أن شخصًا ما قد ضغط على فرامل سحرية، أوقفت كل شيء.

للولدان نفس عيونها. أدركت ذلك في جزء من الثانية: اللون الزنبقي الداكن وسط البياض المتسع. نفس عيونها.

وكما لو أنها منومة مغناطيسيًّا، فقد أفلتت الحقيبة من يدها، وعبرت الشارع.

- غلطتي أنا. غلطتي أنا.

لا بد أنها قد تفوهت بجملة مثل هذه. قبل أن تمسك بيد أحد الولدين، وتتشبث بها في قوة، ثم تجلس على ركبتيها حتى يكون وجهها في مستوى وجهه، وتنظر في عينيه مباشرة.

- ما كان يجب أن أترككم! ما كان يجب!

- أنا آسفة! أنا آسفة!

وحدها العبارة الأخيرة كانت هي التي تيقنت من قولها.

ولكنها لا تتذكر متى قالتها. ربما كان هذا لما حاول الصبي أن يحرر يده، وبدأ يصرخ. وربما قالتها لما اعتذرت للسيدات.

فقد صاحت فيها سيدة أتت تجري:

- اتركيه! اتركيه!

- أنا أمهما!

- بل أنتِ مجنونة!

اقتربت سيدة أخرى من المشهد:

- اتركي ابني! بحق الرب، اتركي ابني!

دفعتها السيدة الثانية، فاختل توازنها، وتركت الصبي.

- "ميشيل"، "مارسيل"، ادخلا. وخذا "أولاف" و"راينهارت" معكما!

مدت ذراعيها نحوهما، ولكنهما جريا مبتعدين. فجلست على الأرض وهي تبكي، وسط بركة المطر. عندئذٍ فقط أدركت أنها قد أخطأت.

- أنا آسفة! آسفة جدًّا!

حاولت أن تشرح وتبرر موقفها. ولكنها في النهاية نهضت، وهي تقول:

- عليَّ أن أذهب إلى الدكتور.

قرعت الجرس ثلاث مرات، قبل أن ينفتح الباب، ويظهر الدكتور "هوب". أثار مظهره على الفور اشمئزازًا في نفسها، حتى إنها ارتجفت وهي تتذكر المرَّات التي فحصت خلالها أصابعه تلك جسدها؛ داخله وخارجه.

كانت قد قررت ألا تأتي على ذكر الأولاد في البداية. ونبهت نفسها أن تكون أشد حرصًا هذه المرة.

نظر الدكتور إليها. لم يبد وجهه أي رد فعل. ربما لم يعرفها.

- دكتور.

أدركت من نبرة صوتها كم هي متوترة. إنها ترغب في أن تبدو جريئة جسورة، ولكنها في الحقيقة مثل طفلة أتت تتسول.

- دكتور.. أريد أن أتحدث معك.. بل لا بد أن أتحدث معك.

تبيَّن لها أنها لم تعرفه بنفسها حتى الآن.

- لم أعد أستقبل أي مرضى، مدام، في الوقت الراهن.

صوته مثل أظافر تخدش سطح سبورة. وجدت نفسها تبعد رأسها عنه في قرف. قبل أن تنفض ذلك عن رأسها، وتعاود النظر إليه من جديد.

- الأمر عاجل. لا يمكنه الانتظار.

كانت ترتجف، ولكنها لم تحاول أن تخفي ذلك عنه.

- من الأفضل أن تدخلي إذن.

مشيت وراءه عبر الحديقة، تغلي غضبًا. هي التي حبسها وقيدها إلى الفراش في منزله لأشهر، والآن هو حتى لا يتذكرها! وملامحها تكاد تكون لم تتغير خلال تلك السنوات القليلة. نفس الوجه، ونفس الشعر القصير، وحتى نفس الوزن - هي نفسها كما كانت يوم الولادة؛ فهي لم تنجح منذ ذاك في أن تتخلص من تسعة عشر كيلوغرامًا زادتها خلال الحمل.

أكدت لنفسها أنه يحاول أن يتظاهر بعدم معرفتها. يريدها أن تظن أنهما لم يلتقيا من قبل. سيقول إنها واهمة، حتى يحتفظ بالأطفال لنفسه. هذا ما ينوي أن يفعله. ولكن، ليس هذه المرة. بادرت بسؤاله فور أن أغلق الباب من خلفها:

- لماذا تتظاهر بأنك لا تعرفني؟

بدا أنه قد تفاجأ، ولكنه لم يعلق.

- أنت تعرف سبب مجيئي إلى هنا. ولذلك تتصرف على هذا النحو.

لاحظت أنه قد صار مهتمًا، فقررت أن تستمر في الضغط عليه:

- أنا أمهم، ولي حق في أن أراهم.

- أنتِ لست أمهم.

لقد صح حدسها. إنه يريد أن يجعلها تصدق أن الأمر كله كان مجرد حلم. رفعت صوتها وهي تقول له:

- كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على الكذب علي، بعد كل ما عرَّضتني له!

قال لها في هدوء استفزها أكثر:

- أنا لا أكذب عليكِ، مدام. إنهم بلا أم.

- بل تكذب! أنت لا تفعل سوى الكذب! تتظاهر بأنني غير موجودة من الأصل! تريد أن تحتفظ بالأطفال لنفسك!

كانت تتعمد أن ترفع صوتها، وهي تتمنى أن يسمعها الأطفال فيخرجون من غرفتهم.

- كنت تكذب علي من أول يوم! ولم أعد أصدقك أبدًا! أريد أن أرى أطفالي. الآن! أتسمعني؟ أريد أن أرى أطفالي في التو واللحظة!

لاحظت أن الدكتور يتحاشى النظر إليها. فتأكدت من كذبه.

أجابها مستسلمًا فجأةً:

- تريدين رؤيتهم؟ حسنًا، يمكنك هذا. إن كنتِ حقًّا ترغبين في ذلك، فلا مانع.

سكتت. وأدركت أنها لا تجد ما تقوله. لم تتوقع أن يسلم لها بهذه السرعة. لذلك راحت كل الشجاعة التي كانت تحاول التشبث بها في ثوانٍ.

تقدَّم الدكتور، ومر بجانبها، وهو يقول لها صاعدًا الدرج:

- اتبعيني.. يمكنك أن تريهم، ولكنك لست أمهم.

أخذها إلى حيث الأولاد، كما طلبت. وفتح الباب، وطلب منها أن تدخل. ولكنها مدت يدها نحوه:

- المفتاح. ناولني المفتاح. لا أريد أن تحبسني بالداخل.

تعجَّب من أن تخطر ببالها فكرة كهذه. ولكنه ناولها المفتاح، والذي أفلتته ليسقط على أرضية الغرفة ما إن دخلتها، وتركته يلتقطه من حيث سقط. لاحظ أن أنفاسها تتسارع، وانتظر إلى أن هدأت أنفاسها. وسألته عما جرى للأطفال – وعما إذا كانوا مرضى.

- شيء من هذا القبيل.

أشارت إلى الفراش غير المرتب. ويدها ترتجف.

- أين..

- "مايكل"؟

هو من قصدته. أخبرها بالحقيقة، ولكنها لم تصدقه.

- لا يمكن. لا يمكن. أنت كذَّاب.

وهو لا يكذب. هو موقن من ذلك.

- متى؟ منذ متى؟

لم يمكنه أن يخبرها بالتحديد، ولكن بالتقريب. وهكذا لم يكن يكذب.

- منذ بضعة أيام.

- تكذب! تكذب!

أخذت تصرخ بتلك الكلمة، أعلى وأعلى، ولم يفهم السبب. لذلك قرر أن يشرح لها أكثر.

- لا أكذب، مدام. هما أيضًا سيموتان.

الآن صدَّقته، وسألته عما تبقى لهما من أيام.

- بضعة أيام. ربما أسبوع.

- مستحيل. قل لي إن هذا غير صحيح.

ولكنه صحيح.

استغرقت في البكاء، بينما تعجَّب وهو يراقبها تبكي بحرقة من سبب هذا البكاء المرير. فهي ليست أمهم.

- هلا تركتنا وحدنا لبعض الوقت؟

هز الدكتور كتفيه في تسليم، وانصرف. أغلق الباب من خلفه، ولكنه لم يغلقه بالمفتاح. وما كانت لتعترض لو فعل. ربما هي تستحق الحبس عقابًا لها على ترك الأطفال لمصيرهم. على الرغم من أن هذا النوع من العقاب يصبح بسيطًا.

أغمضت عينيها، وأخذت تتنفس ببطء. بعدما أدركت أنها كانت تصرخ وتهذي مثل مجنونة، أمام الأطفال أيضًا. عليها أن تعتذر. عن ذلك، وعن كل شيء آخر. ولا تعرف من أين تبدأ.

عادت تفتح عينيها. ولم يخيل لها ولو للحظة أنها كانت تحلم. فقد كانت الرائحة فظيعة للغاية، حتى وهي مغمضة العينين. شمتها ما أن فتح الدكتور "هوب" الباب، وهي لا تزال في الصالة. رائحة قوية تجبرك على كتم أنفاسك.

كان الولدان يرتديان قميصين قصيري الأكمام، ويجلسان جنبًا إلى جنب فوق سرير. السرير الأوسط. ويبدو أنهما ناما في السرير الأيسر، وهذا واضح من الفرش؛ أمَّا السرير الأيمن فقد تجرد من فرشه، وعلى الملاءة بقعة صفراء مركزها في الوسط قبل أن تنتشر.

أجبرت نفسها على النظر إلى الولدين، ومجددًا خطر لها الوصف الذي خطر في عقلها أول مرة منذ بضع دقائق مضت: عجينة ورق. فقد بدا لها رأس كل ولد وكأنه مصنوع من عجينة ورق. ولا دليل على الحياة في تلك الرأس سوى العينين. ولكنها لم تجد نفسها في تلك النظرات. الأنف، الفم، الأذنان، الفك - كل شيء مختلف عمَّا اعتادت أن تراه في المرآة. كما أن بشرتهما مختلفة عن بشرتها الناعمة الصافية. لقد أفسدها المرض. هذا هو التفسير الوحيد.

تنبهت إلى أن عليها أن تقول أي شيء. بدا لها الولدان وكأنهما تمثالان بلا حياة. ربما خائفان. اقتربت منهما خطوة:

- آسفة على صراخي.

أخذت نفسًا بعصبية، فانتبهت مجددًا إلى تلك الرائحة العطنة الفظيعة. تلفتت حولها لعلها تعرف مصدر الرائحة. ولاحظت أن الجدران تكاد تكون عارية تمامًا. لم يبق عليها سوى رقع صغيرة من ورق الحائط، تدل على أن ورق الحائط انتزع انتزاعًا ولم يُزل عن الجدران بالطرق المعتادة. وهناك خطوط أو بقع سوداء فوق ما تبقى منه، وكأنها كتابات أو رسومات.

مشيت إلى السرير، حيث بقى الولدان جالسين، جنبًا لجنب، ومن دون أي تعبير ظاهر على وجهيهما، وكأنهما عابرا سبيل في انتظار وصول الأتوبيس. عرفت الآن، حتى من دون أن تشم، أن مصدر الرائحة هو الفراش، والأغطية، والولدان.

أصابها الغثيان، وعرفت أنها قد تفقد وعيها لو أنها لم تهرب من تلك الرائحة النتنة. ولكنها تعرف أيضًا أنها لو خرجت، فإن هذا يعني نهاية كل شيء. واستحالة أي فرصة أمامها لتفعل لهما، أو لها، أي شيء.

نظرت إلى الطفلين. طفليها. ثم تصرفت بسرعة، كاتمة أنفاسها، ومن دون تفكير. وصلت إلى السرير في خطوتين. أزاحت البطانيات والأغطية، التي كانت ثقيلة رطبة. وجدت الولدان عاريين من الخصر إلى أسفل، شديدي النحافة وملفوفين في قماش بلون بني، يغطيه القرف بأنواعه.

التقطت أحدهما، وشعرت وكأنها لا تحمل أي شيء بين ذراعيها. تلك صدمة أخرى، ولكنها لم توقفها. لا شيء يمكن أن يوقفها الآن. حملت الآخر، وهي تحيطه بذراعها. كان مفرش السرير ملتصقًا بجسده، ولم يتركه إلا بصعوبة.

هربت من الغرفة، والطفلان بين ذراعيها. لم تهتم حتى بالنظر والتأكد من عدم وجود الدكتور؛ وحتى لو وجدته في طريقها، فإنها سوف تتجاهله وتمضي، دون توبيخ

أو صراخ، لأنها قررت – وهي تفتح الأبواب واحدًا واحدًا بطول الممر – أن تتحمل هي كل الذنب. فلو أنها لم ترفضهم لما حدث كل هذا. هكذا اقتنعت. هو ذنبها. تمامًا ذنبها.

دخلت الحمام، ووضعت الطفلين في حوض الاستحمام. خلعت القميصين، قبل أن تفتح مياه الدش بكل قوة. وضعت يدها تحت الحنفية وبدأت تتنفس في هدوء مجددًا. شعرت بوهن شديد يعتري جسدها. وأخذت تتمتم بصوت عالٍ:

- آسفة... آسفة...

كأنها فراخ خرجت للتو من البيض - هكذا تراهم الآن وهي تجفف أجسادهم. ليس فقط لأنهم يبدون ضعفاء، بالغي الهشاشة، بل وعاجزين، ولكن أيضًا بسبب تلك الرؤوس الصلعاء والأجساد الوردية للغاية. ولأن عيونهم الكبيرة المنتفخة تكاد تحتل كامل مساحة وجوههم. ولأن أفواههم تنفتح وتنغلق مثل مناقير تلهث لأجل الهواء. يفعلون ذلك بشراهة، كما لو أنهم بقوا لفترة طويلة يكتمون أنفاسهم بسبب تلك الرائحة الكريهة.

أطاعوها خلال الحمام من دون أي رد فعل. فلم يبكوا، ولم يصيحوا، ولم يتمردوا على الحمام. ولكن ما إن بدأت في تجفيفهم، حتى بدأت الروح تدب فيهم شيئًا فشيئًا. عادوا إلى الحياة، حرفيًّا. وبحرص وعناية، كما لو أنها تلتقط طيورًا صغيرة سقطت من عش، أخرجتهم من الحمام واحدًا تلو الآخر، ووضعتهم على دكة صغيرة، لأنهم غير قادرين على الوقوف. وبنفس الحرص، وبأطراف أصابعها، بدأت في تجفيف أجساد الأولاد الهشة بمنشفة. وحيثما لمستهم لا تجد سوى العظام.

بضعة أيام. ربما أسبوع...

ظل صوته يتردد داخل عقلها بإلحاح.

- سيكون كل شيء على ما يرام.. سيكون كل شيء على ما يرام. فأنا هنا الآن.

أكدت لهم، وهي تحاول أن تتخلص من ذلك الصوت.

بدأوا يتنفسون، مثل أرواح غارقة عادت إلى الحياة.

عندئذٍ نطق أحدهما، بصوت مثل زجاج يتهشم:

- ميكا... ل... فــ... ج ج... نة؟

رددت تصحح له:

- "مايكل" في الجنة؟

كانت تريد أن تجد وقتًا قبل أن ترد. هل يعرف الولدان أن أخاهم ميت؟ هل شاهدوه وهو يموت؟ أم أن الدكتور "هوب" أخرجه قبل أن يموت؟

قررت أن تخبرهما الحقيقة. فربما ساعدهما هذا في التخلص من الكآبة بسبب اقتراب اجلهما. لذلك عقبت قائلة:

- أجل، "مايكل" في الجنة. إنه ينتظركما هناك.

لم تلحظ أسى أو خوفًا في عيونهما. فقط إيماءة بالرأس. كان من الصعب عليها أن تتحكم في مشاعرها. وحتى تتيح لنفسها فرصة التفكير في شيء آخر، سألتهما عن اسميهما:

- ج ج ج ابرييل.

- راف فا ييل.

وجدت غرابة في الاسمين، تمامًا مثل الاسم الثالث؛ "مايكل". ما كانت أبدًا لتختار تلك الأسماء. لقد أمضت سنوات طوال تفكر في أسمائهم، وفي النهاية اختارت "كلاوس" و"توماس" و"هينريش". "كلاوس".. "توماس".. "هينريش" فيشر. لا بد من اللقب، بالطبع.

- اسمي "ريبيكا".. "ريبيكا فيشر".

تمنت لو أخبرتهما أنها أمهما، ولكنها لم تفعل، لأنها لم تكن تريد لهما حزنًا أكثر من ذلك. ستخبرهما في وقت لاحق، بعدما يعتادان عليها أولًا، ستخبرهم أنها لن تتخلى عنهما وتفعل معهما ما فعله الدكتور.

كيف فعل هذا؟

وبينما كانت تبحث عن بيجامات نظيفة في غرفة النوم، واتتها الإجابة بغتة. إنه لا يحبهم. ولم يحبهم. هذه هي الحقيقة. هو لم يحبهم لأنهم ليسوا أولاده. هم أولادها. لذلك أهملهم. أوضحت لها تلك الفكرة ضرورة ألا تفكر في التخلي عنهما. لقد كانت أسوأ غلطة ارتكبتها، ولم يعد في وسعها تصحيحها. ولم يتبق لها الآن سوى أن تتأكد من أن تكون إلى جوارهما، طالما بقيا على قيد الحياة.

ألبست الولدين. الملابس الداخلية. والبيجامات. برعاية وحنان؛ تمامًا كما كانت تفعل مع عرائسها وهي صغيرة، وتمنت لو أمكنها أن تأخذهما بعيدًا عن هذا المكان، ولكنها لا تدري إلى أين تذهب. بيتها؟ بعيد جدًا. وهما ضعيفان. المستشفى؟ إذا فعلت ذلك، فإنها وبجميع الاحتمالات ستفقدهما على الفور، وإلى الأبد. وعلى أي حال، لماذا يمكن لأي شخص أن يصدقها، وأن يصدق أنها أمهما؟ خاصة وأن الطفلان لم يرياها أو يسمعا عنها من قبل، بل ستكون هي المتهمة بالإهمال، وليس الدكتور. سألتهما، لتتأكد وحسب:

- هل لديكما مانع في أن أبقى؟

هزا أكتافهما من دون كلام. فشعرت بخيبة أمل، وهي التي ظنت أنهما سيشكرانها.

ولكنها قررت أن تبقى في كل الأحوال.

كان هذا ما أخبرت به الدكتور بعد ذلك بوقت قصير. بعد أن وضعتهما في السرير في غرفة أخرى. وبعد أن نعسا على كتفها. بعدها نزلت إلى الطابق السفلي تبحث عن طعام لهما. حيث وجدت الدكتور يجلس في المطبخ يتناول الحساء. يتناوله من علبة، تماثل الكثير من المعلبات الفارغة التي تناثرت فوق الكاونتر، وبرزت من المزبلة وانتشرت في جميع أنحاء أرض المطبخ. ثم لاحظت الذباب. كان هناك ذباب يزحف على كل سطح؛ حتى إنه يمكث على ملابس الدكتور، الذي لم يكلف نفسه عناء طرده عنه. قالت له، وهي تتجاهل النظر إلى الزبالة والذباب:

- أريد منك أن تخبرني بحقيقة ما يجري هنا.

- ما الذي تريدين معرفته بالضبط؟

هدوؤه وبروده يغيظانها.

- مرضهما. ما هي حالتهما؟

- التيلومرات ناقصة جدًّا.

- كلمني بلغة أفهمها، دكتور!

عندئذٍ حكى لها كل شيء، ولكن الجزء الوحيد الذي فهمته حقًّا هو أن الولدين يشيخان بسرعة كبيرة؛ وإن كان كل سنة من حياتهم أشبه بعشر أو خمس عشرة سنة. لم تكن لديها فكرة عما جعل تفكيرها يذهب إلى ذلك المنحى، ولكن بزغت في عقلها صورة تفَّاحة تركوها تتعفن في وعاء فاكهة لأسابيع. ربما كانت تلك الفكرة بسبب رائحة المطبخ النتنة.

كان الدكتور مصرًّا على أنه لا علاج لتلك الظاهرة.

- ومن أكد هذا؟ مختصون؟

سألها وكأنها أهانته:

- هل تشكين فيَّ؟

صاحت فيه بسخط الدنيا:

- كيف تجرؤ على أن تسألني هذا السؤال؟ بعد كل ما فعلته بي؟

لم يرد عليها. وهي لم تكن لتنتظر رده.

- سوف أبقى. أتسمعني؟ سوف أبقى! لن أتركهما وحدهما ثانيةً! ولن أجعلك تقترب منهما، أتسمعني؟ لن أحتمل هذا! يكفي ما آذيتهم به!

ما إن قالت ما قالته، بعد أن استجمعت كل شجاعتها، حتى شعرت وكأن جبلًا قد انزاح عنها، حتى وهي لا تدري أي شيء عن أمثل طريقة لرعاية الولدين. ومن واقع تعبيرات وجهه تأكدت من أن الدكتور مذهول محتار. هكذا صار مدركًا أنها لن تسمح له بطردها بعيدًا هذه المرة.

سأل نفسه: "لماذا تتهمه بأنه ألحق بهم الأذى. هو لم يحاول سوى فعل الخير، ألم يفعل ذلك؟ لقد فكر فى هذا الامر تفكيرًا مضنيًا، بالتأكيد، ولكنه في النهاية وجد أنه قد فعل ما كان متوقعًا منه. فتوقف عن تغذية الأطفال، وبالتالي وضع مصيرهم بين يدي الرب. كان من الواضح أن الرب يريدهم منذ البداية، وهو لم يتمكن من تأخير تلبية تلك الدعوة، رغم محاولاته طوال تلك السنوات. وبما أنه في النهاية سلَّم الأطفال إلى الرب، فقد صار الأمر الآن بيد الرب ليقرر متى يأخذهم إليه. وحقيقة أنه غير متعجل في هذا الصدد، وأنه لم يأخذ الثلاثة في آنٍ واحد – فهذا شأن الرب نفسه. وبالتالي فإن الرب هو من ارتكب الشر". وبالتأكيد لا يوجد ما يمكن لـ"فيكتور" القيام به حيال ذلك المصير؟ فلماذا تتهمه هذه المرأة؟ أم أنها هي من اقترفت ذاك الشر؟

بمجرد أن غادر الدكتور المطبخ، حتى بادرت بتنظيفه من المعلبات. وضعتها في أكياس القمامة ومن ثم وضعتها خارج الباب الأمامي. ثم أخذت تبحث عن طعام طازج، ولكن لم تجد سوى المزيد من المعلبات، وبعض الخبز وزجاجتي حليب.

قامت بتسخين بعض حساء الخضار، وصعدت به إلى الولدين، اللذين اندهشا بعض الشيء لرؤيتها، كما لو أنهما نسيا بالفعل أنها من خلصتهما من محنتهما الرهيبة قبل ساعة واحدة فقط. يحدقان في وجهها وهي تطعمهما، ملعقة بعد ملعقة، فم عقب فم. ويجدان صعوبة في البلع، ولكنهما كانا جائعين لدرجة أنهما لم يرفضا أي شيء.

- كُلا.. كُلا.. حتى تصيرا أكبر وأقوى.

أطعمتهما، وساعدتهما على النوم، رغم أن لديها أسئلة كثيرة لا تجد إجابة لها إلا لديهما. وما إن ناما حتى توجهت من فورها إلى الغرفة التي اكتشفتها أثناء بحثها عن فراش آخر للطفلين.

كأنه فصل في مدرسة، وفيه مكاتب ومكتب للمعلم، وسبورة وخريطة أوروبا على الحائط. جالت في المكان بعينيها في عجب، أعقبه قلق. في الدرج العلوي من مكتب المعلم وجدت دفاتر واجب تحمل أسماء الأولاد. تصفحت بعضها. خط اليد صعب القراءة، ولكنها ذهلت مما أمكنها فهمه. الأولاد كانوا يعرفون بالفعل الكتابة والحساب. وجدت كلمات مكتوبة من مقطعين وثلاثة وأكثر. هناك حتى بعض الجمل بعرض الصفحة،

وليس فقط باللغة الألمانية، ولكن أيضًا بلغة أخرى لا تعرفها. وهم كانوا يعرفون أيضًا كيفية الجمع والطرح.

وجدت الأمر غريبًا، بل وغير عادي. وللحظة سألت نفسها كيف تسنى لها، هي التي لم تكمل تعليمها الثانوي، أن تنتج مثل هؤلاء الأطفال الأذكياء. ولكن سرعان ما جعلتها تلك الحقيقة – أنها هي والدة هؤلاء النابغين - تشعر بالفخر.

ولكن الأسئلة لا تزال كثيرة. من الذي كان يعلم أطفالها؟ هي لا تتخيل ولو للحظة أنه قد يكون الدكتور نفسه. ثم قالت لنفسها إنه لا معنى على الإطلاق أن يكون هناك من قام بتعليم الأطفال. فما الذي يدعو الدكتور لتحمُّل صداع وتكاليف وجود معلم لهم، بينما هو لا يهتم بهم من الأصل؟

وجدت الجواب المرجح على سؤالها الأول في الكتاب المقدس الخاص بالأطفال والذي وجدته في الدرج السفلي من مكتب المعلم. لم تكن قد نظرت في الإنجيل منذ سنوات، ولكنها تذكر عددًا قليلًا من القصص التي كانوا يقرؤونها في المدرسة، مثل قصة سفينة نوح، أو قصة يسوع والعشارين. كانت متدينة، ولكن على فترات متقطعة وغير منتظمة، أي وقتما تميل إلى ذلك. عندما كانت حاملًا للمرة الأولى، شكرت الرب، ولكنها ابتعدت عنه بعد أول إجهاض. ولكنها في الوقت نفسه لم تجد غيره لتتوسل إليه أن يساعدها وهي تجهض الجنين الذي غادر رحمها بقدر هائل من الألم والروائح الكريهة.

وتكرر الأمر نفسه في المرة الثانية. في البداية شكرته على معجزته الإلهية. ثم سخطت بعد الولادة لأنه تخلَّى عنها. وفي وقت لاحق ذهبت إلى الكنيسة مرة أو مرتين، لتضيء الشموع، ليس لنفسها، ولكن للأطفال الذين تركتهم وراءها. ولكن من دون فائدة. فأي إله هذا الذي يترك هؤلاء الأطفال الصغار يعانون؟ وانتابتها تلك الأفكار وهي تتصفح نسخة الكتاب المقدَّس للأطفال وعيناها تمانر على اللوحات الملونة. عندئذٍ وقعت على الاسم – المكتوب بخط يد منمق على الغلاف الخلفي للكتاب. قرأته بصوت عالٍ لنفسها عدة مرات. هل هذه هي من علمت الأولاد؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإنها ترغب في مقابلتها. وكلما كان اللقاء أقرب كلما كان هذا في صالحها.

وسألت الطفلين عنها لما استيقظا. ليس على الفور، فقد وجدت أنهما بحاجة إلى تغيير ملابسهما.

- ولا يهمكما شيء.

طمأنتهما، لأنها لاحظت أنهما خجلان مما عجزا عن التحكم فيه. وهكذا غيرت الفرش والملابس من جديد. ولكن الرائحة لم تكن على تلك الدرجة السابقة من السوء.

- أتعرفون من هي "تشارلوت مينوت"؟

أومأ الولدان مؤكدين.

- هل كانت معلمتكما؟

إيماءة أخرى.

- وأين هي؟ هل هي على قيد الحياة؟

أجابها "جابرييل" بصعوبة:

- في... الـــ... جنة.

وكانت إجابته صدمة لها.

- تقصد ماتت؟

بادرته، قبل أن تنتبه إلى ما قد يسببه هذا المعنى من ألم لهما.

- هي.. ملاااااك.

وفجأة، تدخل "رافاييل" في الحوار:

- ملا...ك... ملا... ك! شوف!

رفع الولد رأسه واتسعت عيناه، وكأنه يرى أخاه الميت. وفي اللحظة التالية، بدا وكأنه يختنق. فقد أخذ يلهث طلبًا للهواء، مثل سمكة ألقيت من الماء إلى البر.

صرخت في فزع باسمه. ورغبت في أن تحتضنه، ولكنها خافت عليه. وأخذت تصرخ باسمه.

وهرعت إلى خارج الغرفة. وهبطت الدرج في سرعة.

- دكتور! دكتور!

انفتح باب المكتب ما إن وصلت إلى نهاية الدرج.

- "رافاييل"! إنه يختنق! يموت!

أومأ الدكتور برأسه في هدوء.

- عليك أن تفعل شيئًا! ساعده! لماذا لا تساعده!

أومأ مجددًا. وتحرك بهدوء شديد. وبطء أشد. بينما عادت هي تصعد الدرجة في خطوات واسعة، وهي تتمنى أن تدفعه إلى اللحاق بها. وتوقفت عند باب الغرفة. كان الدكتور لا يزال يصعد السلم. بهدوء. نظرت إلى داخل الغرفة، فوجدت "رافاييل" راقدًا على ظهره من دون حراك. وما إن وصل الدكتور إلى الغرفة حتى تنحت جانبًا ليدخل.

مال على "رافاييل" وتفحص نبضه. بينما وضعت هي يدها على فمها في لهفة وقلق. مرت دقائق قبل أن يترك يد الولد. التفت إليها:

- لم يحن موعده بعد. الرب يرغب في تعذيبه لفترة أطول.

لم تفارق الولدين في تلك الليلة وطوال اليوم التالي. جلست على كرسي جوار السرير وبقيت تراقبهما. نام الولدان طوال الوقت تقريبًا، وكانا لا يهدآن أثناء نومهما. تتحرك أيديهما من دون توقف، وكأنهما يحاولان تسلق شيء ما خفي. وكانت أنفاسهما ثقيلة أيضًا - لدجة أنها أحيانًا تتوقف، فتخاف هي من أن يكون أحدهما قد توقف عن التنفس تمامًا. وتمسح بين الحين والآخر اللعاب الذي يسيل من فميهما، أو تجفف العرق على جبهتيهما. ومن آنٍ لآخر تقوم لتتفقدهما.

حاولت خلال ساعات سهرها أن تقرأ الإنجيل، ولكنها لم تستطع التركيز. كانت تتوقف لتحدق في "رافاييل" و"جابرييل"، على الرغم من أن هذا يجعلها تتمزق حزنًا عليهما.

استيقظ الولدان بضع مرات. وفي كل مرة تغيِّر لهما وتطعمهما. رشفة من الحليب، ملعقة من الحساء أو لقمة خبز بعد أن تغمسها في الحساء. ولكنهما لم يأكلا إلا القليل جدًّا. كسرة خبز، ملعقة صغيرة من الحليب أو الحساء.

- هيا.. كلا شيئًا.. أرجوكما.

ولكن هذا الإلحاح لم يأتِ بجديد. يبدو أن بلع الطعام يؤلمهما، وكذلك الجلوس. بل صارت تتخيل أنهما يتألمان لمجرد أن يفتحا عيونهما.

تدهور حالتهما أسرع ما تتوقعت بكثير.

بضعة أيام. ربما أسبوع..

يكاد اليأس يستولي عليها. تشعر به ألمًا في بطنها. راودتها رغبة مستمرة في أن تلكم بطنها بكل قوة، تمامًا كما حصل معها في الماضي، وكأن هذا كفيل بأن يصحح كل شيء. وتمنت في لحظة لو أمكنها أن تلتقط الولدين وتعيدهما إلى رحمها من جديد، فلربما ولدتهما مرة أخرى، لتمنحهما فرصة حياة أخرى.

وكانت تنتظر اللحظة المناسبة لتخبرهما أنها والدتهما. شعرت أن عليها أن تخبرهما. ولكن في كل مرة تكون فيها الفرصة سانحة، تتراجع. ربما لا يريد الولدان أن يعرفا. ربما في ذهنيهما صورة لأمهما وبالتالي قد يخيب أملهما، تمامًا كما كانت هي ترسم لأطفالها صورة حلمت بها، قبل أن تكتشف الحقيقة المرة. ولكن أملها لم يخب. لذلك ربما لا يخيب أملهما أيضًا.

هكذا أخبرتهما في وقت متأخر من اليوم التالي؛ يوم الاثنين. لم ترَ الدكتور، حيث بقي في الطابق السفلي طوال اليوم، في المكتب أو في الغرفة المجاورة له. وفي تمام الخامسة مساءً استقبل زائرين؛ رجلًا وامرأة. سمعت أصواتهم، ولكنها لم تكن قادرة على تتبع كلامهم.

استيقظ الولدان، بعد أن غادر الرجل والمرأة المنزل. أعطتهما بعض الماء ومسحت وجهيهما بالمنشفة. كانا محمومين.

- لا بد أن أخبركما بشيء.

لم تكن تدري إن كانا منتبهين لها أم لا. عيونهما مفتوحة، ولكن لا يبدو أنهما ينظران إلى شيء.

- أنا أمكما.

قالتها واعترتها موجة ارتياح. وكأنها لم تكن أمهما حقًّا إلا بعد تلك اللحظة. وبدأت بحركة غريزية في ضرب بطنها وهي تحدِّق في ولديها.

لم تكن تتوقع رد فعل كبيرًا منهما. ولكنها توقعت أن يبديا أي رد فعل. حتى ولو شبح ابتسامة. ذلك ما كانت تحتاج إليه.

- أنا أمكما.

تمنت لو أن يكونا قد فهما ما أخبرتهما به. صارت هذه هي أمنيتها الوحيدة.

ربما لم يصدقاها. ربما كان الدكتور قد أخبرهم أنه لا أم لهم. كما قال لها. أو ربما كانا ببساطة غير قادرين على استيعاب أي شيء جديد. وهذا أسوأ ما يمكنها تخيله.

شعرت بالأسى بعد أن كانت قد ارتاحت منذ لحظة. هي ليست أمهما. ولم تكن أبدًا، لأنها لم تكن موجودة إلى جوارهما وقت حاجتهما إليها. أي أن الدكتور على حق.

نظرت إلى الطفلين مرة أخرى. تمنت أن تمضي معهما ليلة أخرى. وحدهما. بالتأكيد هذا ليس بالمطلب الكبير؟ ليلة واحدة لا أكثر. بعدها تتركهما للأبد.

وتتمنى أن تكفر عن ذنبها

وتُقبل توبتها.

7

توقَّعوا أن يقوم الدكتور بطرد السيدة في ثوانٍ. ولذلك اندهشوا لما وجدوه يسمح لها بالدخول.

علَّقت "ماريا مورسنيت":

- علينا أن نحذره منها.

كانت قد منعت ابنيها من اللعب في الشارع طالما بقيت تلك السيدة في البلدة.

وطمأنتها "روزيت باير":

- أوه.. سرعان ما سيلاحظ أنها ليست طبيعية. لننتظر ونرَ.

مرت ساعتان قبل أن يشاهداها ثانيةً. ظهرت فجأة عند البوابة.

- ها هي ذي. انظري. ها هي ذي.

وضعت أكياس قمامة خارج الباب، قبل أن تعود إلى الداخل. كان تصرفًا كفيلًا بأن يصيب "روزيت" و"ماريا" بكل حيرة الدنيا.

مرت ساعة، قبل أن تقررا الاتصال بالدكتور. طلبت "ماريا" رقمه، ورد عليها، وهذا في حد ذاته دليل على حسن الحظ، لأن العديد من أهل القرية قد حاول الاتصال به مؤخرًا وفشل. أخبرته مباشرة بما تريد:

- دكتور، عليك أن تحذر تلك المرأة التي في منزلك. إنها غير طبيعية. وتدَّعي.. أمورًا كثيرة. لقد أخافت ولديَّ.

- بجد؟

- ظنت أن ولديَّ هما ولداك. وتقول أنها أمهما. ولكن هذا غير صحيح، أليس كذلك؟

- كلا، هذا غير صحيح. هي ليست أمهما.

- كما ظننت. ولكن عليك في هذه الحالة ألا تتركها إلى جوار الولدين.

- هي معهما، وستبقى. ذلك ما أخبرتني به.

- انتبه. سوف تضرهما.

لم يأتها رد من الطرف الآخر. مرت ثوانٍ قبل أن يطمئنها الدكتور ويغلق الخط:

- سأتذكر هذا.

***

لم ينشغل بال رواد مقهى "تيرمينوس" خلال الساعات القليلة التالية إلا بتلك السيدة التي ظهرت لهم للتو من العدم، على حد تعبير "ماريا". وسرعان ما قرروا أن الدكتور "هوب" يجب أن يعرف حقيقة تلك المرأة، وحينئذٍ لن يسمح لها برؤية ابنيه. فهي ليست أمهما، بغض النظر عمَّا قالته. وطرح "ليون هيسمانز" اقتراحه في المسألة:

- أراهن أنها عقيم من الأصل، ولذلك هي مريضة بأوهام من كل صنف ولون.

كان قد قرأ أن شدة الشوق إلى طفل يمكن أن تصيب المرأة العقيم بالجنون.

فقالت "ماريا":

- لا حيلة للنساء في ذلك. فهذا يعود إلى.. ما اسمها... ؟

- الهرمونات.. هرمونات المرأة.

- هذا ما قصدته. ويبدو أن الهرمونات عند تلك المرأة مجنونة. إنها تزعم أنها قد حملت من دون أن يمسسها رجل. جنون مطبق. ومع ذلك – فكروا في تلك الفكرة؟ لو أن المرأة لم تعد بحاجة إلى الرجل لكي تنجب؟ عندئذٍ تكون المرأة حرة لتفعل ما يحلو لها.

صاح فيها "جاكي ميكرز" ساخرًا:

- لا يمكن أن يمر عليكِ يوم من دون رجل، "ماريا"!

- بل يمكنني ذلك، وبسهولة، "جاك"!

- أعتقد أن هذا سيكون ممكنًا، في المستقبل. سوف يكون بمقدور المرأة أن تنجب من دون معاشرة رجل. صاروا قريبين من ذلك في أمريكا.

وعلَّق "رينيه مورسنيت":

- في أمريكا يقومون بأي شيء.

أطلق "ميكرز" ضحكة ساخرة، وهو يقول:

- آه.. إذن تحمل النساء هناك حملًا نظيفًا!

عنَّفته "ماريا"، وهي تغالب الضحك بدورها:

- احترم نفسك، "ميكرز"!

انتبه الجميع إلى صوت انفتاح وانغلاق باب المقهى. كان "لوثر ويبر" قد نهض وغادر من دون أي كلمة. ورآه "رينيه مورسنت" عبر النافذة وهو يعبر الشارع مطأطئ الرأس.

علق صاحب المقهى:

- ما كان لنا أن نتحدث بهذه الطريقة. ما هو إحساسكم لو اضطرتكم الأقدار إلى العيش من دون أولاد، بينما الكل من حولكم يتحدث عمَّا لديه من أولاد وعن رغبته في أن يكون لديه المزيد.

أجابه "جاك ميكرز":

- ظننت أن حالته قد صارت أفضل. فقد كان يبتسم، ولو قليلًا.

- تلك الأمور تتراكم، "جاك". انظروا إلى زوجته مثلًا.

أومأ "ميكرز"، ولم يعلِّق. كانت "فيرا ويبر" تزور الطبيب كل أسبوع تقريبًا على مدار الأشهر الماضية. الكل يعرف أنها تعاني الاكتئاب، ولكن أحدًا لم يجرؤ على التصريح بذلك. وأقرب وصف ذكروه هو أن الخوف اعتراها.

***

لم يكن "لوثر ويبر" مقتنعًا بالفكرة من البداية. كان الدكتور "هوب" قد أخبره:

- يمكنك أن تكون موجودًا خلال العملية، ولكننا لسنا بحاجة إلى حيواناتك المنوية.

هو لم يعجب بالفكرة، وكذلك لم يفهمها. كيف يمكن للدكتور أن يرتب له موضوع أن يصير أبًا من جديد، طالما أنه ليس بحاجة إليه أصلًا؟ وسأله عن ذلك في الموعد التالي، ليطمئن قلبه، ولكنه لم يطمئن.

- إنها مسألة فنية. بل إنني لست بحاجة إلى بويضات زوجتك في الحقيقة، ومن حيث المبدأ. بل يمكنني القيام بذلك بخلايا بويضات أي متبرعة. ولكنني سأجرِّب بويضات زوجتك.

- ولكن كيف، دكتور؟ كيف؟

- الهرمونات التي تتلقاها الآن ستؤدي إلى خصوبة خلايا البويضات...

- أقصد، كيف ستصنع ذلك الطفل؟ من ماذا؟ بالتأكيد ليس من الطين؟

- بل من مواد جينية. دي إن إيه.

- دي إن إيه؟

- حمض ديوكسي ريبونسيليك.

أومأ "لوثر" برأسه، حتى ولو لم يفهم أي شيء. زوجته عازمة كل العزم على القيام بذلك. بل وعنفته بكل عصبية. وهو أرجع ذلك إلى مفعول الهرمونات، فهي في البداية كانت مترددة جدًّا. ولكن ما إن حقنها الدكتور بالحقنة الأولى، حتى تحولت مائة وثمانين

درجة. وصحيح أنها قد صارت متقلبة المزاج جدًّا، وتمسك في خناق "لوثر" لأتفه الأسباب، ولكن هذا سببه الهرمونات أيضًا.

وكذلك الهرمونات هي المسؤولة عن تلك الزيادة الكبيرة في وزنها: أربعة عشر كيلوجرامًا في غضون أربعة أشهر. وكأنها حامل. قالتها لنفسها ذات يوم، ولحظتها لاحظ السعادة في وجهها.

أمَّا هو، فلم يكن على نفس قدر يقينها – حتى ذلك المساء في "ترمينوس". فقد تفاجأ بما قاله "ليون هيسمانز". فهرع من المقهى إلى منزله ليخبر زوجته.

- إنهم يقومون بمثل ذلك في أمريكا منذ سنوات.

- ماذا؟

- ما يقوم به الدكتور. من دون رجل، ومن دون أي شيء.

أجابته في خيبة أمل:

- هل أخبرت أحدًا بأي شيء؟

لم تكن ترغب في أن يعرف أحد بأنها تخضع للعلاج.

- كلا.. كلا. هم من كانوا يتحدثون في الموضوع. وهذا لأن هناك امرأة في منزل الدكتور تقول...

- تقول إنها أم الأولاد. سمعت هذا. اتصلت بي "هيلجا برنارد". هل لا تزال هناك في منزل الدكتور؟

- أجل، هي هناك.

- أتمنى أن ترحل بحلول الغد.

- محتمل جدًّا أن تفعل.

***

لم تكن المشكلة في أي شيء قام به. كان "فيكتور" متأكدًا من ذلك. لقد تمت عرقلته فحسب. لن يستسلم الرب دون قتال. على الأقل تأكَّد له أنه، "فيكتور هوب"، على الطريق الصحيح، لأن الرب ما كان ليشعل تلك المعركة من دون سبب. الأمر كله بدأ مع الشكوك في صلاحية خلايا "جونتر ويبر". فقد اعتبره نذير شؤم. ولكنه بعد ذلك وجد فيه تحديًا إضافيًّا، وبما أنه تمكن في النهاية من التغلب على هذا العائق، فقد اعتبر أن هذا كان أسوأ ما في الأمر. ولهذا السبب شعر بقدرته على أن يعد الأبوان بطفل في غضون عام، وأنه سيكون نسخة طبق الأصل من "جونتر"، ولكن من دون تلك الإعاقة السمعية.

كانت ثقته مفرطة بعض الشيء، على الرغم من أنه لا يرى الأمر على هذا النحو. أو لم يكن يرغب في رؤيته على هذا النحو. أو هو غير قادر على رؤيته على هذا النحو. وبأي حال، وبحلول الاثنين 15 مايو 1989، قبل أسبوع واحد من انتهاء الأشهر الأربعة، لم يكن قد نجح بعد في فك رمز الدي إن إيه، وهكذا لم يكن قادرًا على التعرف على الجينات المتسببة في طفرة الصمم.

كان بوسعه أن يوكل لغيره هذه الخطوة – لـ"ريكس كريمر"، مثلًا، فهو من لديه أفضل المعدات في "كولونيا"، وخبرة أكثر بالتقنية الجديدة - ولكن "فيكتور" يريد أن يفعل كل شيء بنفسه. وكان قادرًا بالفعل على ذلك، لو كان قد منح نفسه المزيد من الوقت. ولكنه، ولأول مرة، فرض على نفسه تحديًا أعلى من قدراته.

لم يخطر بباله أبدًا أن تكون لقدراته حدود، وأنه أيضًا ربما يفشل لبعض الوقت، أو يفتقد الحظ بين حين وآخر – لم يخطر بباله شيء من ذلك على الإطلاق. كلا، هو لا يرى سوى عائق لا بد أن يتجاوزه، هكذا بكل بساطة. فالرب لن يتركه يتوصَّل إلى رمز الحياة دون مقاومة. يدرك "فيكتور" ذلك جيدًا. كما يعرف أنه لن يتخلى عن معارفه له هكذا بسهولة.

ولكن بما أن الرب يقاوم، فإنه مضطر إلى حسم قراره في نهاية المطاف. فليس أمامه سوى أسبوع واحد فقط قبل أن يقوم بزرع جنين عمره على الأقل خمسة أيام في رحم الأم، وهو ما لا يدع أمامه سوى يومين لفك الرمز والعثور على خطأ. وكان ذلك وقتًا قليلًا جدًّا.

لهذا السبب، قرر التوقف عن محاولة فك الرمز. ليس هذا اعترافًا بالهزيمة - كلا، كانت مجرد إعادة حسابات لا أكثر. وكأن الرب قد حاول سحقه، ولكنه لم يتمكن سوى من جرحه قليلًا بسيفه. لم تكن إصابة تهدد حياته. مجرد طعنة في الذراع. أو جرح في جانبه. ليست هزيمة، ولكنها إصابة. تلك هي الطريقة التي رآها. ولأنها مجرد إصابة، فلا يزال بمقدوره أن يرد الصاع صاعين. ربما لن ينتصر هذه المرة، ولكن يمكنه على الأقل أن يرد اعتباره أمام الرب. إذا أمكنه أن يبعث "جونتر ويبر"، ويعيد إليه الحياة التي سلبها الرب من الصبي، عندئذٍ يكون قد رد اعتباره أمام الرب. وسيكون للصبي حياة كاملة، وطبيعية. سيكون أصمَّ، ولكنه لن يشيخ قبل وقته. ليس هذه المرة! ستكون لديه تلك الإعاقة، ولكن ليس ذلك العيب الخطير. أصم، ولكن بتيلوميرات عادية. فلم يكن هناك مفر من الإعاقة. ولكنه نجح في التخلص من مشكلة التيلوميرات. وهذا هو التحدي الحقيقي. ولكن الأمر لم يكن صعبًا. لأنه سيطر عليه عمليًّا.

رافق "لوثر" زوجته لمنزل الدكتور "هوب" في 15 مايو. كان يوم عيد العنصرة، ولكنه علم أن الدورة الشهرية لا تعرف عطلات أو أعيادًا. لولا ذلك لبقي "لوثر" في المنزل – فهو يدرك أنه لا دور له في العملية على أي حال - ولكن زوجته أصرت، لأنها كانت خائفة، كما قالت له. سوف يقحم الدكتور في جسدها أشياء كثيرة، وهي تريد من زوجها أن يكون بقربها في حال وقع خطأ ما.

- لا بأس. طالما لن أضطر إلى مشاهدة شيء.

كان موعدهما لدى الدكتور في تمام الخامسة. وهو الموعد الذي حدده بدقة منذ أسابيع. بعد الشهر الأول، الذي راقبت "فيرا" خلاله الدورة الشهرية على التقويم، وعلى أساسه وضع الدكتور جدولًا زمنيًّا صارمًا. وإذا سار كل شيء وفقًا للخطة، فإن موعدهما القادم سيكون بعد خمسة أو ستة أيام من الآن. ذلك الموعد الذي سيقوم الدكتور فيه بزرع جنين أو جنينين في رحمها؛ من الذكور. صورة طبق الأصل من "جونتر". كان هذا في البداية أملهما الكبير، ولكن الآن بعد أن صار اليوم المشهود قريبًا، لم يعد الأمر يبدو مهمًا بذلك القدر. يكفي أن يكون الطفل بصحة جيدة – فهذا بعد كل شيء، هو الأهم.

ذات مرة، تحدثت "فيرا" في هذا الموضوع مع الدكتور. كانت تريد أن تهون الأمور عليه.

- ليس شرطًا أن يكون ولدًا. ولا يهم أن يكون شبيهًا لـ "جونتر".

- لا بد أن يكون كذلك. يجب أن يكون كذلك.

هكذا رد بحسم وهدوء.

التزمت الصمت منذ ذلك الحين. وليس هذا فقط لأنها تخاف من أن تبدو جاحدة أو لا تثق به؛ ولكن أيضًا لأنها عندما نطقت باسم ابنها خُيِّل إليها أنها قد رأته أمامها فجأة. وفجأة شعرت باشتياق شديد إليه، وكان شوقها لاحتضانه كبيرًا حتى إنها ندمت من فورها على ما قالته للدكتور من أنها لا تشترط أن يكون شبيهًا لـ"جونتر".

ما ترغبه أكثر من أي شيء هو ولد صحيح الجسد. من دون عيوب أو إعاقات؛ وألا يكون أصمَّ.

وصل "لوثر" و"فيرا" إلى منزل الدكتور في الخامسة بالتمام. كان "لوثر" محرجًا بعض الشيء، كما لو كان هو، وليس زوجته، من يوشك أن يخضع لهذه العملية. ويسأل نفسه الآن بعد أن اقتربت لحظة الحقيقة إذا كان من الأفضل لهما لو أنهما جربا الطريقة الطبيعية. ولكن الحقيقة أنهما لم يتحدثا أبدًا في هذا الموضوع في الأشهر الأربعة الماضية. كما أنه لم يقترب منها أبدًا في الفراش. وربما كان هذا سببًا آخر لهذا الشعور الذي يعتريه، أزعجه أن يعتقد أن الدكتور يعبث بجسد زوجته – بينما هو جالس هناك – بينما هو لم يلمسها منذ زمن.

في غرفة الفحص، جهز الدكتور "هوب" بالفعل كل ما يلزم للعملية. وجلس "لوثر" إلى جوار المكتب، يكاد يعطي ظهره لسرير الفحص الذي ترقد عليه زوجته. استوعب المشهد كله من نظرة واحدة، وكانت كافية بالنسبة له. سمع الدكتور "هوب" يقول لها:

- استرخي، سيدة "ويبر".

كان الدكتور قد انتهى من شرح ما يوشك أن يقوم به، ولكن "لوثر" لم يركز مع كلامه. لا يهم أي شيء، طالما أن العملية ستنتهي بسرعة.

***

وهناك في القرية، ظن الناس أن زوجته تخضع لعلاج لدى الدكتور؛ علاج من الاكتئاب. وهو لم يعترض أبدًا على كلامهم، لأنه يعلم أن "فيرا" لا تريد ذلك. تفضل أن يعتقدوا ذلك أفضل من معرفة الحقيقة. وهو يوافقها الرأي. فهما لا يزالان في حالة حزن وأسى، ولكن صار الآن لديهما أمل يتشبثان به، ويتطلعان إليه، وبالتالي أضحى حزنهما أكثر تحملًا. وصار الفراغ أقل فراغًا. إن صح التعبير.

من وراء ظهره سمع صوت الأدوات المعدنية وهي توضع في صحن معدني، ولكنَّ هناك أصواتًا أخرى أيضًا. هناك شخص يتجوَّل في المنزل. أيمكن أن يكونوا أولاد الدكتور؟ أم أنها تلك المرأة؟ لم يرها أحد وهي تغادر المنزل. كانت "فيرا" قد قالت له وهما في الطريق:

– عليك أن تسأله عنها. بطريقة غير مباشرة.

أيجب أن يسأل الدكتور عن المرأة الآن؟ رمق زوجته. النصف العلوي من جسدها محمي من نصفها السفلي بملاءة خضراء داكنة. عيناها مغلقة، وتتنفس في هدوء. كان الدكتور قد أعطاها مهدئًا خفيفًا. لن تشعر بشيء. ذكره منظرها بابنه. لهما نفس الأنف الأفطس والجبهة العالية. كان سعيدًا أن "جونتر" لم يأخذ منه أنفه الكبير العريض. أصابته رعدة عندما تذكَّر ابنه. فأخذ نفسًا عميقًا. يأتيه صوت ضجيج من مكان ما في المنزل. أبناء الدكتور؟ يتساءل عن حالتهم. لديهم سرطان – هكذا تقول الشائعة. ولكن الدكتور لم يؤكد ذلك. وما هو الأسوأ؟ أن تفقد طفلًا بعد مرض طال أجله، أو أن تفقد طفلك في حادث؟ تمنى لو أتيحت له الفرصة ليقول لـ"جونتر" أي شيء. ومع ذلك، فهو يرى أن موقف الدكتور صعب بدوره. فليس منطقيًّا أن يموت أي طفل، لا في حادث، ولا بسبب مرض.

"لماذا لم يأخذني الرب بدلًا منه؟" أنا عشت أفضل سنواتي. كانت لا تزال أمامه حياة كاملة. وكذلك كانت تتحسر زوجته أكثر من مرة في تلك الأيام الأولى التي أعقبت وفاة "جونتر". أما في حالة الدكتور، بطبيعة الحال، فقد أخذ الرب الأم أولًا. ولكن كأن هذه لم تكن تضحية كافية، على ما يبدو. الآن يريد الرب الأطفال أيضًا.

"ليس عليكما الخضوع لمشيئة الرب".

لا تزال كلمات الدكتور "هوب" تتردد في عقل "لوثر". ولكنه يرى أن الدكتور مضطر الآن إلى الخضوع لمشيئة الرب. أليست حالة أطفاله سيءة؟ صحيح أن أحدًا لم يراهم منذ حادثة "تشارلوت مينوت"، ولكن أيمكن أن يكون هذا سببًا لأن يعزلهم عن العالم وكأنهم أموات؟

سمع الدكتور يقول:

- سبعة.. سيدة "ويبر". تمكنت من جمع سبع بويضات مخصبة. نتيجة ممتازة.

سمع "لوثر" تنهيدة زوجته. التفتت إليه. عيناها تدمعان، وابتسامة على شفتيها. مثل شمس تشرق من بعد المطر.

قال الدكتور، وهو يزيح الملاءة الخضراء:

- يمكنكِ ارتداء ملابسك. انتهينا.

رأى "لوثر" أن هذا قد يكون الوقت المناسب لسؤال الدكتور عن أولاده. فقد تبدد كل التوتر وهم جميعًا يشعرون بالارتياح بشكل ملموس. بل ربما أمكن للدكتور أن يخبرهم عن المرأة التي أتت إلى منزله بالأمس. تنحنح "لوثر". ورمق بطرف عينه زوجته الجالسة. بينما كان الدكتور يخلع قفازيه.

- كيف حال الأولاد، دكتور؟ "جابرييل" و...

لم يتذكر بقية الأسماء، ولكن الدكتور عاجله:

- مصيرهما الآن بين يدي الرب. هو من سيقرر مصيرهما.

شعر "لوثر" وكأن صاعقة أصابته.

- أنا.. أنا لم أعرف.. لا بد أن..

نظر إلى زوجته مستنجدًا بها. وجدها شاحبة الوجه، تكاد تبكي.

تجنَّب "لوثر" نظرتها. وكان الدكتور يعطيهما ظهره. طبيعي أنه لا يود أن يظهر حقيقة مشاعره أمامهما. فكَّر "لوثر" في أن يعتذر له، ولكنه أدرك أنه لو فعل لما استطاع أن يمنع نفسه بدوره من البكاء.

قال لهما الدكتور:

- سوف أتصل بكما يوم الجمعة أو السبت، عندما تكون الأجنَّة جاهزة للزرع في الرحم.

استدار نحوهما، من دون أن ينظر إليهما.

- سوف ننتظر اتصالك، دكتور.

***

لا يزال بجعبة الرب الكثير. فلا شيء، ولا حتى صاعقة من السماء، يمكنها أن تؤثر في "فيكتور" هذا التأثير المدمر بمثل ما فعل به ذلك. فلقد جمع سبع بويضات ناضجة، ولكن ولا واحدة منها نجت. هكذا وجد في ذلك المساء. انهار فوق الكرسي، وهو يغالب شعورًا بالدوار. كان متأكدًا من أن البويضات ناضجة بما يكفي لجمعها. هذا ما أظهرته الأشعة فوق الصوتية. ولكنها ما إن خرجت من جسم المرأة، حتى ماتت في طبق "بتري". ولكنه توقع هذا. لم تكن المسألة في هذه المرحلة مسألة حياة إنسان؛ ولكنه شعر كما لو كان يراقب حياةً تتبدد أمام عينيه. واحدة تلو الأخرى. مثل بالونات يفرقعها دبوس.

عرف وهو يراقب ذلك أنها يد الرب. لن يسمح له الرب بأن يفعل ما يحلو له؛ عين الرب تترصده. لن يسمح الرب بأي منافسة.

ولكنه لن يستسلم. وعلى الرب أن يفهم ذلك.

وهكذا، بدأ في صباح اليوم التالي في إجراء اتصالات. اتصل بالجامعات والمستشفيات. تحدث إليهم ببساطة من يطلب رغيف خبز.

- خلايا بويضات.. بويضات بشرية ناضجة. أجل.. هذا ما قلته للتو.

أغلبهم أغلق الخط في وجهه. وبعضهم طلب منه أن يعاود الاتصال فيما بعد. وأخبره مكان واحد أنهم لا يعرفون عنه أي شيء.

لا يعرفون عنه أي شيء!

مؤامرة إذن. اقتنع بهذا. يستخدم الرب كل جبروته لفرض هذه المؤامرة! لقد صار طرفًا في عهد! شروطه هي تركيعه!

ولكن المرأة ظهرت أمامه فجأة. كانت سماعة التليفون لا تزال في يده. الطرف الآخر على الخط لم يفهم ما يريد. أو هو لا يريد أن يفهم.

- خلايا بويضات ناضجة. في أقرب وقت.

بادرته المرأة في سخط:

- ألم تستسلم بعد؟ أنت لا تعرف متى تتوقف! ألا يكفيك ما سببته من آلام؟ ما الذي تنتظره أن يحدث؟ بحق الرب، ما الذي يمكن أن يحدث ليجبرك على الاستسلام؟ أتسمعني؟ توقف عن هذا فورًا! أنت مجنون! مجنون!

بحق الرب - هذا ما قالته. هكذا فضحت نفسها. ولكنه كان يدرك هذا بالفعل. فالرب هو من أرسل بها إلى هنا. هكذا ببساطة. وإلا لماذا جاءته الآن بالذات؟ - بعدما أوشك أن يتغلب على الرب أخيرًا؟

تقول إنها قد جاءت من أجل الطفلين، ولكن لا علاقة لها بهما. هي ليست أمهما. لا رابط بينها وبينهما.

ضررها أكبر من نفعها. هذا ما قالوه عنها. وبالتالي فليس وحده من يعرف حقيقتها. الكل يعرف.

صعد الدرج. ليجدها في الحمام.

- أنا أعرف سبب حضورك إلى هنا. لست هنا من أجل الطفلين. بل لأجلي أنا. أرسلك إلي. حتى يوقفني. ولكنك لن تنجحي. وهو لن ينجح. لسوف أستمر.. مهما حصل.

تركها ومضى، ليلقي نظرة على الطفلين. لا يزالا في الفراش في تلك الغرفة. وهو يعرف الغرفة والفراش. كانت تلك الغرفة التي أخذ فيها الرب حياة أخرى منذ سنوات بعيدة. ووقتذاك كان يصلي للرب، كما علَّمته الراهبات. ولكنه لم يكن يعرف حينذاك أن الرب هو الشر. ذلك سر أخفينه عنه.

مال على الطفلين، وتحسس نبضهما.

صارت الآن مسألة وقت.

8

- "ريكس كريمر" يتحدث.

- سيد "كريمر"، لا بد أن تساعدني! إنه لا يزال يفعلها. دكتور "هوب".. وهو لن يتوقف! والأطفال، يا إلهي، الأطفال!

- مدام، أنا لا أسمعك جيدًا. هلّا أوضحتِ ما تقولين؟

- أنا في منزل الدكتور "هوب". أنا هنا منذ ثلاثة أيام. كنت أرغب في رؤية الأطفال، أتذكرني؟ أنت من عرفتني عنوانه.

- جيد. عثرتي عليه إذن.

- ولكن الأطفال...

- ما خطب الأطفال؟

- أحدهم بالفعل.. "مايكل" بالفعل.. أما الآخران.. فلسوف يلحقان به في أي وقت. لا أعرف ما أفعل! عليك أن تساعدني!

- ولكني لا أعرف كيف..

- كما أن الدكتور لن يتوقف! سمعته يطلب خلايا بويضات – ناضجة. هذا ما أخبرني به. قال لي إنه سيستمر! واتهمني بأني أحاول إيقافه! لقد جنّ!

- ....

- سيد "كريمر"؟

- أنا أفكر، مدام. أحاول أن أحدد ما يمكنني فعله.

- إنه قادر على فعل أي شيء! والطفلان. عندما عثرت عليهما.. كانا.. هذا فظيعًا! فظيعًا! إنه مجنون! الدكتور "هوب" مجنون! عليك أن...

- مدام؟

- ...

- مدام؟ هل أنتِ على الخط؟ مدام؟

كانت المرأة تقف خارج مقهى "ترمينوس"، تصرخ وتضرب بقبضتيها على النوافذ. حتى إن "مارثا بولين" سمعتها من مكانها في المتجر، وهرعت للخارج تستطلع الأمر. التفتت إليها المرأة المذعورة:

- لا بد أن أجري اتصالًا! الأمر عاجل!

اصطحبتها "مارثا" إلى المكتب الصغير في الجزء الخلفي من المتجر، وقدَّمت لها التليفون. تركتها وحدها، ولكنها وقفت وراء الباب تتصنت. ظنَّت أن أبناء الدكتور قد ماتوا؛ وربما كان تليفونه به عُطل. ولكن المرأة كانت تتحدث بعصبية وصراخ. وتدَّعي على الدكتور "هوب" أمورًا مفزعة، وتكرر ذلك. تقول إنه مجنون – بل تصرخ بتلك التهمة. قالتها ثلاث مرات على الأقل! عندئذٍ اكتفت "مارثا" بما سمعته. ودلفت إلى المكتب، وشدت السماعة من يد المرأة، وأغلقت الخط بكل قوة.

- برّه! اخرجي من هنا! أنتِ المجنونة! هيا.. برّه.. وإلا اتصلت بالشرطة!

هكذا ولّت المرأة فرارًا خارج المتجر.

***

كان "جيكوب فاينشتاين" يغرس الزهور في ساحة الكنيسة في صباح ذلك اليوم عندما رأى تلك المرأة. لم يكن يعرف بعد من تكون. كانت تمشي من دون هدف جنب القبور، وتقرأ الأسماء على شواهد القبور، وهي تهز رأسها في كل مرة. كانت قادمة تجاهه، ولكنها لم تنتبه له. وعندما اقتربت، بادرها:

- عفوًا، سيدتي، هل تبحثين عن قبر بعينه؟

حدقت فيه وكأنه خرج لها من وسط الأموات فجأة.

حاول طمأنتها لما وجدها مفزوعة:

- أنا حافظ غرفَة المقَدسات هنا. لو عرفتني فقط من تبحثين عنه، فربما أساعدك.

تلفتت حولها في عصبية.

- "مايكل". "مايكل"..

- من؟

- "مايكل".

- هل تعرفين لقبه؟ فاسمه وحده لا يعطيني ما أريد من معلومات.

- "هوب".. ربما.

- "هوب"؟ على اسم الدكتور؟ ربما أنتِ تبحثين عن أبيه. فهو هنا.. أنتِ على حق. كان هو أيضًا دكتور. ولكن اسمه لم يكن "مايكل". بوسعي أن...

- إنه.. إنه أحد أولادي. الأولاد.

- أوه.. تقصدين "مايكل"؟ "مايكل" و"جابرييل" و"رافاييل"؟ على أسماء الملائكة؟

لم يبد أنها قد فهمت إشارته. ربما هي ليست متدينة.

- "مايكل هوب".. ابن الـ...

فهم قصدها. ولكنه ظن أنها مخطئة.

- ولكنه لم يمت بعد، مدام.

- بل مات. مات. منذ أسبوع أو أكثر.

- أظن أن هناك سوء فهم. ما أعرفه هو أن مرضهم شديد. ولكن مات؟ ومنذ أسبوع؟ لو صح كلامك لكان قد دفن، ونحن لم ندفن أحدًا هنا منذ أشهر. أعتقد أنك مخطئة.

- كلا، فالطبيب هو من أخبرني بذلك. أنا متأكدة.

عندئذٍ أدرك الحافظ من تكون المرأة. إنها من يتحدث الكل عنها، والتي هاجمت ولدي "ماريا مورسنت"، وزعمت أنها أم أولاد الدكتور. لم يرها أحد منذ أن أدخلها الدكتور منزله. لابد أنها هي! المجنونة – كما يقولون. بادرها بحزم:

- لا وجود لميت اسمه "مايكل هوب" هنا، مدام. أنتِ واهمة فحسب. فهو لم يمت.

وجدها تصيح فيه بكل عصبية، ويداها تتحرك حركات هستيرية:

- كذَّاب! كلكم كذَّابون!

- هذه ساحة الكنيسة، مدام. لا يمكنني أن...

لكنها كانت قد استدارت على عقبيها بالفعل لتنصرف. أسرع الرجل الخطى خلفها، فوجدها متجهة إلى منزل الدكتور مباشرة. بل لاحظ أن معها المفتاح. لحظات وفتحت البوابة، ثم خطت بسرعة نحو باب المنزل. ومن دون نظرة خلفها، دخلت إلى الداخل.

كان باب غرفة النوم مفتوح. رغم أنها متأكدة من كونها أغلقته قبل أن تخرج.

- "جابرييل"؟ "رافاييل"؟

أخذت تنادي عليهما في عصبية، وهي ترتجف، وتشعر بحرقة في معدتها.

ألقت نظرة على داخل الغرفة، ولكنها لم تجد الفراش فارغًا كما توقعت.

توقفت عند الفراش، ولكنها لم تجد سوى طفل واحد. فمكان "رافاييل" فارغ. ومتسخ. وكأن أحدًا طعنها بكل قوة في بطنها بخنجر.

هرعت وهي تغالب الدوار إلى الجانب الآخر من الفراش. ومالت على "جابرييل"، ورفعته إلى حضنها في حرص.

- أين "رافاييل"؟ "جابرييل"، أين "رافاييل"؟ انظر إليَّ!

لم يبد على "جابرييل" أنه قد سمعها. كان لا يزال يتنفس، ولكنه لم يفتح عينيه.

أعادته إلى الفراش. كان خفيفًا لدرجة أن رأسه لم تترك أي أثر يذكر في الوسادة.

أنفاسها تتسارع بقوة، وقد غص حلقها. أخذت تنظر حولها، ولكنها أدركت أن "رافاييل" ليس هنا.

ولكنه لم يمت.

لا بد أن الدكتور أخذه إلى غرفة أخرى. وربما كان "مايكل" معه أيضًا. تلك هي القشة التي تتشبث بها.

قبل أن تترك الغرفة، ألقت نظرة أخيرة على الفراش.

- دقيقة وأعود. أعود ومعي أخواك، "رافاييل" و"مايكل". سوف أحضرهما.

صارت كتلة من الأمل، واليأس، والكراهية. كراهية الرجل الذي تسبب في كل هذا. والذي يستمر في جنونه من دون رادع.

وجدته في غرفة العيادة. واقفًا يغسل يديه، وظهره لها.

- أين هما؟

صوتها حاد مبحوح. لم تكن قد شربت أي شيء منذ مدة. وفقدت إحساسها بالزمن. فلا تعرف متى خرجت ومتى عادت.

ألقى الدكتور نظرة عليها، قبل أن يستمر في غسل يديه. ثم أغلق الحنفية.

- أين هما؟ أين "رافاييل" و"مايكل"؟ هما لم يموتا. أنا أعرف هذا.

سحب الفوطة، وانشغل في تجفيف يديه بدقة مبالغ فيها. راحتي يديه. ظهر يديه. وكل إصبع وحده. وما بين الأصابع.

اختلست نظرة إلى أرجاء المكتب، وتأملت سرير الفحص. شعرت مرة أخرى بتلك الطعنة في بطنها. وكما لو أنها ترغب في تكثيف تلك الكراهية، مرت بأصابعها على تلك الندبة في بطنها. ها هي ذي تشعر بها عبر قماشة بلوزتها؛ مثل فرع أشواك. ثماني وأربعون شوكة. كثيرًا ما أحصتها.

- أين هما؟

علق الدكتور المنشفة في هدوء:

- ماتا. كلاهما مات.

- أنت تكذب. دائمًا تكذب.

هز رأسه وهو يسألها في سخرية:

- أترغبين في رؤيتهما؟ حتى تصدقين؟

لم تكن تتوقع منه استسلامًا سهلًا. ولكنها قالت:

- أريد أن أراهما. الآن.

كان حلقها قد انغلق تمامًا الآن.

- سوف أريهما لكِ. تعالي معي.

مشي إلى الباب خلف مكتبه، وفتحه وتوارى في الداخل.

مرَّت لحظة ترددت فيها. حاولت أن تتخيَّل صورة ما قد ترى. الولدان راقدان هناك، معًا في سرير واحد، وربما هناك قناعا أكسجين على أنفيهما، وتلك الأنابيب الوريدية في ذراعيهما. ومن حولهما جميع أنواع المعدات، ربما. ممكن جدًّا. استجمعت قوتها، ودخلت الغرفة.

كانا إلى جوار بعضهما.. أخوين. أرقدهما جنبًا لجنب.. أخوين. فوق ترابيزة فارغة في منتصف الغرفة. تراجع هو، حتى ترى هي.

كانا طافيين. كلاهما مقوس الظهر، محني الرأس، مغلق العينين، مكور القبضتين؛ طافيين في ماء. في وعاءين كبيرين مملوءين بسائل مثل الماء.. وفي كل وعاء جسد.

شعرت أن روحها تفارقها. أخذت تتنفس الهواء بشدة، وتعجز عن استرداده إلى رئتيها. وعجزت كذلك عن إبعاد عينيها عن ذلك المنظر أمامها.

تشبثت بالدولاب جوارها حتى لا تسقط. ارتطمت يدها بأطباق معدنية فأسقطتها. أفزعها الصوت. شعرت وكأنه يأتيها من مكان آخر بعيد، وكأنها تحلم. ولكنها لن تستيقظ من حلمها. لأنها بالفعل مستيقظة. وذلك الصوت الذي سمعته. الصوت المحايد البارد، والحقيقي:

- ترين، لقد ماتا. أنا لا أكذب.

تمنت لو أنه سكت، لو أنه لم يتفوه بأي كلمة، فلربما أمكنها عندئذٍ أن تخرج وتبتعد عنه.

لمحت المشرط فوق الدولاب. كان من المستحيل ألا تراه؛ ومن المستحيل ألا تلتقطه. أوعية في كل مكان، وفي كل وعاء مشارط ومقصات، وإبر. التقطت المشرط، ورفعت يدها في الهواء قبل أن تهوي بها وبكل قوة على جسد الدكتور. لكنها لم تكن تقصد نقطة ما في جسده. فقد خارت قواها. هوت بالمشرط فحسب، ومن دون هدف بعينه. هوى ذراعها بقوة فاخترق المشرط جانبه. مر بكل سلاسة من خلال قماش معطفه...

وغاص في جسده.

عميقًا في جسده.

9

زار الأب "كايزرجربر" الدكتور "هوب" مرتين ومعه زجاجة من الزيت المقدس. وفي كل مرة ظلت بوابة المنزل مغلقة في وجهه. ولما كان القس يعلم أن الدكتور "هوب" لم يعد يفتح بابه لأي شخص، فإنه لم يأخذ ما حدث معه على محمل شخصي. بل إنه في الواقع لم يمانع أبدًا، وهذا لأنه كان مترددًا في الذهاب من الأصل، ولم يقصد منزل الدكتور إلا بعد محايلة من أبناء الكنيسة، الذين حثوه على ذلك. أرادوا منه أن يجري الطقوس الأخيرة لابني الدكتور اللذين يحتضران. وقد اعترض في البداية، قائلًا أن الطفلين صغيران جدًّا، وإلى جانب ذلك، فإنه لم يكن متأكدًا من كونهم معمدين أم لا، ولكن "برناديت ليبكنخت" ذكَّرته بقصة المرأة الكنعانية، التي كانت قوية الإيمان لدرجة أن يسوع شفى طفلها المريض لهذا السبب وحده.

- إنجيل متى، الفصل 15.

هكذا قالت "برناديت"، لتذكِّر القس بأن الدكتور "هوب" قد قال إن مصير أولاده بين يدي الرب. أفلا يدل هذا على أنه يتمنى لو أن الرب أنعم بسلامه على الولدين؟ وفي عدم الإقدام على أي فعل سبيل يصل بهما إلى هذا القصد، كما أن في هذا ما يقوِّي قدرة الدكتور على احتمال مصيبته.

في المرة الأولى دق الأب "كايزرجربر" جرس بوابة منزل الدكتور بعد ظهر يوم الأربعاء، أمَّا المرة الثانية فكانت بعد ظهر الخميس. حاول الإتصال مسبقًا، إلا أن الدكتور لم يرد على التليفون. وقلق بعض أهل القرية، فهم لم يروا الدكتور أو يسمعوا عنه شيئًا منذ عدة أيام. ويبدو أنه أوكل رعاية أولاده إلى تلك المجنونة، وهي التي لم يرها

أحد منذ صباح الثلاثاء، عندما كانت منهاره أو ثائرة في محل "جيكوب فينشتاين" في ساحة الكنيسة، وتتحدث بكل أنواع الهراء.

وأوشكت "إيرما نيسبوم" على أن تطلب الشرطة لتقتحم المنزل، ولكن الآخرين حذروها من أن تفعل، وقالوا إن الأرجح أن الدكتور ساهر على أولاده. ولكن قلب "إيرما" لم يطمئن، وعندما لم تلمس أي دليل على الحياة في منزل الطبيب طوال النهار، اتصلت بـ"فيرا ويبر" بحجة سؤالها عن حالها. وسألتها، وبشكل عابر كأن الأمر لا يعنيها، عما إذا كان لديها مواعيد أخرى مع الدكتور "هوب". أخبرتها "فيرا" بعد تردد:

- أجل، يوم غد أو يوم السبت. سيتصل بي قبلها.

- إني أتساءل إن كان سيفعل. لقد بدأت أقلق بالفعل.

فضّلت ألا تستفسر أكثر من ذلك عن سبب الموعد، لأنها لم تكن تريد ـ لـ"فيرا" أي حرج. وإلى جانب ذلك، فهي عرفت كل ما كانت في حاجة الى معرفته في الوقت الراهن، وقررت أن تنتظر حتى ليلة السبت قبل اتخاذ أي إجراء آخر. فإذا لم يسمع أحد عن الدكتور أي خبر، فلا سبيل أمامها حينذاك إلا استدعاء الشرطة.

وتبيّن أنها ليست بحاجة إلى الانتظار كل هذا الوقت. فأخيرًا، وفي مساء الجمعة ظهرت علامة الحياة التي كانت تترقبها. وذلك عندما قام الأب "كايزرجربر" بمحاولته الثالثة. كان مشغولًا ولم يتصل بالدكتور في اليومين السابقين لأنه كان يجهِّز للحج السنوي في يوم الأحد إلى "كالفاري هيل" في "لا شابيل"، وهو الحدث الذي يقام دائمًا في يوم 22 مايو، يوم ميلاد القديسة "ريتا"، راعية "فولفهايم".

في ذلك المساء رن القس الجرس مرتين، وكان يهم بالفعل، مع قدر من الارتياح، بالرحيل، عندما فتح له الدكتور الباب فجأة. وكم سرَّت "إيرما نيسبوم" وهي تراه من نافذة مطبخ منزلها عبر الشارع. وبعد دقيقتين، وما إن تبع القس الدكتور إلى الداخل، بدأت تتصل بجميع صديقاتها لتزف إليهن تلك البشرى.

لم يكن الأب "كايزرجربر" يشعر بالارتياح أبدًا. فقد حيَّاه الدكتور "هوب" بنفس أسلوبه الخالي من الود. ولم يفصح له الأب عن سبب الزيارة، ولكن الدكتور قاده على

الفور إلى العيادة، كما لو أنه جاء للعلاج من مرض. ولما جلس الدكتور إلى مقعد مكتبه، دس القس يده في جيب معطفه ليتأكد من أن زجاجة الزيت في مكانها. مر عامان منذ أن قرر استبدال ثوب القس بتلك البدلة الداكنة. فلا بد للكنيسة من أن تساير العصر، ولكنه لم يرتح أبدًا لزيه الجديد، ولا سيما كل تلك الجيوب.

والآن، وهو والدكتور "هوب" جالسان قبالة بعضهما البعض، يعجز عن صد ذكريات السنوات الماضية. ذكرياته عن والد "فيكتور". ابنه يشبه "كارل هوب" كثيرًا: الوجه الهزيل المنمق، واللحية الحمراء غير المهذبة، والندبة، والأنف المسطح، والعيون الزرقاء. تقريبًا نفس الوجه. إلا أن "فيكتور" يصفف شعره بشكل مختلف، وشعره أطول، أطول بكثير مما يتذكر الكاهن. يصل تقريبًا إلى كتفيه.

بادر القس بإذابة الجليد، وتنحنح. ووضع يده بحركة غريزية ممسكًا بالزجاجة في جيبه، وكأنه يستمد منها الشجاعة.

- لقد أتيت لكي...

ولكنه وجد الدكتور يقاطعه متسائلًا:

- لماذا مات المسيح على الصليب؟

انعقد لسان الأب، ولكنه وجد الدكتور ينظر إلى الصليب الفضي الذي يضعه في عروة سترته. وجد السؤال غريبًا في البداية، وخاصة أنه من "فيكتور"؛ ولكنه سرعان ما ظن أن الدكتور – وبسبب احتضار أولاده – يبحث في الإيمان عما قد يريح قلبه.

- لكي يكفِّر خطايانا. لقد ضحَّى بنفسه لأجل الإنسانية.

- ولكن هل كان الموت اختياره؟

رفع القس حاجبيه، واستعد للدفاع عن رأيه. وتذكر الطريقة التي مات بها والد "فيكتور". ربما يحاول الدكتور دفعه إلى الإقرار بأن الانتحار ليس إثمًا.

- كلا، لقد حكموا على "يسوع" بالموت. وفي ذلك ظلم عظيم بالطبع. ولكنه لم يقاوم. خضع للعقاب مستسلمًا، لكي يقول لهم إنه لا يحمل الضغينة – وإن نواياه كانت طيبة.

يريد أن يجد سبيلًا لإنهاء هذه المناقشة، ولكن الدكتور لم يمهله، فسأل القس وهو لم يرفع عينه عن الصليب في ردائه:

- ولكن لماذا أدانوه طالما الأمر كذلك؟

- هم لم يفهموه. والناس لم تصدّقه.

كان الدكتور يومئ برأسه في غير اقتناع. وعاد بظهره في المقعد، وهو يريح يديه على مسنديه.

ولكن القس استغل لحظات السكوت هذه ليغير الموضوع:

- ولكن كيف كـ...

- ولكن لماذا الصليب؟ لماذا كان يجب أن يموت على الصليب؟

تراجع القس في مقعده وهو يتنهد، قبل أن يرد:

- لماذا الصليب؟ لأنهم في تلك الأيام كانوا يعدمون المذنبين عليه. هذا هو السبب.

- ما كان هذا ليحدث في عصرنا الحالي.

- كلا، شكرًا للرب.

رمقه الدكتور سريعًا. وتابع القس، وهو يتجنب النظر إلى الدكتور:

- اليوم كان ليحبس. أو تبرأ ساحته في المحكمة. وما كان ليموت.

- لا، من المحتمل أن لا.. وفي تلك الحالة لم يكن ليتمكن من تخليصنا من آثامنا.

- محتمل.

- وبعث المسيح، من بعد موته.. ألن يكون هذا لأجل الإنسانية أيضًا؟

فكَّر القس أن الدكتور قد بحث في هذا الموضوع. وشعر أنه قد أخطأ تقديره. فلربما قرر أن يتوب. وقال:

- تلك طريقة "يسوع" في التأكيد على أنه موجود دومًا لأجل البشر. فهو موجود فوق الحياة والموت.

شعر وكأنه يعمل على إقناعه باعتناق العقيدة المسيحية – حتى ولو كان "فيكتور" قد أمضى سنوات في مدرسة الكنيسة في "ايوبين". لا بد أن كل تعاليم الدين والصلوات لم تؤثِّر فيه، تمامًا كما لا يؤثِّر الرمح في درع فولاذية. أو ربما كان تجاهله الدين في المدرسة، بسبب أنه لم يكن ليستوعبه في تلك السن، لم يكن ناضجًا كفاية.

قال له "فيكتور"، وكأنه تلميذ في نهاية حصة الشرح:

- أوه.. الآن فهمت.

أجابه القس في صدق:

- أنا سعيد لذلك. ولكن قل لي يا دكتور، كيف حال أولادك؟

- بخير.

- إذن كل شيء على...

أومأ الدكتور برأسه.

تنفس القس الصعداء، وقال وهو يربت بأصابعه على الزجاجة داخل جيبه:

- فلا حاجة إذن لإجراء الطقوس الأخيرة؟ فلهذا السبب حضرت، في الحقيقة.

- لا، بالتأكيد لا.

نهض الأب وهم بالانصراف وهو يقول:

- حسنًا! تلك أخبار طيبة، دكتور. أخبار طيبة بالفعل. الآن صرت تعرف مسببات شكرك لـ"يسوع" في الأحد القادم. في حجنا إلى "لا شابيل". هناك...

توقف القس في منتصف جملته. لقد أدرك، متأخرًا، أن اسم القرية لا يمثل أي ذكرى طيبة لـ"فيكتور". على أن الدكتور لم يبد أي رد فعل. ربما لم يعد يتذكر سوى القليل عن تلك الفترة التي أمضاها مع الأخوات "كلير". أهناك تفسير آخر؟ كان عمره أقل من خمس سنوات عندما أخرجه أبوه من ذلك الملجأ. ولكن القس رأى أن تلك السنوات تركت أثرًا لا محالة. لقد ذهب الشر عنه في نهاية المطاف.

***

"فينظرون إلى الذين طعنوه".

كان "فيكتور" قد أبقى الجرح مفتوحًا لأيام. وكان كلما وجده يبدأ في الالتئام حتى ينزع تلك القشرة التي تتكون، ومن ثم يضع إصبعًا، فإصبعين، ثم ثلاث أصابع في الجرح، ويدخلها حتى منتصفها.

لم يكن يصدق أنه قد أصيب بمثل هذا الجرح. ولكنه نظر إليه، وأحس به. كان ذلك الجرح في جانبه حقيقيًّا.

لقد حرك فيه شيئًا.

لقد حدث هذا بعد أن تغلب على الشر.

***

في ليلة السبت تلقى "لوثر" و"فيرا" اتصالًا تليفونيًا، بعد طول ترقب وقلق:

- سوف أنتظركما صباح الغد. في التاسعة.

سأله "لوثر" في حماس:

- هل نجح الأمر؟

- نجح. لديَّ ثلاثة أجنَّة.

- ثلاثة؟ أليس هذا كثيرًا؟

- لسنا متأكدين من أن الأجنَّة الثلاثة ستواصل النمو. علينا أن نأخذ النتيجة النهائية في الاعتبار.

- آه.. فهمت.

ثم سأله عن الوقت الذي سوف تستغرقه العملية، وعمَّا إذا كان على زوجته التزام الراحة بعدها، لأنها ترغب في المشاركة في الحج إلى "لا شابيل" بعد ظهر ذلك اليوم. وقد اختير "لوثر" في هذا العام لحمل راية الكنيسة. فأخبره الدكتور أن الأمر سيستغرق بضع دقائق فقط. وأنها عملية بسيطة. وسوف لن تشعر "فيرا" بأي شيء، وأنه لا يتوقع أن تكون هناك أي آثار لاحقة.

في تلك الليلة أضاءا شمعة إلى جوار صورة لابنهما "جونتر".

في صباح اليوم التالي دقا جرس منزل الطبيب في التاسعة إلا خمس دقائق. كان الأحد 21 مايو 1989 – وهو يوم خاص. كلاهما عصبي ومتعب. الحرارة كانت مرتفعة في تلك الليلة، مما جعل خلودهما للنوم أشد صعوبة. كانت الحرارة ترتفع خلال الأيام القليلة الماضية بشكل مطَّرد، ومكثت الحرارة العالية في كل ركن من أركان المنزل. وأشارت التوقعات إلى أن هذا الأحد سيكون يومًا صيفيًّا للغاية، ولكنها أشارت إلى موجة من الطقس الجيد بعد ذلك.

كانت الشكوك تعتري "فيرا ويبر" وهما يدقان الجرس. ألم يكن من الأفضل لها أن ترضى بمشيئة الرب؟ أليست هي الآن تخاطر بصحتها؟ وصحة الطفل أيضًا؟ طاردتها تلك الأفكار طيلة الأيام الماضية. فقد خارت أعصابها. ولكنها لم تدرك ذلك. ولكنها تعرف أيضًا أن هناك وقتًا لتغيير رأيها. ربما كان من الأفضل لهما الانتظار. لشهر أو أكثر. حتى يطمئن قلبهما. نبهت زوجها:

- "لوثر"...

ولكن الباب انفتح لحظتها.

- ؟؟؟

- أوه، لا شيء. سأخبرك فيما بعد.

بدا الدكتور "هوب" شاحب الوجه. هو دومًا شاحب الوجه، ولكنه هذه المرة أشد شحوبًا. يكاد يكون أبيض اللون. مثل قطعة طباشير.

ما إن دخلا، حتى سأله "لوثر":

- هل أنت بخير، دكتور؟

- أجل.

لكن "لوثر" رأى عكس ذلك. أرجع ذلك إلى توتر الدكتور. طبيعي: فهو أمام لحظة مهمة بالنسبة له كما هي بالنسبة لهما.

قال له "لوثر" بغرض أن يخفف من توتره، وهو يهش ذبابة كانت تحوم حول رأسه:

- سمعت الأخبار الطيبة عن أولادك.

أومأ الدكتور برأسه وهو يقول:

- الرب غير متعجل في تلك الأمور. لم يعودوا سوى جلد وعظم. لو رغبتما لذهبت وأحضرتهم لكما. حتى تريا بأنفسكما.

- كلا، ربما في مرة أخرى. دعهم مرتاحين.

لم يدرك أن الدكتور قد ارتاح، وأنه قد اجتاز الأسوأ، ولكن "لوثر" يريد الآن الانتهاء من هذه العملية في أسرع وقت. كما أن زوجته تكاد تنتهي من خلع ملابسها. سمع الدكتور يقول له:

- لقد ذهب الشر على كل حال. وتمت المهمة.

أومأ "لوثر" برأسه. طمأنه أن الدكتور بحث عن العزاء في الإيمان ووجده. الإيمان يملأ قلبه الآن، والرب معه؛ فما المانع في أن يشملنا الرب بعطفه نحن أيضًا. فقال له بصدق:

- أنا سعيد لأجلك.

لاحظ أن الدكتور يضغط بيده على جانبه. وأن في ذلك المكان من معطفه الأبيض بقعًا بنية، تزحف فوقها ذبابة. حطت ذبابة أخرى على يد الدكتور. عندئذٍ لاحظ "لوثر" أن في الغرفة الكثير من الذباب. وهناك رائحة غريبة في المكان.

صعدت زوجته فوق السرير، وأسندت ساقيها إلى الدعامتين. حوّل ناظريه إلى الدكتور "هوب"، الذي جلس إلى ترابيزة صغيرة، حيث انشغل بالنظر عبر المجهر واضعًا طبق "بتري" تحت عدساته.

فكر "لوثر" أن هناك حياة في ذلك الطبق، وأن الدكتور سيضع تلك الحياة بعد دقائق في جسد زوجته. حمل نظيف. ترددت صيحة "جاك ميكرز" في عقله.

سرعان ما نهض الدكتور، واتجه إلى "فيرا" وهو يحمل أداة بدا أنها ليست سوى قضيب معدني طويل رفيع.

- دكتور؟

سمع "لوثر" زوجته تنادي الدكتور بصوت ضائع. نظر نحوها في سخط، كانت راقدة، ورأسها يستند إلى وسادة، وعيناها إلى السقف.

- دكتور.. هل يمكن أن نؤجل هذه العملية؟ حتى الشهر المقبل ربما؟

اندهش "لوثر". هل خارت أعصابها فجأة؟ نظر إلى الدكتور في دهشة؛ ولكن الدكتور لم يضيع وقتًا في الرد عليها.

- كلا، هذا غير ممكن. غير ممكن. لا بد أن تجرى الآن.

- ولكن هل كل شيء جاهز؟ أنا قلقة من حدوث خطأ.

- لا تقلقي. فأنا بكِ أفعل الخير. وأنتِ مباركة.

لم يفهم "لوثر" قصده، ولكن زوجته لم تهتم بالسؤال عن ذلك. كانت تريد معرفة شيء آخر.

- والطفل، دكتور؟ هل سيكون الطفل صحيح الجسد؟

- سيكون صحيح الجسد، سيدة "ويبر". بالتأكيد.

- لن يكون.. أصمَّ؟

- كلا، لن يكون أصمَّ.

سمع "لوثر" زوجته تتنفس الصعداء. ويبدو أنها اطمأنت فتراجع رأسها أكثر في الوسادة. لا تزال لديه أسئلة، لكنه قرر الاحتفاظ بها لنفسه. زوجته كانت هادئة، وكان الطبيب على استعداد لتنفيذ العملية. ولكن ما كان يريد حقًّا في أن يعرفه هو ما سيحدث في حال نمت الأجنَّة الثلاثة وصارت أطفالًا؟ هل سيكونون متشابهين؟ هل سيكون سمعهم سليمًا؟ وماذا لو أن زوجته لم تحمل بعد كل شيء؟ فهل سيحاول الدكتور مرة أخرى؟ ولكن هل سيرغبان في ذلك؟ لم يناقش وزوجته هذا الاحتمال. ربما سينبغي عليهما، في تلك الحالة، أن يرضيا بإرادة الرب.

- ها نحن ذا.

تراجع الدكتور "هوب" بظهره للوراء وهو يضع يده مجددًا على جانبه.

- هل انتهت العملية بالفعل؟

أجابه الدكتور:

- بالفعل.

لكن صوته لا يشي بأي انفعال، وكأنه لم يقم إلا بواجبه العادي. دوره هو. أما الآن فهو دور "فيرا".

راقب "لوثر" زوجته وهي تجلس في بطء. الآن في بطنها حياة – حياة جديدة. لا يسعه تصديق هذا. اعترته مشاعر عنيفة لمجرد أن خطرت الفكرة على باله. لم يتوقع حدوث ذلك من الأصل. وعجز عن عدم التفكير في "جونتر".. وبالكاد منع نفسه من البكاء.

10

حينما وصل "ريكس كريمر" إلى أعلى جبل "فالسيربيرخ"، اندهش لما وجد أن برج "بودوين" غير موجود. قاد سيارته لدقائق أخرى، قبل أن يتوقف. فقد تحوَّلت المنطقة التي كان فيها البرج في السابق إلى موقع بناء هائل داخل سور أمني. حفرة كبيرة هناك، عميقة لدرجة أن "ريكس" لم يتمكن من رؤية قاعها، وجدران إسمنتية هائلة ترتفع من أعماقها ذات أسياخ حديدية طويلة بارزة منها. على لافتة مستطيلة فوق السور صورة لبرج جديد، وقد كتبوا تعريفه بأربع لغات.

برج بودوين الجديد الذي يتم تشييده في هذا الموقع بارتفاع خمسين مترًا، مع مصعد وشرفات علوية مسقوفة تتيح إطلالة بانورامية فريدة.

يظهر رسم البرج هيكلًا مرتفعًا جديدًا له سلسلة من الدرج تلفه من الخارج. ذكَّره شكل الدرج بالشكل المشهور لخيط الدي إن إيه؛ شكل حلزوني مزدوج مضفَّر معًا في تناغم تام. وكانت المنصة في أعلى البرج هيكلًا مثمنًا، لها جدران زجاجية رأسية وسقف معدني على شكل هرم، وسارية العلم في ذروته.

على ارتفاع خمسين مترًا. فكَّر "ريكس" أن أحدًا لا يسعه منع التطور، وهو يتذكر البرج القديم في حنين. هكذا تدمرت ذكريات الصبا وسُويت بالأرض. جعلته الفكرة يشعر فجأة بأنه كبير جدًّا في السن. وهو الشعور الذي يعتريه كثيرًا هذه الأيام، وكأن الزمن ينسلُّ من بين أصابعه. وبدا له أن السنوات قد تحولت إلى أيام. فهو مثلًا قد أتى إلى هنا في آخر مرة منذ ستة أشهر، ومع ذلك يشعر أن هذا كان قبل ساعة فقط. كما أن السنوات الأربع التي أمضاها في "كولون" بدت له مثل لحظات. وحتى سنواته في الجامعة تكثفت في لحظات ولقطات قليلة – لقطات لعب فيها "فيكتور هوب"، بطبيعة

الحال، دورًا بارزًا. ولكن كيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ وقد كان أول لقاء بينهما منذ ما يقرب من عشر سنوات. وكانت المرة الأولى التي يتصل فيها بـ"فيكتور" قبل ذلك بفترة. وهو لا يزال يتذكر التاريخ الذي كتبه على البطاقة التي مثلت بداية كل ما حدث: 9 أبريل 1979.

تنهد، وهو ينقل قدمه من الفرامل إلى دوَّاسة البنزين. بدأت السيارة تتحرك إلى الأمام مرة أخرى، وهي تمر على تلك الحفرة الكبيرة أعلى قمة جبل "فالسيربيرخ". رمق الساعة على لوحة القيادة. كانت الساعة 10:55. يوم الأحد 21 مايو، 1989.

لم يرتح بال "كريمر" منذ تلك المكالمة التليفونية التي انقطعت فجأة من تلك المرأة، منذ خمسة أيام. وكان هذا، بطبيعة الحال، لأنه لم يكن يعلم ما جرى، ولكن السبب الرئيسي لقلقه هو إحساسه بالذنب، والذي عاوده فجأة. عجز عن طرد فكرة أنه كان مسؤولًا جزئيًّا عن كل ما جرى، وحتى لو لم يكن يعرف بعد الحجم الكامل للعواقب. كان يجب أن يدخل منذ البداية. لم يكن ينبغي له أن يكون جبانًا. فهذا ليس طبعه. لم يتصرف يومًا بهذه الطريقة من قبل، ولكن ربما – وهو يتمنى هذا بشدة – كان مبالغًا في تقدير الأمور. ولكن إذا كان هناك شيء فظيع قد حدث بالفعل، وإذا كان "فيكتور هوب" قد تجاوز كل الحدود هذه المرة، فسيكون على "ريكس كريمر" أن يتقبل المسؤولية.

غادر "كولون" بهذه الأفكار في العاشرة من صباح الأحد. بكل عزم. وكل تصميم. ولكنه وهو يقود سيارته عبر طريق "ديس تروا برونيس" بعد ساعة، يشعر وكأن كل هذا قد تبخر، ولم يبقَ في نفسه سوى القلق.

دخل القرية وأجراس الكنيسة تدق. شاهد عددًا قليل من الناس يعبرون الشارع على عجل متجهين إلى الكنيسة، حيث كان قداس الأحد على وشك أن يبدأ. قاد السيارة ببطء شديد، وتوقف عند منزل "فيكتور هوب" بعد أن عبر الجميع الشارع.

ترجَّل من السيارة، فتفاجأ بشدة الحرارة خارجها. كانت هناك عاصفة رعدية متوقعة، لتكون إيذانًا بانتهاء موجة حارة استمرت لبضعة أيام. شعر بالعرق ينتشر في أنحاء جسده.

مسح جبينه وبدأ يسير نحو البوابة. ولكن قبل أن يتمكن من الوصول إليها، انفتح الباب الأمامي وخرج "فيكتور". توقف "ريكس" وأخذ نفسًا عميقًا. لم يكن متأكدًا مما إذا كان الدكتور قد قصد الخروج له لتحيته، أو إذا كان خروجه بالصدفة في نفس اللحظة.

غير أن "فيكتور هوب" بادره:

- كنت أتوقع قدومك.

فتح الدكتور البوابة على مصراعيها. ولاحظ "ريكس" أن هناك تغييرًا في مظهر زميله السابق. شعره وذقنه. ما لفت انتباهه أكثر هو شعره الأحمر غير المصفف. والذي يكاد يلامس كتفيه.

- أعرف سبب حضورك. جئت لتخونني.

- ماذا؟

حدَّق "ريكس" فيه مندهشًا، ولكن الدكتور تجنب نظراته.

- جئت لتخونني. سوف تعود بجلبة كبيرة من حولك ومن ثم تخونني.

لم يكن هناك أي كره في صوته، ولكنه "ريكس" شعر بتصاعد التوتر. لدى "فيكتور" دائمًا طريقته الخاصة، ولكن الطريقة التي يقف بها، متمايلًا قليلًا، محني الرأس، ويد تضغط على نقطة ما من خاصرته، بينما تشوح اليد الأخرى في الهواء – لم يسبق لـ"ريكس" أن رآه يتصرف بهذه الطريقة من قبل.

- إنهم لا يفهمونني. لا يصدقونني. هل لا تزال تصدقني؟

وجد "ريكس" أن أفضل رد هو عدم الرد. فهو لا يريد استثارته. ولكن "فيكتور" لم يكن لينتظر الرد. واستمر في الكلام بنبرة باردة:

- عليهم ألا يسدوا الطريق أمامي. يجب عليهم ذلك. فلو فعلوها، فلن أتمكن من إتمام مهمتي. أنا صاحب رسالة.

- "فيكتور".. ربما..

لوَّح "فيكتور" بذراعه في الهواء، قبل أن يشير بإصبعه تجاه "ريكس" في مرارة. ويصيح فيه:

- لسوف تخونني! أنت من ستخونني! ولكنني أعرف كيف أتعامل مع من يفكر في خيانتي، وأجعله يتمنى لو أنه لم يولد من الأصل. ولسوف تشنق، ألا تعرف هذا؟ لسوف تشنق على فعلتك هذه!

ارتبك "ريكس"، وتراجع للوراء. ولثانية واحدة، التقت عيناه بعيني "فيكتور". كانت نظراته خاوية، مثل نظرة أعمى. تراجع "ريكس" للوراء أكثر. وأمسك "فيكتور" بأسفل قميصه الذي يرتديه.

قال له وهو يجذب طرف القميص خارج سرواله، ويرفعه لأعلى، حتى ظهر بطنه الأبيض الشاحب:

- أنت لا تصدقني، لا تصدقني! ما زلت لا تصدقني!

هز "ريكس" رأسه غير مصدق لما يسمع.

- أتريد أن ترى؟ حتى تصدق؟

رفع قميصه أكثر. كان هناك جرح في جانبه عرضه عشرة سنتيمترات.

- أتريد أن تلمسه؟ حتى تصدق؟

وجد "فيكتور" يضع يده عند الجرح، قبل أن يدس إصبعين، ثم ثلاثًا، داخل الجرح. وبدأ يجذب أصابعه.. كلا.. إنه يزيد من اتساعه.

تحاشى النظر إليه، وحاول التراجع أكثر من ذلك، محاولًا ألا يلفت انتباهه إلى ذلك. بدأ يشعر بالغثيان فعلًا وبدأ رأسه يدور. استدار على عقبيه واندفع راكضًا إلى سيارته. فتح الباب بكل قوة، ودخل إليها وأدار المحرك. ألقى نظرة ليتأكد من أنه لا يتبعه، ولكن "فيكتور" كان لا يزال واقفًا عند البوابة، ولا تزال أصابعه في عمق الجرح.

أوقف السيارة عند نقطة الحدود الثلاثية، بعدما غلبه الغثيان.

الصوت. الكلمات. الجرح. الأصابع داخل ذاك الجرح. وفوق كل ذلك، تلك الحرارة الخانقة. والغثيان. لم يعد "ريكس" يحتمل. أوقف السيارة وخرج. وتقيأ. وذهب عنه الغثيان تدريجيًّا. لكن صوت "فيكتور" لم يتوقف في أذنيه.

"جئت لتخونني. سوف تعود بجلبة كبيرة من حولك ومن ثم تخونني".

مجنون. لا يدري "ريكس" من أين أتى "فيكتور" بتلك الفكرة، أو كيف أقنع بها نفسه.

لسوف تشنق على فعلتك هذه!

كان هذا التهديد هو الأكثر مدعاة للقلق. فكلما فكر فيها أكثر، زاد شعوره بأن تلك الكلمات حبل مشنقة حقيقي حول عنقه. لقد فسرها بأن "فيكتور" لن يتورع عن توريطه معه. سيحاول "فيكتور" نفي مسؤوليته عن كل ما جرى، ويرمي بها على "ريكس". سيقول إن "ريكس كريمر" كان يعرف بما كان يقوم به ولم يحاول منعه. بل شجعه. وإلى جانب ذلك، سيقول إن "ريكس" هو من أدار الأمر كله، منذ 9 أبريل 1979. وسيقدم لهم الدليل. خطابه بالأبيض والأسود، مؤرخًا، وبخط يده:

"لقد هزمت الرب في ملعبه".

عذبته تلك الأفكار، فتمشى محاولًا الابتعاد عنها حول قمة جبل "فالسيربيرخ". مشي إلى الحدود الثلاثة. ثم إلى أعلى نقطة في هولندا. وعاد إلى الحدود الثلاثة. دار حول العلامة. هولندا. ألمانيا. بلجيكا. في أي مكان فيها يمكنه أن يجد سلامه النفسي.

وأخيرًا، اتجه إلى موقع البناء المسيج. وأطل إلى أسفل. بالكاد يلمح القاع، الذي لا يقل عمقه عن عشرة أمتار. وخيل إليه أن الأعمدة الإسمنتية الأربعة ذات الأسياخ المعدنية تبرز صعودًا من قلب الأرض بقوة شيطانية، كما لو كانت تحاول الإمساك بشيء. وقف هناك لعدة دقائق يحدق في الحفرة، وأصابعه تتمسك بالسياج المعدني.

سمع أحدهم يصيح فيه:

- لا تقفز.. سيدي!

فزع، وهو يتلفت حوله. وجد رجل يمشي مارًّا عليه، وهو يضحك.

حرره صوت الرجل من أسر خيالاته. هو بالطبع لن يقفز. ولم يفكر قط في ذلك. كل ما كان يفكر فيه هو ما عليه القيام به بعد ذلك. وما إذا كان يجب عليه العودة إلى دياره، والانتظار من دون أي فعل من جانبه - كما هي عادته. الانتظار بصبر - ولكن هذه المرة ستكون حتى يأتوا إليه. وحتى لو أنكر كل شيء ألف مرة، فإنهم لن يصدقوه. وهو نفسه يعرف أن أحدًا لن يصدقه. وسوف يساء فهمه. تمامًا كما جرى مع "فيكتور".

أم أن عليه العودة إلى "فولفهايم"؟ هل عليه أن يحاول مرة أخرى أن يعيد إلى "فيكتور" رشده؟ ربما لم تكن المرة الأولى فظيعة إلى ذاك الحد. وربما الشيء الذي يخشاه لم يحدث بعد في الواقع.

غادر موقع البناء ومشي إلى سيارته. كان عليه أن يفعل شيئًا. الانتظار لم يعد خيارًا. عليه أن يحاول إقناع "فيكتور" بطلب المساعدة، وعليه معرفة حالة الأطفال. لا يمكنه أن يتركهم لمصيرهم وحسب.

هكذا حاول "ريكس" استعادة تماسكه، ورفع معنوياته وحشد كل شجاعته، وهو ينطلق بالسيارة ببطء عائدًا إلى الطريق "ديس تروا بورنيس"، بالأسفل، ثم تحت الجسر، وإلى القرية، وصولًا إلى المنزل.

البوابة لا تزال مفتوحة، والباب الأمامي أيضًا. ولكن "فيكتور" ليس هناك. ترجل "ريكس" وهو ينظر حوله. ساحة القرية مهجورة. الأرصفة فارغة. رمق ساعته، الثانية عشرة والربع ظهرًا.

الجو ما زال حارًّا. ولكن الغيوم بدأت تتشكل، وتعتم الشمس، ولكن هذا أسهم في زيادة كآبة الجو.

سوف تعود بجلبة كبيرة من حولك ومن ثم تخونني

لقد عاد بالفعل؛ كان "فيكتور" محقًّا في هذا. ولكنه وحده. من دون جلبة. ولم يأت ليخونه. بل ليساعده.

مشي محاذرًا نحو الباب الأمامي، ودخل. كانت الرائحة نتنة إلى أبعد الحدود. تكاد تخنقه. وضع يده بقوة على أنفه وفمه، وأخذ ينظر حوله. لا أحد في الردهة الأمامية ولكن أحد أبوابها مفتوح، باب المكتب.

بخلاف الرائحة، هناك الذباب – في كل مكان. ذباب أزرق. بالمكان شيء عفن. وفيه يضع الذباب بيضه، خصوصًا في اللحم المتعفن، حتى يجد الذباب الصغير ما يأكله عندما يفقس البيض. خطرت له الفكرة سريعًا وهو يدخل إلى المكتب. وجد المكتب فارغًا أيضًا. ومن خلف المكتب باب مفتوح، وكأنه يدعوه للدخول. ربما كان فخًا.

مشى نحو الباب الثاني، ويده على أنفه، والأخرى تهش أسراب الذباب التي تكاثرت حول رأسه. ظن لجزء من الثانية أنه سيجد "فيكتور" في الغرفة. على قيد الحياة، أو ميتًا. ويا ليته يجده ميتًا.

لكن "فيكتور" لم يكن هناك. ومع ذلك فكأنه هناك. ثلاث نسخ منه. V1, V2, V3 ، تلك كانت أسماء الأوعية الزجاجية الثلاثة.

لم تعد هيئتهم هيئة أطفال أبدًا. تبين له ذلك لما اقترب. وكأنهم عادوا إلى المرحلة الجنينية. هزيلين جدًا. ضعفاء جدًا. صلع جدًا. مثل أجنَّة في رحم أم. وكأن "فيكتور" تركهم ليبتبسوا في هذا الوضع، قبل أن يحفظهم في الفورمالديهايد.

يا لها من صدمة، تزايدت وتنامت لما قرأ التواريخ المدونة على الملصقات. ثلاثة تواريخ مختلفة: 13 مايو 1989. 17 مايو 1989. 16 مايو 1989.

لقد تأخَّر جدًّا.

عاوده الشعور بالغثيان. ولكنه شعر في الوقت نفسه بالرغبة في تحطيم تلك الأوعية الزجاجية. ليس ليحرر الأطفال منها، ولكن ليدمرها. ليمحو الأذى والعار. ليمحو أي أثر لهما. وبسرعة. تقدَّم خطوة إلى الأمام، ومد يديه.

وعندئذٍ.. لمحها.

راقدة على الأرض، يختفي نصف جسدها تحت الترابيزة. وعندما تقدَّم منها، أفزعت حركته الذباب الذي كان يحط على جثتها، وداخلها، فطار بالآلاف، وكأنه رفع الغطاء عنه. الجثة على ظهرها، ورغم أنه لم يتذكر وجهها بوضوح، فهو لم يرها إلا مرة واحدة، فإنه عرف أنها هي. عارية حتى خصرها، ورغم أن هناك جرحًا آخر أكبر بكثير، إلا أن أول جرح لفت انتباهه هو الأصغر. انتقلت عيناه من وجهها إلى صدرها، حيث الجرح، لا يتجاوز طوله طول إصبع، ولكنه دقيق، صنعة جراح، يعرف ما يفعله، ففي تلك البقعة تحديدًا، إلى جوار عظمة القص، كانت الطعنة المميتة. لا بد أنها ماتت في غضون ثوانٍ. وعندئذٍ أدرك أن الجرح الأكبر كان في وقت لاحق. كان خط الجرح يكاد يكون فوق ندبة قديمة، وبكل دقة. أدرك من فوره أن "فيكتور" قد استأصل شيئًا من بطنها – نفس الشيء الذي حل الذباب الأزرق محله بالألوف، ليضع بيضه داخل الرحم المتعفن ليفقس ذباب جديد.

فهم "ريكس" كل شيء في ثلاث ثوانٍ. وخلال تلك الثواني القليلة شعر وكأن الأرض تنشق لتبتلعه في سعيرها. أراد أن يصرخ، ولكنه عجز عن ذلك، لأن الغثيان تغلَّب عليه. شعر بنار في معدته، وكأنها بدورها عش لآلاف الذباب الذي يحاول الفكاك منها.

تقيأ لثاني مرة في ذلك اليوم. وأخذ يصيح ويصيح.. لأول مرة منذ سنوات. شعر وكأنه يخضع لتجربة مجنونة، وقد أدرك لتوه أن التجربة قد انتهت. وكأنه هو من اقترف كل هذا. الأطفال في الأوعية. المرأة على الأرض. هو من فعلها. لم يفكر في "فيكتور هوب" ولو لحظة. لم يكن يرى في كل هذا إلا فعلته. وكأنه مصمم على أن يعاقب نفسه. وبينما ينظر، وهو ينتحب مثل طفل، خطر له أنه ينظر إلى مشهد لا بد ألا يراه أحد غيره. وأن السبيل الوحيد للفكاك من كل هذا هو محو كل شيء تمامًا. تمامًا.

فعل ما كان يريد القيام به منذ البداية. فك غطاء الوعاء الأول وسكب محتوياته. فوق المرأة. كله. الفورمالديهايد، ومع انسكاب الفورمالديهايد على الجثة طار الذباب في كتلة من الطنين الأسود، ولكنه سرعان ما استقر ثانية، مدفوعًا بتلك الرغبة الغريزية في التكاثر.

هو بدوره لديه دافع غريزي. ويفعل هذا من أجل البقاء. كان واعيًا لذلك؛ وفي الوقت نفسه يفتقر لكامل وعيه. أقدم على كل شيء فعله متعمدًا، ولكنه نفذه من دون وعي.

أفرغ محتويات الوعاء الثاني والثالث. هكذا أعاد الأطفال إلى الرحم، مثل أجنَّة. ادخر بعض الفورمالديهايد في الوعاء الثالث، واستخدمه كخيط سائل حتى باب الغرفة. عاد ومعه بعض المواد الكيميائية، التي رشها في جميع أنحاء الغرفة. كان يعرف أن تلك الكمية من المواد الكيميائية، بهذا المزيج، أكثر من كافية لمحو كل أثر من على وجه الأرض.

لم يفكر طوال كل هذا الوقت في "فيكتور" أو في مكانه. لم يعد هذا يهم.

ولم يفكر فيه، وهو يقدم على فعلته الأخيرة، كي يمحو كل أثر ويحرقه. لم يفكر إلا في نفسه.. كعادته.

دومًا.

11

راحت أيام كان فيها أهل "فولفهايم" يحجون إلى "لا شابيل" مشيًا على الأقدام. أمَّا هذه الأيام، فحتى تمثال القديسة "ريتا" الثقيل، والذي كان يحمله ستة رجال ذوي قوة على أكتافهم، يبقى في الكنيسة من دون حراك، والفرقة الموسيقية، التي كانت تتكون من عشرين موسيقيًا معهم عشرون آلة، تقلصت إلى مجرد طبلة وزمارة. ولكن التقليد السنوي الوحيد الذي حافظوا عليه كان اختيار لجنة الأبرشية لشخص يستحق أن يحمل راية الكنيسة خلال المرور على محطات الصليب. ونال "لوثر ويبر" هذا الشرف في ذاك الأحد، 21 مايو 1989. وقد اختاروه لأن الناس تشعر أنه بحاجة إلى ما يبث فيه الروح بعد فقدانه لابنه. وهو رفض ذلك في البداية، لكونه لم يفعل ما يستحق عليه نيل هذا الشرف، ولكن كان لزوجته رأي آخر:

- "لوثر".. افعلها وحسب. سيكون "جونتر" فخورًا بك.

هكذا فعلها لأجل "جونتر"؛ مع أن "لوثر" - والحق يقال -يحب ألا يكون محط أنظار الناس.

قاموا في البداية، في الحادية عشرة صباحًا، بالاحتفاء بالقداس الإلهي. وسأل الأب "كايزرجربر" سانت "ريتا" رعاية القرية وسكانها خلال العام المقبل، وحمايتها من المصائب التي أحاقت ببعض من سكانها خلال الأشهر القليلة التي مضت. لم يذكر القس أي أسماء، ولكن "لوثر" أدرك أنه يقصد عائلته، وغيرها. فأمسك بيد "فيرا"، وأبقاها في يده طيلة القداس.

بعد القداس توجهوا بالاتوبيسات إلى "لا شابيل" في موكب طويل. خرج تقريبًا كل الحضور في "فولفهايم"؛ قرابة المائتين، ولما تجمعوا عند بوابة "كالفاري"، قصد

الناس "لوثر" وشجعوه وتمنوا له حظًا سعيدًا. وهو الأمر الذي أهاج مشاعره إلى حد بعيد في الواقع.

وفي تمام الثانية عشرة، كان الكل في مكانه تمهيدًا لبدء الحج. في المقدمة الأب "كايزرجربر"، يحمل الصليب الفضي الكبير، ومن خلفه "لوثر ويبر" ومعه راية الكنيسة، مطرز عليها اسم قريتهم وصورة تشبه سانت "ريتا". وبعدهما "جيكوب فاينشتاين" و"فلوران كونينج"، يحملان شموع النذر. وشكَّل بقية أهل القرية طابورين طويلين، بحيث يكون الأكبر سنًا في المقدمة. وكان "جوزيف زيمرمان" وآخرون مسنون في كراسي متحركة. وخلف كل هذا وذاك فرقة موسيقية من فردين: "جاك ميكرز" على الزمارة، و"رينيه مورسنيت" على الطبلة.

شعر "لوثر" بقشعريرة تسري في عموده الفقري والأب "كايزرجربر" يرفع الصليب في الهواء، والذي كان علامة على بدء تحرك الموكب. وفي المؤخرة بدأ "جاك ميكرز" و"رينيه مورسنيت" يعزفون نشيد (لقد دعوتنا يا رب)، بينما بدأ بقية الموكب يشدو (أبانا). وربما خيل لأي سامع لا يرى هذا العدد الكبير أن كل تلك من الأصوات هي أزيز سرب من النحل.

حر قائظ بعد ظهر ذلك اليوم، ولكن الشمس كانت مختبئة بالفعل وراء الغيوم التي تسد الأفق. وكانت توقعات الطقس تنبه إلى عاصفة رعدية قبل حلول الظلام.

عندما وصل الموكب إلى المحطة الأولى، "يسوع المحكوم عليه بالإعدام!"، بدأت حبَّات العرق تقطر على وجه "لوثر". كانت الراية أثقل مما توقع، وكانت البدلة التي ارتداها لا تناسب أبدًا هذا الطقس الحار. لكنه لم يكن يملك سواها. وهي نفسها التي كان يرتديها في جنازة "جونتر".

قال الأب "كايزرجربر" بعد أن توقفت الموسيقى:

- نقدسك يا "يسوع"، ونثني عليك الثناء الحسن.

ردد الجمع من ورائه:

- فبالصليب المقدس خلصت العالم.

وبدأ القس يتلو من كتاب صلوات:

- يا "يسوع"، أعلم أن ليس "بيلاطس النبطي"، الحاكم الروماني لمقاطعة "أيوديا"، وحده الذي حكم عليك بالموت، ولكن آثامي أيضًا كانت سببًا في موتك...

وجالت أفكار "لوثر". فكَّر في ابنه "جونتر"، وكذلك في ابنه الآخر، الذي سيأتي، والذي من المفترض أن يشبه "جونتر". لا تزال شكوكه قائمة. وكما كان الحال في الأشهر القليلة الماضية، لم يكن قادرًا على التأقلم مع حقيقة أنه لم يعد الأب، وهو الآن عاجز عن الاقتناع بأنه سيكون عما قريب أبًا مرة أخرى. زوجته تشعر بالعلامات بالفعل. رآها تمر بيدها على بطنها عندما كانت تبدل ملابسها، بنفس الطريقة التي كانت تفعلها وقت أن كانت حاملًا في "جونتر". ووفقًا للدكتور "هوب"، فإن الأجنَّة التي تم نقلها في صباح ذلك اليوم لا تزال بحاجة الى زرع نفسها في الرحم من أجل حدوث الحمل، ولكن "لوثر" كان شبه متأكد من أن الحمل قد حدث بالفعل. ربما اثنان توأم، أو ثلاثة توائم. ولكن تلك الأفكار لم تنمِّ فيه أي شعور بالأبوة. ولكنها مشاعر ستأتي. كما كان يأمل.

أخرج إيقاع الطبلة الرتيب حامل الراية من تأملاته. وبدأ الموكب يتحرك من جديد. كان سكان القرية قد بدأوا بالفعل في الهمهمة بالنشيد مرة أخرى. ونظر "لوثر" إلى السماء، حيث تتراكم الغيوم الرمادية. يبدو وكأن العاصفة الرعدية لن تنتظر حلول الظلام.

في المحطة الثامنة، "يسوع يسري عن المرأة الباكية"، رأى زوجته. كان قد حاول أن يجدها وسط الحشد عدة مرات من قبل، ولكن من دون جدوى. كانت تحدق حالمة في الفضاء، ومرة أخرى رآها تضع يدها على بطنها. أوه نعم، إنها حامل بالفعل.

"امنحني القوة حتى أنسى الأسى والحزن، وأسري عن الآخرين".

أعجبته الجملة، ولما تصادف أن زوجته تنظر ناحيته في نفس اللحظة شعر بقشعريرة جديدة، هي الثانية في تلك الظهيرة. ابتسم لها، فابتسمت له. أومأت له، وكأنها تشجعه، وهو ما منحه القوة ليسير في فخر، وظهره منتصب وأنفه في السماء، وكأن راية الكنيسة قد أضحت في خفة الريشة.

بعد ذلك بخمس وأربعين دقيقة، وصل الموكب إلى المحطة الحادية عشرة: "يسوع مصلوب". حدَّق "لوثر" في النحت البارز. وعلى الرغم من أن الشخوص منحوتة من الحجر الأبيض وأنها كانت صغيرة نسبيا، فإنها بدت نابضة بالحياة جدًا. كما لو أنها تأخذ قسطًا من الراحة فحسب، قبل أن تعود إلى شؤونها. تلك المشاعر على الوجوه،

حقيقية بشكل لافت. عجرفة القضاة، وحزن المرأة، وطاعة العمَّال شاهري المطارق، وأخيرًا، يسوع نفسه، الذي استسلم للصلب.

تحملت تلك المعاناة في صبر وأناة.

حاول "لوثر" أن يعثر على زوجته مرة أخرى، ولكنه لم يلمحها هذه المرة. لسوف يراها في وقت لاحق، عندما يصلون إلى الساحة أمام المحطة الثانية عشرة. تلك دائمًا لحظة رائعة - ليس فقط لأنها تدل على قرب انتهاء الموكب، ولكن أيضًا لأن المشهد مثير للإعجاب، في كل مرة. فبعد المشي في أحد عشرة محطة على طول مسار ضيق متعرج، تطوقه الأشجار الشاهقة، تجد نفسك فجأة وسط مساحة هائلة مفتوحة على مصراعيها. وكأن السماوات انفتحت لتفسح المجال لأعمدة الضياء المنهمرة. كما أن "لوثر" معجب جدًّا بتماثيل المحطة الثانية عشرة المذهلة. سبعة شخوص بالحجم الطبيعي على التل، و"يسوع" على الصليب وسطهم، والقاتلان على يمينه ويساره. تماثيل نابضة بالحياة. حقيقية وكأنها من لحم ودم. بدت حقيقية حتى أنه كان يجد نفسه دائمًا يتساءل عن المدة التي يمكنها خلالها البقاء على تلك الحال عند ذلك الصليب.

"نقدسك يا "يسوع"، ونثني عليك الثناء الحسن".

كانت صلاة المحطة الحادية عشرة توشك على الانتهاء.

"فبالصليب المقدس خلصت العالم".

عاد الموكب للمسير مجددًا. وعزف العازفان (أيها الرب، امنحنا السلام). أخذ "لوثر" نفسًا عميقًا، ورفع الراية عاليًا في السماء. ألقى نظرة سريعة خلفه، فلمح "فلورنت كونينج"، الذي حيَّاه. شجعه الصنايعي بحرارة. ولأول مرة في حياته، شعر "لوثر" أن له ظهرًا يستند إليه بالفعل، وهم كل هؤلاء.

كان يسير خلف الأب "كايزرجربر" مباشرة، وانعطف في آخر انعطافة، ليجد نفسه فجأة وسط الساحة الكبيرة. على أن الضوء المبهر الذي كان يتوقعه تأثر كثيرًا بغمامة سوداء كبيرة تحجب الشمس. ولكن خيبة الأمل الثانية، وربما الأكبر، أصابته لما رفع عينيه لينظر إلى التل، حيث تماثيل المحطة الثانية عشرة. لقد اختفى تمثالان! لاحظ هذا على الفور، لأنهما تمثالا القتلة. اختفيا، ولم يعودا مسمرين إلى الصليب؛ وبقي "يسوع"

وحده. نظر "لوثر" وراءه إلى "فلورنت"، الذي شحب وجهه حتى صار ينافس بياض لون تمثال "يسوع" على الصليب. عاد ينظر للأمام وهو يمشي، وسمع فجأة غمزًا ولمزًا من ورائه، وسرعان ما تبع ذلك صيحات مذهولة. صيحات النساء، على وجه الخصوص. ثم صراخ. عندئذٍ رأى كل شيء بنفسه، وكأنما أصابته صاعقة. فقد سمع الجميع ذلك. وفي تلك اللحظة بالذات، بدأت تهطل قطرات المطر.. كبيرة ثقيلة.

لكن الأب "كايزرجربر" كان يعرف أن تماثيل "يسوع" والقاتلين لن تعرض على صلبانها هذا العام. فقد كانت التماثيل المصنوعة من الحجر الرملي مسامية وتنذر بالانهيار في أي وقت. لهذا السبب طلبت الأخوات "كلير" إنزالها وكلفت نحاتًا من "لا شابيل" بصنع ثلاثة تماثيل جديدة، من البرونز هذه المرة. أما الشخوص الأربعة المتبقية من الحجر الرملي، عند أسفل الصليب، فكانت لا تزال في مكانها: "مريم"، و"مريم المجدلية"، و"يوحنا"، و"الجندي الروماني". ولكنه لم يكن يعلم أن أحد تلك التماثيل قد أنجز بالفعل، بل ووضع في مكانه أيضًا. كان هذا أول شيء رآه عندما وصل، وهو على رأس الموكب، إلى الساحة أمام مغارة المحطة الثانية عشرة. كان نحتًا غير عادي إلى حد ما - نابض بالحياة بشكل مدهش. ولكنه لم يكن مصنوعًا من البرونز. فلو كان، لكان بمزيج من الأخضر والبني. لا بد أن هذا التمثال من الحجر الرملي مرة أخرى. فذلك الشحوب واضح بشكل قوي أسفل الغيوم السوداء التي تجمعت فوق التل. كان مشهدًا مهيبًا بالفعل.

وببطء، تقدم الأب "كايزرجربر" عدة خطوات إلى الأمام. إنه واقعي جدًّا! يبدو أن النحات أبدع للغاية حتى يصنع "يسوع" بهذه الدرجة من الحياة. وانبهر أكثر لما شاهد دقة تصوير الجرح الذي في جانب "يسوع"، حيث طعنة رمح الجندي الروماني. بدا حقيقيًّا مثل جرح غائر. استخدم النحات الطلاء الأحمر لتعزيز تأثير. بنفس درجة الأحمر في جروح البشر، في المواضع التي تسمرت فيها اليدان والقدمان على الصليب. وصنع النحات شعر "يسوع" ولحيته تقريبًا بنفس درجة اللون الأحمر، ولكن أخف قليلًا. كان ذلك مثيرًا للدهشة. منتهى الصنعة الفنية - ولكن ما هي إلا جزء من الثانية، حتى بدأت الحقيقة تتضح له. رفض أن يصدقها في البداية، على الرغم من أنه كان يراها بأم عينيه. ولكن بعدما سمع الهمهمات والصيحات والصراخ من ورائه، وعندما لمح تلك

الرأس المصلوبة ترتفع وتلك العينين المفتوحة لثانية واحدة، لتنظر إليه، بل لتنظر من خلاله. ولما سمع ذلك الصوت، الذي لا يمكن أن تخطئه أذن في القرية:

- لقد اكتمل!

شعر الأب "كايزرجربر" كما لو أن شخصًا قد طعنه بحربة، ليس طعنة واحدة.. بل ألف طعنة. ولكن الأسوأ لم يأتِ بعد. فقد انحنت تلك الرأس التي على الصليب لأسفل، ومعها مال الجسد كله إلى الأمام، أكثر وأكثر. حتى بدأت اليدان في التحرر من المسامير، ببطء شديد، عصب فعصب، وعظم تلو الآخر، وما أن تحررت اليدان، حتى حدث كل شيء بسرعة كبيرة. تقوس الجسد في سلاسة. وتخلصت القدمان من المسامير التي تقيدها، ولم يبق شيء يتعلق به الجسد هناك في الأعلى. تدحرج الجسد في سرعة على امتداد التل، ليهبط بارتطام قوي مسموع، بين السور ومغارة المحراب.

شعر الأب "كايزرجربر" بالدنيا تغيم أمام عينيه. وشعر بالدوار. ونظر وراءه، ليرى الموكب يتشتت: وأغشي على سيدتين. من بينهما "فيرا" و"يبر". ثم اندلعت العاصفة الرعدية في السماء. فأيقن أن الأسوأ لم يأت بعد.

كل أهالي "فولفهايم" مقتنعون بأن تلك المرأة هي من فعلت ذلك - هي وحدها المسؤولة. خدرت الدكتور "هوب" وثبتت جسده بالمسامير على الصليب. والقيام بذلك يحتاج قوة غاشمة، بطبيعة الحال، ولكنها ذات بنية قوية. أي شخص رآها يؤكد ذلك. ولكن لا بد من أنها قد قتلت الأطفال أولًا - أو ربما قتلتهم بعدها. أيًا كان، ولكنها بعد أن ثبتت الدكتور إلى الصليب، عادت إلى المنزل، وأشعلت ذلك الحريق، ثم انتحرت. وهكذا، خدَّرت الدكتور، ثم خدَّرت الأطفال أو قتلتهم، ثم مسمرت الدكتور على الصليب، ثم عادت لتشعل النار في المنزل، وتنتحر. بهذا الترتيب. لا بد أن هذا هو ما حدث. هذا ما توحد سكان القرية على إبلاغ الشرطة به. كانت المرأة مسؤولة عن كل شيء جرى.

ولكن، شيئًا فشيئًا بدأت هذه النظرية تختل، ثم تنهار. فقد اكتشف الطبيب الشرعي أسرارًا جديدة. حيث إن المرأة كانت ميتة بالفعل منذ عدة أيام وقبل حتى أن يندلع الحريق. ثم وجد أن الأطفال بدورهم كانوا ميتين فعلًا من قبله. ولا بد أنهم وقت موتهم لم يكن وزنهم شيئًا يذكر. ولكن أهل القرية رفضوا تصديق ذلك. فلم تكن الجثث سوى

رماد. فكيف يمكن للسلطات معرفة وقت موت المرأة والأطفال؟ ربما كان هناك من يساعدها. ودعت تلك الشكوك إلى إجراء مزيد من التحقيقات.

في وقت لاحق، عرف أهل القرية أن على المطرقة التي وجدت بجوار الصليب بصمات الدكتور، ولكن ذلك الدليل أيضًا كان محل رفض الكل؛ وهم مصرون على أن في الأمر خدعة. وأن الجاني الحقيقي هو من ضغط بأصابع الدكتور على المطرقة.

سبق لرواد مقهى "تيرمينوس" أن فكروا في إمكانية أن يقوم الدكتور بمسمرة نفسه على الصليب. ولكن ذلك النقاش تلاشى بسرعة، لأنه لم يمكن لأحد أن يتصور كيف يمكن أن يتم ذلك، من الناحية العملية. فقد علق "رينيه مورسنيت":

- لا بد للمرء أن يمتلك ثلاثة أذرع ليفعلها.

لذلك كانت مهمة مستحيلة في نظرهم. وهذا ما أجمع الكل عليه. إلا رجلًا واحدًا. ولكنه لم ينضم إلى المناقشة. فقد بقي "فلورنت كونينج" ساكتًا وتعمد ألا يعلق – وكان هذا في جانب منه احترامًا للدكتور، ولكن بالأساس لأنه شعر أنه وبدرجة ما.. مذنب. كان من الممكن أن يدرك هذا، ولكنه لم ينتبه إلى أي شيء في ذلك الوقت. حتى إنه ذهل من نفسه. والآن صار متيقنًا من كل شيء.

***

كان "فيكتور هوب" قد فكر في خطته تفكيرًا طويلًا وشاقًّا. مسألة تضحيته بنفسه صارت بديهية. وكذلك مسألة موته على الصليب. فلا بد للشر أن ينهزم، إلا أنه من اللازم التخلص أولًا من ضرر ذلك الشر. لا بد من تطهير جميع الخطايا. لهذا فكر في الانتحار، وفي نفس الوقت أن تكون نهاية حياته تلك هي الخلاص. لأجل البشرية. ولسوف ينهض من بين الموتى بعدها. يبعث من جديد. سوف يعمل على ذلك. ولكنه لن يكون قادرًا على إنجاز ذلك في غضون ثلاثة أيام، بطبيعة الحال، ولكنه بالتأكيد سيفعلها. وقد حرص على ذلك.

ولكن.. كيف سيتسنى له أن يموت على الصليب؟ كيف يفعل ذلك؟ فكر مليًّا، حتى واتته فكرة فجأة. فقصد بيت "فلورنت كونينج".

- مطرقة وثلاثة مسامير. أريد مطرقة قوية وثلاثة مسامير طويلة.

- ألديك شيء ثقيل تود تعليقه. لو رغبت فيمكنني أن أساعدك.. كما تعلم.

- أشكرك.. ولكني سأتدبر أمر ذلك بنفسي.

أعطاه الصنايعي ما يريد، وشكره "فيكتور"، مؤكدًا له أن هذا سيغفر له كل خطاياه.

كان يعرف أن القرية كلها ستذهب إلى "كالفاري" بعد ظهر ذلك اليوم. واعتبر هذا علامة. أنهم كانوا في طريقهم إلى هناك لرؤيته، لذلك لا بد له من الوصول إلى هناك في الوقت المحدد. ولكنه فوجئ بحضور "ريكس كريمر". "كريمر" سيخونه. وكانت تلك أيضًا علامة. أن ما يوشك "فيكتور هوب" على القيام به هو الشيء الصحيح. وأن فيه الخير.

وما إن رحل "كريمر"، حتى بدأ "فيكتور" في تنفيذ خطته. استغرق الأمر منه ثلاثة أرباع الساعة للوصول إلى "كالفاري" سيرًا على الأقدام. والمطرقة الثقيلة في يده. تعثر وسقط عدة مرات، ولكنه كان دائمًا ما يعود للوقوف ثانيةً.

كان مدخل "كالفاري هيل" مغلقًا ولكنه ليس موصدًا. فمشي في الطريق المتعرج عبر أحد عشر كهفًا هي محطات الصليب حتى وصل إلى المحطة الثانية عشرة.

لاحظ أن تمثال "يسوع" لم يعد هناك! ومجددًا.. اعتبر ذلك علامة. الصليب في انتظاره إذن. في انتظاره وحده.

صعد في التل، متخذًا نفس الطريق الذي مشي فيه وهو صبي، منذ سنوات بعيدة مضت. أدرك الآن أن مصيره قد تحدد منذ أن كان صغيرًا.

ومرة أخرى، دخل الساحة من اليمين، ولكن هذه المرة لم يكن هناك أحد يتفرج عليه. ليس بعد. خلع ملابسه، ولم يترك سوى سرواله الداخلي. فتح الجرح في جانبه مرة أخرى بأصابعه. فبدأ ينزف. خير. خير.

ثم صعد إلى الصليب. ووجد أنه لو وقف على رؤوس الأصابع، فعندئذٍ سوف تصل ذراعاه إلى العارضة الأفقية. حجم الصليب مناسب له تمامًا. والتقط المطرقة والمسامير. للحظة تساءل عمَّا إذا كانت المسامير ستتحمل وزنه. ولكنها تحمَّلت المسيح.. ولذلك فهو ليس قلق أبدًا.

كان أعسر. لذلك قام أولًا بدق المسمار في العارضة اليسرى. كان يسمع صوت موسيقى يأتي من بعيد.

ثم جلس القرفصاء، ووضع يده اليسرى على الأرض. قبض على المطرقة بيمناه. والتقط المسمار الثاني، ودق المسمار عبر يسراه. كان الأمر سهلًا. شعر بالألم، ولكن هذا كله جزء من التضحية. فكان عليه أن يتحمل بصبر. سحب المسمار من يده، والتي أضحت مثقوبة الآن. نظر من خلال الثقب، ثم لف حوله ضمادة.

أسند ظهره إلى الصليب، وقدماه على الأرض. وقف على أطراف أصابعه، ووضع قدمًا على الأخرى، وهو ينحني إلى الأمام، واستخدام يسراه في الدق بمسمار آخر ليمر عبر كلتا قدميه. كان الألم مبرحًا، في يديه وقدميه. ولكنه عنيد.. مثابر.. صاحب رسالة.

انتصب جذعه مرة أخرى، ومد ذراعه اليمنى حتى كانت يده اليمنى في الطرف البعيد من العارضة. ثم دق مسمارًا فيها بيده الأخرى. ودق حتى اخترق المسمار عمق العارضة. كان الألم يتضاءل.

وبآخر ما فيه من جهد، قذف المطرقة نحو أشجار الصنوبر على التل. ثم مزق ضمادة يده اليسرى بأسنانه، ثم نظر مرة أخرى من خلال الثقب في يده، ثم علقها فوق المسمار الذي دقه في الصليب من قبل. دخل المسمار بسهولة من خلال الثقب.

صار الآن مصلوبًا.

ما عليه الآن إلا أن ينتظر اقتراب الموسيقى.. أكثر.. وأكثر.

يعرف أنه إذا انحنى إلى الأمام ورفع قدميه عن الأرض في اللحظة نفسها، فإن ساقيه ستتحرران وتنهار رئتيه. وقد حسب حساب هذا. كما حدد كلماته الأخيرة. ولم يكن قد فكر فيها طويلًا. لقد اختار آية من الإنجيل.. سفر يوحنا، الفصل 19، الآية 30.

عندئذٍ شاهد الموكب يقترب، وفي مقدمته الأب "كايزرجربر". هو أيضًا سيؤمن بالخير الذي يجسده "فيكتور". كله ثقة في ذلك.. وهو يحدِّق في القس..

والقس يحدِّق فيه بكل ذهول الدنيا.

12

- هنا تحديدًا.. عند نقطة الحدود الثلاثية؛ حيث لقي آخر ضحية مصرعه: "ريكس كريمر".. ألماني.

قالها "جاك ميكرز"، وهو يضع سبابته فوق خريطة تفصيلية لـ"فولفهايم":

- الحقيقة أن الحادث نفسه قد وقع بالفعل قبل وفاة الدكتور، ولكن الضحية لم يمت إلا في وقت لاحق من تلك الليلة، في المستشفى، في "آخن". وطبعًا لم نعرف بذلك إلا بعدها بأيام. لأن ما جرى هنا وفي "لا شابيل" غطى على كل شيء آخر، بطبيعة الحال. وعلى كل، فلا بد أن صاحبنا هذا كان يقود سيارته بسرعة جنونية. وهناك عدة شهود رأوا ذلك عيانًا. كان ينطلق بها بأقصى سرعة، من هذا الجانب من "فالسيربيرخ" وحتى الحدود، بينما كانت هناك أتوبيس قادم من "فالز". أطلق سائقها سارينة التنبيه عدة مرات، ولا بد أنه راوغ صاحبنا الألماني بطريقة دفعته إلى أن يحول عجلة القيادة بقوة إلى الاتجاه المعاكس. تجنب الاصطدام بالأتوبيس في اللحظة الأخيرة، ولكنه لم يستطع الابتعاد عن الحفرة، تلك الحفرة الكبيرة التي هي أساس البرج الجديد. فقد اخترق المسكين السور بسيارته وسقط فيها. واخترق أحد الأعمدة الإسمنتية الـ...

- كفاية.. "جاك". لقد حكيت لنا هذه الحكاية مئة مرة. وهذا حادث لا علاقة له ببقية ما جرى، أليس كذلك؟ مجرد صدفة.

أردف "ميكرز"، متجاهلًا ذلك التعليق:

- وانظروا هنا، لو أنكم رسمتم خطًا من هنا، عند منزل الدكتور، حيث كانت شجرة الجوز من قبل، وحتى الحدود الثلاثية، فسوف ترون كيف أن كل الكوارث تتفرع من تلك النقطة.

وكأنها جذور لتلك الشجرة.

***

في يوم السبت، 19 مايو 1990، كان الافتتاح الرسمي لبرج بودوين الجديد عند نقطة الحدود الثلاثية. وكان "لوثر" و"فيرا" من بين الحضور الكبير. ومعهما عربة تحمل طفلهما، الذي صار عمره في ذلك اليوم أربعة أشهر. كان ولدًا سمَّياه "إيزاك".

كانا سعيدين بخبر طيب، عرفاه منذ يومين. فقد أثبتت فحوصات المستشفى أن سمع "إيزاك" على ما يرام. وكان هذا خبرًا عظيمًا، وخاصة بعد تلك الصدمة التي أصابتهما يوم مولده. والتي ألجمتهما تمامًا.

كانت هذه هي أول مرة يظهران فيها أمام الناس ومعهما الولد. فلم يعد هناك سبب يمنعهما من ذلك الآن، بعد أن تمت العملية. قاما بعمل طيب للغاية. مثالي. مستعينين بأحدث التقنيات. لن تكون تلك الندبة ظاهرة أبدًا للعيان. صارت مجرد نقطة غير واضحة. وليس مثلما كانت عليه في البداية. ولن يعرف أحد ذلك السر.

عاين الكثير من أهل القرية الطفل في تلك الظهيرة، ولاحظوا جميعًا من دون تعليق ذلك التشوه البسيط. ولكن.. لا تعليق. فضَّل الكل تجاهل أمر الحمل والولادة. وغضوا الطرف عن كل الشكوك. تمامًا كما تجاهلوها طيلة الأشهر الأربعة الماضية. مع أنهم متيقنون من وقت ومكان حدوث ذلك الحمل. ففي ذلك اليوم في كالفاري.. ذلك اليوم الذي خافت فيه "فيرا" كما لم تخف من قبل. في تلك اللحظات تحديدًا.. أدركوا جميعًا أنها وببساطة.. كانت حاملًا فيه.

وقتذاك.

صدر في سلسلة #كتب_مختلفة:

1. أرامل ليلة الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
2. كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3. مشروع زوجة	جرايم سيمسيون	أستراليا
4. الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
5. شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
6. احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
7. لم يعد الحب مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
8. سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
9. السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
10. مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
11. صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
12. مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
13. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
14. أبسنت	أيفر تونش	تركيا
15. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
16. أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
17. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
18. امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
19. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
20. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
21. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
22. نساء اسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
23. توباز	هاكان جنيد	تركيا
24. لون الغواية	هاندي ألتاليلي	تركيا
25. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
26. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
27. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
28. كل هذا ملكي أنا	بيترا هولوفا	التشيك
29. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
30. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
31. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك

32. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
33. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
34. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
35. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
36. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
37. مصباح أبدي	يركسي هولمانبيك	الصين
38. رقصة الكاهنة	جين رينشوين	الصين
39. المغفل	إريك نويوف	فرنسا
40. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
41. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
42. القنّاص	بلايزماينفسكي	مقدونيا
43. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
44. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
45. صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج
46. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
47. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا

كتب عامّة مترجمة:

48. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
49. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
50. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
51. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
52. الصراع الطبقي في أفريقيا	ليو زيليج	أمريكا
53. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
54. يوميات صحافية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
55. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
56. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
57. الثورة التشيكية	مجموعة مؤلفين	التشيك
58. ذكريات الصين	تشين يو	الصين
59. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
60. الجري	ثور جوتاس	النرويج
61. عقول مريضة	دور درايسما	هولندا